د. سيف الإسلام بن سعود بن عبد العزيز آل سعود

@ketab_n
Follow Me
9.3.2016

طنين

رواية

الفارابي

د. سيف الإسلام بن سعود بن عبد العزيز آل سعود

طـــنـــيـــن

رواية

دار الفارابي

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

طنين

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الكتاب: طنين
المؤلف: د. سيف الإسلام بن سعود بن عبد العزيز آل سعود
الغلاف: فارس غصوب
الناشر: دار الفارابي - بيروت - لبنان
ت: 301461(01) - فاكس: 307775(01)
ص.ب: 3181/ 11 - الرمز البريدي: 2130 1107
e-mail: farabi@inco.com.lb

الطبعة الأولى 2006
ISBN: 9951-71-122-4

© جميع الحقوق محفوظة

تباع النسخة الكترونياً على موقع:
www.arabicebook.com

Twitter: @ketab_n

المحتويات

الإهداء 9

شكر 11

الرسالة الأولى: عودة للذكريات القديمة 13

الرسالة الثانية: أصل الأشياء 23

الرسالة الثالثة: رايات النصر... والهزيمة 37

الرسـالة الرابعة: انهيار دولة 65

الرسالة الخامسة: منفى 127

الرسالة السادسة: خيبـــات 209

الرسالة السابعة: نهاية حُزنٍ طويل 323

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الإهداء

...إلى خالد

إلى كل من لا يأخذ على محمل الجد، تلك الحتميات الساذجة، التي قيلت لنا: عن انقسام البشر - الدائم - إلى خيِّرٍ وشرير.. وإلى خائنٍ وبطل.

إلى كل من يستهويه عشق البحث عن ينابيع الشقاء، في داخل نفوس بعض الكائنات البشرية القلقة.

إلى كل المنقبين عن المصداقية في وقائع التاريخ المتناقضة.

إلى كل الجادين في سعيهم للوصول إلى حيث أماكن فرز خوافي الحقائق.. ومعلنات الأكاذيب.

إلى كل إعادةٍ صادقة ومتأنية لقراءة الماضي.

إلى كل هؤلاء... كُتبت هذه الرواية

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

شكر

الشكر كل الشكر لزوجتي وأبنائي على مساندتهم غير المحدودة وصبرهم الطويل.. عليَّ.

والشكر الجزيل لكل من ساعدني في إخراج هذا العمل الكتابي نسخاً.. ومراجعةً.. وطباعة.. ونشراً.. ونُصحاً.

وكثيرٌ من الشكر والصفح أقدمه (للجنود) المعلومين والمجهولين الذين حاولوا التأثير "سلباً" على روايتي الأولى، فلولاهم لما غمرتني تلك اللهفة العارمة لإخراج هذه الرواية للنور.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الرسالة الأولى

عودة للذكريات القديمة

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

نحن بنو الدنيا فما بالنا
نعاف ما لابدَّ من شُربِهِ

(أبو الطيب المتنبي)

مكة المكرمة، صباح يوم الاثنين 16 يونيو 1861م

يستحق هذا اليوم أن يكون عيداً عند رئيس نظامية شاهانية[1] ونائبه في منطقتي شرق وشمال الحرم المكي؛ ولِمَ لا وهذا اليوم يُعلن بمفاجأته السارة انتهاء تلك المهمة الرتيبة التعسة، التي كان يبدو لهما أنها لن تنتهي وقد تطاولتها السنون؛ ففي كل يوم كان يقوم المذكوران وحرسهما بما أوكله إليهم عمله شريف مكة (عبد الله باشا بن محمد بن عون) ومن قبله جميع زعماء الأشراف، الذين لا يغيب عن بالهم جميعاً، أن الوالي العثماني على الحجاز (كوتاهية لي علي باشا) لن يغفر لهم هفوة التغاضي عن مراقبة الأفندي النجدي العليل، المدعو (خالد بن سعود بن عبد العزيز بن محمد بن سعود).. ساعة بساعة.

تحركات (الأفندي) النجدي الذي عُرفَ بشكواه الدائمة من ألم الأذن غير المـُطاق، والمنعوت تبعاً لذلك من الأهالي بـ(أبي طنة)، كانت محسوبةً جداً، ويكتب من أجلها المحاضر الأمنية الكثيرة، التي تُرسل في كل أسبوع إلى شريف مكة أو نائبه في القائم مقامية، ومِنْ ثـمَّ للوالي العثماني في جدة.

... كانت تلك المهام جديرة باهتمام رئيس الدرك (موسى عبده) ونائبه (أبو الفرج أديب) في تلك الجهات من البلد الحرام، أول أيام

(1) نظامية شاهانية: رئاسة الدرك.

Twitter: @ketab_n

قدوم (خالد) للأراضي الحجازية سنة 1259هـ[1] هارباً من سُمعة الهزائم الـمُنكرة التي لحقت به وبجيشه في الأراضي النجدية، أما وقد مرت السنوات الطوال، ومهام المراقبة لهذا الرجل (الخامل) تتمُ على قدمٍ وساق - يومياً - وبدون فائدة واضحة لجند نظامية الشاهانة ومرؤوسيهم، فقد كان هذا مبعثاً للسأم العظيم وللإحساس بعبثية الأدوار الأمنية الـمُناطة بمركز الأمن ذاك.

... قال المساعد (أبو الفرج أديب) وهو يؤمن على صحة أقوال رئيسه المؤكدة أن العيد الأكبر (=الأضحى) جاء قبل أوانه بعشرة أيام:

' يا (أبا مريم)..! إنني أشعر اليوم وبرغم وطأة مهام مراقبة أمن الحجيج الـمُرهقة، وصعوبة القبض على لصوص الموسم، وبرغم الحمى التي غزت كل بيت في (مكة)، أشعرُ بأنني قد عدت من جديد شاباً، يملؤه حماس الانضباط الأمني القديم؛ إنني- مثلك - أجزم بأنَّ يوم وفاة (الأفندي) النجدي (أبي طنة)، الذي أتعبنا (الشريف) الأحشم بمراقبته والتجسس عليه خلال كل هذه السنوات الفارطة، هو يوم العيد الأكبر المتقدم ثُلث شهر قبل أوانه.. ويا للفرحة!

... كان بودي يا (أبا مريم) قبل هذا اليوم بسنوات أن أشرح للمروتلو (=صاحب المروءة) الوالي في جدة، ودولتلو سيادتلو (=صاحب الدولة والسيادة) الشريف، أن ما نقوم به يومياً لا فائدة منه ويدعو للضحك والانتقاص من عقل الإنسان؛ هل يمكن أن يكون الأفندي النجدي - هذا - صاحب سلطان سابق وأمارة وجيش؟! كيف اعتمدت عليه الدولة المصرية ونصبتهُ حاكماً لمدة ثلاث سنوات - كما قيل - في بلاد العربان؟! إنني وأنت لم نلاحظه إلا وهو يشكو من أذُنه أو يقرأ ويكتب.. والله ثم والله يا (أبا مريم) إن ابنه المدعو (مشاري) -

(1) الموافق لعام 1843م.

Twitter: @ketab_n

المتوفى قبل والده بأشهر قليلة - حسيرٌ على مُلكهم الزائل أكثر من أبيه، بالرغم أنه وُلدَ وعاش طريداً، ولم يرَ من أُبهة الحكم (المزعوم) شيئاً.. قليلاً أو كثيراً.

..على كل حال، ما أمرك التالي (سيدي) وقد أخذ الله وديعته.. وأراحنا!!"

أجاب رئيس الدرك (موسى عبده) وقد سره إذ اختصر عليه - كثيراً - نائبه ما أراد قوله بهذه.. المناسبة:

" بعد صلاة العصر لهذا اليوم، سنقوم بالصلاة على الميت في المسجد الحرام وإعلان اسم المتوفى بصوت مرتفع لعل أحداً من أقربائه يعلم بالحدث، ويُخبر بوفاته بدوره من يعنيهم أمره (غيرنا).. وأظنهم قليلين!

... لكن بعد هذا الواجب الديني استعد لمهمة لاحقة: كتابة إخطار بوفاة الأفندي، لسيدنا في مكة الذي سيرفعه لصاحب السعادة في جدة. سنكتب لهما - بالطبع - عما وجدناه في بيت الأفندي (خالد) من خِرقٍ ومواعين تخصه وابنه - وحاضنة الطفل - التي قدِمت معهما، في أول يوم وطئ الجميع فيه الأراضي الحجازية.. وكذلك كُتبه.

سنرسل مع إشعارنا هذا رسائل الأفندي (خالد) لبعض معارفه في مصر، وللآخرين القلائل في عاصمة مولانا (الآستانة)، وكذلك تلك الرسائل - القصيرة جداً - لأهل زوجته في الإحساء. أما أهم الرسائل التي كتبها مطولةً لصديقه في عاصمة العربان (=الرياض)، فسنُرسلها منفردة - لأهميتها غير الواضحة - في لفائف خاصة، لأن الشريف والوالي - أبقاهما الله - جِدُّ مُهتمين بتلك الرسائل أكثر من المُخلفات والمكاتبات الأخرى، ولقد حان الأوان بعد أن توفى صاحب (الأمانة) أن نعيد - أنا وأنت - فرز تلك الرسائل التي لا نعرف لِمَ هي مهمة

Twitter: @ketab_n

وجديرة باهتمام السادة الكرام، ولِمَ لم يأخذها منا - ولاة الأمر قبل هذا الأوان؟!."

طلب الفرز - ذاك - كان يعني حقيقةً لرئيس الدرك ونائبه، بذل جهد كبير في ترتيب الرسائل (المصادرة) حسب تواريخ إرسالها - المفترضة - من مكة للرياض، أما المـُبتغى الأهم الذي خجل الاثنان من نُطقه وحتى إن قاما في الواقع بعمله، فليس إلا قراءة متن الرسائل التي ظن صاحبها أنها وصلت إلى حيث أُرسلت!

كان الوقت مبكراً جداً على إرسال الجثمان من الشرشوره[1] للحرم من أجل أداء الصلاة عليه عصراً، ولهذا ففي مقدور الرجلين - وفي الوقت متسع - وبالرغم من صعوبة استنطاق بعض كلمات الرسائل للمسحة الفلسفية فيها، أو لنجديتها المغرقة أحياناً، أن يبدأا بقراءة الرسائل الثلاث الأولى.. والساعة تشير إلى السادسة صباحاً من اليوم الأول لشهر ذي الحجة لعام 1277هـ[2]:

يا (حمد بن محيمل):

بدأت الأقدار (حينها) تدفعني، مرة أخرى، لأعود إلى حيث كنت.. إلى أماكن الميلاد والصبا.. والحروب.

لقد أسرَّ لي بعض الإخوان بكلام فهمت منه، أن مؤرخاً في أرض الكنانة أشار إلى تلك البدايات..التي هي في حقيقتها نهايات، حيث قال مُختصراً ما لم أستطع اختزاله بهذا الشكل، لو أنني كنت مكان صاحب الإخباريات.. كتب الرجل:

"أعدَّ (محمد علي) حملة قوية تحت قيادة (إسماعيل بك)، أحد قواده، و(خالد بن سعود) لتنفيذ مهام في نجد، منها القضاء على سلطة

---

(1) الشرشورة: مصطلح يعني في الحجاز مكان غُسل وتجهيز الموتى.

(2) الموافق لشهر يونيو عام 1861م.

Twitter: @ketab_n

المدعو "فيصل بن تركي بن عبد الله"، وتنصيب خالد المذكور مكانه. بدأت الحملة تحركها صوب بلاد نجد في 1252هـ/ 1836م. . . أهـ"

على عجل كُتبت يا أخي (حمد) تلك الأسطر، لكن متى كانت الأوراق تخبر عن حقيقة ما جرى؟ وإلى أين لاذت قوافل الأعمار؟ أما آمال الناس، وكيف صُرعت؟ فلن يستطيع يا (أخي) تقديمها لمن يريد.. إلا أصحابها... لا تلك الأيدي التي تكتب ما جرى وكان.. حسب أهوائها.

... لقد نسيت يا (أبا راشد)!!

لم أبتدئ بـ(السلام عليكم ورحمة الله).. إني أقولها - الآن - في وسط الرسالة، معتذراً عما غاب عني، وكان يجب ألا يغيب. ولعلك، يا أخي، قد داهمك هاجسٌ مثل غيرك، بأنني قد نسيت طبائع المخاطبة ومباشرة الكلام بين المسلمين، وأن (تطبعي) المـُخل - هذا - والذي حذَّرتني منه أثناء صحبتكم في الرياض عندما نشبت تلك الحروب العبثية بيني وبين أبناء الأعمام (فيصل) و (عبد الله بن ثنيان)، قد تلبسني بقوة مرةً أخرى بعدما كدت أتخلص منه تماماً، وأنا أُسيطر على أنحاء كثيرة من (العارض). لكنني أقسم يا (أبا راشد) أنني مقيمٌ على وعدي لك وللآخرين - القلائل - الذين رأوا أن إنقاذ ملك الآباء والأجداد، وعودة الأمن والأمان إلى (الجزيرة) لا يتسنى إلا من خلال حاكم مثلي، له علاقة طيبة مع أهل القوة النافذين من سلاطين بني عثمان، بالإضافة إلى (ولاتهم) في بلاد الإسلام والعرب، وفي الوقت نفسه الذي يحمل هذا الحاكم لواء ميراث الدين والسلطان وشرف الأرومة؛ لك ولهم ولكل من أحبني وقاتل معي في سالف الأيام، أُعلمكم بأنني صائرٌ إلى حيث رغبوا لي من تخلقٍ كريم، وأن تصرفي وسلوكي لايزالان ينبعان من فلاليج الاستقامة وتلمس المعالي، وقبل ذلك، وبعده، من الإسلام الذي وُلدنا على هديه ونشأنا على فطرته.. إلا أنه (يتصادف) في بعض الأحايين أن

Twitter: @ketab_n

يشغفنا حُب السلام للإخوان من أمثالكم - كما لوعاتنا - إلى حد أن ينسينا هذا الشغف وتلك اللوعة، واجب الشروع عند كتابة الرسائل بـ(البسملة) وأن تتوسط أسطر أوراقنا تحية المسلمين، وأن تُختم أعمالنا ومُكاتباتنا بالشكر والحمد للخالق على السراء والضراء. ومهما يكن فـ(فهمكم) يكفي عن مزيدٍ من الاعتذار، لأنني أرغب أن أوفر جهدي ووقتكم الذي خصصتموه - مشكورين - لقراءة رسائل أخيكم، فيما هو أنفع لإيضاح حقيقة (النكبة) التي أبتليتُ بها. وتلك الهزائم التي لحقت بالآمال العريضة التي تقاسمناها سوياً. ويعلم الله أنني أبذل جهداً كبيراً في كتابة رسائلي وتنقيحها، رغم البعوض والأجواء الحارة في (مكة المكرمة).. شرفها الله. تلك الأنحاء التي لن أنسى أجواءها الروحية التي ألبستني أدثرة الاطمئنان والسلام الداخلي، رغم ألم النفس، وعذابات الشتات، والحمى التي تزورني بين وقتٍ وآخر،مصحوبةً بـ(طنين) الأذن- المعلوم لديكم - الذي يفقدني الاتزان كلما حدث. ولا يفوتني في رسائلي أن أحمد ربي أنني أعيش بين ظهراني أبناء مكة الطيبين والذين لا يبخلون على (محبكم) بصدقة الزاد والنقود التي لا يملكون الكثير منها.. طيب الله فعلهم وزادهم من فضله! أقولها وابني (مشاري) يؤمن على هذا.

أما الآن.. فأستميحك عذراً في الإمساك عن مواصلة الكتابة والشرح والإفهام؛ لأن (طنين) أذني الذي لا يبارحني منذ كنت يافعاً يعاودني الآن وبشكل غير مسبوق؛ ولأنَّ دقاتٍ على باب بيتنا الصغير المطل على (الزقاق)[1] الرئيسي في شعب عامر، يسمعُ عُنفها جارُنا البعيد السابع.. وإني لأظُنه صاحب المنزل الباحث عن (الكروة)[2] التي طال انتظاره لها!

---

(1) الزقاق : الشارع بلهجة بعض مناطق الحجاز.
(2) الكروة : الأجرة.

Twitter: @ketab_n

.. عذراً أخي (حمد)... انتظر رسالتي التالية..!!

كُتبت هذه الرسالة في منتصف شهر صفر سنة 1277هـ.

(خالد السعود)

ملاحظة لابد من الإشارة إليها:

لعلكم يا أخي (حمد) تتعجبون، كيف أني كتبت لكم هذه الرسالة التي ستتبعها - إن شاء الله - رسائل أخرى، بعد أن ظننتم[1] أن أخاكم قد نسيكم أو غفل عن واجب الصداقة والأخوة والمحبة التي ربطت بين روحينا في سنوات المحن، ولإزالة هذا التعجب، أقول لكم يا (أبا راشد) - بعد القسم بالله - إنكم لا تزالون حاضرين في ذاكرتي وفي أعماق نفسي، لكن حواجز كثيرة أقامت سداً منيعاً لِما أردتُ تحقيقه، فقد قيل لي إن رسائلي السابقة التي حاولت كتابتها منذ سنين خلت، قد روقبت من قِبل (عيون) شريف مكة (عبد الله بن محمد بن عون) والشريف الذي قبله (عبد المطلب بن غالب) والمدفوعين بتصرفهما ذاك بما كانا يعرفانه من رغبة جهات عديدة في معاقبتي بأشكال كثيرة من العقاب، تأسيساً على ما تظنه تلك الجهات تخاذلاً مني عما أرادت تحقيقه من (خلالي) على حساب بني موطني وبلادي، ولا أُعفي ظروفي الصعبة وبؤس حالتي وعجزي المتعاظم، عن تلك الانقطاعات الطويلة لأحب الممارسات إلى قلبي: بث شجوني لك.. وإن على ورق!

* * *

(1) لعلكم.. تتعجبون.. ظننتم: كلمات لا تعني الجمع، بل التقدير المبالغ فيه.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الرسالة الثانية

أصل الأشياء

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

إنَّمـــــا الـنَّـــاس سـطــــورْ
كُـتِـبَـتْ.. لـكــن بـمَـاءْ

(جبران خليل جبران)

بسم الله الرحمن الرحيم

أخي المبجل.. (حمد بن محيمل)..

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته:

رسالتي الثانية لكم، يا (أبا راشد) التي تلافيتُ فجاجة مقدمة سابقتها، ستكون مطولة نسبياً، فأرجو منك الصبر على قراءتها:

بجانبي جارٌ له صوتٌ رخيم يتغنى بأبيات من الشعر النجدي، مشاري (الابن) ينوي سردها لي؛ لأنني كما تعرفون، مهمومٌ بأفكار هذه الرسالة زيادةً على همي المزمن المقيم؛ جارنا الحزين، يستحق أن أورد أشعاره في رسالتي هذه، بعد أن اختار منها ما يناسب حالي، وملكة الحفظ عندي التي بدأت - لأسباب عديدة - تضمحل، اضمحلال ما امتلكه من نقود.. إن كان ما بقي منها يدخل في مُسمى الملكية والتملك!

يا ربي..! كيف وصلت بي الحال إلى حد إشارتي، ولو لصديقي الصدوق غير القادر على النجدة.. بأنني معوز؟ خزائنه مملوءة (فقط) بالذكريات المؤلمة التي لا يعرف قيمتها، إلا كتبة التاريخ، الحريصون على إشهار ثرواتهم الغريبة، التي تُكونُها مآسي البشر - من أمثالنا - جعلك الله من الأسماء التي تخلو كُتبهم البائسة منها!

... إليك يا (حمد) بعضاً من تفسيراتي لمجرى تاريخ بلادي والتي عايشتُ شخصياً بعضاً من مجرياته، مع العلم أن هذه الرؤى لم أستطع

Twitter: @ketab_n

أن أبث أغلبها لك أثناء مُجالساتي معك تحت سقف هذا البيت الطيني (الرياضي) أو ذاك. أو عندما كنا نتفيأ ظلال نخيل حيالة[1] فلان أو علان، لا لأنني كنت أشك في مقدرتك على تفسير الوقائع وتوابعها. ولا لأن هاجساً طوافاً قد مر على خاطري بأن صبرك ذو معين أنضبته أجواء محيطكم غير القادر على الاستنباط والتحليل.. لا. لم تساورني تلك الظنون البتة، لأنني أعرف أنك سليل أسرة نجدية عُرفَ عنها حب العِلم بمطلقه، وتلقيه خلال أسفارهم للهند وأرض السواد في العراق. إنما حال بيني وبين مكاشفتكم وبوحي لكم -آنذاك - بما يعتلج في نفسي، الحوادث التي لا تنتهي في نجد: القتال المتبوع بقتال، والأمير الذي يُجندل رأسه لينصب رأس أمير بديل عنه. وقد تقول إن هذه الأعذارَ واهيةٌ، فبلاد نجد هي بلاد نجد منذ القِدم، وحُب أهل المشرق عموماً لسفك الدماء و(التسلطن) باقية على حالها. وفي قولك هذا صدقٌ وافر، فكِلانا يعرف خصائص أمة العرب وأهل الملة، لكنني عندما أتعجب من حالة الانفلات في عواطف أهل الديرة[2] فلأنني كنت أعتقد بأن البلادَ النجدية.. بل وكل الجزيرة العربية، قد عادت إلى أزمنة الإخاء والأمن والسلام، ولِمَ لا ودعوة الشيخ (محمد بن عبد الوهاب) - رحمه الله - ومؤازرة الجد[3] الأمير، كانتا تهدُفان لا إلى تطهير أرض الإسلام من البدع والخرافات بجميع صورها وأشكالها، ولا لإعادة روح الإسلام النقية المستمدة من القرآن والسنة النبوية، ولا للدفاع عن الشريعة الإسلامية حسب مفهوم (الشيخ) و (الأمير)، ضد المذاهب

---

(1) حيالة: أي بمعنى مزرعة بلهجة أهل نجد.

(2) الديرة: أي بمعنى مواطني تلك البلاد.

(3) المقصود هو أمير الدرعية آنذاك وجد الأسرة السعودية المالكة حالياً (محمد بن سعود بن محمد بن مقرن).

Twitter: @ketab_n

والأفكار الإسلامية الأخرى، المُغرقة في تصوفها أو فلسفتها وتأويلاتها المناقضة لرؤى السلف.. فحسب، الأمر الأكثر أهمية - في اعتقادي - من (تحالف) الدعوة والسيف، ومن كل ما ذُكر آنفاً على ضخامته، هو إعادة الأمن إلى تلك الديار التي خرجت منها الدعوة الإصلاحية للشيخ أول مرة. فهل يمكن - عقلاً - تفهم كيف يرجع الناس إلى ما كان عليه عهد نبيهم (عليه أفضل الصلاة والتسليم) وخلفائه من بعده - رضوان الله عليهم - وعهد الصحابة والتابعين الكرام، دون أمن وسلام مُتفشٍ بين الجميع؟ مَن الذي يمكن أن يتخيل أن آمراً بالمعروف وناهياً عن المنكر من أهل الحسبة في سنةِ خروج دعوة الشيخ إلى العلن، ونُصرة جدي الشهيرة لها وله في سنة 1157هـ[1]، كان يمكن أن يمر على مشهد سلبٍ ونهب من قويٍ ضد ضعيف، ثُمَ لا يُبالي سوى بسلامة إيمان وسلفية الطرفين لا بمظلمة أحدهما؟ الأمر لا يستقيم يا (حمد) ألبتة! أنت علِمتَ وقرأتَ - بلاشك - المعاهدة الشفهية بين الشيخ والأمير عند قدوم الأول للدرعية، لقد قال (ابن عبد الوهاب) لجدي - رحمهما الله - قبل أكثر من مئة عام من رسالتي هذه، تلك الجـُمل الشهيرة التي يحفظها عن ظهر قلب أهل نجد المحبون منهم والكارهون على حدٍ سواء.. قال ما تذكُرهُ وأذكُرهُ أنا:

"أبشر يا (محمد بن سعود) بالعز والتمكين والنصر المبين، فمن عمل بكلمة التوحيد ونصرها، ملك بها البلاد والعباد، وأنت ترى نجداً كلها وأقطارها أطبقت على الشرك والجهل، والفرقة، والاختلاف، والقتال لبعضهم البعض، فأرجو أن تكون إماماً يجتمع عليه المسلمون وذريتكم من بعدكم."

مُبهرة تلك الكلمات يا (حمد).. أليس كذلك؟ نعم مبهرة، لكن

(1) الموافق لسنة 1744م.

Twitter: @ketab_n

أهم ما فيها ذكر الشيخ لحالة الفرقة والقتال بين أهل الجزيرة بعضهم لبعض، وغير ذلك تحصيل حاصل في نظري! فالشيخ قد عُرف عنه دعوته للإخلاص في التوحيد والربوبية، والعودة إلى مجتمع الطُهر المحمدي، أما الجديد في الأمر، فليس إلا وضع يده في يد القوي الأمين، اليد ذات البطش بمن أراد سفك الدماء وتخويف الآمنين، مثلما هي باطشة حين تفتح أبواب المدن والقرى عنوةً لركائز دعوة الشيخ.

كيف عاد الناس بعد هذه المعاهدة العظيمة يقتل بعضهم بعضاً؟ بل كيف جازَ الاقتتال بين أبناء عم أحد أطراف المعاهدة الشهيرة وكأنها لم تترك صدىً ولا أثراً؟ كل تلك الأسئلة وإجاباتها المفقودة أدت إلى تشريدي ولفيف من (الأسرة) إلى مصر والآستانة، وأدت إلى عودتي المتسرعة - المملوءة بالرغبة الخيرة غير واضحة المعالم - مرة أخرى إلى الأرض التي منها جذورنا؛ وأدت إلى هذه الحالة التي يعيشها أخوكم الملتمس عذركم في انقطاع رسائله عنكم، حسب ما وعدكم وهو يغادر (الرياض) للمرة الأخيرة!

إنني يا (أبا راشد) أبتعد في كل مرة أريد أن أسرد تلك التفسيرات الموعودة مني حول ما جرى وكان.. فاعذرني! ما أريد قوله في هذا الشأن كثيرٌ كثير، وما في الصدر يكفي لأسفارٍ وليس لرسائل قد تصل ولا تصل. وإن وصلت فقد تمر قبل وقوعها في يدي المتلهف لقراءتها، على رقيب متربص، أو مبغضٍ لم يزل يأكل من عداوته القديمة، فيزيد ويطمس ما في الرسالة، مع أنني متأكدٌ أن في كنانتكم سهام معرفة تفرقون فيها بين المتن والحاشية الدخيلة:

كنت (أخي) قبل أسطر أشير إلى (المعاهدة)[1] التي تبدلَ وجه

(1) المقصود هنا: المعاهدة التي جمعت الشيخ محمد بن عبد الوهاب كطرف يحمل لواء الدعوة السلفية، والأمير محمد بن سعود، أمير الدرعية كحاضن ومدافع عن تلك الحركة الدعوية الإصلاحية! عقدت المعاهدة المذكورة في عام 1744م/ 1157هـ.

Twitter: @ketab_n

الجزيرة بعد إبرامها؛ لقد ألمحتُ إلى أهداف التحالف الخير القديم ذاك، وما عِلمه الناس - من بنوده - وما خفي عنهم لِعلةٍ أو لأخرى؛ ما أريد قوله بعد كل هذا هو استنباط صياغات معينة من العهد المشار إليه. (بالطبع) لا ألمح هنا لظاهر بنود العهد ولا ما تحقق منه وما لم يتحقق، بل إلى التأويل الآخر، الذي سيقودني ككاتبٍ صاحب قضية، صوب الإجابة عن السؤال الأهم: لماذا أنا هنا.. في مكة المكرمة.. شريداً.. مُعوزاً.. أضاجع الأسقام في كل لحظة، وليس حاكماً في (الرياض) يأمرُ وينهي وينادى باسمه بعد تقطيع أعناق الخصماء؟

الإجابة وحسب ما وقر في نفسي تكمن في عهد التعاون بين الشيخ والأمير نفسيهما! قد تعجب من قولي هذا لكن ستجد في تخريجاتي الآتية ما يمكن أن يزيل بعضاً من ظنونك بأن عدم التوازن و(طنين) الأذن قد أثرا على مقدرتي في الحكم على الأشياء وقراءة صفحات الأيام:

ألم تفطن - مثلاً - إلى كلمات أحد أطراف التحالف الشهير ماذا قالت؟

تقول مختارتي من مرويات المعاهدة: "مَن عمل بكلمة التوحيد ونصرها، مَلَكَ البلاد والعباد." وتقول مقاطع أخرى: "فأرجو أن تكون إماماً يجتمع عليه المسلمون وذريتكم من بعدكم." هذه الكلمات والعمل بها - كما حدث بالفعل - عظيمة جداً. أدت إلى ما لا يمكن تخيل حدوثه في جزيرة العرب.. لو لم تكن هناك همة الرجلين وصلاحهما وحُسن طويتهما. لكن ماذا سيحدث بعد ذلك؟ وكلمة (بعد ذلك) يمكن أن تُحسب بعقد من الزمان أو بخمسين سنة أو بقرن! ماذا سيحدث إن توسع الملك الديني إلى حد اصطدامه بالملك الدنيوي للأقوياء الآخرين؟

ماذا لو أنَّ أحد الأطراف أخل ضمناً أو علانيةً ببنود الميثاق والعهد؟ وماذا لو تبين لأحد أطراف العهد أو كليهما أن آخرين يدّعونَ

Twitter: @ketab_n

أنهم يعملون بكلمة التوحيد، وأنهم يقومون بنُصرتها، وأن الشيخ والأمير أو مَن يأتي من أعقابهما ليسوا مُخولين بالانفراد بمهام فرز من هو مسلمٌ حقاً ومن هو كافر، وما بينهما من طوائف أخرى مثل المرتدين والمنافقين والمعطلين؟ ماذا لو أعلنت طائفة مُستجدة الحرب على أطراف الميثاق، بحجة خروجهم من مقتضى الإسلام الأعم والإيمان الأخص؟!

لقد طرحتْ يا (أبا راشد) الأيامُ السؤال الأول، وأجابتْ عنه الوقائع عبر حملات (الغُرباء) على العاصمة القديمة[1]. (إبراهيم باشا) وأخوه (طوسون)[2] من قبله ذكرا والدي الإمام (سعود بن عبد العزيز) وأخي الشهيد (عبد الله بن سعود) بأن لتطلعاتهم نحو الملك والسلطان حدوداً؛ وأن الدين على طريقة (بني عثمان)، ودعوى الخلافة المحصورة في حكام الأستانة، (حُجتان) بإمكان السيف التركي المدعوم بشرعية الواقع أن يشهرهما في وجه كل صيحات الإصلاح وحركاته، حتى لو تدثرت بالدين - إياه - تلك التململات الإصلاحية، وحتى لو أعطت الحجج الصحيحة على غرائبية دين (بني عثمان) المتأخرين، والذين قذفوا ببعض أراضي سلطانهم في قيعان الجهل الديني والدنيوي على حدٍ سواء.

... في الواقع يا أخي (حمد) أنَّ الروم[3] لم يكونوا وحدهم من وجِلَ من قوة سلطان آبائي وأجدادي، بل كان أيضاً هناك الخوف المعروف و - المفهوم - من قِبل أُمراء نجد وما حولها تجاه دعوة الشيخ الإصلاحية الدينية. كان هؤلاء الأمراء من مثل حكام الإحساء والقطيف

---

(1) المقصود هنا الدرعية.

(2) إبراهيم وطوسون: هما أبناء والي مصر (محمد علي باشا) وقاما بتوجيه من أبيهما بمهاجمة الأراضي النجدية وما حولها.

(3) قديما كان يطلق أهل نجد على الأتراك لفظ.. (الروم) وإن لم يكن هذا على الدوام.

Twitter: @ketab_n

والرياض والعيينة يخافون من تحول دعوة الشيخ من تطهيرٍ للعقيدة مما دنسها، إلى سلطان قاهر ينافسهم على تحصيل أتاواتهم من رعاياهم، أو أنه سيقتنص (الجنيهات) القليلة التي يدفعها لبعضهم (الصدر الأعظم) في الآستانة. ولعلك يا أخي (حمد) قد سمعت من أقوال كبار السن (لديكم) في الرياض تلك الأقوال المنكرة والتي أُرجح بعضها، بأن (بعض) علماء نجد قد وقفوا أيضاً ضد دعوات الشيخ الإصلاحية، ومنهم إخوة للشيخ الجليل... وإن صحت تلك الأقاويل، فلأنني أُرجع ذلك، لتوجس المعنيين (الطبيعي) من شهرة الرجل، التي ستتعاظم على حساب شهرة الـمُشاركين - عبر علمِهم الديني الضعيف - في حالة التردي العقدي آنذاك.

إنها إذاً.. يا (أبا راشد)، مسألة خوف على السلطان والمكانة والفتوى، لقد هاب الجمع المتنفذ في نجد حينها وبشكل غريزي، تلك المعاهدة الشهيرة التي عُقدت في بيت (ابن سويلم)[1]. وعدُّوا حلف الأمير مع الداعية، إعلان حرب عليهم وعلى ما يمثلون. وفي الجانب الآخر كانت دعوة الشيخ (محمد) وسيفها السعودي تعُدان مَن يخالفهم، عدواً للدين، ولِتوسع الخير على حساب الشر، ولرفع بناءات الإيمان على أنقاض الكُفر والبدعيات. وعندها كان لابد من الصدام المسلح الذي سيُدعى جانبٌ أنه دفاعي ضد بدعة دينية جديدة، وحركة مسلحة مساندة لهذه البدعة؛ ويُدعى الجانب المضاد، أنها لازمة لتحقيق معاني كلمة (لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله). ولا ضير عند الدولة العثمانية أن يتداعى الأقوام النجديون بعضهم ضد بعض، مادامت حروبهم البائسة - في نظرها - تقع ضمن أراضيهم القاحلة المجدبة، لكن

(1) هو عبد الله بن عبد الرحمن بن سويلم.. من الأعيان القاطنين في الدرعية وقتها وأول من استضاف الشيخ في البلدة القديمة.

Twitter: @ketab_n

أن تتعدى مخاطر الحروب، وتبعات انتصار فريق على فريق حدود أراضي الأعراب، إلى أن تصل إلى ما تُمثله الحجاز من قيمة دينية دعائية لدولة (السلاطين والصدور العُظماء)، فذلك أمر آخر يتوجب أن تتخذ الآستانة حياله موقفاً قوياً، يبعث برسالة لحكام الدرعية.. تقول: قفوا عند تخومكم - وإلا - جاءت عساكر التُرك، أو عساكر ولاة التُرك.. فاختاروا!

... اختار يا أخي (حمد) آبائي وأجدادي خيار (إلا) الحارقة تلك، ولم يكن هذا الاختيار فجائياً أو عبثياً، لكنه جاء مترتباً منطقياً لصغر ما تمثله الدرعية وما حولها، ولأن الدولة الموعودة بشكلها البركاني، القاذفة حِمماً دينية تحرق أعداء الله المخالفين - حسب مفهومها - كانت تحتاج لموارد اقتصادية وتموينية موجودة في ديار أهل البدع الآخرين!

ماذا لو أخلَّ أحد أطراف المعاهدة ببنودها؟ ماذا سيحدث عندئذ؟ هذا السؤال طرحته في منتصف رسالتي هذه. ولأنه لم يحدث (حتى الآن) فلن أجيب عليه، وسأترك للتاريخ فرصة إعطاء الإجابة للمتلهفين لهتك أسرار المستقبل، على أنني لا أظن أن أحداً من أطراف العهد والميثاق قادرٌ على الإخلال به أو بأحد بنوده، ففي ذلك مهلكة لمشروع أقامه السلطان الديني ونسفاً لبنائه، وسحباً لكل تلك الهالة من الاكتمال التي أرعبت الفرقاء الآخرين وأخرستهم.

ستختبر سلالتك يا (حمد) صحة ما أقول، أو نقيضه الذي لا يمكن أن يزيحه من احتمالية الوقوع.. العقلاء!

يبقى سؤالٌ آخر لا يقل أهمية مما سبقه من أسئلة: هل يمكن أن يُزايد مندفعون جُدد نحو الطهارة الدينية، على كل تلك التأكيدات بالمثالية العقَّدية والتي وردت في المعاهدة الشفهية ذات المضامين الشهيرة؟

Twitter: @ketab_n

... بالطبع سيحدث مثل هذا، لأن التاريخ الإسلامي الأول دليل واضح على المزايدة بين الطوائف على كمال دين هذه ونقص عقيدة تلك، بل إن بعض الصحابة الكرام اختلفوا في (سقيفة بني ساعدة) على من منهم الأمير بعد وفاة رسول الـهُدى (عليه أفضل الصلاة والتسليم). هذا في شأن الرئاسة وقيادة الأمة، أما في صحيح الإيمان وما يرافقه من عمل الجوارح، فلدينا مثال (أبي ذر الغفاري) وأتباعه - رضوان الله عليهم - عندما اعتقدوا أن (آخرين) ممن صحبوا الرسول صلى الله عليه وسلم وتبوءوا كراسي تصريف شؤون الأمة، لم يحسنوا القيام بمقتضيات الأمانة وما أوكل لهم. إن حدث هذا في أيام (خير القرون) فما بال أفسدُ القرون؟!

حركية الإسلام الدائمة، ونزوع أقوام من أتباعه إلى اعتبار أنفسهم جماعة المسلمين وليسوا جماعة من المسلمين، وأنهم المؤمنون وغيرهم مجرد متمسحون بالدين، سيجعل احتمالية مُشاهدة (سلفي) يُنادي بأعلى صوته: بسقوط حلف الشيخ و (الأمير) وما يرمز إليه، وبأن إسلام الدرعية إسلامٌ مُداهن منقوص.. احتمالٌ واقعي ملموس! وسيتاح لمعاصري الأزمنة القادمة - على الأرجح - رؤية دُعاة ينادون باعتناق أفكار عقدية أكثر تشدداً، مما يراه الناس (الآن) في دعوة الشيخ ومسانديه، وقد يأتي حينٌ من الدهر يزعم فيه ابنٌ للطرف المحارب في المعاهدة أن ابناً آخر غير كُفوءٍ دينياً لقيادة الطائفة المنصورة، ووقتها ستتّبع تلك المزايدة والادعاءات، رغبة مُلحة في إقصاء الحاكم الـمُدعى عليه، ولا ريب أن أحفاد الشيخ وحاملي الجانب الدعوي من بعده سيحاولون رأب الصدع، لكنهم في آخر المطاف سيختارون القوي الأمين، وسيزيحون المؤمن الضعيف! وبمعنى آخر سيدخلون حلبة الصراع داخل البيت السلفي، بعد أن كانوا مرشدين - فقط - لحروب أهل التوحيد ضد المناوئين المجاورين، أو مَن كانوا في الجوار ووراء

Twitter: @ketab_n

الأقاليم. كل ذلك سيتم إن نحن عرفنا - فقط - خاصية الثورة والحركة في الإسلام، مبتعدين عن التخريجات المستعجلة حيث ملعب الجهلاء المفضل؛ ولعل ما يحدث الآن، وتصلني أخباره، بين (عبد الله) و (سعود) ابني ابن العم الأمير (فيصل بن تركي)[1] يثبت ما أقول، كما سيثبت غيهوب[2] السنين التي ستأتي مسرعة، الدليل وراء الدليل لمن أراد حُجةً واعتباراً.

كل ما قلته هل يشفي غليل حب المعرفة، وتحليل ما وراء مظهرية الوقائع والأحداث لدى أخي (أبي راشد)؟ لستُ متأكداً من هذا! ولهذا عليَّ أن أجد في سير سرد الأحداث - كما أفهمها - تلك الأحداث التي أطالت بكائية لياليَّ، وألقت بظلها الكئيب على الروح الطاهرة وحاملها.. ابنكم (مشاري بن خالد)، والذي أرى عوده الشاب الريان يذوي أمامي يوماً بعد يوم خوفاً على والده ونفسه، وحسرةً على ما فات، ويأساً من القادم الذي لا يبشر إبكار فجره بخيرٍ ألبتة.. والسلام ختام.

كُتبت هذه الرسالة في الأول من شهر ربيع الآخر لسنة 1277هـ.

(خالد السعود)

ملاحظة يجب الإشارة إليها:

أعرف أن أخي (حمد) شديد الذكاء والألمعية، عندما يرغب - افتراضا - في أن استمر في تجاهلي لسؤال كان لابد من طرحه: لماذا لم يحاول أخي في (الرياض) الذي لم تلده أمي، أن يبعث برسالة لأخيه

---

(1) فيصل بن تركي بن عبد الله بن محمد بن سعود ابن مؤسس الدولة السعودية الثانية في عام 1824م/ 1240هـ.

(2) الغيهب: الظلمة الشديدة.

Twitter: @ketab_n

ببكة، يستقصي فيها عن أحواله؟..هل تسمح لمحبكم في الإجابة بدلاً منكم؟!

الواضح أنكم حاولتم ذلك مرات كثيرة، ونمى إلى علمي أن رسائلكم التي ترسلونها لي مع أهل نجد القادمين للحج أو العمرة، تتم مصادرتها من قِبل درك (الشريف) الذي لا يريد حدوث متاعب جديدة مع (فيصل بن تركي)، حتى وهو يعرف أن الرسائل بيني وبين من أحب في (الرياض)، مُجرد مُكاشفة واعترافات مُتأخرة!

أعرف يا (أبا راشد) أنكم لم تقصروا في السؤال كتابياً عني، وأعرف أن مرض الفالج الذي أصابكم بعد سنتين من مغادرتي للرياض أقعدكم عن المجيء للبلد الحرام، وملاقاة من يكِنُّ لكم محبةً وتقديراً لا يوصفان.

... وقبل أن أختم رسالتي الثانية لكم، التي أتحايل على (مرتزقة) الشريف ألا تقع في أيديهم، أورد لكم الأبيات ذات المغزى التي تغنى بها صوت جارنا النجدي، وقدمها (لنا) مشكوراً الابن (مشاري) في اللحظات الأخيرة من كتابة هذه الرسالة:

الهم والله لابة سنّدو فوق ... دونك منازلهم عفتها الرياح

يا زينهم لا استجنبوا كل صعفوق ... يتلون براق ورا الصلب لاح[1]

... واسلم

(1) أبيات من الشعر النبطي فيها حنين للأراضي النجدية من شعر (راكان بن حثلين) زعيم قبيلة العجمان والمعاصر للسنوات الأخيرة من عمر بطل الرواية (خالد بن سعود).

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الرسالة الثالثة

رايات النصر... والهزيمة

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

إذا أردت أن تُصيب غرضاً، فكن كأحذق الرماة تصويباً. وأعلم أن ربان السفينة لا يبلغ المرفأ الأمين إلا إذا ساير الريح.

من أقوال الحكيم الفرعوني
(بتاح حُتب)

بسم الله الرحمن الرحيم

أخي المبجل (حمد بن محيمل):

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته:

قليلون جداً هم الذين اعتقدوا - والدولة السعودية المغتالة تُجندل أعداءها وتفتح البلدان والقصبات البعيدة - أنها يمكن أن تُصاب بنكبة الغزو الخارجي المدعوم داخلياً من بعض الأطراف الكارهة لدعوة الشيخ الإصلاحية وسيفها السعودي المرعب، وأنها وهي تُصاب بتلك النكبة إنما تُنهي فصلاً مأساوياً من كتاب خطة قدر هذه الجزيرة.. أو بالأصح أنحاء كثيرة من هذه الجزيرة.

كتاب الحياة هذا، في رأيي الشخصي يا (أخي)، تتوزع فصوله على مساحات واسعة من صفحات الدهر، ومداده دماء وعرق واستقرار - أو اللااستقرار - مجاميع البشر في الأنحاء التي خُطت فيها صفحات الكتاب القدري.

القليلون الذين أشرتُ لهم آنفاً هم - في رأيي المتواضع - العقلانيون، في مقابل الأغلبية التي رأت أن رايات الدولة السعودية، لن تتوقف أبداً الأيدي التي رفعتها، حتى يراها ويخضع لها أهالي أمصار

Twitter: @ketab_n

أقصى الأمكنة التي وصلتها حوافر خيول الدولة الإسلامية في عهد الأمويين!

لقد غذّتْ في البداية يا (أخي) تلك الانتصارات السعودية السلفية الباهرة التي تشبه الفيضانات العارمة، هذا الاعتقاد الذي لم يُقمْ إلا على أرضية أحلام المثاليين المتدينين الذين عُرف عنهم دائماً تبشيرهم الدائم بالأرض التي تُملأ بالعدل والمؤمنين، بعد أن مُلِئت بالظلم والكافرين، حتى والحقائق الملموسة والمعاشة التي يصنعها الناس وتخلقها نوازعهم تقول: إن الخير والشر يمكن أن يوجدا سوياً في الأرض والأزمنة نفسها، كما هو حال الجور والإنصاف، وأن مسألة غلبة أحدهما نهائياً واستسلام الآخر ما هي إلا أسطورة.

في إرهاصات أزمنة الاعتقاد بحتمية انتصار جيوش الدرعية التي ستؤسس مُلكاً إسلامياً خالصاً، ولدَ (أخوكم) في سنة 1216هـ[1]. وتلك السنة كانت غير عادية - على الإطلاق - في عاصمة الحكم الإسلامي السلفي الجديد (=الدرعية).. هل تعرف (أبا راشد) لماذا؟ لأن الجيش السعودي اجتاح (كربلاء) و (النجف) في العراق، واجتاح معهما سمعة الخلافة العثمانية، التي تلقت قبل ذلك بثلاث سنوات - تقريباً - ضربة مُوجعة لشيخوختها في مصر، عندما دخلت خيول الفرنسيين الأزهر الشريف، برغم دفاع صنائع العثمانيين (المماليك) المستميت عن أرض الكِنانة، العابثين فيها فساداً لعدة قرونٍ مضت!

معارك جيوش آبائي، أثارت في سنة مولدي - وحتى قبل ذلك - الفزع في عاصمة الخلافة، حيث وردتها أنباء متوافقة عن مدى قسوة القادمين من الصحراء، والحاملين معهم آمالهم بخلافة إسلامية (حقيقية) غير خلافة (بني عثمان)، التي أخذت تستسلم - حسب رأي الموحدين -

---

(1) الموافق لعام 1802م.

Twitter: @ketab_n

للكفار من أتباع الديانات الأخرى، التي يجب أن تزول؛ لأن دين الله قد ٱختزل في واحد.. هو الإسلام خاتم الرسالات السماوية وصفوتها.

رأيي المتواضع الخاص يا (أخي) كان يقول لي.. ولايزال: إن جيوش الدرعية في ربيع السنة التي وُلدت فيها، لم تفعل ما فعلته في أراضي العتبات المقدسة الشيعية بالعراق، لِتُقيم من خلال الرعب والفزع اللذين سمعت عنهما كل الأقطار الإسلامية والأجنبية، ما اعتقده الآخرون أنه إشادة جديدة لصرح دولة إسلامية تماثل دولة الرسول (صلى الله عليه وسلم) في المدينة المنورة. الأمر - حينها - كان أكثر بساطةً مما تصوره هؤلاء (الفزعون)؛ لأن الدرعية وقد وفد عليها طلاب العلم السلفي من أقطار العالم الإسلامي، للاستزادة من مناهج الإصلاح الديني الذي قام بنشره قبل ذلك بسنوات الشيخ (محمد بن عبد الوهاب) - رحمه الله - كانت تعلم بواسطة طلاب العلم (الـمُخبرين) بأن هناك مراكز اعتقاد أخرى عند طوائف أخرى تدعي إسلاميتها - حسب مفهوم فرز الطوائف عند السلفيين - وأن هذه المراكز تستقطب زواراً يماثلون حجاج البيت الحرام في مكة، في خشوعهم واعتقادهم. وأن هذا السلوك يُفرد لأهل بيت الرسول (صلى الله عليه وسلم) وأنه يصل إلى حد الشرك بالله؛ ولهذا حثَّ طلاب العلم (المخبرون) وخاصةً القادمين منهم من الأطراف الجنوبية للعراق ومن غرب البحر[1]، حكام الدرعية - بعد أن أوغروا صدور العلماء - على مهاجمة أماكن الرافضة[2] - كما كان يطلق عليهم - حيث تُنصب هناك البدعيات والشركيات الصغرى.. وحيث تحفظ كذلك الأموال والكنوز التي ينذُرها مُتبعو تلك الطائفة،

(1) يقصد غرب الخليج.

(2) الرافضة: مصطلح يُقصد به الشيعة عموماً - عند بعض السلفيين - والذين يرفضون خلافة الشيخين ويثبتون خلافة (علي) رضي الله عن الجميع.

Twitter: @ketab_n

لأهل البيت الكرام، من أجل مرضاهم وأمواتهم وعوانسهم؛ ويؤكد وجهة نظري تلك، ما قام به جيش والدي - نيابةً عن جدي - عند مهاجمة مكة و(فتحها) بعد أقل من سنتين تقريباً من مولدي، حينها فعل الجيش السعودي نفس ما فعله في النجف وكربلاء، بدون أن يحسب لـ(سُنة) أهل مكة حساباً.

الأمر الذي يهم السلفيين المحاربين في تلك الأزمنة، كان إزالة البدع ومظاهر الشرك عند الشيعة والسنة دون تفريق، أما الأموال عند الحجر النبوية أو العتبات المقدسة فإنها تصبح حين تتغلب صيحات التوحيد القادمة من الدرعية، مِلكاً حلالاً للمنتصرين لله ورسوله!

وعلى هذا فكل المراقبين - وما أكثرهم! - كانوا يُرجعون أسباب ما يحدث في الدرعية إلى نوازع أخرى غير هبات التطهر الديني، ورغبات العودة إلى ما كان عليه السلف الصالح، بل إلى ما هو أبعد من هذا: تأسيس دولة إسلامية شابة ذات أبعادٍ حركية لا يمكن ردعها بسهولة... ما لم يبادر من يستطيع المبادرة، إلى مناجزة هؤلاء العربان في داخل جزيرتهم.. بل وعند أسوار بلدتهم القديمة وعاصمة حكمهم، قبل أن تتحقق أحلامهم وتنتشر أفكارهم.

لقد قرأت يا (أخي) في ديوان (همايون قلمي مقاولة)(1) الواقع في غُرف أوراق الباب العالي بالآستانة، حينما كُنا (نُرسل) من مصر - كضيوف - لعاصمة الخلافة، العديد من مراسلات العثمانيين للباب العالي، التي تُشير أغلبها إلى الخطر العقائدي القادم من الصحراء، وقتها كان يقوم رجال البلاط العثماني - قصداً - بالسماح لنا من فترة لأخرى بالاطلاع على بعض (مآثر) آبائنا وأجدادنا التي لم تكن في نظر رجال البلاط ثورات عربان وحركات خارجية فقط. ومن ذلك قرأت تقريراً

(1) همايون قلمي: مصطلح تركي قديم(عثماني) معناه مكتب السلطان.

Twitter: @ketab_n

للباب العالي أرسله (سليمان باشا) والي بغداد.. يقول فيه: " دخل الوهابيون كربلاء من بابها الغربي، وقاموا أولاً بتخريب المشهد الحسيني الذي رأوا فيه بدعة كبيرة، ثم خربوا قباب المزارات والزينات، ثم أخذوا العديد من الأمتعة المصنوعة من المعادن القيمة، ثم أعقبوا ذلك بتقتيل الأهالي الذين أعياهم التعب من احتفالات المآتم التي أقاموها ليلة أمس وقلبوا المدينة رأساً على عقب، ولما انتهوا من كل ذلك في نصف يوم انسحبوا عائدين إلى الدرعية ومعهم العديد من الغنائم التي جمعوها. " وقرأت أيضاً حول الموضوع نفسه مراسلات لعواصم سفارات فرنسا وروسيا في الآستانة، والتي كان الأتراك يتجسسون عليها (=السفارات) ويأخذون صوراً من مخاطباتها ومعلوماتها المرسلة إلى بلدانها المعنية.

الأرشيف العثماني يا (حمد)، كُله، بما فيه تجسساتهم على سفارات البلدان الإفرنجية، كان يُنبئ - حسب مطالعتنا المختزلة السريعة - بعظم الخطر الذي يتحسسه عالم ما وراء حدود بلاد نجد وما حولها، وفي ذلك الخطر جانب من الحقيقة وجانب دعائي بحت، ومن هذا الجانب الأخير تلك الدسيسة القائلة: إن ما يسمونه تعصب (الوهابيين) هو موجةٌ ضد الطائفة الشيعية تحديداً، وفي ذلك تجنٍ وتبسيط، وإلا فكيف نفسر معاملة جيش الإصلاح السلفي والتي لا أستطيع القول إنها كانت ودية، وكذلك لا يمكن وصفها بأنها كانت عدائية مُفرطة، مع سكان الإحساء والقطيف، عندما اجتاح الجيش السعودي في عام 1208هـ[1] بلاد (بني خالد) التي يسكن فيها خليطٌ من الشيعة والسُنة؟!

الأخبار التي تناقلها الرواة حينها، توضح أن زعماء (بني خالد) السُنة، الشاهرين منذ القدم العداء للدعوة الجديدة هم من تطايرت

(1) الموافق لعام 1793م.

Twitter: @ketab_n

أعناقهم وقُطعت نخيلهم وسُلبت أموالهم، لا أتباعهم الشيعة مسلوبي الإرادة!

وسأفترض يا (أبا راشد) أنك ستسأل عن الجانب الحقيقي من مخاوف الدولة العثمانية العميقة، وهواجس الدول الإفرنجية[1] الغامضة الأخرى؟!

. . . فأقول: إن الجانب غير الدعائي من المخاوف تلك، والمعزز بالوقائع، ليس إلا صدى دوي انتصارات حقيقية، لجيشٍ تملأ قلوب منسوبيه الحماسة الدينية، ويتناقل أعداؤهم قصص قوة بأسهم التي صنعتها - بعد الله – ظروفهم الطبيعية. الـجُند المعنيون كانوا لا يرضون سوى بكلمة (النصر) في وقت تراضت شعوب البلدان الإسلامية التي تحكمها (الآستانة) على الكلمة المقابلة: الهزيمة. مَن كانوا يُثيرون المخاوف لم يرضوا - فقط - بما حققوه من سيطرة على البلاد النجدية ومقاطعات الإحساء، بل أنهم وسّعوا من (مُلكهم) الديني الفريد - وقتها - إلى درجة إحكام الدعوة الإصلاحية الخائفة والضعيفة والباحثة عن ملجأ قبل عقود قليلة مضت، قبضتها على كل أنحاء شبه الجزيرة العربية تقريباً، بدايةً من القرن الثالث عشر الهجري. وإلى جانب سيطرة الأجداد حملة السيف، والمصحف المقروء في (الدرعية) قراءة خاصة، على شرق الجزيرة العربية المتاخم لبلاد نجد، دخلت مناطق أخرى في تلك الأنحاء تحت الهيمنة السعودية: هناك البحرين، والإمارات العشائرية الواقعة على الساحل الغربي للبحر، ومناطق متعددة كثيرة من عُمان. أما الحجاز فكان - حينها - يقع تحت الهيمنة السعودية في عمومه، بالإضافة إلى عسير ونواحي المخلاف السليماني، ولم تُستثنَ كذلك من الشهية السعودية لإخضاع الآخرين إبان الاندفاع الأول، أراضٍ في اليمن، التي

---

(1) الإفرنج: مصطلح يقصد به النجديون الأعراق غير العربية وخاصة الأوروبيون.

Twitter: @ketab_n

بقيت عصية على كل الآخرين.. سوى على الجيش الموحد. ويقال أن جيش (الدرعية) كاد يحتل كل حضرموت وعدن، ناهيك عن الأخبار - شبه المؤكدة - عن دفع قبائل شديدة الالتصاق بدمشق وبغداد، الزكاة للقاطنين - بوصفهم حكاماً - في حي الطريف[1] بالدرعية.

تحت شجرة زمانية فروعها مخاوف أطراف متعددة من حركات الإصلاح من جانب، ومن جانب آخر صيحات تكبير المنتصرين الذين كانوا يؤمنون بأن خلافتهم الإسلامية المريضة في الأستانة، لم تعد إلا عبئاً على توجهاتهم الجديدة.. تحت تلك الشجرة.. ولِدتُ!

أكان ذلك فألاً حسناً على أهلي.. أم نحساً؟.. لا أدري!

كنت يا (أبا راشد) الابن الأصغر - على أرجح الروايات - لوالدي.. الإمام الثالث لما تعارف الناس على تسميته بـ(الدولة السعودية الأولى).

قائد الجيوش السعودية آنذاك ولِدَ له العديد من الأبناء ذكوراً وإناثاً.. منهم أخي الإمام شهيد الأستانة (عبد الله بن سعود) والإخوان الآخرون: فيصل، وناصر، وتركي، وإبراهيم، وسعد، وفهد، ومشاري، وعبد الرحمن، وحسن.. ومحبكم. أما الأخوات فعددهن عشر بنات.. ولا داعي الآن لذكر أسمائهن!! وعندما أذكر هذه المعلومات في رسالتي هذه لأحب الناس على قلبي بعد ابني (مشاري)، فلا لأنني أشك في قوة ذاكرتكم، ومعرفتكم بسيرة والدي الإمام (سعود بن عبد العزيز) الشخصية وعدد أبنائه وأسمائهم، فأنا أعرف أنكم تدركون كل هذه المعلومات وأكثر، وأنكم كنتم معاصرين لتلك الأحداث.. على حداثة من العمر! إنما لابد لأخي من ملاحظة أن رسائلي له، موجهة له ولسلالته من

(1) حي الطريف في الدرعية: الحي الذي كانت من خلاله تُدار سياسات وحروب الدولة السعودية الأولى، كما كان يضم قصور أئمة (آل سعود) الأوائل.

Twitter: @ketab_n

بعده، وللذين سيطرحون - بلاشك - على آبائهم سؤالاً أراه منطقياً: ألم يعرف جدنا (حمد) أحداً من حكام آل سعود الظافرين إلا المدعو (خالد بن سعود).. صنيع الأتراك والمصريين في بلاد العرب؟ لهؤلاء أكتب هذه الرسائل الشارحة كما أكتب حُباً وشوقاً لكم كذلك!

... أعود وأقول لأخي، إنني - في ثابت الأقوال - أصغر أبناء الوالد الإمام (سعود) الذكور، والدتي جارية جُلبت من الحبشة وأهداها لوالدي - أثناء أدائه حج سنة 1215هـ - شريف مكة (غالب بن مساعد)، وبفطنة (أخي) المعهودة تلاحظون أنني ذكرت - قاصداً - عدم عراقة منبت الوالدة، حسب تصنيفات أهل (الديرة) للناس وأعراقهم، لكن هذه الجذور - والله على ما أقول شهيد - لم تكن أبداً، مِعولاً أراد الآخرون عبره تقويض شرعية حكمي على أنحاء كثيرة من البلاد النجدية، والذي استمر حوالى أربع سنوات؛ كانوا يقولون مثلاً: عميل الأتراك، وصنيعة الروم، والخائن لأهله وجهادهم، لكنهم - ألبتة - لم ينشروا دعاية ضدي تقول: ابن الجارية فعل كذا وكذا، أتدري يا (أبا راشد) لِمَ لم يفعلوا هذا وكان في مقدورهم أن يذيعوا مقالتهم تلك في أجواء العداء والاقتتال (العرباني) المفهوم وغير المفهوم؟ لأن (أهل العارض)[1]، وقد أعلنوا رغبتهم القوية بالعودة إلى عهد مشابه لعهد النبوة وما تلاه من أزمنة الصحابة - رضي الله عنهم - وعهود ممالك بني مروان والعباس. قد ألزموا أنفسهم بما ألزم - القدوة - الآخرون أنفسهم به؛ فأبو القاسم - عليه أفضل الصلاة والتسليم - شدد على السمع والطاعة لولاة المسلمين حتى لو كان رأس أحدهم كزبيبة، و(بلال الحبشي) و(سلمان الفارسي) و(صهيب الرومي)، لم تمنعهم عبوديتهم السابقة لأيام (يثرب) الزاهرة، من أن يأخذوا مكانهم العالي في صدارة

---

(1) أهل العارض: سكان الرياض واليمامة، والعارض جزء من منطقة نجد.

Twitter: @ketab_n

السابقين المقدمين من أجلاء الصحابة؛ وخلفاء بني العباس من (المأمون) إلى آخر سلالتهم - هم - تقريباً من أبناء الجواري، وقد وجه لهم الفقهاءُ والمحدثون الكثير من المثالب... عدا أنهم أبناء جواري. و(هاجر) أم (إسماعيل) أبي العرب العاربة، وجدُّ رسولنا الكريم (صلى الله عليه وسلم) جارية خصها الله من الشرف بما لم يخص به السيدة الحرة الأخرى[1].

... والدتي - المعمرة - التي توفيت في (الرياض) بعد أن انقرض آخر سلالة والدي الإمام (سعود بن عبد العزيز).. سوى مُكاتبكم، وبعد أن شهدت قبل ذلك تدمير الدرعية وانتهاء الحكم السعودي لأوسع مناطق الجزيرة، والذي لم يماثله من حيث الامتداد إلا أيام فجر الدولة الإسلامية، هذه الأم حاولت أن تذكرني - عبثاً - في أول أيام إيابها معي للرياض سنة 1252هـ، أثناء (ترؤسي) لحملة (إسماعيل أغا)، بتلك الكوابيس التي كانت تداهم منامي منذ كنت يافعاً، وأنهض من فراشي بعد زياراتها غير المرغوبة لي وأنا أتصبب عرقاً وأرتجف هلعاً من مشاهدات ما فيها. وفي كل مرة حاولت العجوز قرع الأجراس لذاكرتي عن مضامين تلك المؤلمات، كنت أدير دفة الحديث لوجهة أخرى، حتى وأنا أودعها مغادراً (الرياض) في شهر شعبان من سنة 1257هـ على أمل لقاء جديد - لم يتم أبداً - كنت أتحايل على تلك الوالدة الصابرة، ألا تُذكرني بما لا أود ذكره!

... مالي (أبا راشد) ومن مخاوف النساء وجزعهن..؟ ولأعُدْ بك مرةً أخرى لطور شبابي وأحداثه:

في تلك السنة التي وُلدتُ فيها، راودت الدرعية وحكامها الآمال العِراض بأن لا تَقف عوائق صنعتها تجمعات بشرية هنا، أو وحدات

(1) المقصود هنا زوجة النبي إبراهيم عليه السلام الأخرى(سارة) أم النبي إسحاق.

Twitter: @ketab_n

سياسية هناك، أمام إعادة مجد الإسلام السلفي الناصع القديم. إدارة هذا المجد المؤسس على الأرض لم يكن يهم مناصري الدعوة الموحِدة بالدرعية، ولم يكن يهمهم كيف ستتعامل (قوى) غيرهم لها نفوذ ومطامع وعصبيات مع انتصاراتهم وتوسعهم الحربي. ولم يكونوا يطرحون أسئلة تقول: متى نتوقف؟ وكيف؟ ولماذا؟.. ومَن أعداؤنا؟ الكُل ما لم يدخل في حِمى الطاعة للدعوة الإصلاحية السلفية، أعداءٌ محاربون لله ورسوله: شيعةٌ وصوفية ومعطلون وأباضية.. وحتى منافقون من السُنة.

لقد أعشت الانتصارات الكثيرة و(الفتوحات) التي لا تُحصى، وغنائم المناكفين للمُثل السلفية التي تشكلها مخيلة الآباء والأجداد في الدرعية، أعشى كل هذا بصر وبصيرة من يُفترض أنهم عقلاء الدولة السعودية و(راسمو) سياستها - إن صح التعبير - المختلفة. كان - في رأيي الخاص - من الضرورة بمكان ألا تتوسع (دولتنا) بهذه السرعة والشكل، وألا تخلقَ لها أعداءً كُثراً في وقت واحد. وكان عليها أن تشرح فكر ودعوة شيخها لرؤساء الأقاليم والقصبات والدول المحيطة ببلاد نجد، حيث انطلقت جيوش الدولة السعودية وللمرة الأولى (مجاهدة) في سبيل ما تؤمن به. كانت أولى خطوات جهاد الشيخ والأمير ضرورية، لكنها لم تُعطِ التفسير المناسب للأمة كُلِها: لِمَ كانت دعوتها ضرورية؟ ولمن هي موجهة؟ وما الذي يفرقها عن حروب الغزو والسلب الأخرى؟

لقد تندر، في مكة، يا أخي (حمد)، كثيرون كنت أسمعهم وأنا مملوء غيظاً بأن أول الأعمال الجهادية للدرعية لم تكن إلا استيلاءً على سبع ركائب[1]، من بُسطاء، لم يسمعوا عن اسم الشيخ فضلاً عن دعوته! وكانوا يقولون - متندرين - إن الشيخ وهو يأمر رجاله بسلب

---

(1) ما كان مخصصاً للركوب من الإبل.

Twitter: @ketab_n

ركائب البسطاء من العامة فيما يسميه جهاداً، كان يتمثل بقوله تعالى (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله). وإن الشيخ حسب ما قد قيل قديماً في مكة وفي أيامي هذه، يأمر بقتال من عادى أهل التوحيد وسبهم وسب أهلهم، وأهل التوحيد في زعم الشيخ - كما يقول كارهوه - ليسوا إلا من اتبع دعوته و(جاهد) مع جيش الدعوة السعودي، وفي ذلك تضييقٌ لرحمة الله وحقائق الكون في الاختلاف والتنوع.

أنا وأنت وكثيرون في البلاد النجدية نعرف أنَّ دعوة الشيخ قد أدخل عليها مُبغضوها أشياء لا تُصدق من الدعايات الكاذبة، والتلفيقات والمدعومة بقصص مرعبة عنه وعن جيشه المنتصر لأفكاره؛ أنا وأنت يا (أبا راشد) نعرف أن عقيدة الشيخ هي مجرد إرجاع المسلمين لعقيدة السلف أهل السُّنة والجماعة، وأن الشيخ يدعو الناس - فقط - وكما أوضحت كتاباته، لقيام تجمع إسلامي له مواصفات معينة.. منها: أنَّ أفراد تلك التجمعات - المؤسِسين لدول وممالك بعد ذلك - لابد أن يكونوا مؤمنين بالله، وبما وصف به - عزَّ جلاله – نفسه في كتابه، من غير تحريف ولا تعطيل ولا تشبيه ولا تمثيل، وأنه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، وهؤلاء (الناس) وسطٌ في فهمهم لأفعاله تعالى بين القدرية والجبرية، ووسطٌ بين المرجئة والوعيدية، وبين الحرورية والجهمية، وهم وسطٌ في حب أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بين الشيعة والخوارج، ويعتقدون في القرآن أنه كلام الله مُنزل غير مخلوق، ويؤمنون بالقدر خيره وشره، ويعتقدون بكل ما أخبر به النبي - صلى الله عليه وسلم- ويعتقدون باستمرار الجهاد مع كل إمام برٍ أو فاجر، ويعتقدون بوجوب السمع والطاعة لأئمة المسلمين، ممن وليهم واجتمع عليه الناس ورضوا به. حينها تجب طاعته ويحرم الخروج عليه، ويرون أن كل محدثة في الدين بدعة، ويعتقدون بوجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر..

Twitter: @ketab_n

. . . هكذا كان ينظر الشيخ لكيف يكون الإسلام والمسلمون، لكن تلك الأفكار التي يعتقد الشيخ أنها قائمة على الدليل الشرعي، وأنها مستندة إلى النص، واقفة عند حدود الله ملتزمة بأوامره، يراها آخرون غير ذلك، وأنها تبرر لنفسها - عبر أقوالها - استحلال أنفس وأموال وأعراض المخالفين، وأنها تفرق بين المسلمين، وتُخرج من لا يؤمن بأفكار الشيخ من الملة كُلها. فالخوارج - مثلاً - الذين يكفرهم الشيخ في الدرعية، لم يُكفرهم (علي بن أبي طالب) - رضي الله عنه - وهم يحاربونه ويقتلون جيوشه.. وقس على هذا.

وللأسف، فإن ما أُلصق بالشيخ من الافتراءات العقدية، لم تستطع - كما أعلم - دعاية الشيخ المقابلة رده وتفنيده، إلا بالسلاح وقهر الأعداء، وليس في ذلك كسبٌ حقيقي للقلوب والعقول، بل هو زيادةٌ غير مرغوبة للأعداء المتربصين.

أتصدق يا (أبا راشد) أن أهل مكة.. وأنا أسكنُ موطِنهم. لايزال ورَّاقوهم ومن يقتنون الكُتب منهم، يرددون - حتى الآن - المقولات الأولى التي انتشرت في الحجاز خاصةً والولايات العثمانية عامةً، عن فكر الشيخ وعن جيش الأمير الذي ناصره؛ لقد تسنى لي رؤية بعض تلك المقولات عند صديقٍ ورَّاق، يقع دكانه شرقي الحرم مباشرة، ومنها ما كُتب في عهد شريف مكة محمد بن عبد المعين سنة 1242هـ. ويمكن أن أسرد لكم (أخي) بعضاً من أسطر تلك (الدعاية) السيئة التي كُتبت عن الشيخ، وعن الإمام (سعود بن عبد العزيز بن محمد)، الذي أشير إليه بأنه (صاحب الشرق) لتعرفوا مقدار البُهتان الذي وُجه لدعوة الشيخ ومناصريه.. خُذ مثلاً هذه الـجُمل:

" هذا المذهب يسمى الوهابية، كبيرهم سعود، وهم من بلاد حنيفة الذي منها مسيلمة الكذاب، والآن اسمها الدرعية، وهو مذهب مخالف للسُنة المحمدية، وأصله أنَّ فقيراً يقال له (سليمان)، رأى في المنام أن

Twitter: @ketab_n

شعلة نار خرجت من ظهره وانتشرت، وسارت ترعى من لقيها، فقص هذه الرؤيا على بعض المعبرين، ففسرها: بأن أحد أولاده يجدد دولة قوية، فتحققت الرؤيا في ابنه الشيخ (محمد بن عبد الوهاب بن سليمان) المذكور. فلما كبر مؤسس المذهب (محمد بن عبد الوهاب) احترمته أهل بلاده بسبب هذا المنام صدقاً أو كذباً، وأخبرهم أنه قرشي من ذرية النبي - صلى الله عليه وسلم - وأعلن لهم قواعد وهي: عبادة واحد قديم يجب إتباعه دون الفروع، وأن محمداً لا ينبغي تعظيمه ولا وصفه بأوصاف المدح والتعظيم، إذ لا يليق ذلك إلا بالقديم، وأن الله حيث لم يرض بالإشراك، سخره ليهدي الناس، فمن امتثل منهم فنعم، ومن أبى فهو جدير بأن يُقتل، وأن البدع المستحسنة بعد النبي - صلى الله عليه وسلم - لا يجوز العمل بها، وأنه لا يجوز زيارة ولي بعد موته ولا الشفاعة بهم عند الله، ومن فعلوا هذا يُستحل مالهم ويكونوا حلٌ حرب مثل الكفار.. إلى غير ذلك من القواعد القبيحة. استنجد (محمد بن عبد الوهاب) بشيخ نجدي اسمه (ابن سعود)، وعلى رأس خمس عشرة سنة وسع بلاده بعد أن تبعه سائر أهل نجد، وبعد أن أظهر (محمد) الاجتهاد، وأنه كبير الوهابية، و(ابن سعود) أميرهم وقائد عساكرهم، فصارت ذرية كُلٍ من الاثنين يتولى رتبة سلفه، واختاروا قاعدة بلدتهم الدرعية في الجانب الشرقي، ومن أعمالهم أنهم حصروا عن مكة الطعام حتى قاسى أهلها من الجوع أشد ما يكون، والحاصل أنهم يكرهون أهل السُّنة والجماعة ويسمونهم المشركين، ولهذا هدموا جميع قباب الأولياء الصالحين التي بمكة والمدينة ماعدا قبته - صلى الله عليه وسلم - لأنهم لم يقدروا على هدمها، لكنهم نهبوا ما في الحجرة الشريفة مما هو من الخزائن والجواهر.. قاتلهم الله... أهـ."

... بكذا كان يُقدم الشيخ ودعوته وأمير جيشه للمسلمين القادمين للحج أو العمرة، وبكذا كانت تطير أخبار من يسمون (الوهابيين) من

Twitter: @ketab_n

الحجاز إلى بقية العالم الإسلامي، مع زيادة من الرواة والإخباريين الراغبين في الإثارة وإفشاء السوء عن الصالحين. لكن يصادف - أحياناً - أن يكون هناك واحدٌ أو أكثر - قليلاً - من المؤرخين، ممن يُنصف الموحدين في الدرعية، ومن هؤلاء المؤرخ العلامة (عبد الرحمن بن حسن الجبرتي) الذي ذكر في كتابه التاريخي المُلفت "عجائب الآثار في التراجم والأخبار" ما يُنصف مَن أسماهم أهل مصر بـ(الوهابيين).. حيث قال وهو يسرد أحداث سنة 1118هـ: " لغط الناس في خبر الوهابي واختلفوا فيه، فمنهم من يجعله خارجياً وكافراً وهم المكيون ومَن تابعهم وصدقَ أقوالهم، ومنهم من يقول بخلاف ذلك لخلو غرضه." ثم يعرض بعد ذلك (الجبرتي) لدعوة الشيخ (محمد بن عبد الوهاب) وعقيدته حسب ما كتب بذلك صاحب الدعوة نفسه لشيخ الركب المغربي، ليخلص (الجبرتي) بعد عرض أفكار الشيخ، صادحاً بقوله المنصف الذي قرأته أجيالٌ بعد أجيال: "وهم على ذلك أقول: إن كان كذلك فهذا ما ندين الله به ونحن أيضاً، وهو خلاصة لباب التوحيد وما علينا من المارقين والمتعصبين."...رحم الله (الجبرتي) إنما كيف نجد مؤرخاً مُنصفاً مثله؟

أخي (حمد):

جزيرة العرب التي كان يصنع تاريخها آنذاك جماعتان: جماعةٌ شديدة البأس، تقتحم أسوار المدن وتحتلها ناشرة دعوتها التوحيدية المشوبة في كثيرٍ من الأوقات بجلافة عربان وسط الجزيرة، المتكفلين بحمل دعوة الشيخ ونشرها ما استطاعوا إلى ذلك امتداداً. وجماعة أخرى تضم طيفاً واسعاً من أعداء فكر الدعوة، ورغبتها في التوسع.

جزيرة العرب - حينها - كانت مهيأة لعمل حربي واسع النطاق، يستبين بعده لمن الحكم والسلطان: للمجددين المليئين بحماسة تاريخهم السلفي الـمُستحضر من الأزمان السحيقة، أم لراغبي بقاء أمور تلك

Twitter: @ketab_n

الديار وناسها كما كانت منذ انهيار الدولة الإسلامية المركزية، إلى أن يصل التاريخ إلى حيث دولة بني عثمان و(فتوحاتها) المشرقية.

... وقعت الواقعة في البداية بين القوة السعودية الفتية، وبين رعايا الدولة العثمانية التي كانت تعتقد أن كُلَّ البلاد الإسلامية والعربية - ومنها جزيرة العرب بالطبع - من أملاكها، ولا تسمح بالتالي لأحدٍ بالتعدي على هيبتها وسلطانها؛ ولأن (ابن سعود)، قد تجاوز الخطوط غير المسموح بتجاوزها، فإن هجمات (ثويني بن عبد الله) زعيم قبائل المنتفق الواقعة مضاربها في جنوب العراق تصبح مفهومة. تلك القبائل (أبا راشد) من سواتر صد غزوات العدوان المتقدمة ضد ولاية الدولة العثمانية في العراق تحديداً، وفي كل حاكمياتها العربية الشرقية عموماً. ولأن (ابن سعود) فعل هذا، بعد أن استعرض قوته في كل بلاد نجد وعند تخوم الحجاز والشام والعراق وبعض أجزاء عُمان. فقد أمر الوالي العثماني (سليمان باشا) في بغداد المدعو (ثويني بن عبد الله) بأن يتجه إلى الدرعية، وهو على رأسِ جيشٍ عظيم - بمقياس - أهل الصحراء.. لتأديب حُكامها هناك.

كان مخططاً للجيش أن يتقدم مُحتلاً (الإحساء) أولاً ثم قلب نجد بعد ذلك، لكن التنافس على القيادة - وهي خصلة عربية خالصة - بذرَ بذور الفرقة والفشل داخل هذه الحملة بدايةً، ليفشل تبعاً لذلك الجيش وقائده، الذي قتله جنوده، ثم يتولى والدي الإمام (سعود) نيابةً عن والده الحاكم (عبد العزيز) إكمال الباقي من خلال الإجهاز على بقية الجيش المنسحب للجنوب العراقي. ومن المستحسن أن أذكر (أخي) ببعضٍ من أبيات (ابن غنام) الذي قال شعراً ولا أروع عن نتائج وقعة[1] (سحبة) التي انقشع غبارها في مستهل عام 1212هـ:

---

(1) وقعة: أي الاقتتال الشديد بين فريقين أو أكثر.

Twitter: @ketab_n

تقاسمتم الإحساء قبل منالها
فللروم شطر والبوادي لها شطر
تعستم فهجر دونها خطة البلى
ودون حماها يُقطع الهام والنحر
وهذا هو الفتح الذي جل قدره
فليس بمحص فضله النظم والنثر
فلله فتح طبق الأرض صيتة
وهزت به البلدان وارتعدت مصر
بك الدين يا عبد العزيز مؤيد
يعززه بالبيض أبناؤك الغر

نعم أخي (حمد) لقد بالغ بعض الشيء (حسين بن غنام) مؤرخ وشاعر الدولة السعودية، عندما ذكر أن مصر قد ارتعدت، لكنه لم يبعد عن الحقيقة تماماً، فمصر وواليها، والآستانة وخليفتها، كانا ينظران بعين السخط لانتصارات الجيش السعودي الذي لم تقعده حادثة شنيعة وقعت في عاصمة الدولة بالدرعية، عندما اغتال (عراقي) جدي... الإمام الثاني للدولة السعودية (عبد العزيز بن محمد بن سعود) وهو يؤدي فريضة صلاة الفجر، ويقال أن ترتيب عملية الاغتيال كلها تمت في أحد قصور الحاكمية العثمانية في بغداد، على أن تُصورَ كأنها رد فعل شيعي على (نكبة) كربلاء؛ أقول لم تُقعد هذه الحادثة الخطيرة الجيش السعودي من كسب المزيد من الأراضي والغنائم من الإمارات والدول الأخرى، بالإضافة إلى هز هيبتها عند رعاياها؛ فما هي إلا سنوات قليلة ويشاهد الجيش الموحِد بعدها يقتحم مناطق الزبير والبصرة والسماوه، عندها فقط أيقنت الخلافة العثمانية أن لا واليها في بغداد ولا في دمشق ولا حتى شريف مكة، قادرون على إيقاف التوسع السعودي السلفي في كل مكان من الجزيرة العربية وما جاورها، ولم يكن أمامها من حلٍ لهذا الكابوس

Twitter: @ketab_n

سوى الاستنجاد بحاكم مصر القوي الضابط الألباني الباشا (محمد علي)، الذي أخذ يسيطر على كل مصر، بعد أن داهمها قبل ذلك انفلات أمني غير مسبوق، تشكل إثر غزو الفرنسيين للأراضي المصرية التي كانت تعاني أصلاً من حكم المماليك المتخلف البغيض، ولم يؤدِ الانسحاب الفرنسي المفاجئ ومحاولة عودة المماليك للحكم بمساعدة البريطانيين، إلا إلى زيادة معاناة المصريين، الآملين خيراً بعد ذلك في انضباطية (محمد علي) الـمُتغدي بالمماليك قبل أن يتعشوا به؛ أما أولى رسائل القوة التي أراد (الباشا) إرسالها لخلافته - الاسمية - في الآستانة، فليست سوى استعداده لإرضائها على حساب هدم الدعوة السلفية واقتلاع قوة دفعها الحربية في الدرعية نفسها. كان ذلك في سنة 1226هـ، بعد أن هيأت دعوات مُلحة في الحجاز للخلافة العثمانية، بأن تُقدم عاجلاً على تحرير بلاد الحرمين من سطوة الذين يطلق عليهم هناك بـ(الوهابيين). في تلك الأيام المليئة بالمخاضات العنيفة المتعددة، طلبت (الآستانة) من (الباشا) التحرك صوب الدرعية فوراً.. فاستجاب الوالي - العثماني شكلاً - لهذا الأمر، الذي أحدث صدىً طيباً لديه لعدة أسباب اختص بها نفسه.

... تحرك الجيش المصري من بلاده ووصل إلى ينبع.. في طريقه لقلب الجزيرة العربية.. وأنا أناهز العاشرة من العمر.

وفي تلك الأيام العصيبة كانت الأخبار ترد إلينا في الدرعية عن أشياء لا تسُر، يُخطط لها في الحجاز وقبل ذلك في الآستانة ومصر، لاقتلاع شوكة الدعوة والجيش السلفيين. ولم تكن تلك الأخبار ترد لسكان قصر (سلوى)[1] في الدرعية فقط، بل كنتم في حي (البجيري)[2]

---

(1) قصر سلوى: مكان سُكنى الإمام سعود بن عبد العزيز بن محمد (1750 - 1814م).

(2) يقع حي البجيري على الضفة الشرقية من وادي حنيفة إلى الشرق تماماً من حي الطريف.

Twitter: @ketab_n

وغيركم من (العوائل)[1] الأخرى المهاجرة من الرياض والقرى الأخرى إلى الدرعية، طلباً للعلم والاستزادة من معينه - عند الشيخ (محمد بن عبد الوهاب) - تسمعون ما نسمع، وتخافون - بالتأكيد - مما نخاف، لكن هيهات إن توقف هواجسنا وهواجسكم، ذلكم الجيش القادم من مصر ما لم يُنجز مهمته، التي يبدو أن (الوالي) في مصر مصممٌ على إنهائها، كفاتحة لعصر يكتب اسمه، بعد أن شعر أن اسم سلاطين (العثمانيين) يكاد ينسحب إلى عالم النسيان الذي لا يستحضره إلا المؤرخون.

لم تكن، يا (أبا راشد) مخاوفنا.. نحن (آل سعود)، ومعنا المشايخ وطلبة العلم وكل سكان الدرعية والأهالي في نجد، مجرد أوهام وتخيلات يصنعها الحرص على المكتسبات السابقة، بل إنها بُنيت على حقائق استندت على أخبارٍ مؤكدة رصدتها عيون وآذان القادة السياسيين والدينيين السلفيين في الحجاز، لِتُنقل سريعاً إلى الدرعية. ومما ورد - حينها - وأكدته إخباريات مؤرخي تلك الحقبة، التي قرأتُ بعضاً منها في وقتٍ لاحق.. أسرد عليك مايلي: " (محمد علي) شكلَ جيشاً بقيادة ابنه (طوسون باشا) للزحف إلى الدرعية ذاتها بعد أن يطرد قواتها من البلاد الحجازية الواقعة تحت السيطرة السعودية (الكاملة) منذ عام 1220هـ. هذا الجيش اللجب الذي استعرض الباشا قوته قبل أن يذهب إلى ميناء السويس، كان عبارة عن موكب عظيم يسير في مقدمته طوائف الدلالة، متبوعين بعشرة مدافع ضخمة تُجر على عربتين تحملان هونين قنابل، وخلفهم مشت طوائف العسكر (الرجالة).. أرنؤوط وأتراك، وسجمان، وهم كثيرون مختلطون من غير ترتيب لمدة طويلة، ثم كبارهم ركباناً بطوائفهم، ثم الوالي والمحتسب وأغات مستحفظان،

---

(1) العوائل: العائلات.

Twitter: @ketab_n

ثم طوائف صاحب الموكب وجنائبه وكذا هجنة، ثم الجاويشة والسعاة والملازمون، ثم (طوسون باشا) - نفسه - وخلفه أتباعه وأغواته، ثم الكتخدا[1] (محمد) المعروف بالبرديسي، وخلفهم النوبة التركية، وانتهى العرض العسكري بغداء فاخر كبير صاحبه الطرب وآلاته.. والحظ والكيف... أهـ »

هذا الجيش والذي يقدر قوامه بثمانية آلاف مقاتل وبصحبته قطع الراجمات البارودية، انتقل بحراً إلى ينبع وهو يحمل القرار العثماني القديم القاطع، بتصفية الإرث التاريخي للدولة السعودية، منذ بداياتها (التوسُعية) على يد إمامها الأول (محمد بن سعود) وحتى عهود (الفتح) من بعده. كان هذا الجيش يعلم كذلك أنه لابد أن يعتمد على نفسه، لا على تأكيدات شريف مكة للباشا، بأنه سيجد جيشاً حجازياً يسانده في حربه ضد (الوهابيين)؛ فما عَلِمَ عنه (محمد علي) من ميوعة في موقف (الشريف) وبأنه ينافق طرفي القتال المحتمل ويداهنهما حفاظاً على مكانته، يؤكد سلامة التوجه بأن الاعتماد على النفس أجدى من الاتكال على أشكال سلطوية دب فيها رعبٌ سابق، من عرب الصحراء وأفكارهم المتشددة تجاه المخالفين.

... المهم! استولى جيش (طوسون) على ينبع التي وصلها بحراً قادما من السويس، ليختلط جيشه لاحقاً بجيش بري آخر، أرسله - كلفتة تعزيز - والده الباشا في مصر... تقدم الجيشان، اللذان أصبحا جيشاً واحداً، تجاه المدينة المنورة لاحتلالها، وأغرت (طوسون) سهولة احتلاله لـ(بدر) - حيث دارت معركة الإسلام الأولى - ليتقدم مسرعاً تجاه المدينة المنورة، وهناك كانت تنتظره (جيوشنا) بقيادة أخي الشهيد (عبد الله) في وادي يقال له (الصفراء).. النتيجة؟ تكبد الجيش المرتزق

(1) الكتخدا: كلمة تركية عثمانية تعني مدير أعمال.

Twitter: @ketab_n

الخليط هزيمةً مُنكرة، بحيث لم ينجُ من الجيش الراكب سوى جماعة من الفرسان، نفقت خيولهم ظمأً بعد ذلك. وفي الجانب الموحد - ولا أقول الوهابي - قُتلَ في تلك المعركة المشهورة ست مئة مُقاتل على رأسهم ابن العم (مقرن بن حسن بن مشاري بن سعود). هذه الهزيمة لم تثنِ (محمد علي) على التشديد، بأن يكون قائد جيشه في الجزيرة أكثر صرامة ضد المدافعين عن فكرهم ومناطق نفوذهم.. وأن عليه، مرةً أخرى محاولة احتلال المدينة المنورة.. بلا إبطاء!

نجح (طوسون) فيما فشل فيه للمرة الأولى مستعملاً هذه (النوبة)[1] مدافع أشد فتكاً ومتفجرات جماعية قاتلة، لتنتهي مقاومة المدينة المنورة وحاميتها السعودية سريعاً، شُوهد بعدها علم (الغُزاة) مرتفعاً على المباني الحكومية في شهر ذي القعدة من عام 1227هـ. ولم تكن مقاومة مكة المكرمة ذات تأثير في منع جيش (طوسون) من الاستيلاء عليها، وبهذا وقعت المدينتان المقدستان في قبضة الجيش المصري أوائل شهر محرم عام 1228هـ.

... الشريف غالب (=شريف مكة) لعب دوراً مركزياً في تساقط البلدان الحجازية بسرعة في قبضة الجيش القادم من مصر لطرد الجيش الموحِد من تلك الأراضي، التي كانت تعني الكثير دينياً ومعنوياً ومالياً للدولة السعودية في الدرعية. على أن موقف الشريف (غالب) لم يكن هو السبب فقط في هزيمة السعوديين، بل أن قلوب سكان الأراضي الحجازية وكذلك زعماء العشائر والقبائل، لم تكن أبداً مع المهيمنين لسنوات على مناطقهم، وهذا يثبت ما قلته لك يا أخي (حمد) من قبل من أن كسب العقول والقلوب أولى من كسب أراضي المُغلنين استسلامهم.. مؤقتاً!

(1) أي المرة.

Twitter: @ketab_n

... لاحقاً استمرت معارك الآباء والأجداد مع جيش (طوسون) في (تربة) و(الحناكية) و(بيشة) و(الطائف) و(القنفذة) و(رنية) وفي مناطق كثيرة من عسير وتهامة، تلك المعارك انهزم فيها تارةً جيش أخي (عبد الله بن سعود) وتارةً أخرى جيش (ابن الباشا)، وفي أثناء الكر والفر حدث حدثان مهمان في تلك الشهور؛ الحدث الكبير والذي قلب الموازين الحربية والسياسية رأساً على عقب، كان وفاة الإمام المجاهد ذي البأس المنتصر دائماً.. الوالد (سعود بن عبد العزيز) رحمه الله في سنة 1229هـ، ليخلفه أخي الأقل درايةً بشؤون الحرب والسياسة الإمام (عبد الله بن سعود). أما الحدث الآخر الذي يقل أهميةً عن الأول، فهو إلقاء القبض من قِبل قوات (طوسون) على شريف مكة (غالب بن مساعد) بتهمة مكاتباته للجيش السعودي خفيةً، ولم يزد تنصيب قريبه (يحيى) جماعة الإشراف، إلا خوفاً على خوفهم السابق، من مصائرهم المُقبلة على يد هؤلاء المدعين نصرتهم، لو أن شكاً راود المليئين بالهواجس - أصلاً - من جراء الأحداث المتعاقبة في داخل بلدهم الواقع غرب البحر[1].

توقفت المعارك الكبرى تقريباً، (أبا راشد) عام 1230هـ، لكن لم يحل هذا من سماع طلقات البارود ورؤية جثث القتلى بين حينٍ وآخر، مثلما حدث بالقرب من (القصيم)، عندما أراد (طوسون) اختبار مدى قوة الجيش السعودي حالما تصل مطامع الآخرين لأقرب مكان من عاصمة الحكم السلفي.

المناوشات الأخيرة لم تعطِ رؤية واضحة لا للمهاجمين ولا للمدافعين في معرفة نتائج اختبار القوة، فيما لو حدث وحاول الطرف المهاجم تجاوز الخطوط الحمراء التي لم يكن أحدٌ من قبل يصدق أن

(1) يقصد البحر الأحمر.

Twitter: @ketab_n

يقترب منها (الغُرباء) فضلاً عن تجاوزها. ولأن هذا الاختبار لم يحدث، فقد عقد الجانبان السعودي والمصري اتفاق صلح - بعد مُكاتبات عديدة بين القادة - تضمن جلاء الجيوش الغازية عن نجد، وتعهداً سعودياً بعدم مهاجمة (الديار) العثمانية من جديد. ويقال أن الاتفاق لم يُفعَّل على الورق، وإنما حدث واقعاً عندما انسحبت قوات (طوسون) عائدةً إلى بلادها، مع اعتقاد الجميع بأن تكملة الحرب - التي لم تُحسم - لابد أن تحدث كرةً أخرى.. لا محالة.

... في الدرعية كنت وأترابي الذين تتراوح أعمارهم بين الثالثة عشرة والخامسة عشرة، نعيش خارج زمن الحبور الذي من المفترض أن يعايشه مَن كان في مثل أعمارنا؛ عالم التشدد الديني والقسوة التي لابد أن تكتسي الوجوه - حتى الصغير منها - كدليل على الزهد والاشتياق للجهاد والموت المقبلين؛ لم يُترك لنا فرصة للضحك واللعب والتغزل - البريء - بالفتيات المُلفعات درساً واحداً: البنت تخرج من بيت أهلها.. إلى بيت زوجها.. ثم إلى القبر، وماعدا ذلك ليس إلا التسريع بالرحيل إلى المرحلة الثالثة المذكورة أعلاه!

ما بين التقطيب والعبوس كانت هناك فقط فترات رُحنا - شباب الأسرة - نتعلم فيها كيف نرمي بالتفق[1] والبنادق الأصغر حجماً والمسماه (أم فتيلة) والنادرة التملك إلا على الخواص؛ كما كنا نستغل الوقت المفروض أن يكون لهواً أو حتى أخذاً للراحة بين تَوير[2] وآخر، لتعلم الهجوم والدفاع بواسطة الرماح والحراب والسيوف والجنبيات[3].

(1) نوع من البنادق القديمة كان يطلق عليها أهل نجد هذه التسمية.
(2) توير: أي الرمي بالبندق.
(3) الجنبيات: الخناجر.

Twitter: @ketab_n

وإن بقي وقت فعلينا ركوب الكحيلات[1] الثامريات والهجن، لئلاً ننسى أن على ظهور تلك الدواب يُقطف النصر.. أو تحدث الهزيمة!

بين طرق الدرعية الضيقة المتربة وكنتُ وأترابي نأتي ونذهب من منازلنا الطينية، إلى المساجد وميادين (الترفيه) الحربي، ولا نكاد نسمع في مشاويرنا المحفوظة عن ظهر قلب إلا أخبار الفتوحات وكسب الأعداء، وما يرد في هذا اليوم أو ذاك من مضامين دروس العلم الديني التي يلقيها أبناء الشيخ (محمد بن عبد الوهاب) المشايخ: (عبد الله) و(حسين) و(علي) و(إبراهيم)، أو التي كان يلقيها في مساجد أخرى المشايخ (عبد الله أبو بطين) و(عبد العزيز الحسين) و(عبد العزيز بن سويلم) وغيرهم، وإذا لم يكن هناك درسٌ من هؤلاء المشايخ - وهذا أمرٌ نادر - فلن يعدم سماع شُرحات كُتب (شيخ الإسلام)[2] و(ابن القيم) و(ابن كثير) وغيرهم من الأئمة التابعين لمذهب الإمام (أحمد بن حنبل) - رحمهم الله جميعاً - لكن أخبار الانتصارات التي كانت تُخرج ابتساماتنا الصغيرة البلهاء في تلك الفترة من الزمن، تحولت ومنذ وفاة الوالد الإمام (سعود بن عبد العزيز) إلى وجوم وأسئلة كثيرة، جعلتها حاضرة ومطروحة بقوة، تلك الدعايات - كما كان يطلق عليها سكان الدرعية - عن انتصارات لجيوش (طوسون) وإخفاقات لجيش الأخ (عبد الله). ولم تتبدد المخاوف تلك، حتى والأخبار ترد لاحقاً عن اتفاقية صلح بين ابن (الباشا) وإمامنا الجديد؛ لأن رؤيتنا لبعض الأهالي ومعهم الأجناد وهم يحاولون التأكد من متانة أسوار الدرعية وكميات مؤنها التي يمكن أن تكفيها في الحالات (الطارئة)، جعلتنا نجزم بأن أيام الدرعية التي تُهاجِم ولا تُهاجَم باتت قليلة، وأن الأفق يلوح لنا بما كنا نتحاشى

(1) سلالة من أفضل أنواع الخيول التي عرفتها العرب المحاربة.
(2) ابن تيمية.

Twitter: @ketab_n

ذكره من قبل: انهيار حلم الدولة والتوسع اللامحدود للفكر السلفي الجهادي.

أخي (حمد):

أرغب أن أجعل من تلك المخاوف التي تحولت إلى حقائق ملموسة، اصطبغت بعد ذلك بلون دماء المحاربين، والأهالي المسالمين على حدٍ سواء، مادةً لرسالتي القادمة، التي لن أهمل فيها - قطعاً - إبراز ما في نفس أخيكم من رؤى تجاه هذه الدنيا وما فيها.. وعليها..

واسلم لأخيكم المحب

(خالد السعود)

كُتبتْ هذه الرسالة في الخامس والعشرين من شهر جماد الآخرة سنة 1277هـ.

ملاحظة لابد من الإشارة إليها:

ذهبتُ فجر هذا اليوم إلى الحرم مُعتمراً، ولقد دعا أخوكم لكم بظهر الغيب بما هو - عز شأنه - حري أن يستجيب له، وبما أنتم تستحقونه يا صاحب الدين والخلق والأمانة.

وعليّ أن أشير إلى طُرفةٍ حدثت، وأنا أكتب لكم هذه الرسالة صباحاً بعد عودتي من الحرم: فحينما أعدَ الابن البار (مشاري) إفطار والده، وأتى للمكان الذي أكتب فيه رسائلي عادةً لكم، ليسألني عن رغبتي في تقليط[1] الأكل أم أن عليه الانتظار قليلاً؟. أجبته أنني جِدُّ جائع، لكننا رحنا بعد السؤال والإجابة المختصرين في نوبة ضحك مكتوم مشفوعة بالغمزات ذات المعنى. أتدري (أبا راشد) لماذا

---

(3) قليط: أي تجهيز المائدة بالطعام.

Twitter: @ketab_n

الضحك وكل ما حولنا يدعو للبكاء؟ لقد رأينا رأس (دركي)[1] مكي من أتباع (الشريف) وهو يحاول جاهداً أن يسترق السمع لما سأقوله لـ(مشاري) أو بالعكس! ولم يفطن المسكين أننا نرى رأسه من خلال (الكوة) الغربية لحائط منزلنا، ولم يعلم كذلك أن رسائلنا للآخرين إن سلِمتْ من المصادرة، فليس فيها خطرٌ على (شريفه)، خاصةً والكاتب بالكاد يحصل على قوت يومه!

على ذكر (مشاري).. أنا خائفٌ عليه جداً يا (أبا راشد) فحُمى الليل لا تفارقه يوماً، وهزاله يزداد يوماً بعد يوم، وهو يتجلد ويُظهر أنه مليء بالقوة والعنفوان، وأنا أدري أنه غير ذلك. كبدي يا أخي (حمد) تتفطر على منظر الفتى، وأشعر أنني قد جنيتُ عليه عندما أتيتُ به إلى عالم يقدس القوة ولا مكان فيه للضعفاء الأذِلاء ممن (كانوا) أصحاب عز وتنعمٍ سابقين، بالله يا (أخي) ماذا أفعل لأعوضه عن الحرمان والتعاسة والبؤس؟ أنا قد جربت أيام الهناء والبحبوحة - وإن تحت ظلال قاتلي الأهل والصحب - ومرت عليَّ أيامٌ - كِدتُ - فيها أحكم دولة ظن الكثيرون أنها ولت واندثرت، لكن ما عساه يفعل هذا الفتى الطيب وهو ينتقل من يُتم إلى تشرد.. ثم إلى غُربةٍ وفاقة؟ أدعو الله أن يجعل يومي قبل يومه، فأنا لا أعيش (الآن) إلا له، وأملي أن يصبح هذا الوجه الكريم البار، عَلماً يُرجع - ولو قليلاً - حقوق أسلافه، الذين غدرت ببعضهم الدهور، ولم تُمهل البعض الآخر الحظوظ ومُقسمات الأقدار.

... مصدر لوعتي وشجني وهمي.. يُقرئكَ السلام وأهلك.. فتقبل منه ومني...

(1) دركي: شرطي.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الرســالة الرابعة

انهيار دولة

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

لم تعد كلمة (النصر) تعني الحقيقة،
أصبحت تعني وصفاً لمن بقي حياً
تحت الأنقاض...

(جونسون)

عندما أنهى رئيس درك منطقتي شرق وشمال الحرم المكي (موسى عبده) ونائبه (أبو الفرج أديب) قراءة رسائل الأفندي (خالد) الثلاث، كانت ساعتان من القراءة الجادة قد مرت عليهما، التي تُوقفها أحياناً صعوبة نُطق وفهم بعض المصطلحات النجدية، ومحاولات (تفلسف) الكاتب كما وصفها أحدهم!

في ساعتي القراءة هاتين، تعاطف الدركيان مع صاحب الرسائل حيناً، وغضبا من (الأفندي) حيناً آخر وهو يصفهما ورجالهما بالمرتزقة والأغبياء والبصاصين[1]، لكنهما في كلا الحالتين كانا مُستمتعين بقراءة التاريخ من وجهة نظر صديق (سابق) لوالي الدولة العثمانية على مصر، والذي يعود نسباً إلى تلك الأسرة المُتعبة للجميع.. هنا في الجزيرة العربية.. وهناك في القاهرة والآستانة. ولأن هناك ساعات كثيرة تفصلهما عن صلاة الظهر وساعات مثلها عن صلاة العصر وما سيتم بعدها من الصلاة على الميت.. (الأفندي)، فإنه لا شيء يمنع، وقد أحجم يومها - للمصادفة - مراجعو مركز الدرك عن القدوم بشكاياتهم المـُعتادة لعدلية شعب عامر، من زيادة الاستمتاع بقراءة التاريخ، والتلصُص على شطحات (الأفندي) وأخبار السابقين الجيد منها والسيئ.

... أربع رسائل بقيت لم يقرأها بعد رئيس الدرك، وهذا معناه

(1) البصاصين: المخبرين السريين.

Twitter: @ketab_n

أربع دورات من أباريق القهوة وعشبة النعنع المُصاحبة لقراءة الرسائل بشكل مُركز، لكن يبدو أن الرسالة الرابعة بأوراقها الكثيرة، ستحتاج إلى أكثر من (تلقيمة) للسائلين الساخنين، وإلى كثير من التحديق والاهتمام.. وحيادية المشاعر:

بسم الله الرحمن الرحيم

أخي (حمد بن محيمل)

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

لعلكم والأهل والإخوان في (الرياض) بخير وعافية، وأرجو أن تكون سنتكم هذه، أفضل من دهر[1] العام الفائت، كما أدعو الله تعالى أن يخفف ما بكم من آلام المرض ومتاعبه.. التي أعرفها جيداً!

..(حمد):

عند أسوار الدرعية حيث وقف (إبراهيم بن محمد علي باشا) أياماً وهو يستعد لاقتحام عاصمة السلفيين، التي (كانت) منيعة لسنوات طويلة خلت، سأقف هُنيهةً، وكأنني لم أعد أسمع صوت المدافع (الفرنسية) وهي تُخرج ما في أحشائها من قذائف، ثم وتلك المحشوات وهي تتساقط على بيوت من كانوا قبل ردح من الزمن، يثيرون الرعب والهلع، في أماكن بعيدة جداً عن تلك البيوت المُتلقية - الآن - حِمماً هي خليط من الرصاص والكبريت. وكأنني لم أعد أسمع عويل النساء وصيحات فزع الأطفال وحوقلة العجائز. سأقف بك، وبالزمن المرعب - ذاك - المصادف ليوم الثلاثاء ثالث يوم في شهر جمادي الأولى لسنة 1233هـ[2]، لأطرح فاصلاً من الأسئلة يحجب - ولأسطر قليلة - بين

---

(1) الدهر عند أهل نجد مصطلح يعني: سنة الجفاف وقلة المطر.

(2) المصادف للحادي عشر من مارس سنة 1818م.

Twitter: @ketab_n

سرد ما حدث في أيام انهيار (دولتنا) السعودية، وبين ما سأقوله.. وفيه الكثير من كلمات (لو) و(حبذا) و(لربما)..

..لو أن الإله، يا (أبا راشد)، قد منحني زوجة شابة فاتنة الجمال ذات عقل ودين.. مُحبة وحانية، أُرزق منها بـ(جيش) من الأبناء والبنات.. أنا وهي نذهب سوياً عند مطلع كل شمس لمزرعتنا ذات النخل والفاكهة المروية من عين جارية لا تنضب، ثم نعود عشيةً لبيتنا الطيني الذي يفتقد كل شيء إلا المودة والرحمة، وتلك المشاعر السامية التي يُطلق عليها أهل مصر اسم الحب، ويسميها أهل هذه البلاد.. بالعشق؛ لو أن هذا حدث أكنتُ قد أصابني من الدهر ما أصابني؟ أكان ممكناً أن تُشطب تلك (الرزايا) من كتاب عمري التي ينفر منها الجميع بمن فيهم أنا؟!

... وكأنني أسمع طلقات الرصاص وأصوات التكبير حول شعيب (غبيراء)[1] وأتجاهلها - للحظات - لأواصل معك أحاديث.. الـ"لو"!

... لو أن تلك الجموع المليئة بالحماسة الدينية، الراغبة في تغيير العالم ليصبح سلفياً مثل عالم الصحابة والتابعين؛ عِلمت أن منظارها للدين والحياة وللاختلاف، ليس هو الوحيد المُتاح للناس، لرؤية الدنيا وما فيها؛ وأن الآخرين لديهم معانٍ أُخرى للتوحيد وللالتزام بالسُنة، ولمعاني الرأي والعلم. وأن لديهم كذلك هموماً في المعاش ووجهات نظر في السياسة.. وفي كيف تُعامل النساء؟ لو أنهم أدركوا هذا وطبقوا اجتهاداتهم على شكل رسائل (علمية) بين علماء الدين المختلفين، يشرح كل واحدٍ - حسب مذهبه وطرق تفكيره وتأويله - للآخر، مقدار الاختلاف والاتفاق فيما بينهم، بدلاً من توحيد البلاد والعباد بالسيف

---

(1) أحد شعبان الدرعية الواقع في الشمال الغربي منها، وفيه دارت معركة كبرى بين جيش إبراهيم باشا وعبد الله بن سعود.

Twitter: @ketab_n

القاهر، وعلى مذهبٍ ورؤية واحدة للدين.. لو أن هذا حدث أكان من الممكن أن أسمع ومعي كثيرون، مدافع (إبراهيم باشا)، وأن يكتب المؤرخون الحقائق والمغالطات عن فظائع (غزوات) كربلاء، وحُجرات الأمانات النبوية؟

يا حبذا (لو) أنَّ مَنْ أُتيحت لهم فرصة تعلم القراءة والكتابة في الدرعية ومحيطها، قد استزادوا من العلوم الأخرى في كل الفروع، لو أنهم فعلوا هذا لكان من الممكن أن تتسع مداركهم، ولكان موقفهم من الآخر المـُخالف غير ما تعاملوا من خلاله معه!

..هذه مجرد تساؤلات وأمنيات منبعها روحي صرف، لكن خاطراً عقلياً يقول: إن كل المحاربين في الجيوش في الدنيا كلها، قديماً وحديثاً، كان لدى الكثير منهم زوجات مُحبات جميلات، صغيرات في السن قادرات على الإتيان بالبنين... أحباب الله، ومع هذا فلم يردع هذا العامل الجاذب للاستقرار، فكرة التحارُب والعِداء، بين تلك المجاميع من البشر، القاتلة والمقتولة، المنتصرة والمهزومة، الفاتحة والمفتوحة. بل إنَّ النساء - أنفسهن - خالبات عقول الرجال، اللواتي بدأت بهن فاصل كلمات التمني (لو)، قد يكُنَّ مدعاةً وسبباً في دفع رجالهن إلى امتطاء الصعاب، وتكبد الأهوال، بحثاً عن الزعامة والمال الذي لا يفنى!

أما - لو - الثانية المتعلقة بسلفيي الدرعية، وركونهم إلى رسائلهم العلمية المُرسلة إلى هذه الجهة العلمية الدينية أو تلك في العالم الإسلامي، كوسيلة مُثلى للتغيير والإصلاح بدلاً مما صار منهم وعُلم، فتلك أفكارٌ تصلح فقط للسُذج مسطحي التفكير - وأعدُّ نفسي منهم - لأن عالم جزيرة العرب.. فضاء دعوة الشيخ، لم يكن مُهيئاً أبداً لمثل هذا النوع من التغيير. السيف لا غيره، والقوة لا سواها، هما وسيلتا التغير المتاحة في عالم لم يسمع أن داعيةً يتكئ على عصاه وبين يديه

Twitter: @ketab_n

قراطيس وأقلام مع أحبارها، كان قادراً على إنهاض الأمة والمجتمعات وإزالة معوقات العقل وألبسة التخلف، من خلال وسائل مسالمة بسيطة.. كتلك التي في مخيلة الحالمين.

لقد استمر شيخنا[1] ردحاً من الزمن وهو يدعو الناس إلى العودة إلى بساطة الإسلام وفهمه الفطري، الخالي من وجود الوسائط والتأويلات الفكرية المزعزعة للإيمان كما يفهمه الشيخ. وفي دعوته تلك جال على مدن: البصرة - وفي رواية على الشام - ومكة، والمدينة المنورة، والإحساء، وحريملاء، والعيينة، فلم يجد إلا الاستهزاء بما يقول والتقليل من شأنه حتى من أقرب الأقربين له، ولو أنه اكتفى بدعوته المجددة ورسائله الدينية في وريقاتها المهترئة فحسب، ولم يتجه إلى الدرعية حيث النصرة بالسيف وإطلاق تكبيرات (الجهاد) بنوعه الذي فهمه الأمير[2]، لو أن هذا حدث لما عرف العالم (الدولة السلفية) ولا أفكارها التي تؤمن بها، ولما توحدت أرضٌ لم يكن أحدٌ يفكر أنها ستتوحد لِقلة المطامع بها أو لوحشة أراضيها ومَن يدبُ عليها.. وحتى إن قال آخرون: إنَّ الحياة في هذه الجزيرة على ضُعفها وفقرها وجاهليتها الفكرية السابقة، هي خيرٌ مما أتى به مَن أسموهم بـ(الوهابيين) مِن إكراهٍ وإمعانٍ في القتل!

... لم يكن (أبا راشد) ليستقيم عقلاً ومنطقاً - حسب ما ذكره التاريخ لنا - صلاح الأحوال عميقة التردي في أُمةٍ (ما)، دون إزالة أسباب التخلف.. وإن بالقوة والجبر.. والتسلطن!

تبقى أخي (حمد) مسألة - لو - الثالثة المتُعلقة بتحصيل علوم أخرى مغايرة للعلوم الدينية التي انكب عليها طلاب العلم السلفيون في

(1) يقصد الشيخ (محمد بن عبد الوهاب).
(2) يقصد الأمير (محمد بن سعود).

Twitter: @ketab_n

الدرعية.. أسألُ ثانيةً - وبدون ملل - لو أن هذا حدث وأضيف إلى ما لدى (علمائنا) من إرث الأحاديث والفقه وشروحات العقيدة، أكان ممكناً أن أسمع، وساكنو الدرعية معي، مدافع (الباشا إبراهيم) وأن نشاهد من قبله خيول أخيه (طوسون)، ولا ما حدث قبل ذلك بكثير، في حقب أطلق عليها أعداء الدعوة، عهود التخويف والذعر والإرهاب.. الوهابي؟

الإجابة البسيطة التي يختارها عقلي ولا تريدها روحي..تقول: لم تمنع حضارة أوروبا عندما بدأ عصر نهضتها وبدأت فيها ثورة العلوم في الطب والصيدلة والفلك، وصناعة تسخير الحديد، ولا حتى عندما كتبَ مُبدعوها تلك الإنسانيات وجماليات التذوق الرائعة، لم يمنع هذا - وكان يجب أن يمنع - أوروبا المتقدمة بحضارتها قياساً بتخلف الأمم المختلفة عنها، من اندفاعها نحو الحروب الثورية والدينية والقومية.. والاستعمارية!

... أعود وإياكَ أخي (حمد) إلى حيث المكان والزمان اللذان ارتبطا باسم الجبارين - السابقين - في الدرعية، والجبار اللاحق (إبراهيم باشا) عبر سؤال لابد من طرحه كمدخل للفهم: عاصمة الدولة التي بدأت مدافع الجيش القادم من مصر بدكها، أكانت مدينة تمتلئ فقط بالبشر الزُهاد المتعبدين غلاظ القلوب، محبي الآخرة، المُقصين للآخرين المخالفين؟ الحقيقة أن تلك المدينة لم تكن بتلك الصورة التي رسمها أعداؤها عنها، وعن افتقادها الكُلي لغير (هؤلاء) الذين أحاط الكثيرون أفعالهم وأفكارهم، بتلك الإطارات المشوهة، التي لا تخلو - في رأيي - من زوايا صدق.. هنا وهناك.

... في داخل الدرعية كان هناك تنوع اجتماعي واضح للعيان.. هناك مثلاً: الحكام من (آل سعود) الذين سكنوا الدرعية قديماً وحكموا من خلالها مناطق واسعة في الجزيرة العربية، وما جاورها من البلدان لمدة تتجاوز السبعين عاماً. والحقيقة أن (الأجداد) لم يكونوا هم أول

Twitter: @ketab_n

من استوطن الدرعية، فقد سبقهم بكثير، جماعة من أقربائهم يسمون (الدروع) من بني حنيفة.. هؤلاء اشتق من اسمهم اسم (الدرعية)، تلك المنطقة الواقعة في منتصف وادي (= حنيفة) شمال غرب تلك المدينة التي أعياني حكمها.. الرياض! هذا الوادي المشهور (حنيفة) تنبع مياهه في السنوات المطيرة من مرتفعات جبل طويق، ويصب في مناطق قريبة من واحة (الخرج) اسمها (السهباء)، وبهذا فالوادي المذكور يجري على امتداد ما يقطعه راكب الذلول[1] المُسرعة في نهار.

الأحياء في الدرعية المسكونة تقع على جانبي الوادي من الشرق والغرب، وهناك بقية مساكن وحصون وأسوار توزعت على سفوح الجبال المحيطة بالدرعية ومسطحاتها.

هذه العاصمة القديمة التي دُمرت، أقدم لك أخي (حمد) جزءاً من جغرافيتها وتاريخها بدءاً بحكامها القدماء، حتى يعرف من يأتي بعدك من أبنائك وأحفادك، كيف سار التاريخ بالأقدمين وأوصلهم إلى ما وصلوا إليه؟

الدرعية...المنكوبة بجيش (إبراهيم باشا)، أقامت أول علاقة مع من صنعوا تاريخها.. المجيد منه والعجائبي، عندما أقطع (ابن درع) ابن عمه (مانع المريدي) جد الأسرة السعودية، القادم - للمصادفة - من بلدة في القطيف تسمى (الدرعية)، منطقتين تسميان: (المليبيد) و(غصيبة) اللتين تكونان الدرعية المعروفة.. كان ذلك سنة 850هـ. وفي تلك الأزمنة حكم (مانع) وأبناؤه وأحفاده الدرعية مع تناوبٍ للحكم في بعض السنين مع عائلتين أُخريين إحداهما (آل وطبان) المجتمعة مع أسرتي في جدهم الأول (مرخان بن إبراهيم بن ربيعة)، والثانية دُعيت بـ(القبس).

انتقل الحكم - في تلك الأزمنة - من الأب الحاكم إلى الابن

---

(1) الذلول: من أسماء الأبل.

Twitter: @ketab_n

وراثياً، بدون تسمية لولاية العهد بصورة علنية واضحة، وعلى امتداد عهود ستة عشر حاكماً على الدرعية، من عهد (مانع) إلى عهد مُناصر الدعوة الإصلاحية، خلافاً لما سنّهُ بعد ذلك الشيخ (محمد بن عبد الوهاب) مع أبي وجدي.

الدرعية وهي تضم طبقة الحكام إلى جانب الطبقات والفئات الأخرى، شهدت منازلها المخصصة لولاة أمرها، ازدحاماً بين أجيال (آل مقرن)[1] الحاكمين منهم، وغير الحاكمين من الأجنحة البعيدة عن السلطة المباشرة. لكن هؤلاء البعيدين عن إمكانية توليهم حكم الدولة، كانوا في الوقت نفسه يقومون - بحكم انتمائهم العائلي - بأدوارٍ مهمة في إدارة شؤون دولتهم، فمنهم من كان يقود الجيوش، ومنهم أيضاً رؤساء لجباية الزكاة التي كانت مهمة للصرف على مناحٍ مهمة للكيان السياسي الناشئ.

خدمَ الأسرة السعودية الحاكمة طوابير من الخدم والمماليك الذين ارتبطوا بشكل مباشر مع رعاتهم.. في العمل والسُكنى غير البعيدة، وقدر بعضهم - وهو يبالغ - حرس الأئمة بألف من الحراس الذين يملك بعضهم الخيل والركايب. ومن مهام الحرس الأساسية حفظ أمن الحاكم وخاصةً بعد اغتيال جدي الإمام (عبد العزيز بن محمد) سواءً كان هذا الحفظ في المسجد أو حول بيوت (العائلة)، إلى جانب وظائفهم الأمنية الأخرى في مواسم الحج والعمرة والأعياد؛ وتتداخل وظائف الحرس الشخصي مع وظائف المماليك إلى حد يصعب التفريق معه تماماً بين صفات الفئتين؛ وهنا أود (التوقف) عند تلك الفئة التي سُميت بالمماليك والمتخذة حي (العبيد) المجاور لـ(الطريف) سكناً لها. فهؤلاء ليسوا

---

(1) (آل مقرن): تسمية مرادفة لاسم الأسرة المالكة (آل سعود) ويعود هذا الاسم إلى جد الأمير (محمد بن سعود بن محمد بن مقرن).

Twitter: @ketab_n

كمماليك مصر في جذورهم، ولا في درجات ارتقائهم للسُلم الطبقي. فجذور مماليك الدرعية الذين يسمون أيضاً بـ(العبيد) تعود لأفريقيا تحديداً، في مقابل الجذور التركية والمغولية والشركسية لمماليك مصر، والذين كان بإمكانهم حكم مصر بهذه الطريقة أو تلك، أما مماليك الدرعية فكانوا حُراساً وخداماً - فقط - لأفراد الأسرة المالكة، وحتى للعلماء من أسرة الشيخ (محمد بن عبد الوهاب). لقد وصلت أعداد المماليك وخاصةً الرجال العاملين منهم في منازل (أسرتنا) إلى أعداد كبيرة أُقدرها، كما قدرها آخرون من المؤرخين الذين عاصروا نهايات (دولتنا) بألف مملوك من الذكور، إلى جانب ما يقدر بمئتين من الإماء!

عاملَ يا أخي (حمد) الحكام من أسرتنا عبيدهم معاملة حسنة تقترب إلى مستوى الأخوة. وكان الطرف الأضعف يُحب أسياده الذين بنوا أحياء سكنية كاملة لهم، وأمدوهم بالخيل والسلاح في مقابل إلزامهم - كما قلنا - بحراسة (أعمامهم)[1] والقيام بمهام التشريفات وترتيب الاستقبالات والولائم.

وعند عودتي الإنقاذية المتأخرة للرياض قادماً من مصر قرأت صفحات للمؤرخ (ابن بشر)، حول هذا المنحى من الحديث عن الحراك الطبقي داخل الدرعية: "إذا جاء وقت طلوع الشمس جلس الناس من أهل الدرعية وغيرهم للدرس في (الباطن)، ويجتمع جمع عظيم بحيث لا يتخلف إلا النادر من أهل الأعمال، ويجلسون في حلقات، كل حلقة خلفها حلقة لا يحصيهم العد، ويخلى صدر المجلس لـ(سعود) وبنيه وإخوانه، ويأتي كل رجل من هؤلاء بحشمه وخدمه ليجلسوا عند أبناء (الشيخ)، ثم يأتي أبناء سعود أرسالاً أرسالاً، كل واحد منهم يأتي (بدولة) عظيمة من خواصه وحشمه وخدمه، فإذا أقبل أحدهم على تلك

(1) أعمامهم: أسيادهم.

Twitter: @ketab_n

الحلقة لم يقوموا لأنهم لا يرضون بذلك، بل كل رجل من أهل ذلك المجلس يميل بكتفه حتى يخلص إلى مكانه عند أعمامه، فإذا اجتمع الناس خرج (سعود) من قصره ومعه دولة وجلبة عظيمتان تُسمع جلبتهما كأنها جلبة النار في الحطب اليابس من قرع السيوف بعضها في بعض من شدة الازدحام، لا ترى فيهم الأبيض من الرجال إلا نادراً، بل كل مماليكه رجال سود معهم السيوف الثمينة المحلاة، وهو بينهم كالقمر في فتق سحاب، فإذا أقبل من ذلك المجلس قام له الذين في طريقه لئلا يطأهم العبيد حتى يخلص لمكانه، فيسلم على الكافة ثم يجلس بجانب (عبد الله).. ابن الشيخ. وهو الذي عليه القراءة في ذلك الدرس، فإذا تكامل جلوسه التفت للعلماء والرؤساء من المسلمين عن يمينه وشماله فسلموا عليه ورد عليهم..الخ. "

لم تكن أخي (حمد) مثل هذه الطقوس تُرضي ما في داخلي من رغبات للهو والنـزق البريء، لكنها طقوس لابد من احترامها وإن كرهها أحدنا، لأن البديل هو الإقصاء وتوجيه الشائعات عن رجولته الناقصة، أو خوفه الـمُذل، وبذا يخرج عن الإجماع وعما استقرت عليه الأجيال من محافظة على الإرث الفكري للسابقين، الذي يرى أن الحياة الأميرية والإمامية مكانها (الصدر) بهيلمانه وكتبه الدينية.. أو القبر! وعندما يشتد وجدي لصورٍ غير التي أراها كل ساعة، وطقوس غير التي نؤديها يومياً، ومخيلةً غير ما أسمع عن تكفين الملائكة للشهداء ومُتع المحاربين في سبيل الله عندما يُلحدون في قبورهم؛ أو عندما تغشاهم رحماتٌ في برزخهم، استعداداً للانتقال لقصور الجنة حيث حور العين اللواتي ينتظرن بلهفة المؤمنين الصادقين (المجاهدين). عندما يشتد حنيني يا (أبا راشد) لغير ذلك المحيط، مع إيماني المطلق بما يقوله، لا أجد إلا والدتي الأَمَةُ الحبشية الرؤوم، حيث تروح تحدثني وأنا واضع رأسي على إحدى ركبتيها عن أساطير الحبشة، والصراع بين الخير والشر الـمُتشكل في

Twitter: @ketab_n

صورة مناظراتٍ بين فتاتين جميلتين تميل كل واحدة منهن إلى هذا النقيض أو ذاك. وتروح تحدثني وهي تتلاعب في خصلات شعري الطويل، عن الأنهار الاستوائية ومنابعها، والأسماك وألوانها، وعن خط الرحمة[1] وبلورات البـرّد؛ وعن الزنج ورقصاتهم، والغابات وأصوات ضفادعها؛ على تلك الرُكبة الناتئة لأمي، أجد سلواي منذ كنت صغيراً جداً، وحتى عندما بُثت شائعات عن نية أخي الإمام (عبد الله) في أخذى وغيري من المـُشرفين على البلوغ إلى ساحات الحرب والجهاد.

... وعلى ذكر والدي الإمام (سعود بن عبد العزيز): أود أخي (حمد) أن أُشير إلى شيء مهم؛ فذاك (الإمام) الذي توفى وعمري يكاد يلامس الثالثة عشرة، لم أشعر يوماً بأنه قريب عاطفياً مني.. أتدري لماذا؟ لا لأنني ابن جارية كما سيخالجك الظن - على الأغلب - عند وصولك لهذه الكلمات من البوح المكتوب، فوالدي يا (أبا راشد) لديه كثيرٌ من أبناء الحرائر والإماء والذين أخالهم يشعرون بما كنت أشعر به؛ السبب الأغلب لذلك الإحساس من البُطء في التواصل العاطفي بيني وبين والدي، يعود إلى أن (الإمام) انشغل عن إقامة علاقات كنا ننشدها نحن الأبناء منه، وهو (يجاهد) في بداية حياته مع أبيه لتأسيس أركان الدولة السعودية الإصلاحية الأولى، ثم انتقل بعد ذلك إلى الدور الثاني من عمره، حيث راح يوسع حدود الدولة ويفتح البلدان والقصبات، ويدعم كيانه السياسي بموارد (الفتح)، في نفس الوقت الذي كان يخاطب فيه حكام الكيانات (السياسية) الأخرى، تارةً عبر الرسائل، وتارةً أخرى من خلال الغزو، وإن بقي له وقت - وهذا نادر - فإنه يستقطعه لحل خلافاتٍ لها ألف وجهٍ ووجه، تحدث بين تلك الأعداد الغفيرة من الإخوة وأبنائهم، بالإضافة إلى أبناء العمومة الكُثر.

(1) قوس قُزح.

Twitter: @ketab_n

رجلٌ مثل (هذا) من أين يأتي بفائض من العواطف ليبثهُ لِغُلامٍ حالمٍ من أبنائهِ الكُثر؟ على هذا الفتى إن أراد خيراً بنفسه وبوالده وأسرته أن يتدرب أكثر على ركوب الخيل واستعمال السلاح استعداداً ليوم فتح أو شهادة في سبيل الله.. أليس في ذاك تنفيس للمكبوت من العواطف؟!

... أعود ثانيةً أخي (حمد) إلى حيث كان يقف (إبراهيم باشا) عند أسوار تلك العاصمة التي يستعد لاقتحامها، فأقول تذكيراً لأخي صاحب الذاكرة القوية: إن الدرعية لم تكن فقط حكاماً وعلماء يتلون كتاب الله ويفسرونه، بل كان إلى جانب هؤلاء، فئاتٌ أخرى من السكان المشكلين فسيفساء من البشر. فالأهل من الحكام من أمثال الوالد وأبنائه (سعد) و(عمر) و(مشاري) اختاروا حي (الطريف) لإقامة قصورهم السكنية الملاصقة لباقي إداراتهم. وغير بعيد - وبدون منافسة - كانت هناك أحياءٌ طينية أخرى خُصصت للشيخ (محمد بن عبد الوهاب) وأسرته وطلابه ومُريديه، وأقصد هنا حي (البجيري) الذي ضاق في السنوات المتأخرة من عمر (دولتنا) بهذا الحشد الهائل من ساكنيه الأوائل وأسرهم، إلى جانب الوافدين لطلب العلم من مختلف بلاد نجد.

وفي الجوار أيضاً كان هناك حي آخر آهِلٌ بالسكان واسمه (غصيبة). هذا الحي تسكنه العائلات ذات النفوذ المنخفض دون نفوذ الأسرة الحاكمة وعلماء الدولة، لكنهم يبقون أُسراً ذات شأن في ثرائها - النسبي - وعراقتها؛ ومن تلك العائلات: عائلة (آل دغيثر) اليزيديون من بني حنيفة.. و(آل طوق) وغيرهم. وفي فترة من الزمن ولسبب غير معروف عند أكثر الناس في تلك الأيام، بنى والدي الإمام (سعود بن عبد العزيز) قصراً عظيماً في هذا الحي جعل أبوابه من حديد، ولعل مرد

Twitter: @ketab_n

ذلك - في رأيي - يرجع إلى رغبة والدي في إرسال إشارة لمن يعنيهم الأمر، برغبة الإمام (الداهية) في التقرب إلى تلك العائلات التي كانت تلعب أدواراً مهمة في صناعة تاريخ عاصمته حينئذ.

إلى جانب تلك الأحياء العامرة، هناك حي قديم يسكن فيه بعض المُهمشين من الرعية، هذا الحي اسمه (المليبيد) ويقع أسفل الدرعية باتجاه الذاهب جنوباً إلى بلدة (عرقة).

ولأن الدرعية بلدة زراعية أصلاً، فإن المُلاك المزارعين كانوا يمثلون نسبةً لا بأس بها من السكان، إلى جانب فئة زراعية أخرى كانت تشتغل عند المالكين للمزارع؛ وإلى جانب هاتين الفئتين تواجد في الدرعية ناظرو البساتين. لكن لا يجب ألا يُفهم من كلامي هذا، أنَّ المزارعين مُلاكاً كانوا أو عاملين، لم تأخذهم رياح التغيير الديني الذي صبغ الدرعية بألوانه، فكثيرٌ منهم عندما تنتهي ساعات عملهم وإشرافهم على زراعة البساتين وسُقياها، يراهم المُتابع وقد أخذوا أماكنهم كطلاب علمٍ عند الشيخ (محمد بن عبد الوهاب) أو مُتحلقين حول أبنائه العلماء من بعده، أثناء إلقائهم لدروس العلم في المساجد والباحات. وهناك نقطة - بالتأكيد - لا تغيب عن بال أخي (حمد) وهي أن (آل سعود) و(آل الشيخ) كانوا أنفسهم يُعدُّون من كبار مُلاك المزارع في الدرعية، فوالدي لديه (حيالة) كبيرة في (مشيرفة) لا ينقطع عنها أثناء تواجده في عاصمة حكمه، والتاريخ يقول لنا: إن هذه المزرعة - بالذات - تلقت وتلقى مالكُها أنباء مصرع جدي الإمام (عبد العزيز بن محمد) سنة 1218هـ[1].

ولا يمكن يا أخي (حمد) وأنا أطوي هذه الصفحات الاسترجاعية الوصفية لتلك العاصمة التي شهدت حقب صِبا وعنفوان الدولة ذات

---

(1) الموافق لعام 1803م.

Twitter: @ketab_n

الرسالة والأهداف التوسعية النوعية، وشهدت كذلك تضعضع الدعوة الإصلاحية التي أحيت تلك البلدة التاريخية من عدم، دون أن ألمح إلى جانب مهم رفد (دولتنا السعودية) وجعلها أكثر قابلية للحياة، بل واكتساح الجزء الأكبر من الجزيرة العربية العصية على كثيرين من قبل، أتعرف ما ذاك الوقود؟..إنه عمران بيت مال الدرعية!

... بلاد نجد عموماً بما فيها (الدرعية) التي اشتهر اسمها وذاع، لم تكن أمورها المالية مثل الحجاز والإحساء؛ فالأولى كانت تعتمد كثيراً على الرواج التجاري الذي تبُثُهُ في أوردتها المالية مواسم الحج والعمرة، إلى جانب تحمل العثمانيين عند استيلائهم على الحجاز، لتبعات كثيرٍ من الصعاب المالية، التي كانت تداهم الديار الحجازية في بعض السنوات - وما أكثرها - نتيجةً للظروف السياسية والأمنية، المحيطة والمانعة لتدفق الحجيج والمعتمرين، إضافة إلى القحط الذي لا يكاد يفارق الجزيرة العربية، عدا سنوات قليلة من الإنفراج المطري، يُشار إليها لاحقاً بسنوات الرخاء والرجع.

العثمانيون كانوا يدفعون رواتب العلماء الحجازيين، وكانوا أيضاً يهبون أموالاً كثيرة لـ(أشراف) مكة الحاكمين وأسرهم، مقابل حفظ أمن المدينتين المقدستين وما حولهما، بالإضافة إلى تأمين سلامة قوافل الحجيج القادمة من تركيا والشام والعراق.

أما الإحساء، فقد كانت وفقاً لطبيعتها الزراعية وهيمنتها السياسية على بعض موانئ الخليج والواحات الأخرى، أكثر غنىً من نجد بكثير، ولهذا فليس من المستغرب أن تتجه أنظار أي قيادة قوية في نجد صوب الإحساء، كترجمة للرغبة الدفينة التي لا تحتمل التأجيل في السيطرة على المورد، الذي يقي نجد وحاكميها احتمالات الموت جوعاً، والهبوط نحو الاضمحلال السياسي.

... حسب المعطيات السابقة، فلا غرابة أن تزدهر الحجاز

Twitter: @ketab_n

والإحساء مالياً قياساً بنجد، ولا غرابة كذلك أن تتواجد على أرض الكيانين المـُشار إليهما طبقة التجار الذين لا يكادون يُرونْ - إلا قليلاً - في الدرعية، المترجمة بأوضاعها الاقتصادية المعروفة، أحوال نجد الأخرى المشابهة لها. فالتِجارةُ والتجار يحتاجون إلى الأمن والاستقرار وثبات - نسبي - في الحياة الاجتماعية، الأمر الذي سينعكس على الأحوال النفسية لأفراد المجتمع وهم يبيعون ويشترون ويُسمسرون؛ وإن كان الأمن والاستقرار داخل الدولة السعودية قد نجح نجاحاً باهراً خلال حكم الإمام (محمد بن سعود) وابنه وحفيده، فإن هذا النجاح لم ينعكس بصورة إيجابية، على شكل علاقات حسنة أو حتى طبيعية مع كيانات الجوار وعشائره؛ وبناءً على هذا، فإن انتفاء مثل هذه العلاقات الطبيعية والحسنة، أدى إلى عجز قوافل التجار عن تأمين نفسها، وبالتالي توقف نشاطها، فكل فريق مُحارب جعلها هدفاً للثأر أو لإشاعة الأخبار حول صعوبة حفظ سلامة القوافل التجارية، دون اتفاقيات سلام - أو استسلام - يوقعها الطرف الخانع مع الجانب الآخر المُكشر عن أنيابه؛ وفي حال افتراضنا وجود مُدن تمثل مراكز تجارية في نجد أبان تلك الفترة التي سبقت استعداد مدافع (إبراهيم باشا) لإطلاق قذائفها، فإنني أستطيع القول لك يا (أخي) - مع تحفظ كبير - وأنت الشاهد على أوضاع تلك الأزمنة: إن مدينة (الرياض) منافسة الدرعية في أوائل نشوء الدولة السعودية، كانت تشهد انتعاشاً اقتصادياً - حسب مفهوم القُدماء - ففيها دكاكين تستورد وتبيع البضائع كالأغراض المنزلية والحيوانات من إبل وغنم، إلى جانب بيع المواد الأولية للمأكولات والمشاريب النجدية وإسناداتها الأخرى مثل: الودك[1]، والبن والهيل والمسمار، وكانت توجد في تلك الحوانيت أقمشة ملابس النساء وأغطية الرأس للرجال

(1) الودك: سمن حيواني.

Twitter: @ketab_n

وبشوتهم[1]، ولا تخلو تلك المحلات من بائعي المصاغات الرديئة وصانعي الأحذية.

القصيم كانت أفضل حالاً من الرياض؛ لأنها مُلتقى عدة طرق تجارية، قد تكون مجدية في حال ما إذا سلمت من النهب والسلب، وأفضل حالاً كذلك لأن سكانها جُبِلوا على الاغتراب طلباً للرزق الذي لم تكن التجارة إلا مورده الأول والأهم، أما الدرعية والقرى التي حولها والمـُشابهة لأحوالها، فإن طبيعتها الزراعية - المتوقفة على إدرار المطر أو انحباسه - كانت هي المحرك لنشاطها التجاري المتواضع، لأن أغلب السكان المنخرطين في الفلاحة، يكتفون بإنتاجهم الزراعي لسد حاجيات أسرهم من الغذاء الزراعي، والباقي منه يذهب كتسديد لديون سبق أن أُخذت مقابل البذور والفحال[2]، والحيوانات المساعدة في ملء السواقي ورفع مياه الآبار، والفائض - وهو نادر - يُعرض للبيع بدراهم بخسة.

... على العموم فموارد (دولتنا) بعد هذا العرض الكئيب عن الأحوال الاقتصادية للمحيط النجدي، كانت تأتي من الزكاة أولاً التي جعلتها الحاكمية السعودية، وتوجيهات الشيخ (محمد بن عبد الوهاب)، اختباراً لمدى التزامهما والتزام الأمة - التي تأثرت بالدعوة الإصلاحية وسيفها المناكف لأعدائها - بشريعة الله وأركانها الأساسية الأخرى المتعلقة بالإيمان والاعتقاد. وعليك أن تعرف يا (أبا راشد) ومَنْ قرأ رسائلي من خواصك بعدك، بأن الزكاة في أيام أئمة (آل سعود) وعلماء دولتهم، كانت دليلاً أيضاً لا يقبل الشك على الولاء السياسي وخضوع هذه البلاد أو تلك (للدرعية)، كما كانت دليلاً على قوة رجال جباية

(1) البشت: عباءة الرجال التي توضع على الكتفين وتصل حتى الكعبين.

(2) الفحال: لقاح النخل.

Twitter: @ketab_n

الزكاة ومن يرسلهم؛ وكثيراً ما تنشب الصدامات المسلحة بين مركز الدولة والمُزكين، بسبب الامتناع أو التسويف في دفع الزكاة المنتزعة من الحضر والبدو.. مُلاك الأغنام وأصحاب الرعايا والحلال[1]؛ أما أصحاب المزارع والتُجار فكانت الأنظار مُسلطة عليهم دائماً لجباية زكاة أموالهم المُكتنزة.. افتراضاً!!

أما المورد الثاني للدولة والمنصرف لرعاياها المحتاجين، وعلى الضروريات الأخرى الضامنة لسلامة الأوطان ومن يعيش فيها، فكان (عشور) التجارة المقتطعة من بضائع التجار الآتين ببضائعهم من شرق وغرب الدولة السعودية واليمن كذلك..

هذا المورد يا (أخي) كان مدار بحث واعتراض من قِبل (المشايخ)، الذين يرون أن الله سيعوض (آل سعود) الحكام عنها في حال أعلنوا الجهاد الذي سيتأتى منه خير كثير! والأكيد أن وجهة نظِر الحُكام تغلبت على وجهة نظر المُشرعين.. لأن الله ينزع بالسلطان ما لا ينزع بالقرآن!

... هناك مورد مهم آخر لبلادي، أخي (حمد)، وهو موردٌ له علاقة بحركية (دولتنا) وتوسعها الإصلاحي؛ ما أقصده هنا هو (الغنائم)، أي ما يؤخذ من المحاربين في سبيل الله ورسوله وعملاً بمقتضيات الدعوة الإصلاحية؛ المورد المُشار إليه كان يعتبر عموداً لـ(خيمة) الدولة التي تُظلل الرعية، ويمارسون تحتها حياتهم التي أبانت الدعوة الإصلاحية حدودها وأشكالها؛ فخُمس الغنائم يذهب لبيت مال المسلمين وما بقيَ يتم تقسيمه على (المجاهدين)، وكلما زادت (الفتوحات) زادت بالتالي الغنائم ومكاسب المقاتلين والدولة معاً.

... آه..! نسِيت: سيتساءل أعقابُنا - بالتأكيد - عن تعليم

(1) الرعايا والحلال: مصطلح للأعداد الكبيرة من الإبل.

Twitter: @ketab_n

أجدادهم الذين كتبوا هذه الرسائل، وعن الذين أُرسلت لهم كذلك؟ أنا وأنت وكثيرون في الدرعية منحنا الله (نعمة) الكتابة والقراءة، وكان وجود طلاب العلم واندفاعات تحصيل الدروس عند المشايخ، وضرورات حفظ القرآن والحديث والتفقه في علومهما، عوامل ضغطت على الداخل في الدرعية لإزالة وصمة الأُمية المرادفة لسكان هذه البلدة القديمة.. وكل بلاد نجد تقريباً؛ أنا - مثلاً - حفظت القرآن وعمري ثماني سنواتٍ فقط، وأنت تأخرت كثيراً - في الحفظ - بعدي.. كما أذكر! أنا - وأعوذ بالله من كلمة أنا - تنبأ لي جمعٌ من المشايخ والحفاظ بأنني سأكون مُبرزاً وعلماً في علوم التفسير والفقه، ووصفني أحدهم: بأن (آل سعود) لم يُولد لهم ولدٌ بمثل ألمعيتي وذكائي، وقد تكون تلك الصفات، التي زادتها رغباتي في كسب العلوم المختلفة، والقراءات الحُرة الموسعة في مصر والآستانة، أسباباً لما أنا عليه الآن من سوء حظ وتعاسة!

... يا ربي!

أتصدق يا (حمد) أنني لا أود أن تنتهي تلك السرديات الرتيبة فاقدة المعنى، حول وصف الدرعية وما كان عليه حال أهلها، وأنا أكاد أصل إلى حيث مدافع (إبراهيم باشا) وهي تُحشى بالبارود والكبريت.. بالتأكيد عرفت لماذا أريد أن استرسل في عالم هوامش الأحاديث، وألا أدخل - عامداً - في عالم استحضار تاريخ تلك الأيام المليئة بصورٍ لا تُنسى: مشاهد الأكفان، والأشلاء، والقبور، ونُخاعات عظام الجرحى البارزة، والذين لا يلبثون - وهم يئنون - حتى تشخصَ أبصارهم علامةً لأهلهم النائحين، بأن هذا المُصاب أو ذاك، قد سلِمَ - وهو يغادر الدنيا - من سجن (إبراهيم باشا)، وجيشه المستعجل إنهاء مهمته (العفنة) مهما كانت الكُلفة وأنتنت جُثث ضحاياه!!

Twitter: @ketab_n

... كيف بدأت قصة الدرعية مع الموت والفناء والنهايات السوداء.. دعني أتساءل معك وأنت المنكوب مثلي.. ثم أجيب:

بعد كأس نصف الانتصار ونصف الهزيمة التي شربها (طوسون بن محمد علي باشا) كان لابد من تحرك آخر يُنهي (المسألة الوهابية) بِرُمَّتِها حسب اعتقاد والي مصر ومقر الخلافة في تركيا، وكان هذا الاعتقاد وما سيتبعه من تصرف عدائي، مخالفاً لاتفاقية أخي الإمام (عبد الله بن سعود) مع (طوسون باشا) سنة 1230هـ؛ هذه الاتفاقية التي أشيرُ إليها هنا، لم يوقعها - حسب أقوال أكثر المطلعين- (محمد علي باشا) والي مصر، لأنه أصرَّ أن يأتي أخي الإمام (عبد الله بن سعود) بنفسه إلى مصر حتى يتم توقيع الاتفاقية معه، وأن يجلب معه أيضاً الموجودات التي يزعم أنها كانت في الحجرة النبوية الشريفة، واستولى عليها والدنا الإمام (سعود) في أثناء (دخوله) لمكة سنة 1218هـ؛ ولأن أخي (عبد الله) قد رفض الذهاب إلى مصر كما طُلب منه - وكان في هذا مُحقاً - لأن الوالي في مصر قد أعد العُدة أصلاً لغزو الموحدين السلفيين في عقر دارهم (=الدرعية)، ولهذا فإن رفض أخي للعرض الباشوي لم يكن إلا حُجةً ضعيفة، لبدء حملة جديدة أعدها الحاكم الألباني على مصر في أواخر سنة 1231هـ[1].

وبين قدوم جيوش (محمد علي) الثانية واصطدام تلك الجيوش، بالجيش السعودي السلفي، قام أخي الإمام (عبد الله بن سعود) بعدة أعمال، اعتبرها - أنا - من مُعجلات النكبة الكبرى للدرعية؛ فقد هاجم مؤدِباً كثيراً من سكان البدو والحضر، بحجة عدم ولائهم له ولدولته أثناء غزوة (طوسون) الأخيرة. حدث هذا خصوصاً مع سكان القصيم، ومع قبائل مطير وحرب. تلك الردود من الأفعال المستعجلة من أخي الإمام

(1) الموافق لسنة 1815/ 1816م.

Twitter: @ketab_n

زادت من حنق الرعية عليه. كان عليه - في رأيي - أن يتودد لهم ويُطيب خواطرهم، ويأتي بهم إلى صفوفه بدلاً من تنفيرهم، وخاصةً وأن هؤلاء كانوا مغلوبين على أمرهم، تجاه جيش جرار مثل جيش (طوسون)، الذي وافق (أخي) على مقاسمته طاولة المفاوضات، والاعتراف بقوته مثله مثل غيره!

. . . ولأن لكل شيء سبباً، حدث هذا التصرف الخاطئ من أخي، والمتبوع، بمراسلات من بعض رؤساء القبائل والأهالي في نجد إلى (محمد علي باشا) تستحثه القدوم إلى ديارهم، كمنقذ لهم من (تعسف) جيش الإمام (عبد الله)! عندها أحس أخي بفداحة خطئه، كما أحس أن (الباشا) ينتظر مثل هذه الهفوات وغيرها، لينقضَّ كرةً أُخرى، ليس على أطراف نجد، أو على شكل مناوشات صغيرة أو متوسطة مع الجيش المُعادي. . مثلما فعلت الحملة الأولى، بل على شكل هجوم كاسح موجه لمركز الدعوة. . حيث تُجيش الجيوش، وتُغذى بعقيدة الجهاد وتكفير الآخرين.

إحساس أخي الإمام (عبد الله) تُرجم على شكل مبعوثين وهدايا ورسائل إلى (الباشا) في مصر، مُبدياً تجديد احترامه للاتفاقية السابقة المعقودة مع ابنه (طوسون باشا)، الذي تُوفي ووالده يُعد جيش أخيه المرسل لبلاد العربان الخوارج. . كما يسمونهم في مصر. وإليك يا أخي (حمد) بعضاً مما جاء في رسالة أخي (عبد الله) التي وجهها تلك الأيام لـ(محمد علي باشا)، وفيها يحاول الإمام السعودي لجم اندفاع والي مصر، وتثبيط همة الهجوم على (حوزة) الإسلام السلفي؛ لقد حصلتُ يا أخي (حمد) على نسخة من هذه الرسالة عند أحد (مماليك) آل سعود المشهورين والمسمى (زويد) والمنحور لاحقاً بيد ابن العم (عبد الله بن ثنيان) الـمُتنافس مع ابن العم الآخر (فيصل بن تركي) للوصول للزعامة ذاتها التي ادَّعيتها لنفسي أيضاً.

Twitter: @ketab_n

... في تلك الرسالة يقول أخي لحاكم مصر مايلي:

(حمداً لمن حمى غِراس المواصلة بوابل هتان من المكاتبة والمراسلة، وأحاط به مادة المقاطعة والمفاصلة، والصلاة والسلام على سيدنا محمد أشرف من أرسله، وعلى آله وصحبه الذين بلغوا من صحبته ومحبته غاية المنزلة:

إلى مَن تشرفت به الدولة المرعية والرتب العلية حتى صار ملهج لسانها، فحلَ من عينها مكان إنسانها.. فريد مصره ووحيد قطره.

بعد التسليمات الوافرة والتحيات المتكاثرة، ننهي إليكم أدام الله سبحانه سوابغ نعمه عليكم، إنه قد وصل إلينا كتابكم وفهمنا ما تضمنه خطابكم، فوقفنا على معانيه، وعرفنا المصرح به والمشار إليه فيه، وما ذكرتم من القبول لما انبرم من أمر الصلح إن كان ما قلنا حقاً وما حررناه محكماً وصدقاً، فنحن بحمد الله للمكر والخديعة مجانبون، وللصدق والوفاء بالعهد معاملون، وليست الخديعة والمكر من شيم الكريم الحر، والصدق قد تقرر من سيرتنا عند البعد، والفضل ما شهدت به الأعداء وليس عندنا لكم إلا الصدق والوفاء، فيما ظهر وخفي، فلكم منا العهد والميثاق، أننا لما جرى بيننا وبينكم ملتزمون، ولأمر المعاقدة محققون، فالواجب منكم مراعاة العهد بالتزام أحكام الحق وإيثار أسباب الرفق لما في ذلك من الصلاح الشامل والخير العاجل والآجل، ومثلك وفقك الله ممن يستغني بإشارة التذكرة ويكتفي بلمحة التبصرة لما تأوي إليه من السياسة والتجربة، وما أشرتم إليه من حروبنا السابقة مع أهل الحجاز وغيرهم فلم نقاتل أحداً منهم ابتداءً، بل هم بدأوا بالقتال بغياً وعدواناً فقاتلناهم دفعاً لشرهم، فجعل الله لنا عليهم سلطاناً ولم نقابلهم بما جرى منهم، إلا إحساناً، فلما كانت لنا القدرة عليهم أمرناهم بإقامة شرائع الإسلام والتزام سائر الأحكام من عبادة الله وحده لا شريك له، وإقامة الصلوات الخمس وصوم شهر

Twitter: @ketab_n

رمضان، وحج بيت الله الحرام، فانحسم بذلك مواد شرهم وفسادهم لأن أكثرهم مفسدون في الأرض مضيعون لما أمر الله من الواجب والفرض، بل أكثرهم للطرق قاطعون وجملتهم للعبث منكرون، وما أشرتم إليه من اهتمامكم بالحرمين الشريفين وسعيكم في مصالحها فهذا أمر قد تحققناه من سيرتكم وعرفناه من طريقتكم، ونحن إن شاء الله نلتزم لكم بذلك، فنم من طرفنا قرير العين والقلب طيب الخاطر واللب، فنحن إن شاء الله في طاعة الله ورسوله يد واحدة على من سوانا معتصمون بحبل الله على من عادانا، وفي الحقيقة ما تحت يدنا من الجيوش والأعوان عسكر لكم وفي خدمتكم بلا ديوان، نسأل الله العظيم أن يجمعنا وإياكم على طاعته ويدخلنا دار كرامته ويعمر بالسؤدد ربعك، ويوسع لحمل أثقال المعالي ذرعك، وصلى الله وملائكته وأنبياؤه ورسله على أشرف خلقه، وخيرته من بريته، محمد وعلى آله وصحبه تسليماً كثيراً.)

حرر في اليوم التاسع والعشرين من شهر صفر 1232هـ

الواثق بالله المعبود عبد الله بن سعود

لم يُجدِ هذا الخطاب - المليء بالسجع والتكلف اللفظي - نفعاً، ولم تُجدِ هدايا أخي (عبد الله) كذلك في التخفيف من اندفاع والي مصر نحو تحقيق مأربِه الأهم، بعد أن تيقن من تثبيت حكمه في مصر.

حينها شغلت (المسألة الوهابية) الوالي كثيراً لأنها ستجعله رجل الشرق الأول، وستجعل الخلافة الضعيفة - إن هُدمت الدرعية على رأس ساكنيها - أكثر اعتماداً على واليها القوي المتطلع لوراثة دولة بني عثمان كلها.

جاء ردُّ (محمد علي باشا) على رسائل حاكم نجد الجديد الأقل دهاءً وبأساً من أبيه الإمام (سعود)، على شكل توارد أنباء من المحروسة.. تقول: إن (إبراهيم بن محمد علي باشا) قادمٌ للحجاز

Twitter: @ketab_n

أولاً، وهو في طريقه بعد ذلك إلى حيث تُدار الدولة السعودية السلفية، المُدعية أن زمانها - الذي ليس له مثيل - قد لاحت تباشيره، حيث ستُملأ الأرض عدلاً بعد أن مُلئت جوراً وظلماً. (إبراهيم باشا) وحسب التقارير التي وردت للدرعية وإماراتها التابعة لها، كان جيشُهُ يضم (الكيف) التسليحي، بالإضافة إلى (الكم) الذي ميزَ جيش أخيه (طوسون)، وأقصد هنا جموع الخيالة والهجانة من المرتزقة الأتراك والألبان والمغاربة الذين قدموا مع الحملة الأولى، أما الثانية فإنها زادت على ذلك بإحضارها للمدفعية ذات القدرة التدميرية الشاملة، والمـُشغّلة من قِبل ضباط فرنساويين من بقايا جيش (نابليون)؛ ولم ينسَ والي مصر أن يزودَ جيش ابنه بالمهندسين القادرين على بناء السواتر الحربية، وصيانة معدات مدفعية الجيش المهاجم، إلى جانب أطباء أوروبيين ذوي أعراقٍ متعددة تحسُباً لتكاثر جرحى.. الغُزاة!

... هذا على الجانب العسكري، أما الجانب السياسي فقد برزت موهبة الأب والابن الألبانيين في إدارة شؤونه؛ فمثلاً لاحظ قائد الجيش القادم من مصر أن خطوط الإمداد بين أول البر الملاصق للبحر حيث ستهبط قواته قادمةً من السويس، وبين بغيته الأخيرة (=الدرعية) ستكون طويلةً جداً، لهذا راح يستميل - عبر رسائله - البدو والسكان الحضر، الذين يمكن أن تمر عبر أراضيهم قواته، وأول تصرف ظهر فيه دهاء المتحكمين في مقدرات مصر بعد حكم المماليك الطويل، كان إلغاء جميع المكوس والزكاوات التي فرضتها سابقاً (الدرعية) على بدو وحضر تلك المناطق، بل وزيادةً في الاستمالة راح (إبراهيم باشا) يُغرق رؤساء العشائر المعنيين بالمال المدفوع لهم ولرعيتهم نقداً، وتزداد الهبات بزيادة الخدمات المُقدمة لجيشه وعيونه المتقدمة.

أما في الحجاز - وهي قاعدة جيشه الخلفية - فقد راح الغازي الجديد يؤمن مركزها الإمدادي، ويبعد احتمالية مهاجمتها وزعزعة

Twitter: @ketab_n

استقرارها، من خلال تعيين شريف جديد اسمه (يحيى بن سرور) بدلاً من الشريف المنفي لبلاد اليونان (غالب بن مساعد).

... وفي الجانب السعودي، كانت الأوضاع السياسية والمالية والصحية تنذر بسوء الخاتمة، ولا سيما أن الأنباء الواردة من كل مكان، لا تشير إلا لحقيقة واحدة: جيش (إبراهيم باشا) الـمُجهز، لن يرجع لدياره إلا ورؤوس زعماء (الوهابيين) معه.. ما لم يستسلموا.

الخلافات في الدرعية تزايدت على خلفية ضعف الإدارة السياسية لأخي (عبد الله)، وكانت هذه الإشكالات واضحة المعالم حتى لصغار السن من أبناء الـحُكام.. مثلي، وفي أيام الضعف - عادةً - يكثر الأطباء السياسيون المُعطون وصفات مختلفة لحالة القيادة المرضية المضطجعة أمامهم؛ أما خزينة بيت مال المسلمين الهزيلة فلم تكن أفضل حالاً من خزينة الحيل السياسية. ولم يكن هذا، أخي (حمد) مُستغرباً والرعية من باديةٍ وحاضرة ترى زحف الجيش المصري العثماني نحو الدرعية. وعندما يتساءل المركز عن المصير والمستقبل، فلا مندوحة من شمول هذا الشعور للأطراف كذلك. هذا إن لم تبتعد الأطراف - أيضاً - وتُخلي مسؤوليتها عن ارتباطها القديم بالمركز الحائر؛ وزاد من بلل طينة الحالة السياسية، مُداهمة القحط لبلاد نجد في تلك الفترة، والمتبوع بمرض[1] أهلك الكثيرين في الدرعية وما حولها. مرضٌ جاء على شكل إسهال حاد يؤدي جفافه إلى التهلكة المؤكدة.

وحتى آخذك، أخي (حمد) إلى حيث كنت أنت وأنا، وكل أهالي الدرعية من مقاتلين مُتحفزين، ومدنيين هلعين، ننتظر تحقُق الأخبار المُنبئة بقدوم جيش الغزاة المليء بالغيظ والحقد، والرغبة في تذكير

---

(1) المقصود هنا: مرض الكوليرا الذي تفشى في الجزيرة العربية منذ أواخر عهد الإمام (سعود بن عبد العزيز).

Twitter: @ketab_n

الباقين على تشككهم القديم في مدى صلابة الحكم الجديد المنبعث من مصر، وبقدرته على غزو جزيرة العرب، التي لم يُحاول أحدٌ غزوها، وقمع دعوتها الإصلاحية النشطة في وسطها.. إلا هذه القوة، والممثلة بالوالي في أرض الكنانة، وجنده الخليط من أجناس كثيرة.. أقول: حتى آخذك إلى حيث كان الجمع (المـهُاجمُ)، سأمُرُّ سريعاً على مجريات الأحداث قبل تصاعدها خارج وداخل أسوار الدرعية:

... ناور (إبراهيم باشا) حول المدينة المنورة، وضم إلى جيشه طوائف من قبائل مطير، وحرب، وعتيبة وعنزة، وما هي إلا أسابيع حتى زحف على القصيم، التي وصل أول مدينة فيها وتدعى (الرس)؛ ليحاصر حامية (عبد الله) عدة أشهر، ثم يتم في وقت لاحق الصلح المتوقع بين الذين قلَّت مؤونتهم وأُنهكوا، وبين المستعدين جيداً لمثل هذه المنعطفات الحربية، بعدها اندفع (إبراهيم باشا) تجاه (عُنيزة) ثم (بُريدة) اللتين استسلمتا مع حاميتهما السعودية بعد قتال شرس.. لكنه خاطف.

... هُنـا انـسـحـبـت جـيـوش أخـي الإمـام (عـبـد الـلـه) إلـى الجنوب...إلى عاصمتها القديمة، وفي المقابل تقدم جيش (إبراهيم باشا) - بعد رفده بجيش جديد أتى على عجلٍ من مصر - إلى بلاد (الوشم وسدير) الواقعة في وسط نجد. هاتان المنطقتان لم تكونا عصيتين جداً، والجيش المصري يقتحم أسوار مُدنهما ويأخذ كبار قومهما كرهائن، وتبعاً لهذا لم تأخذ تلك المناطق جهداً كبيراً من (إبراهيم) المتجه بسرعة مُذهلة إلى بلدة (ضرماء) حيث حاصرها وفيها حامية للإمام (عبد الله) لمدة أربعة أيام، دارت خلالها - وكما وصلنا من أخبار في الدرعية - معارك ضارية بين الجانبين، اللذين فقدا أعداداً من جنودهما وقادة الرُتب الصغيرة والمتوسطة فيهما.. لكن الغلبة كانت في آخر الأمر - وكما كان متوقعاً - للجيش الأكثر عدداً وعُدة.

... لم تعد هناك بُلدان تستحق أن يقف (إبراهيم باشا) من أجلها

Twitter: @ketab_n

- كهدف سوقي - وهو يشق طريقه السالكة والممهدة نحو.. الدرعية حيث المعركة التاريخية الفاصلة.

... يا للكلمات يا (أبا راشد) عندما تقصُر عن وصف ما جرى، وعن إعطاء الصورة الكاملة لتوابع مجريات الأحداث والوقائع:

في داخل الدرعية كان الشبيبة.. وحتى النساء، لا يساورهم شكٌ في أنَّ المعركة القادمة تحتاج لكل إنسان ممن تضمهم الدرعية، وهذا لا يعني أن الجند المُقاتلة كانوا قلائل، وأن قدرتهم من الضعف بحيث عجلت بالاستعانة بمن كانوا عادةً آخر من يُرمى بهم في أتون المعارك..لا! جند الإمام.. أخي (عبد الله) كانوا كُثراً وهم يستعدون لخوض المعركة الفاصلة، وهم أيضاً مليئون اعتقاداً، بأن قدرهم - الذي يعشقونه - سيجعلهم طرفاً أساسياً في الحرب التي ستدور بين دار الإسلام - الذي يمثله المعتقدون - ودار الكُفر؛ بين التوحيد، والشرك.. وأخواته البدعيات التي يمثلها جند (إبراهيم باشا). تلك المعتقدات التي كانت راسخة جداً في نفوس أهالي الدرعية وجيشها، عرفتُ في وقت لاحق متأخر من عمري، أنها بسيطة إلى حد السذاجة، فتلك الحرب وإن أخذت مسوح الدين وأبعاده، إلا أنها في الواقع معارك تعكس - بلا جدال - التنافس بين القوى الإقليمية. وأنها (=المعارك) وجهٌ للمخاض القادم الهادف إلى توزيع مناطق النفوذ بين القوى المضمحلة والناشئة، وأنها كذلك رسائل تُعلن بأن التوسع وإنشاء الدول على أسس دينية كانت أو قومية، لابدَّ أن يصطدِم بالواقع الذي تُشكله كيانات الجوار: الأقدم، والأقوى، والأرسخ، وعند الديان علم نتائج هذا التماس والتطاحن بعد ذلك!

... نرجع مرة أخرى يا (حمد) إلى ذلكم اليوم العصيب الذي بدأت فيه أولى المناوشات التي تسبق - عادةً - المعارك الكبرى

Twitter: @ketab_n

الفاصلة، إنه يوم الثلاثاء ثالث أيام شهر جمادى الأولى لسنة 1233هـ[1]. كيف وصل الجيش الغازي للدرعية بعد قتل ونهب الأهالي في (ضرماء)؟!

اختار ابن والي مصر ممر (الحيسية) هابطاً منها إلى جوف وادي حنيفة، بعد مروره على بلدة (العيينة) التي شهدت قبل مئة وثمانية عشر عاماً مولد صاحب الدعوة الإصلاحية، المطلوب إنهاء تمردها وإحساسها الذي راودها حيناً من الدهر.. أنها لا تُقهر!

ومن تلك البلدة الشهيرة سلك (إبراهيم باشا) طريق (الجبيلة) من داخل الوادي، إلى أن وصل مكاناً يُقال له (الملقا) والذي يفصله عن الدرعية مسافة ساعة للمترجل؛ وبين مغادرة جيش (الباشا) بلدة (ضرماء) ووصوله إلى (الملقا) ناوشت فرقة (سعودية) صغيرة مُنسحبة صوب الدرعية آتية من (ضرماء). البلدة التي اكتسحتها قبل أيام، جحافل جيش القائد الألباني؛ هذه الفرقة كانت بقيادة ابن العم (سعود بن عبد الله بن محمد بن سعود) ومعه رجالٌ أشداء مخلصون للدولة وللفكرة الدينية التي قامت عليها، ومنهم (متعب بن إبراهيم العفيصان) من أهالي الخرج، وكذلك جمعٌ من أهالي ثادق والمحمل وعلى رأسهم (محمد العميري).

... عندما وصل (إبراهيم باشا) تخوم الدرعية بدأ باكتشاف المكان من خلال فرقة خيالة مختارة، ومدافع متحركة من نوعية صغيرة.

اكتشف (الباشا) أنَّ الطريق إلى قلب الدرعية ليس سهلاً من الناحية الطبيعية المكونة لجغرافية العاصمة القديمة، فهذا الهدف الغالي الثمين يقع في داخل تجويف أحدثه انصباب مياه الأمطار في هذا الوادي القديم التكوين، والذي يقدر عرضُه بمئات الأذرع، ويحيط (بالهدف) مزارع نخيل كثيفة تمتد إلى مسافة ثمانية فراسخ؛ هذه المزارع وبلدتها تتمتع بحصانة طبيعية، وهي عبارة عن مرتفعي الوادي اللذين يبلغ الامتداد

(1) الموافق للحادي عشر من شهر مارس 1818م.

Twitter: @ketab_n

الرأسي للواحد منهما ما يقارب المئة قدم؛ ويحيط بالبلدة ومزارعها بالإضافة إلى الموانع الطبيعية الصخرية، سورٌ أولي فيه أبراج مراقبة، وحصون لإيواء (الكشافين) وتخزين أرزاقهم، وهناك أيضاً سورٌ آخر بالإضافة إلى ما سبق وأشرت إليه والملتف حول الوادي من جهة الشرق. السور الآخر الارتدادي أطول كثيراً من الأول، ويمتد مُلتفاً حول الحواف الصخرية اليُسرى للوادي، وما اكتشفه قائد الغزاة - قطعاً - هو أن الدخول إلى البلدة لا يمكن أن يتم إلا عبر هدم تلك الأسوار الحصينة، إما من جهة الشمال حيث عسكر جنده، أو من الجهة الجنوبية التي تأتي من خلالها قوافل التجارة، والمساندة الآتية من الرياض والبلدات الواقعة جنوبها وشرقها.

... أتعرف يا أخي (حمد) أنني، وأنا أكتب هذه الأسطر - تحديداً - أشعر بجفاف لا مثيل له يلفُ شفتي، ويغزو كل دهاليز فمي؟ هل كنتم أهالي تلك الأحياء الملاصقة لحي (الطريف) حيث مساكننا تشعرون بما كنا نشعر به؟.. ستسألني بدورك: بماذا كنتم تشعرون.. يا حكامنا؟

سأتحدث عن نفسي؛ لأنني في حلٍ من إدعاء معرفة ما في نفوس الأهل وحاشيتهم في تلك الأوقات البائسة: أنا مثل غيري، لم يكن وارداً أبداً، مهما صغرت أعمارُنا - ولم تكن كذلك - وتضاءلت أجسامُنا - وكنا كذلك - أن نُظهر خوفنا من المجهول القادم، ولا أن يشعر أقرب الأقربين لنا بعمق وإلحاحية الأسئلة الكثيرة التي كانت تدور في دواخلنا، الرجولة.. كل الرجولة، والبطولة.. كل البطولة، والتطلع لإحدى الحسنيين.. ولا غير ذلك، في أن تعرضَ نفسك للإخوان والأعمام وأبناء العمومة والقادة، وأنت في كامل جاهزيتك الحربية، ولا تنسَ أن ترسم على وجهك قسمات التحدي، والرغبة العاجلة في حرب الروم.. المشركين.

Twitter: @ketab_n

لكن ما إن نطلب ساعة مُستقطعة من الزمن لرؤية (حريم) بيوتنا، إلا ونعود - أقصد أعود أنا - إلى إنسانيتنا التي نزعنا مُرغمين جلدتها.

... أعود يا (أبا راشد) لأقبل رأس والدتي، وألثم وجنتيها، وأتطلع طويلاً في عينيها، لعلي أجد إجابات أبحث عنها: عن الحياة والموت، والخيارات الصعبة بين صدر العالمين أو القبر، وعن إمكانية العودة إلى الحياة الطبيعية للبشر (من العامة)، الذين لا أهداف سامية ولا تطهيرية ولا جهادية لهم، بل مجرد أناسٍ مسالمين يولدون، ويكبرون، ويعملون، ويتزوجون، ويموتون كما يموت البعير!

أحاول أن أجد في عيني والدتي - حينها - إجابات عن تلك الأسئلة، أو إضافاتٍ على أفكاري المـُشتتة الذاهبة إلى البعيد. وعندما تقترب والدتي من البُكاء وهي ترى ابنها الوحيد يُساق - في سبيل الله - إلى الموت، تُشيح بوجهها إلى اليمين أو الشمال حتى لا أرى ضعفها الذي سيُحسب على ابنها - كما ستنقل ذلك ألسنة النساء الطويلة - وهو خارجٌ من المنزل، وقبلَ أن تدق ساعة الوغى والمناجزة! وبدلاً من مشاعر الضعف الإنسانية تلك، تروح الأم الحبشية تحدثني - كلفتةٍ ذكية منها - عن بطولة ملوك الحبشة، وأن تلك البطولات لا تأتي سهلة، بل أنها مدفونة - وهي على شكل أحجار كريمة - في حُفرٍ عميقة من الأرض، لا يستطيع انتزاعها من مخالب الموت، وحمايات الجان والعفاريت المؤذية، إلا البطل الراغب في البطولة وكتابة اسمه في صحائف الخالدين!

بهذا كانت والدتي تهون عليَّ القادم، وبهذا - وبما يشابهه - كانت تعطيني أبعاداً غير حقيقة عن سر الكوابيس الليلية التي كانت تزورني قبل أعوام من وقوف (الباشا) وجنده خلف أسوار الدرعية. لكن كل هذا التجلد المصطنع وقوة البأس التي استلهمتها والدتي من قصة اختطافها من بلادها البعيدة، ومن معايشتها لحياة (زُهاد) الدرعية والحالمين بتوسع

Twitter: @ketab_n

(دولتهم الموحدة) إلى أقصى الأرض؛ كل هذا التجلد اختفى فيما بعد، عندما انجلت المعارك وعُرفت النتائج، وفُرزَ المهزومُ والمنتصر، عندها عادت الأم تبكي وتتمنى وتتوسل. .كأي أم، وكأي أنثى مفجوعة بأحلامها، وإن سلِمَ مَن تُحب. . إلى حين!

. .أنا لا أشك أنَّ المشاعر نفسها كانت تغمرك يا (حمد) حتى وإن كنت مجرد طالب علم تنحدر من أسرة قادمة من الرياض إلى الدرعية، لا لتشارك في الحروب، بل لتأخذ العِلم من (الشيخ) وسلالته، لكنها الحرب. . ولكنه الموت. . ولكنها الأخبار، التي وردت للجميع في (العاصمة) عن فظائع الجيش المرتزق، وهو ينهب ويقتل ويقطع الآذان في (ضرماء) ليرسلها كـ(بُشرى) للوالي في مصر، وكعلامة لاقتراب النصر النهائي على الدرعية. . والوهابيين!

. . . الدرعية ومَن فيها من الموحدين كانوا يعرفون أن معركتهم القادمة كانت حاسمة، وأنها لا تشبه المعارك الأخرى التي خاضوها؛ فهي تعني لهم (حياةً) لها أبعادٌ عظيمة للدولة الناشئة ذات الرسالة، أو فناءً للجميع، المعتقد بالإسلام الحق، والواجب أن يُطبق كمنوذج في كل أصقاع العالم الإسلامي.

. . . في عصر يوم وصول جند (إبراهيم باشا) للـ(ملقا) وجولته الاستكشافية الأولى، أعاد الغازي - كَرةً أخرى - محاولات المناورة وتحسس مناطق ضعف دفاعات الدرعية، ولأجل هذه الغايات هبط لبطن الوادي محفوفاً بخيلٍ عظيمة أثارت النقع، ومدافع أكبر وأثقل من التي كانت معه في المرة السابقة؛ إلى أن وصل إلى مكان في أعلى الدرعية تُحتجز فيه عادةً - ومن خلال سدود ترابية - مياه الأمطار غير المنتظمة في بلادنا. الموقع يسمى (العلب)، والمجاور لـ(حيالة) يملكها أخي (فيصل ابن سعود)، وفي هذا المكان تحديداً بدأت أولى معارك الدرعية، حيث أطلقت مدافع (الباشا) قذائفها النارية شديدة الانفجار،

Twitter: @ketab_n

ضد كراديس متقدمة من الجيش السعودي السلفي، التي أرادت مناوشة وتأخير اندفاع الجيش الغازي تجاه الهدف الذي خُطط له طويلاً. وبما أن المدافع لا تصلح في حال التحام الفرق المقاتلة وتماسها إلى درجة التداخل، فقد توقف الرمي الثقيل، ليتحول إلى قتال بواسطة مقذوفات بندقية تارةً وبالسلاح الأبيض تارةً أخرى.

بعد هذا القتال السريع الذي لم يسفر عن نتيجة باهرة لكِلا الطرفين، لأنه لم يكن ينبغي له بدايةً أن يكون كذلك، عادَ (الباشا) إلى مُخيمه في (الملقا)، حيث أقام فيه لمدة ثلاثة أيام اجتمع فيها مع قادته لمراجعة تفاصيل خطة الهجوم الكبير. وفي اليوم الرابع سار قلب جيش (إبراهيم باشا) زاحفاً من خلال بطن الوادي، بينما أخذت ميمنته وميسرته مساري حافتي الجبلين المكونين للوادي.

على الجانب الآخر رتبَ أخي الإمام (عبد الله) جُند الدولة الأساسيين، بالإضافة إلى من أتى إلى الدرعية من أنصار الدعوة لنجدتها:

كان ترتيب (الإمام) مُشابهاً لترتيب الجيش المقابل: صدر الجيش يزحف في بطن الوادي، على أن يحُفَ بهذا الصدر فِرقٌ كثيرة عن اليمين والشمال.. أعالي الحواف الجبلية الواقفة خارج النخيل والأسوار. وأتذكرُ - وأنا أحد الـجُند ممن كانوا في بطن الوادي - أن قائدنا يومها.. أخي (فيصل بن سعود)، والذي كنت أحب فيه عطفه عليَّ - إلى جانب شجاعته وكرمه - لم يترك وجنده.. ومنهم أخويه (إبراهيم وفهد) وصناديد أهل الدرعية الاستشهاديون، فُسحةً من الوقت، إلا وأطلق الجميع فيها صيحات التكبير، المشفوع بأصواتٍ أقل ارتفاعاً، يُفهم منها جُمل الاستغفار والحوقلة. على أن هذه العاطفة الدينية الجياشة لم تُنسنا - قط - تفقد جاهزية أسلحتنا المختلفة، ومن ذلك تلك المدافع الثلاثة القديمة نسبياً، التي لم يتعود مقاتلونا استعمالها

Twitter: @ketab_n

بكثرة.. أو بالأصح لم يكونوا يحسنون تماماً استعمالها! وعلى يميننا فوق الجبال الشمالية أعلى شعيب (المغيصيبي)، تمركز جيش ذو بأس بقيادة أخي (سعد بن سعود) وعضده أخي (تركي). أما في الجانب الغربي فقد أخذ مواقعه قِسمٌ من الجيش بقيادة البطل (عبد الله بن مزروع) كبير (منفوحة).

كانت خطة أخي (عبد الله) تقضي أيضاً بميل جُزءٍ من جيش (ابن مزروع) فجأة تجاه اليمين عند اقتراب الجانبين (العثماني المصري) من جيشنا؛ التدبير ذاك أوجب أن تكون الفرقة التي تميل بصورة فجائية نحو العدو بقيادة بطلٍ - لا يُماثل - يعتمد عليه الإمام كثيراً واسمه (تركي بن عبد الله الهزاني).. كبير حريق نعام، ومعه رجالٌ أشداء من (آل دغيثر). وكان مطلوباً منه ومنهم أن تقف فرقتهم الفدائية الطليعية، بين جموع جيشنا وجيش (الباشا) كتغطية للهجوم الدفاعي الكاسح اللاحق.. المـُفترض.

أين قائدنا في تلك الساعات العصيبة؟ كان يقف داخل الأسوار لحماية بوابة السور الأساسي للدرعية تسمى (سمحان)، ومعه بعض المدافع الثقيلة للحيلولة دون اختراق مفاجئ لجيش (الباشا) لفرق الجيوش المتقدمة، ووصلها بعد ذلك لحدود الأسوار التي تحمي الدرعية. وحسب الخطة (السعودية) الموضوعة مُسبقاً بعد تخمين الجميع لنوايا قائد الغزاة، فقد تمترس عند النخل المسمى (الرفيعة)، ابن العم (فهد بن عبد الله بن عبد العزيز بن محمد بن سعود) ومعه ثُلةٌ من أهالي الدرعية وسدير، وقضاةٌ، يتقدمهم (عبد الله بن أحمد العريني)، وفي حوزة هؤلاء مدفعٌ واحد؛ وعلى كل برج من أبراج الأسوار تمترس كبار السن والعلماء الذين لم يشاركوا قط في معركة قبل ذلك، وكانت الحاجة لهم معنويةً أكثر من تعبوية، ذلك لأن صيحات التكبير وحث المدافعين على الاستبسال عندما تشتد ضراوة المعركة، سيكون لها وقعُ

Twitter: @ketab_n

أشد من المدافع والبنادق؛ وكُلفت تلك الطوائف إلى جانب وظيفتها المعنوية، بأن تُكوِّنَ خطوطاً دفاعية متأخرة.. في حال ساءت الأمور أكثر مما يُعتقد.

..أيضاً على أحد أبراج السور والذي يقع على شاطئ الوادي، أخذ عمي (عبد الله بن عبد العزيز بن محمد بن سعود) مكانه المهم، وبرفقته لفيفٌ من أهالي الدرعية والوشم؛ ومقابلهم تمركز أخي (عمر بن سعود) على بُرجٍ يشرف على شعيب (الحريقة)، ومع (عمر) وقف أخي (حسن) ومعه آخرون. وغير بعيد أشرف على برج آخر الجهبذ (تركي بن عبد الله بن محمد بن سعود) الذي وقع بيني وبين ابنه (فيصل) معارك تختلف عن معركتنا التي أسرد وقائعها الآن.. في كل شيء؛ (تركي) لم يكن وحده في المنطقة التي تولى الدفاع عنها، بل كان مرفوداً بأخيه (زيد) وطائفة من أهالي الدرعية ومماليك (آل سعود) الذين يندر مثيلهم.

أما على فرع (شعيب غبيراء) فقد تولى ابن العم (فهد بن تركي بن عبد الله بن محمد) و(محمد بن حسن بن مشاري بن سعود) مسؤولية عدم إتيان قلب الدرعية من تلك الجهة، لأن قوة الدفع الكبيرة من الجيش الغازي وقفت أمام ذلكم الشعيب، وجنده المدافعين عن مداخله.

... عند رأس الجبل وفي موقع مسجد العيد القريب من منازل الناحية الجنوبية، أعطى (الإمام) أمره بأن تصد أي هجوم مُباغت، الفرقة التي كانت بقيادة أخيه (مشاري بن سعود).

... هكذا كانت خطة الحرب الدفاعية كما رسمها الإمام أخي (عبد الله) وهي خطةٌ جيدة جداً في شكلها الورقي أو اللفظي، لكن التطبيق ويحتاج إلى تواصل دائم بين تلك الفرق - أو الجيوش - المُتناثرة، وكذلك يحتاج إلى معرفة جيدة بقدرات الجيش المقابل

Twitter: @ketab_n

وأساليب خداعه الحربية، التي كانت مُذهلة، قياساً بما لدى (جيشنا) المعتمد على شجاعة أفراده وحبهم للشهادة في سبيل ما يؤمنون به.. مع قليل من حيل الحرب الحديثة وكمائنها!

... أيضاً لا تنسَ أخي (حمد) أن الغُزاة القادمين قد استفادوا من الحملة الفرنسية على مصر، والتي لم يمر عليها كثيرُ سنوات. هذه الحملة أورثت لمن وقع عليهم الغزو، أسلحة متطورة فتاكة تركها الجيش الفرنسي أثناء انسحابه البحري السريع، كما تركَ أيضاً، بعضاً من مهندسيه وعلمائه، الذين طلب منهم (الوالي) في مصر مساعدته على إنهاض مصر.. وتمكينه أثناء حروبه المقبلة التي تصورتها همته الخارقة!

..سكنت الريح لساعة من الوقت عصر ذلكم اليوم، ثم سُمع رعدٌ سماوي مسبوقٌ بخواطف من البرق المتتابع، ثم انهمر المطر غزيراً مصحوباً بحباتٍ من البرَد.. ولم تستمر هذه المقدمة الطبيعية طويلاً.. حيث عاد السكون الغريب مرةً أخرى، والذي لا يتناسب مع قعقعة السلاح وصعود وهبوط صدور الرجال، وهم يتنفسون ما يمكن أن يكون آخر أنفاسهم.

... وصُدفةً لمحتُ يا (أبا راشد) ابتسامة من أخي (فيصل) وشبح غمزة من عينه اليمنى مصوبة لي وحدي.. كما يبدو. لقد عرفت بعد وقت طويل وأنا استرجع لحظات تلك المعارك المميتة، معنى تلك الابتسامة والغمزة غير المكتملة. وحده (فيصل) راهن عليَّ وعلى شبيبة (آل سعود) الآخرين الذين لم ينخرطوا في حروب سابقة؛ كان يقول لأخي وأخيه الإمام (عبد الله) وكثيرين معه، والمعترضين على الزج بهؤلاء (الصبيان) في معارك حاسمة كمعركة الدرعية التاريخية:

إن هؤلاء (الشباب) يختزنهم الأهل والبلد - فقط - لمثل هذا اليوم، وأنهم بعد هذه المعركة إما سيُنقلون إلى مراتب الشرف والبطولة والنصر.. وإما إلى سعادة عند القادر المتعالي في جناته التي عرضُها

Twitter: @ketab_n

السماوات والأرض! وفات على ذاك الشهم المقدام أن يتوقع نقلة أخرى (لنا) غير الاثنتين اللتين ذكرهما.. نقلة للأسرِ، والترحيلِ، والتشرد الطويل!

... وفجأة وعلى مسافة غير بعيدة من (العلب) وقعت الحرب المنتظرة بين الجيشين الراغبين في تحقيق هدفين مختلفين.. ساعتها لم أكن أدري ماذا كنت أفعل؟ سوى أنني كنت أوجه بندقيتي المسماة بـ(أم روحين) نحو الهدف الذي لا يبعد عنا كثيراً في اتجاه الشمال.. ثم أطلق الذخيرة. لم أكن أفعل أنا وحدي هذا، بل كل مَنْ حولي، ومَنْ هم على حواف الجبال وعلى الأبراج، كان (يقبس)[1] إما بواسطة البنادق وإما بالمدافع القليلة التي في حوزة (جيشنا).

..أمامنا بدأ الجيش الغازي يرد بعد أن باغتته القذائف الأولى من جيش الإمام، عرفت هذا بعد أن (مرقت)[2] رصاصة لها أزيز بجانب أذني اليمنى..

..الآن - فقط - أصدُقك القول يا أخي (حمد): أنا وقبل أن أرى نور القذيفة الأولى وصوتها، كنت وجِلاً جداً مما سيكون عليه شكل الموت الذي سأسقيه للآخر الذي لا أعرفه، إلا أنه عدوٌ جاء يغتصب أرضنا وحلمنا بالإسلام النموذج. وقد يكون هذا العدو إنساناً ذا أطفال ومحارم؛ قد يكون من البشر البُسطاء جاء مع جيشه الغازي، ليؤمن مصدر رزق لهؤلاء التعساء الصغار المنتظرين عائلهم على أحرٍ من الجمر في أرض الكنانة؛ قد يكون لا يعرف مَنْ يُقاتل وعلى أي أرض هو يقف الآن، وقد لا يعرف (آل سعود) ولا (آل الشيخ)، ولم يسمع عنهم في حياته أبداً، ومع ذلك فهو عدوي.. ولابد من قتله قبل أن يقتُلني!

---

(1) يقبس: بمعنى يرمي.
(2) مرقت: مرت.

Twitter: @ketab_n

..أيضاً أصدُقك القول (أبا راشد): كُنتُ وجِلاً جداً مما سيكون عليه شكل الموت الذي سيسقيني إياه ذاك الغريب البسيط؛ ولم يكن يجدر بمن لا يملك الوقت ولا شجاعة إطلاع أهله وقومه على مخاوفه، أن يصرخَ في عدوه قائلاً: أنا لا أحقد عليك - أيها الغريب الغازي - ولا أكرهك إن أنت رجعت إلى بلادك التي قَدِمت منها. أنت في مأمن من سلاحي واندفاعي نحو قتلك، عندما تعلن تراجعك عن مشروع الغزو واحتلال بلاد الآخرين ونسف خيارات حياتهم.

..لم أستطع هذا ولم - ولن - يستطع عدوي أن يفعل ذلك، فمهما كان بسيطاً مُغرراً به، فهو عدوٌ جاء لينتصر أو ليموت أو يُؤسر، ومهما كنتُ وجِلاً وخائفاً على روح البسطاء.. وروحي، فأنا اليوم مُطالبٌ أن أنتصر أو أموت.. أو أعلن استسلامي، لم يكن لديَّ ولدى عدوي خيارٌ غير أن نُحارب بعضنا بعضاً، وأن يقتل بعضنا بعضاً، وأن يسلب أحدنا حرية الآخر.

..المهم استعر أوار المعركة التي استعملت فيها كل الأسلحة، واستمر هذا القتال الشرس لمدة عشرة أيام، يقضي فيها المحاربون نهارهم كله في الاقتتال، وفي الليل يرجع كل جيش إلى معسكره لأخذ ساعات قليلة من الراحة، وتناول ما يمكن تناوله من زادٍ متواضع، استعداداً لقتال يومٍ جديد.

..في الأيام العشرة تلك، كان قائد قلب الجيش (السعودي).. أخي (فيصل)، يمر في كل ساعة على مخيم عسكره، مُتفقداً أحوال الجرحى ووفرة المؤن المرسلة من داخل الدرعية لنا وللفرق الأخرى؛ وفي كل مرة يقوم هذا القائد الفذ بتفقد جنده، كان لا ينسى تلك الابتسامة، وتلك الغمزة المبتورة اللتين يرسلهما لي، وهناك ظنٌ في أنه

Twitter: @ketab_n

يرسلهما أيضاً لكل أبناء العم والإخوة الفتيان الآخرين.. أمل الأسرة الحاكمة، والدعوة الإصلاحية، ومناصري المنهج السلفي، الذين لا يرضون - إلا - بالفوز بإحدى الحُسنيين!

.. لا عليك من هذا الحشو السابق يا (أخي): بعد مرور عشرة أيام من الاصطدام المسلح غير الواضح النتائج - وإن قُتلَ فيه عديدون من الجانبين - كان لابد من الشروع في حسم المعركة لأحد طرفيها؛ وحدث هذا بالفعل عند شعيب (غبيراء) والذي يقع غير بعيد من متاريس الدرعية الجنوبية الغربية، ففي اليوم الحادي عشر من بداية الاقتتال، وبالتحديد في الليلة التي تبعته، وبعد أن ظنت فرقة الجيش السعودي الموكلة بالموقع المشار إليه بأن (الباشا) قد خلد وجيشه للراحة الليلية المعتادة، خالف قائد الغزاة هذا الظن، عندما أرسل مفرزة من الخيل يفصلها عن (غبيراء) شعيب فرعي، وكان مقصد (الباشا) ألا يكتشف من يتمترسون من الجيش السلفي خلف سواترهم، ما يمكن أن يُخبئه لهم الفكر الحربي لهذا القائد الألباني.

..المفاجأة كانت صاعقة على المتمترسين من (جيشنا) وتباشير الفجر الأولى تُعلن عن نفسها.. كيف؟ هجمات خيالة (الباشا) المباغتة والعنيفة، المضاف إليها رمي شديد بقذائف المدفعية والبنادق المتطورة التي في حوزة الجيش الغازي، أدت وبشكل سريع لهزيمة جيشنا المتراجع للوراء بصورة فوضوية خلت من أي شكل للتنظيم الحربي الذي لابد أن يتحسب لمثل هذه المفاجآت. وزاد من حالة الهلع والرعب في جيش الإمام، تتبع خيالة (الباشا) ورُماته فلول الفرقة المنسحبة عشوائياً، بحيث راحوا يقتلون كل الذين يفرون من أمامهم، ومن هؤلاء ابن العم (فهد بن تركي بن عبد الله) و(محمد بن حسن بن مشاري) و(حسن الهزاني) وجمعٌ من أهالي سدير والوشم، لكن هذا لا يعني، يا (أبا

Twitter: @ketab_n

راشد) أن (جنودنا) لم يقتلوا قبل انسحابهم عدداً من جُند (الباشا)، بل إنهم - وكما قيل لنا - أهلكوا قادةً من الجيش المعادي إضافةً إلى عشرات الـجُند وحملة المؤن.

.. وتكررت المفاجأة نفسها، والخطأ نفسه، والانسحاب غير المنضبط ولا المبرر، في وقعة[1] (سمحة النخل) وهو مكان يقع في غرب الوادي.. أعلى الدرعية.

تلك المعركة تجلت فيها معالم سوء التدبير القتالي لقيادة أخي الإمام (عبد الله)، إضافة لعدم الاهتمام بالروح المعنوية للمقاتلين - كافة - الذين يستحقون التفاتةً تماثل الالتفاتات، التي يحظى بها عادةً كبار المقاتلين ومساعدوهم. ومن جراء الإهمال غير المفهوم ذاك خرج (بعض) أهالي الدرعية - كما تذكر - من خلال سور مدينتهم ليلاً وأطلقوا سيقانهم للريح المتجهة لمعسكر (الباشا)، مُخبرين إياه عن أماكن تمركز الجيش السلفي وأعداد المقاتلين في كل ناحية، والخطط الموضوعة لمجابهة جيشه. وهنا تلقف (الباشا) هذه المعلومات بكل ترحاب، خاصةً أنها منقولة من أفواه بلدةٍ دبت فيها الإشاعات، عن فعالية مدافعه الفتاكة وأخبار فظائعه في (ضرماء).

قام الغازي يا (أبا راشد) بتصرف عاجل أوجبته تلك الوشايات:

الخطة السابقة قضت ببقاء متاريس له مقابل متاريس للمحاربين السعوديين. متاريس جنوباً وشمالاً وغرباً.. وفي الوسط. ولأن هناك معلومات (قيمة) حصل عليها، فإن الخطة السابقة بالإمكان تغييرها، للاستفادة من معلومات الوشاة عن قوة الجيش المقابل، لهذا قام بتدعيم الجهة الجنوبية لجيشه من خلال مدهم بفرسان ومشاة إضافيين. وفي الوقت نفسه أوعزَ لمقاتليه المرتزقة في الجهة الشمالية للمعركة بأن يقوموا

---

(1) وقعة: معركة.

Twitter: @ketab_n

بهجوم صاخب - غير رئيسي - على من يليهم من (جيشنا) المتمترس في الجهة نفسها، وكان القائد الألباني يفترض - وقد صدق حدسه - أن الجهة الجنوبية للجيش - الذي أطلق عليه من حينٍ لآخر اسم (السعودي) كحل وسطي بين تسمية الأعداء والمناصرين - ستنحاز إلى إخوانهم في الجهة الشمالية، إن هي سمعت بالهجوم الوهمي عليهم، وبهذا تنكشف الجهة الجنوبية المهمة للغزاة، الذين لن يتوانوا عن اختراق تلك الجهة المفتوحة، زاحفين نحو هدفهم الأسمى.. ويا للأسف فقد تحققت كل تلك الافتراضات والمكائد!

..نتيجةً لهذا التخطيط الحربي المحكم للأعداء، وما يقابله من التخطيط المقابل، المعتمد على البدائية الحربية، والحماسة الدينية، فُتحت ثغرة لا تُسد. نفذ منها جيش الأعداء بخيلهم ومشاتهم ومدافعهم التي يحركها فنيون فرنسيون، صوب أبراج أسوار الدرعية المقابل للثغرة، وعند نقطة معينة توقف الجيش الغازي ليقصف السور وبرجه ومَنْ عليه.

..القصف كان عنيفاً ومُدوياً ومُتتالياً، نسمعه في مواقعنا المتقدمة كما سمعه - بالتأكيد - كل مَن كان في الدرعية.. وما حولها. ولم يكن صوت المدافع هو الشيء الوحيد المُفزع، بل رؤية الحرائق وهي تلتهم بعد كل قذيفة ناحيةً من السور ومَنْ وراءه.

..البرج الذي تمترس فيه قسمٌ من (جيشنا) وهُدمَ القسم الكبير منه بفعل قذائف المدفعية، كان من مسؤولية الفرقة التي يقودها عمي (عبد الله بن عبد العزيز). وعندما لم يعد هناك (مترس) يقي الجند، أمر القائد جنده بالتراجع والانسحاب، ولم يزد هذا التصرف الجيش الغازي إلا إصراراً على الاستفادة من حالة الانهيار المفاجئ في الخطط المرسومة لهذه الفرقة من (جيشنا)؛ ففي غضون ساعة من الزمن كانت فرقةٌ من الخيالة والمشاة ومسيري المدافع، تصوب نيرانها تجاه برجٍ آخر يتمترس فيه أخي (عمر بن سعود) ورجاله المختارون، الذين صمموا كما

Twitter: @ketab_n

صمم قائدهم على الثبات.. وحتى الالتحام بالسلاح الأبيض مع جنود العدو، بعد أن هُدم برجهم ونفذت ذخيرتهم، لكن بسالتهم وروح الفداء المغروسة فيهم لم تُجدِ - للأسف - نفعاً فالجيش الغازي بقوته النيرانية المهلكة، وكثافة هجومه، يحيط بهم من كل جانب، وعندها - فقط - أمر أخي (عمر) جنده بالانسحاب كما فعل جند عمه (عبد الله) من قبله.

..وقع يا أخي (حمد) قائد قلب الجيش السعودي في (سمحة) في حيرة كبيرة، فهو يسمع عن هزائم فرق الجيش السلفي الأخرى، ويرى الأبراج وهي تُهدم، والأسوار تحترق ومَن يقف وراءها، ولهذا فهو جدُّ راغب في مساعدة الآخرين في محنتهم تلك، لكنه يعلم أن أي حركة غير محسوبة لقلب الجيش الذي يقوده ستعني لبعض جنوده انسحاباً - قد - يـجرُّ وراءه الاستسلام الأكبر، وفي خضم هذه المعطيات التي تزيد من حيرة القائد الحربي وتُشتت فكره، جاء الحسم من الخصم ذاته، الذي شن هجومه الواسع والرئيس بقيادة (الباشا) نفسه، على الفرقة الوسطى لـ(جيشنا).. التي أنا واحدٌ من أفرادها.

..هجوم (الباشا) كان قوياً وثقيلاً جداً، ورحتُ وأنا أُطلق النار صوب الأعداء فأقتل منهم وأصيب، أنزع رداء الخوف والوجل السابقين، ففي خضم الحرب وعندما يعتقد المقاتلون ألا خيار - إلا - أن يفنى أحد طرفي المعركة، يعود المقاتل لخياره الوحيد الذي وُلد معه كإنسان: المكابدة. والمكابدة لا تعني أنك وحدك الذي سيُعاني، بل على الآخرين أن يكابدوا.. معك وضدك..مُناصرين وخُصماء.. في أيام السلم القليلة، وسنين القتال والاحتراب الكثيرة!

..رحتُ أَقتِلُ، وراح الآخرون كذلك يحاولون قتلي، بعد أن قتلوا غيري من الأحبة والإخوان. لم أعُـد أطلب - ساعتها - إلا أن تسعفني

Twitter: @ketab_n

(بندقيتي) بقذائف إضافية، مُتذرعاً - وأنا أقتل - بهذه الغاية أو تلك.. إنها ذرائع الحرب والغزوات يا (أبا راشد) ولا شيء سواها!

ترغب في معرفة ماذا حدث بعد ذلك؟

تحت وطأة اندفاع جيش الغُزاة، وتكاثر قتلانا - الذين لم يُقتلوا وهم مُدْبِرون قط - والفوضى التي سببتها الأخبار - الحقيقية - عن سقوط متاريس المـُدافعين الآخرين، الذين بقيت متاريسهم صامدة إلى ما قبل تلك الساعات الحاسمة، وانكشاف جميع الجبهات، بعد انضمام بعض الأهالي للغُزاة ضد المدافعين عن بلدتهم؛ تحت وطأة تلك الظروف الحربية السيئة جميعاً، أعطى أخي (فيصل) أوامره لبقية فرقته المقاتلة الشجاعة.. بالانسحاب.. حتى (حيالة) الشيخ (إبراهيم) ابن الشيخ (محمد بن عبد الوهاب) والمسماة (السلماني).

... في تلك المزرعة أعاد (جيشنا) ترتيب صفوف الفرق المنسحبة والمتناقص عدد أفرادها بفعل القتل والإصابات، وعلى الرغم من هجمات الأعداء المتتالية والعنيفة اللاحقة على فرق الجيش (السعودي) الذي كان يحاول صنع متاريس جديدة له وتنظيم خطوطه، فإن هذه الهجمات لم تحقق أهدافها المرجوة والتي ساعدت ظروف الساعات السابقة العصيبة على الظن بقرب إنجازها؛ أما أعلامُ التحدي ورجال ساعات الهول ذاك، والمبعثرين لشعور الأكثرية بالهزيمة، فلم يكونوا إلا من توقع الجميع - دائماً - أنهم كذلك، وأنهم يستحقون قيادة الجيش - كاملاً - بل وقيادة الدولة الموحدة.. لولا اعتبارات كثيرة منها أن الأكبر هو الذي يتولى الإمامة والقيادة، وحتى لو كان أقل قدرة من غيره في الحكم على مجريات الأحداث في (الدولة).. سواءٌ أكانت خيراً أم شراً؛ الرجال الذين أعنيهم كان يمثلهم الأخوان (فيصل) و(سعد) واللذان أثارا حمية وهمم بقية المقاتلين برجزهما شعراً حربياً. ولم يلبث البطلان

Twitter: @ketab_n

بعد ذلك طويلاً إلا ورددا بصوتهما الجهوري قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾ (1)

وما إن سمع الجند - وأنا منهم - الذين كانوا قبل قليل مهزومين مُطاردين، هذه الآيات، حتى اندفعوا تجاه الأعداء مستعملين كل ما لديهم من نيران وسيوف، مدافعين عن تلك المضامين التي حملتها آيات قرآنهم العظيم، راغبين في الجنة التي ضمنها الله لهم إن هم قُتلوا في سبيله. وكانت لهذه الـهبَّة نتائج جيدة جداً، بحيث توقف زخم الاندفاع الكبير لجيش (الباشا)، الذي ظن أن النصر النهائي بات قاب قوسين أو أدنى، وظهرَ أن الجيش الغازي، بعد تلك المناجزة الفجائية العظيمة من جيشنا الـمُبعثر، قد قنع بما حققه في يومه ذاك - وهو كثير -...ولكن إلى حين!

... عَلِمَ قادة الفرق الأخرى المنسحبة وما تبقى من جندهم، بوقفة الصمود تلك، فتداعوا إلى حيث كُنا بقيادة الأخوين (فيصل وسعد). وهناك أعاد المقاتلون جميعاً بناء خطوطهم الدفاعية الجديدة، وإقامة متاريس مؤقتة في بطن الوادي وإلى أعلى منه يساراً ويميناً. وليس من المستغرب أن يختار أخي (فيصل بن سعود) قيادة الفرقة التي أنيط بها حماية بطن الوادي، فهو دائماً لا يختار إلا الصعب والأخطر.. وقد تم له - ولنا - هذا!

كان معنا في هذه الفرقة العمان: (عبد الله) و(عمر) أبناء (عبد

---

(1) سورة التوبة الآية 111.

Twitter: @ketab_n

العزيز) والأخوان (تركي) و(فهد) وجمعٌ من أبناء العم، ومعهم أهالي الدرعية ومناصرو الدعوة والدولة.

. . . أناط (الإمام) قيادة الفرقة المتمركزة أعلى الوادي من الجهة الجنوبية بأخيه (إبراهيم بن سعود). أما الفرقة التي تعلو فرقة (إبراهيم) فقد قادها ابن الإمام (سعد) ومعه مدفع ضخم نُصب في أعلى رأس للجبل المطل على الوادي. وعلى حافة وادي (غبيراء) كانت هناك فرقة أخرى على رأسها (تركي بن عبد الله بن محمد) وابنه (فيصل)، وأخذت أجنحة الجيش الآخر أماكنها في أعلى شعيب (البليدة) وما حولها، وأتذكر أن الإخوان (عمر) و(حسن) و(عبد الرحمن) قادوا تلك الأجنحة، وبقى موقع مسجد العيد بدون أن يُعين له قائد حتى آخر لحظات المواجهة المرتقبة. . إلى أن وصلت الأخبار بأن القيادة في تلك الناحية أنيطت بالأخ (مشاري بن سعود).

. . . في الجهة الشمالية للوادي وبالتحديد شرق البلدة، انتشرت فرق أخرى بقيادة (عبد الله المزروع) و(عبد الله بن إبراهيم بن مشاري) وإن لم تخني الذاكرة كان معهم أيضاً (محمد العميري). وعلى رأس جبل (ناظرة) بنى القائد الفذ (شديد اللوح) سواتر حربية مؤقتة، أدت إلى تكبيد العدو خسائر فادحة، أوقعها فيهم هذا القائد ورجاله الشجعان المتحصنون جيداً بهذه السواتر. . وبشجاعتهم المتناهية.

. .في شعيب (قليقل) أدار (حسن بن إبراهيم بن دغيثر) وإخوانه المعارك الحربية هناك، أما في أسفل الدرعية بين بابي السور، والمسميين بـ(سمحان) و(الظهرة)، فقد اتخذ الإمام الأخ (عبد الله بن سعود) مكاناً يقود منه المعركة بفرقته شبه المُكتملة، والتي كانت تضم لفيفاً من (آل الشيخ)، والأعيان الآخرين المستعينين بمدافع كبيرة الحجم.

. .مقابل كل ناحية تمترست فيها فرق الجيش السعودي تأهبت فرق

Twitter: @ketab_n

مماثلة للجيش الغازي. . عدا فرقة (مشاري) الموجودة في مسجد العيد، حيث خلت من متراس للعدو، وكان هذا مبعث استغراب الجميع. ومع أن هذا التصرف المعادي أفاد فرقة (مشاري) في عدم وقوع إصابات كثيرة بهم، إلا أنه - للغرابة كذلك - لم يُستفد منه في جعل هذه الفرقة تساند الفرق الأخرى، التي سيتدهور وضعها القتالي - حتماً - من حينٍ لآخر.

اليوم التالي الذي شهد التمركز (السعودي) الجديد وتحسين المواضع الدفاعية، شهد كذلك تحرُكاً (للباشا) وقسماً من جيشه، إلى موقع جديد شمال الدرعية يُدعى (قري قصير)، أما شطر جيشه الآخر والذي ترأسه قائده المغربي (علي أذن) فقد اتخذ مواقع مغايرة لمعسكره السابق. هذه المواقع كانت أمام متارس (جيشنا) المتمركز في الجهة الجنوبية للبلدة؛ وفي هذه الأماكن تحديداً جرت - وصبح يوم التشكيل الجديد للجيشين. . . يتنفس - أولى المعارك وأشرسها. ولم يلبث قوس الحرب أن امتد إلى كل الجبهات. . ومنها جبهتنا في بطن الوادي.

. . لا أستطيع يا أخي (حمد) وصف المعارك على هذه الأوراق، فما حدث كان أقوى كثيراً مما تخيلناه أو سمعنا عنه من حروب خاضها جيشنا الموحد من قبل. .لكنني سأحاول:

. . استمر القتال بيننا وبين جيش الغُزاة ليلاً ونهاراً. . خيالة ومشاة. . واستُعمل فيه البنادق والسيوف والخناجر. . وحتى الأوعية؛ ولا تسأل (أخي) كيف كنا نأكل وننام ونقضي حاجتنا؟! كل ذلك كان هامشياً إلى جانب أن تَقتُل وتُقتل. وكُنا ننهزم يوماً حتى يصل العدو قريباً جداً من سواترنا، ويوماً آخر نُنـزل الهزيمة به حتى نصل إلى متاريسه، ما كان يفرُق بين جيشنا وجيش (الباشا) الغازي، هو أننا إذا فقدنا مئة رجل، لا يتم تعويضهم من القيادة على الإطلاق؛ لأن كل كبيرٍ وصغيرٍ في الدرعية انخرط في القتال أصلاً. أما جيش الأعداء، فإنهم

Twitter: @ketab_n

وإن فقدوا المئات في المعارك، فلا يلبثون إلا ويمُدهم (الوالي) المتحسب لكل شيء في مصر، بـجُندٍ في كامل صحتهم وعنفوانهم، أما جرحاهم فإنهم يعودون لأرض المعركة من جديد - ما لم تكن جروحهم مميتة - بعد أن يُسحبوا إلى خلف خطوط الحرب المشتعلة، حيث كان الأطباء الفرنسيون يعالجونهم في مخيمات خاصة، بعيدة عن القتال والقذائف؛ أما مَن يُجرح من (جيشنا) فإنه يُعدُ خارجاً من حُسبان المعارك، ولا يلبث هؤلاء الجرحى - غير المعتنى بهم - إلا قليلاً.. حتى يلفظوا أنفاسهم الكريمة!

... لم تكن الغلبة لهؤلاء على جيشنا في مسألة تعويض الجنود الخارجين من الحرب، بل أن ترجيحاً آخر جعل من مهمة (جيشنا) أكثر صعوبةً؛ الترجيح الذي أقصده أخي (حمد) هو (الإمداد) التمويني في جانبيه الغذائي والحربي، والذي لا ينقطع عن جيش الباشا (إبراهيم) المُمتد مشيمته من مصر، عبر البحر، إلى ينبع والمدينة المنورة، ثم إلى القصيم وبلاد الوشم والسدير، إلى أن يتصل بالرحم الأساسي.. الدرعية.

... طال حصار الدرعية الذي تخللته حروب استنزاف هناك وهنا. نعم..! إنها ستة أشهر من المعاناة اليومية، وسقوط الأحبة قتلى على الثرى الذي أحبوه، وأحبوا دروس العلم ورسائل الإصلاح التي قيلت وكتبت عليه.

... كثرت يا (أبا راشد) قبورنا، وتفشت الأمراض فينا، وقلَّتْ مؤننا وتشكك ضعاف النفوس - التابعون لمن غلب - في مقدرتنا على الصمود وبعث القوة من جديد في الدولة، التي لم يبقَ من شواهدها إلا القليل مع ازدياد وهنها ساعةً بعد ساعة.

عمقَ من خطورة الوضع يا (حمد) انفصال فرق الجيش السعودي بعضها عن بعض؛ فرقٌ غدت بدون وسائل اتصال شفهية أو مكتوبة،

Twitter: @ketab_n

كانت لازمة لمعرفة حقائق الوضع الحربي في كل جهة. لقد قطَّعَ الأعداء تلك الفرق وأصبحت كل واحدة منها معزولة عن الأخرى، وهنا بدأت سيطرة القيادة السعودية تتضاءل.. إن لم تكن قد انعدمت تماماً حينها.

وعلى الرغم من سوء الوضع الحربي للجيش السلفي، فإن هذا لم يمنع من قيام بعض الفرق بأعمال بطولية غلب عليها طابع الفداء والاستشهاد، ولكن هذه البطولات لم تكن في سياق تخطيط قتالي مدروس بهدف قلب المعادلة التي بدأت تقول: النصر بعيدٌ جداً عن (الطائفة المنصورة) وقريبٌ جداً من (طائفة البدع)!

... الأعمال البطولية، غير المخطط لها، شُوهدت (أبا راشد) في معارك جرت عند شعيب (قليقل) في الجهة الشمالية، وكذلك في أسفل الدرعية بجانب (عرقة) التي تم الاستيلاء عليها، بعد أن فقد الأبطال أرواحهم في معركة غير متكافئة مع العدو المصمم على الوصول لأهدافه، مهما كلفه ذلك من ثمن.. سيدفعه بالتأكيد مَن تصور أنه يُقيم دولة دينية نقية، ويتبعُ دستوراً ولا كل الدساتير!

... جهات الدرعية كلها شهدت بعد ذلك معارك طاحنة غلب على جانبها السلفي الرغبة في الاستشهاد، وغابت عنها في المقابل مشاعر النصر الذي بدا بعيداً جداً عن المتناول. لأن كل يومٍ من الحصار والاقتتال كان يمرُ - للأسف - بلا تغيير في ميزان المعارك، بين جانبٍ يملك كل شيء تحتاجه الحروب، وجانب لا يملك إلا روح البسالة والفداء المختلجة في صدور أفراده.

وفي خضم مشاعر المدافعين التي تتبدل كل يوم.. بل كل لحظة، والغالب عليها طلب الموت المفضي إلى الجنة، بعد أن فقدت الغالبية الأمل بتكبيرات النصر التي لطالما سمعوها في الزمن الماضي، وردت أنباءٌ إلى داخل الدرعية، بأن أمير (الرياض) وجانباً من أهالي (منفوحة)

Twitter: @ketab_n

و(الخرج) قد انضموا إلى جيش (إبراهيم باشا) تحت طائلة تهديده، بأنه إن لم يساندوه، فسيعاقب بلدانهم وقصباتهم مثلما يرونه يفعل مع الدرعية وأهلها!

... وفي يومٍ عصيب كغيره آنذاك، حدث أن سمعنا - مقاتلين وأهالي - أصواتَ انفجارات تأتي من ناحية (جبخانة)[1] العدو في الناحية الشرقية، كانت تلك الانفجارات التي تصم الآذان تتوالى متصاعدة، ترافقها نيران ترتفع إلى أعالي السماء. وقيل إنَّ القاطنين على بعد يومين من الدرعية، كانوا يسمعون ويرون الأصوات والأضواء التي سببتها شرارة حرارية في مخازن رصاص وبارود جيش (الباشا) المُكوم؛ وليس صحيحاً يا أخي (حمد) أن جندنا قد فعلوا هذا (التخريب) عبر هجمة استشهادية قامت بها ثُلة منهم، مثلما شاعَ بين الجميع في الدرعية؛ تلك الإشاعة التي هدفت - وشيء (ما) قد تحقق - إلى رفع الروح المعنوية للسكان وللمقاتلين على حدٍ سواء، ودليلي على ما أقول هو: أن المفترض - لو كانت الأقاويل صحيحة - أن يقوم قسمٌ من الجيش باغتنام فرصة الهلع، الذي دبَ في معسكر (الباشا) وأعقبه فقدان أرواح عديدة من جيش الأعداء، نتيجة للانفجارات العمودية والرأسية الضخمة داخل مخيماتهم، بهجومٍ مضاد قد يقلب مجريات التاريخ رأساً على عقب.. بيد أنَّ هذا لم يحدُث!

... اقترب شهر رمضان لسنة 1233هـ واقترب معه ذاك اليوم الرهيب الملفوف بحزنٍ لا يماثله حزن؛ ففي منتصف الشهر الذي (كان) عادةً يمتلئ بالخيرات والبركات، قُتل أخي الحبيب والقائد (فيصل) فتحول الدهر - لا الشهر - إلى تعاسةٍ وفواجع. قُتل (البطل) وهو يتفقد جنده ومواضع فرقته، رماه - شُلَّت يده - غازٍ غادر تربص له في ساتر

(1) الجبخانة: مكان تجميع الذخيرة.

Twitter: @ketab_n

منعزل، وبإيعاز - بلاشك - من قائد الأعداء؛ لِما عُرفَ عن الصنديد (فيصل) من المهابة الحربية والشجاعة النادرة، واللتين لا ينقصهما معرفة كيف تُدار المعارك ومتى؟!

. . . زاد مقتل ذاك البطل من إصرار الغُزاة على سرعة إنهاء مهمتهم، وزاد الفقد من بؤس ما يتطلع إليه قائد جيشنا وجنده. وعلى الرغم من (هجماتنا) المتباعدة والقوية، التي أثخنت الجراح في أفراد العدو وأذاقت الموت بعضهم، في التحامات جنوب الدرعية عند (كتلة الشعيب) وأخرى في (قري عمران) بالقرب من نخل الرفيعة الشرقي، أقول بالرغم من تلك الاندفاعات البطولية والحماسة الدينية الحربية، فقد ظلت موازين الحرب تميل أكثر فأكثر للقادم من وراء البحار.

في تلك الأيام السوداء، قاسى يا أخي (حمد) سكان الدرعية من المقاتلين والأهالي - وأنت أحدهم - شدائد الجوع العظام، فوق ما كانوا يعانونه من لوعات مصرع الأبناء والإخوان والآباء المحاربين، لقد أحكم (الباشا) الحصار حول البلدة القديمة وكل منافذها، ومنع قوافل الغِذاء أن تدخل للدرعية، مهما كانت ضآلة حمولة تلك القوافل، ومهما قيل وتُعهد له بألا يستفيد من المؤن. . إلا النساء والأطفال والعجزة!

. . . وحدث ما كان متوقعاً: في يوم السبت الثالث من ذي القعدة سنة 1233هـ، أمر (الباشا) بهجومٍ كاسح وضخم على كل متاريس وأبراج الدرعية وفي كل النواحي الشمالية والجنوبية والشرقية والغربية، وما هي إلا ساعات قليلة حتى حاصر الغُزاة الفرق من كل اتجاه وشُوهدت بعدها - للأسف - رايات الاستسلام وطوابير المستسلمين.

. . . فرقتنا يا (أبا راشد) قادها، بعد أخي (فيصل)، الأخ الآخر (عبد الرحمن)، الذي أمرنا بالانسحاب العاجل إلى الداخل بعد أن تموضعنا - قبل أسابيع - في موضعٍ جديد مُطل على نخيل والدي

Twitter: @ketab_n

والمسمى (مشيرفة)، مما أحدث ثغرة لم يكن في مقدور الأعداء أن يستغلوها لولا تلك البلبلة القيادية.

أعقب ذلك أمرٌ آخر غريب بالتراجع من خلف محاجي السور التي تعطينا حماية يصعب على الغُزاة اختراقها، في حال ما إذا أضيف لتلك السواتر خط نيران يدفع المهاجمين للخلف كلما حاولوا الاقتراب إلى ما وراء الأسوار باتجاه الداخل. هذا الأمر القتالي كان نكبةً كُبرى على الدرعية ونقطة تحول في سير المعركة التي كان من الممكن أن تطول أكثر، لولا الانسحاب المـُشار إليه.. وحتى يقضي الله أمراً كان مفعولا!

... وجد الغُزاة بُغيتهم الهدية، حالما لاحظوا أن - لا - مقاتلين وراء السور في تلك الناحية؛ مما جعلهم يقتربون أكثر فأكثر تجاه المانع الطويل المطل على الوادي. ثم شرعوا في نقبه؛ وبعد أن نجحوا في اختراقه، جعلوا أنقاضه متاريس لهم ضد هجمات محتملة (لجيشنا) عليهم في تلك الجهة. وبما أن توقعهم لم يحدث، واصل الغُزاة زحفهم داخل الدرعية نفسها بعد أن تركوا السور خلفهم وحوله سرايا كثيرة من جندهم، ورافق زحف العدو قصف مدفعي شديد تزامن مع زخاتٍ لم يُشاهد مثلها من رصاص البنادق المتطورة، والتي كان يملكها جيش (الباشا).

... ساعاتٍ يا (أبا راشد) ووجد أهل الدرعية أنفسهم - في داخل عاصمتهم - وقد أحاط بهم الجيش المرتزق من الناحية الجنوبية والشمالية. مفاجأة الإحاطة لم تُثنِ بقية (جيشنا) من القيام بهجمات مضادة شرسة سقط فيها قتلى كثيرون من الجانبين، منهم أخي (إبراهيم بن سعود)، لكن الهجمات المضادة لم تُفلح في وقف زحف الجيش الغازي المندفع بقوة لداخل البلدة.

Twitter: @ketab_n

هذا التشكُّل الجديد في الواقع الحربي، أجبر المقاتلين ومساعديهم من الأهالي على التفرق في أحياء العاصمة، يلوذ كل واحد منهم بداره جاعلاً منها متراساً له ضد القادمين لسلب الأرواح والأعراض والخيارات.

ومن هؤلاء الذين اتخذوا دورهم محاجي لهم، ابن إمام الدولة (سعد بن عبد الله بن سعود) واللائذ ومعه آخرون بقصر (غصيبة) المنيع ذي الأبواب الحديدية.

قائد جيش الغُزاة، فطِنَ إلى أن بداخل هذا القصر صيداً ثميناً، لهذا أمر سرية مدافعه أن تقصف بقوة جدران القصر وأبراجه، في الوقت نفسه، الذي أمر فيه فرقاً أخرى من جنده أن تهاجم أحياء ومنازل أهل الدرعية التي لاذ بها المقاتلون؛ وبين الشوارع الضيقة المُتربة لتلك النواحي، دارت معارك اعتبرها أهالي (البجيري) و(الحوطة) و(النقيب) و(المريح) معارك لصون أعراضهم وشرفهم الحربي، وللتأكيد على ما عاهدوا أصحاب الدعوة عليه.

وعندما نفدت ذخيرة المدافعين من الرصاص والبارود، تجالدوا مع العدو بالسيوف والخناجر، وتحول نهار ذلكم اليوم المشؤوم إلى الليل من كثرة النقع الذي غطى شمس الصُبحِ والضُحى. وقد أحسن - والله - أهالي تلك النواحي القتال ودافعوا دفاع الأبطال عن آخر معاقلهم وآخر آمالهم. لقد قُتل من جراء معارك الشرف تلك يا (أبا راشد) من الغزاة مئتا مقاتل مرتزق، ولم يستطع مَن بقي حياً منهم، أن يتقدم شبراً.. غير المسافات التي وصلوا إليها عند أبواب منازل الأبطال.

... ماذا عن القائد والإمام، والمعارك تشتعل في كل ناحية من الدرعية؟

عَلِمَ وشَاهَدَ أخي (عبد الله) ما حل بعاصمة دولته، وعَلِمَ وشاهد أيضاً كيف تشتَّت مقاتلوه وجيشه بعد تلك الفوضى في القيادة، وإهمال

Twitter: @ketab_n

ما كان يجب ألا يُهمل. إطلاع (القائد) على تلك المعطيات التي لا تبشر بخير حدث وهو لايزال يدير معركة خاسرة بين بابي (الظهرة) و(سمحان). وللحظات فكر الإمام أن يلوذ بقصر (غصيبة)، إلا أنه رأى ما حل بالقصر من تدمير، عندئذ عدل عن نيته، واختار بدلاً من ذلك منزله في حي (الطريف) ويا ليت أن هذا التصرف كان من خلال تراجع محسوب، لكنه تمَ كما تمت الانسحابات الفوضوية السابقة.. إن لم يكن أسوأ في نتائجه المترتبة. ففي موضع القائد المتقهقر، غنِمَ (الباشا) مخيم القيادة كُله، وبما يضمه من أسلحة خفيفة ومدافع لم تُستعمل إلا نادراً وبطريقة خاطئة. ومن المكان المهم ذاك أطلقت مدفعية الغازي قذائفها المدمرة تجاه بقايا المتحصنين خلف باب (الظهرة) الذي لم يكن حظه أفضل من الأبواب والأبراج الأخرى.

... تيقن المدافعون عن الدرعية والأهالي، ألا أمل في مواصلة القتال مع عدوٍ تداخل في نخيلهم وقاسمهم سطوح بيوتهم، ولم يكن مستغرباً والحال كما وصفت أنا ورأيت أنت، أن يطلُبَ قسمٌ كبير من السكان الصُلح مع (إبراهيم باشا). سمعت يا (أبا راشد) عن تلك الأخبار وأنا في قصر (غصيبة) مع أخي (عبد الرحمن).. فذُهِلتُ، لا لأنني كنت أريد أن تستمر الحرب التي عرفت في وقت مُبكر أنها خاسرة لا محالة، بل لأنني فُجعتُ في تلك الأحلام وأماني التي قيلت لنا. لقد قيل لي ولأمثالي من شبيبة (آل سعود) أن دولتنا السلفية لا يمكن أن تُهزم، وأن حدودها لا يمكن أن تُرسم، لأنها تتوسع في كل يوم قامعةً الشرك والبدع. وقيل لنا: إن كل الانتصارات والمغانم التي جناها آباؤنا وأجدادنا الأوائل - بُناةُ الدولة - لا يمكن أن تُقارن بالانتصارات والمغانم التي سنشهدُها، عندما يأتي دور جيل قيادتنا الشابة المنحدرة من الدوحة المباركة!

ذهبتْ كل تلك الأقاويل أدراج الرياح، وتأكدتُ من هذا وأنا أسمع

Twitter: @ketab_n

أخبار مفاوضات الصلح، المتبوعة مساءً بقذائف (الباشا) التي دكّت قصر (غصيبة) مرةً أخرى، إلى درجة أن أوامر صدرت لنا بأن ننسحب ليلاً إلى حيث تمترس أخي الإمام (عبد الله) في قصر بحي (الطريف)؛ لأن المكان هناك أكثر أماناً بمقياس تلك الأيام!

... مفاوضات الصلح جرت بين (الباشا) شخصياً وجماعة ندبوا أنفسهم كممثلين عن بقية المدافعين وأهالي الدرعية، وعُرفَ من تلك الجماعة عمي (عبد الله بن عبد العزيز) والشيخ (علي بن محمد بن عبد الوهاب) و(محمد بن مشاري بن معمر)، وكان منطقياً أن يفرض المنتصر - تقريباً - شروطه على الوفد.. ومن ذلك: أن الصلح القاضي بتأمين حياة وأملاك المدافعين والأهالي لا يشمل إلا سهل الدرعية، أما المتحصنون في القصور وعلى شواطئ الوادي ومرتفعات الجبال.. فلا أمان لهم، ما لم يُسلم الإمام (عبد الله بن سعود) نفسه (للباشا)، ويضع شخصه في تصرف قائد الجيش المحتل!

نتيجةً لهذا التعنت والكبرياء من قِبل ابن والي مصر، فشلت المفاوضات (رسمياً) في السابع من ذي الحجة عام 1233هـ[1]. أما على الأرض فقد طبق بعض الأهالي غير المحاربين من سكان قُرى وسهل الدرعية شروط (الباشا) عندما راحوا يتسللون إلى خارج أسوارها، موجهين رواحلهم إلى البلدات البعيدة، وأظن يا أخي (حمد) أن آخر ما تذكرونه أنتم وأسرتكم عن الدرعية وأيام كربها تلك، كان يوم خروجكم وغيركم إلى حيث شئتم.. ولا ألومكم!

... أخبرتْ تجارب (إبراهيم باشا) الحربية والذي كان على تواصل كتابي مع والده الأكثر خبرةً ودرايةً منه، أن مواصلة الضغط على عدوه سيكون وحده الخيار الأنسب لمثل هؤلاء المتمّسكين - إلى حد

(1) الموافق للتاسع من سبتمبر/ أيلول 1818م.

Twitter: @ketab_n

الموت - بنظرتهم تجاه من يخالفهم في الرؤية الدينية والدنيوية، لذا راح (إبراهيم) يطبق ما تعلمه وما دفعه له حدسه: زحف جيشه صوب سهل الدرعية لإخراج من تبقى من الرافضين للصلح غير الكامل، الذي فُرض على وفدهم بالأمس، وما إن أتم الغُزاة مهمتهم غير الصعبة، حتى استدارت مدافعهم إلى حي (الطريف) - حيث كُنا - من خلال المواقع التي اختارها القائد (علي أزن) في رأس جبل (سمحان) المشرف على الحي الشهير. . قذيفة. . قذيفتان. . ثم تتالت القذائف الناسفة التي دمرت أجزاءً كثيرة من الحي وأشعلت النيران فيه.

. . . على رؤوسنا كانت القذائف تنـزل يا (أبا راشد)، وإن توقفت لساعات - ليُعاد حشو غيرها - تساقطت على الرؤوس بدلاً منها، أبراج القصور المهدمة بفعل القصف العنيف، ولا يمكن أن أنسى تلك اللحظات التي سقطت فيها قذيفة - وما أكبرها! - في وسط حوي[1] قصر الأخ (عبد الله). لقد رأيتُ المحشوة الضخمة تتدحرج على الأرض بعد أن رُمي بها من بعيد، ثم تمر بعد ذلك ثوانٍ لا يمكن حسابها زمنياً. . انفجرَ بعدها - ولِـحُسن الحظ - جزءٌ جانبي منها؛ لأن سقوط المقذوفة على مساحة من (التبن) الـمُفترش ولسبب غير معروف وسط القصر، قلل من إنشطارها وتفجُرها الكُلي. وكان يكفي من هذا الانفجار - غير الكامل - أن تتوزع شظايا منه في كل اتجاه، واحدة مميتة أصابت صديق الطفولة (حمد بن محمد العروان) في رأسه، والثانية أصابت أحشاء أحد أعيان الدرعية والمدعو (محمد بن إبراهيم بن سويلم) والذي لفظ أنفاسه فوراً، أما الثالثة الأخرى والتي هي أصغر من أختيها، فقد أصابت (أخاكم) كاتب هذه الرسائل، لِتمُرَّ حرارتها وأزيزها ورؤوسها الجارحة، بين أرنبة الأنف ونتوء الخد الأيمن، ثم تستقر أخيراً

(1) حوي: كلمة نجدية تعني البهو في وسط المنازل، وقد تعني أحياناً المنزل نفسه.

Twitter: @ketab_n

في شقوق أحد الجدران الذي كنت أتمترس خلفه، بعد أن فتّتت قطعة من (شحمة) أذني اليمنى!

... أخذني يا (أبا راشد) لحظتها دوارٌ عظيم، وخُيل لي في زمان الرعب والموت ذاك والذي لا يمكن معرفة مداه، أن طِلاءً أحمر قد سقط من عُلو على رأسي ليغمر كل وجهي وكتفي، وما كان ذاك بطلاء، بل دمائي التي (سالت) في سبيل الله.. كما قيل لنا - توقعاً - ونحن نستعد لحرب (إبراهيم)!

دخلت يا (أبا راشد) ساعتها في دائرة مُكتملة من الهذيان وفقدان الاتزان، ومن انتفاء معرفة أبعاد الزمن والمكان والمحيط البشري، راحت تُلح عليَّ أطياف والدتي التي لم أرها منذ أشهر.. وكذلك أبي وزوجاته، مع شخوص الأعمام والإخوان الذين صنع منهم فقدان الإدراك كائنات بشرية قصيرة القامة تارةً وطويلة تارةً أخرى، تجري في كل اتجاه بين غابات نخيل الدرعية وسواقيها؛ لقد استحضرتُ وأنا أعيش بين عالم الوهم والحقيقة، حكايات سبق أن حكتها والدتي على مسامعي، عن ضفادع الحبشة وأساطيرها، متداخلةً بشكل فوضوي مع دروس (أبناء الشيخ) والصيحات الحربية لأخي (فيصل). راح عقلي - إن كان لي عقل ساعتها - في استدعاء كوابيس الطفولة واليفاعة، وأشكال فتياتٍ رسمها خيالي (كُنتُ) سأختار واحدة منهن كفتاة أحلام.. وزوجة.. وأم أبناءٍ - ذكور - يحملون لواء الدعوة المنصورة من جديد!

... بعدها رحتُ يا (أبا راشد) في سُبات عميق يقطعه بين حينٍ وآخر ألـمٌ لا يُطاق، وأحاديث بشرية حولي لا أدري ما تقول، ثم انسحب بعدها نحو ذاك الخدر - الذي أتمناه - لأنسى فقط ألـمَ ما قبلُ وما بعد. وبين غفوةٍ وعفوة.. وبين ألـمٍ وألم.. وبين هذيان وآخر، حدثت عظائم من الوقائع والأحداث، ترتب عليها جميعاً إعادة كتابة تاريخ هذه المنطقة مرةً جديدة:

Twitter: @ketab_n

نقلَ أخي الإمام (عبد الله) ما بقي من مدافعه - التي لم تُستعمل بشكل صحيح إلا نادراً - من قصره، إلى المسجد الجامع في (الطريف) ليرمي جيش الغُزاة بآخر قذائف تمتلكها مدافعه؛ ولمدة يومين دارت معارك يائسة بين جيش (الإمام) الذي تقزم جِداً إلى أن أصبح يُعدُ بالعشرات.. بدلاً من الآلاف، التي كانت ديار الجزيرة العربية تضيق بهم في أيام الفتوحات والنصر.. الخوالي.. وقيل لي الكثير عن (الإمام) الذي كان ينتخي جُنده المتسربين منه، فلا يجد صدىً للكلمات، التي قبل نصف سنة - فقط - كانت تصنع المعجزات! وعندما يئس (الإمام) من التذكير بالجنة، وخزي الهزيمة، وبمقتضيات الوفاء بالعهود والنُذور، حاول ثنيَ الجند المقررين النجاة بأنفسهم وتركه وشأنه، عبر طريقة تقليدية قديمة: بذل الدراهم والتلويح بالذهب.. فلم ينفع هذا ولا ذاك.

... يا الله..!!

أقول ذلك وأنا دامع العين وحتى بعد مرور ما يقارب الخمسة والأربعين عاماً من يوم العار ذاك.. لقد طلبَ الصُلحَ - بعد أن أبانَ فجر المعارك الخيوط التي تُفرق بين النصر والهزيمة - قائد الدولة السلفية الجهادية، حامل الدعوة الإصلاحية، والذي (فكرَ) آباؤه وأجداده يوماً أن يقتحموا قصر الخليفة في (الآستانة) مخيرين (صاحبها): إما أن يعود إلى ما كان عليه زمن النبي وأصحابة.. وإما أن يعزِلَ نفسه ويُولى غيره!!

حينها لامَ (بعض) الأهل قائدهم وإمامهم على رغبته في الاستسلام وهو يقف بين يدي المنتصر على دولته والقادم من البعيد. لكن كُل الحقائق ومشاهدات ما حلَّ بالدرعية وأهلها، كانت تؤيد ما أقدم عليه (الإمام) المحب للسلم بطبعه، والذي راعهُ منظر النساء والولد، وتعاظم

Twitter: @ketab_n

مساحات المقابر؛ وما تقذفه العيون الكثيرة تجاهه من أسئلة، لم يعد يملك رجل الساعة الحزين، إجابةً عليها.

ذهب (إمامنا) في يوم الأربعاء الثامن من ذي القعدة[1] إلى (الباشا) بعد أن طلب الصلح والمهادنة، ولا أدري ماذا حدث في ذياك اللقاء سوى أنَّ (الباشا) أملى على المنكسر شروطه، والتي من أهمها وأعظمها: ترحيل رمز الدولة، وأسرته، وأفراد عائلة (آل الشيخ) إلى (الآستانة) عبر مصر.

وافق الإمام على جميع الشروط التي رآها قريبه (سعود بن عبد الله بن محمد بن سعود) مُجحفةً ومذلةً، لهذا أراد أن يهرب من الدرعية محاولاً كما قيل تجميع جُندٍ - غير موجودين إلا في خياله - وبعد ذلك يشرع في المقاومة! لكنه - للأسف - تم القبض عليه وهو يبدأ أولى محاولات الهرب، فكان جزاؤه أن سِيقَ بعدها إلى معسكر (الباشا) حيث قُتِلَ وصُلب، مثلما أُعدم غداة الاستسلام محاربون أشداء وعلماء آخرون أفاضل، أتذكر منهم: قاضي الخرج (حمد بن راشد العريني) وقاضي الحريق والحوطة (رشيد السردي). ومن أهالي الدرعية اقتصَ الغازي من عديدين منهم: (عبد الله بن حمد بن كثير) و(عبد الله بن محمد السويلم) و(حمد بن عيسى السويلم).

أما القاضي والشيخ العالِـم (أحمد بن رشيد الحنبلي) فقد ناله من شرور المرتزقة قبل موته.. الكثير: ضُربَ، وعُذبَ، وقُلعتْ جميع أضراسه، ثم أُسقط به في فوهة المدفع، الذي قذف بجسمه الطاهر - كحشوةٍ - في السماء، أقسم بعدها طُلابه ومُريديه أنهم جمعوا أشلاءه المقطعة والمنتشرة على مساحات عريضة من الأرض.. التي أحبها.

... بعد يوم الاستسلام، والمهانة، والانتقام، والقيل والقال،

---

(1) 9 سبتمبر/ أيلول 1818م.

Twitter: @ketab_n

بدأتُ يا أخي (حمد) في استعادة وعيي؛ قيل لي بعدها إنني سُحبتُ من أرض المعركة بعد إصابتي، إلى حيث منازل (الحريم)، وأن والدتي اعتنت بي طوال أيام نزيف الجرح وفقدان الوعي، وأنها - رحمها الله - عرَّضتْ نفسها لمخاطر القذائف وطلقات الرصاص والاعتداء عليها، وهي تعدو جيئةً وذهاباً بين كل بيوت الأسرة والجيرة، بحثاً عن لبخاتٍ خاصة بتضميد الجروح، هي عبارة عن مزيج من مسحوق أوراق الريحان والبـُن، ولم تنسَ - تلك المرأة الحبشية الحنون - إمداد المصاب الذي تُحبه بشوربة[1] الحب واللحم النادرين في تلك الأيام العصيبة، في محاولة لترميم جسدي الواهن الـمُثخن بالجراح.. على أنواعها!

... وحالما بدأتُ أعي مَن حولي، وأعرف ماذا جرى بعد إصابتي والأحداث المتتابعة التي تلت (يوم الشظايا) ذاك، جرى ما كان في الـحُسبان.. حتى لو تمنيت ألا يحدث:

أُخذ كل أفراد أسرتي وأسرة آل الشيخ (محمد بن عبد الوهاب) - حتى الجرحى من أمثالي - ووُضعوا كسُجناء في أحد القصور الكبيرة المبنية داخل بُستان (العويسية) العائد لأخي (تركي بن سعود).. هذا بالنسبة للذكور، أما الإناث ومن ضمنهن والدتي وزوجات أبي، فقد ضُربتْ عليهن حراسةٌ مُشددة داخل أحد البيوت في (البجيري).

... وفي (السجن) راح الأهل يُخبر بعضهم بعضاً عن القتلى الذين دافعوا إلى آخر قطرة من دمائهم، في سبيل ما كانوا يؤمنون به. قيل لنا إن قتلى الدرعية بلغوا ألفاً وثلاثمئة رجل.. منهم واحدٌ وعشرون من (آل سعود)، ومن هؤلاء الشهداء الأخوان: (فيصل وإبراهيم وتركي)، وكذلك (فهد بن عبد الله بن عبد العزيز) و(فهد بن تركي بن عبد الله) و(محمد بن حسن بن مشاري) وإخوانه (إبراهيم وعبد الله وعبد الرحمن)

---

(1) الشوربة: الحساء.

Twitter: @ketab_n

و(إبراهيم بن عبد الله بن فرحان) و(عبد الله بن ناصر بن مشاري) و(محمد وسعود) أبناء (عبد الله بن محمد بن سعود) وآخرون من (آل ثنيان) و(آل ناصر) و(آل هذلول). قُتل هؤلاء الصناديد في ساحات (الشرف) مُقبلين غير مُدبرين، راغبين في الموت غير هائبين.. رحمهم الله جميعاً ومَنْ معهم!

... أيامٌ قليلة يا (أبا راشد) من هزيمة الدرعية المدوية، فصلت بين الزمن الحزين وترحيل قائدنا الإمام (عبد الله) إلى مصر وبرفقته اثنان، أحدهم مملوكٌ لوالدي يُدعى (عبد العزيز) والثاني الخوي[1] (عبد الله السري)، أما حراسة موكب الأسير الذي طالما تمنت (الآستانة) أسرهُ من قبل، فترأسه أحد قواد (الباشا) واسمه (رشوان أغا) ومساعده (علي الدويدار) ومعهما عساكِرُ كُثر؛ وعُلِمَ فيما بعد أن الموكب الحزين لأهله، والمُفرح للأعداء وصل في يوم عاشوراء من السنة التالية[2]. أما بقية (الأسرى) من الذين (كانوا) حُكاماً على الدرعية وعائلتهم جميعاً، ومعهم أسرة (آل الشيخ)، فقد رُحِلوا - ومعهم أخوك المنكسر القلب ووالدته - في يوم الثامن عشر من شهر جمادى الأولى سنة 1234هـ[3] بعد أن قضى الجميع - الذين فقدوا كل شيء - مدة ستة أشهر في ذُل السجن وجُب مهانته.

... أخي (حمد):

في رسالتي المـقبلة سأسرد إن شاء الله ممن لازلتُ أتذكرهم من أسماء (الـمُرحلين)، لعل في ذلك فائدة لكم ولمن يقرأ رسائلي بعدكم. فأسلم لمحبكم..

---

(1) الخوي: المُساعد صادق الأخوة.

(2) يقصد سنة 1234هـ.

(3) أبريل عام 1819م.

Twitter: @ketab_n

كُتبت هذه الرسالة في اليوم الأخير من رجب سنة 1277هـ كتبها أخوكم الذي لا ينسى تفضلكم بقراءة رسائله الطويلة!

(خالد السعود)

ملاحظة لابد من الإشارة إليها:

هطل المطر غزيراً في مكة وأنا أختم رسالتي هذه. ابنكم (مشاري) فرحٌ جداً بالمطر، وهو يقفز كالطفل مستبشراً بالغدق، ولا ألومه على هذا التصرف العفوي، لأنني وأنا صغير في (الدرعية)، كنت لا أمِلُّ من الجلوس تحت المطر المنهمر.. وإن تخلله (حبيبات) بَرد وعواصف.. لكن الفرق هو أن مطر نجد كان يُنبت الخزامى والنفل.. سقى الله أرض الآباء والأجداد طوائف السُحبِ الخالية من الرعدِ!

... أمرٌ مُضحكٌ آخر، أخي (حمد): بصاصو (الشريف) يراقبونني وابني.. ولا أدري علامَ؟! حتى وهم مُبللو الثياب، وفاقدو الأمل في كتابة شيءٍ ذي بال، لسيدهم الذي علمهم.. البصاصة!!

* * *

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الرسالة الخامسة

منفى

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

يـا نـاعـم الـثـوب! كـيـف تـبـدلـه؟
ثـيـابـنـا الـصـوف مـا نـبـدلـهـا!
يـا راكـب الـخـيـل! لـو بـصـرت بـنـا
نـحـمـل أقـيـادنـا، ونـنـقـلـهـا!
رأيـت، فـي الـضـر، أوجـهـاً كـرمـت
فـارق فـيـك الـجـمـال أجـمـلـهـا!
قـد أثـر الـدهـر فـي مـحـاسـنـهـا،
تـعـرفـهـا، تـارة، وتـجـهـلـهـا

(أبو فراس الحمداني)

أسبغت رسائل الأفندي (خالد بن سعود) السابقة، على رئيس الدرك ونائبه، مشاعر الود والتعاطف مع كاتبها. على الرغم أن واجباتهما الوظيفية وفكرتهما الـمُسبقة عن الراحل - الذي تُقرأ رسائله المتضمنة تعريضاً بهما - تقضي بضرورة تمسكهما بروح التوجس تجاه النجدي، الذي (كان) حاكماً على بلادٍ ناصبت - ومازال - حُكامهم العداء. لكن نقد الرجل للأفكار التي أراد الـمُنظرون العقديون في نجد تصديرها - عنوةً - لخارج بلادهم... ودفعوا بالتالي أثماناً عظيمة لها، وحياديته عندما يقرأ التاريخ، جعلهما لا يترددان في الإسرار لبعضيهما حول دفين مشاعرهما المتعاطفة (السرية) تجاهه، وهذا ما جعلهما مُتلهفين لمعرفة خبايا الرسائل الـمُتبقية، خوفاً من مداهمة الوقت لهما. وبحثاً عن كلماتٍ وجُمل قادمة، لعلها توقظ فيهما.. ما ألزمتهما به مهامهما الأمنية.. بعيداً عن الذي يميلان إليه ويتعاطفان معه:

Twitter: @ketab_n

بسم الله الرحمن الرحيم

أخي (حمد بن محيمل)

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته:

هل يمكن أن يتجسد الشقاء والكرب فيأخذا اسم و(كسم) هذا وذاك من البشر؟ مثل هذا السؤال لم يكن بالإمكان أن يستحضره أبناء الأسرتين اللتين أشهرتا الدعوة الإصلاحية في الجزيرة العربية قبل عقودٍ من يوم ترحيلهم الحزين ذاك، إلى خارج من عاصمتهم التي طالما سُمعَتْ فيها تكبيرات لا تُحصى إثر انتصاراتهم المتتالية، والـمُعايشة (وقتها) وجه الحياة القبيح الآخر، حيث ذُل الغزو، والاحتلال، والرضا - كُرهاً - بما يُقره لهم عدوهم التاريخي؛ قلت لك أخي (حمد) أن ذلك لم يكن حاضراً أبداً في ذهن أبناء الأسرتين اللتين توزعتا مهام التأسيس للدعوة السلفية.. أتدري لماذا؟ لأن ذلك (كان) من الـمُحال، هذا الـمُحال الذي تحقق واقعاً يمشي على الأرض، يرجو قطرات ماءٍ حيناً، وحيناً آخر كساءً يقي الأجساد الناحلة شدة الجوع، وبرودة الصحراء، وعيون الغُزاة.

بدأتُ يا (أبا راشد) رحلة المنفى - إن لم تـخُني الذاكرة - بعد ثلاثة أيام من منتصف شهر جمادى الأولى عام 1234هـ. وبعكس سرية الجيش محدودة العدد، التي واكبت رحلة المنفى الأخرى الحزينة لقائد (دولتنا) وإمامها، قبل ستة أشهر تقريباً من يوم التسفير الجماعي اللاحق، رافقتنا نحن (الأسرى) فرقةٌ كاملة - تقريباً - من جيش (الباشا) الغازي، تحسُباً لهروب البعض منا.. الحالمين بعودة رايات النصر للفرقة الناجية!

وأنا ألتفتُ يا (أخي) صوب أطلال الدرعية بعد أن غادرتْ آخر قوافل الأسرى أرض الآباء والأجداد.. دمعت عيناي كثيراً. حاولت أن أُخفي لوعتي وضعفي عن الإخوان وأبناء العمومة وحتى عن والدتي.. فما استطعت، بل لم استسغ المحاولة ورأيتها كبتاً مُتعسفاً ومتأخراً لما

Twitter: @ketab_n

في داخلي من مشاعر متناقضة، عزلتها هيلمانات[1] عروض القوة السابقة للفكر الجهادي.

أكان يوم الترحيل ذاك ضرورياً؟ ألم يكن في المقدور تجنبه و(تأخير) انهيار الدولة والفكرة؟

أسئلة رحتُ أطرحها على نفسي وأنا دامع العين مُحبطٌ بالهموم والأسى والأحاجي العريضة، التي تجلد داخلي، المستعين بما حوله من سوداوية الأحداث والصور. وعندما أعوزتني الإجابات رحت أرجع لتلك المنطقة من التفكير التي تُسعف الحيارى - أحياناً - بفلسفةٍ للحياة وفقهٍ للواقع.

من قبل حاول (المتنبي) أن يجد إجابة على مثل أسئلتي فقرر - وكثيراً ما أصاب - أن المشقة هي وحدها الفيصل لمن أراد السؤدد، وأن عروس الأبطال قد تكون المنايا، لمن أراد أن يُطلق عليه صفات الإقدام والشجاعة!

المؤسسون بُناة الدول، والموحدون الاستثنائيون للأُمم والأراضي، والمطلقون دعوات الإصلاح والتجديد، والهادمون لقديم الأفكار والمعتقدات المُعيقة، هؤلاء لابد أنهم وضعوا في حسبانهم عندما شرعوا في صناعة حلمهم وبناء دولهم بعد ذلك، احتمالات هدم معابد أحلامهم ومحاريب دعواتهم، ومعها بالتأكيد السقوف الحامية للحكم والسلطان. ولابد لِخلف هؤلاء الاستثنائيين أن يدفعوا كذلك، أثماناً لحصرم الشهرة - ذي الأشكال - الذي تمتع به حيناً من الدهر أسلافهم.

هذا هو العدل.. في رأي البعض. أما غيرهم فيري أن هذا هو الظلم بعينه. هل سألوا الخلف - مثلاً - إن كانوا يريدون هذا المصير وتلك العاقبة؟ ولماذا يدفع أناسٌ أثماناً لأشياء لم يطلبوها أو يشتروها؟!

---

(1) الهيلمان: الشيء الكثير.

Twitter: @ketab_n

شفتاي اللتان أحاول أن أرطبهما بطرف لساني، ويداي المعروقتان، وطنين أذني الذي راحت (شدته) تزداد مُنذ (يوم الشظايا) الذي لا يُنسى، نسفت - جميعاً - محاولتي الفلسفية المقزمة، ومشروعات كتابة فقه سياسي خاص بي.. وبحالتي!

... وعندما يئستُ من جهودي العقلية في التفسير وربط الأشياء بعضها ببعض، رجعت القهقرى إلى تلك المساحات الواسعة من الإيمان السلفي بالقضاء والقدر، لكن حتى هذا الإيمان ورغبتي في ضرب أعمدة خيام اليقين في مساحاته، شاغبتني فيه تلك الرؤى القديمة التي أخفيتها دوماً عن مشايخي في الدرعية القارئين علينا آيات من مثل: ﴿لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾[1] ومثلها: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُحْيِۦ وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾﴾[2] والآية الكريمة الأخرى: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾[3]. رؤاي القديمة السرية التي أخفيتها حتى عن نفسي يا (حمد)، كانت تنطلق من القرآن نفسه الذي تقول بعض آياته: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾[4] وتقول أخرى ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[5]. ولأننا أبناء الرضا والإيمان بهذه الآيات أو تلك، لم يسعفني هذا المزيج الكريم وحالتي الكربة مستمرة، إلا بسكينة أرواح المؤمنين المتعاركة مع يم الأسئلة ومحيطات الرغبة في معرفة: لماذا كان ما كان.. وماذا بعد؟!

---

(1) الأنفال: 42.

(2) غافر: 68.

(3) يونس: 33.

(4) البقرة: 286.

(5) الكهف: 29.

Twitter: @ketab_n

هل كنت الوحيد في طرح الأسئلة وجلد الذات داخل قوافل الأسرى الـمُيممة صوب الموطن الجديد.. مصر؟ بالتأكيد..لا. أكد ذلك لي قراءاتٌ مُتعمقة في خبيء عيون الإخوان والأعمام وأبنائهم.. بل كل العائلة، التي لم يبقَ في الديار النجدية منها ومن أسرة (آل الشيخ) إلا من هربَ واختفى عن الأنظار.. أتريد يا (حمد) أن تعرف أسماء (رُفقاء) الأسر والمنفى؟..أتذكر من الأسرى الأربعمئة أسماء منها.. الإخوان: (فهد وسعد وعبد الرحمن وعمر وحسن.. أبناء الإمام سعود بن عبد العزيز)، ومع كل واحد من الإخوان زوجاته وأبناؤه وبناته، ومعنا كذلك: (فيصل بن تركي بن عبد الله بن محمد بن سعود) ومعه إخوانه صغار السن، أما والدهم فلم يكن مع الأسرى؛ لأنه تسلل من طوق الغُزاة قبل الاقتحام الأخير لمعاقل الدرعية، واتجه صوب ضواحي (الحائر)، إلى حين ضرب القدر معه موعداً سيأتي ذكره لاحقاً.

... كان معنا أيضاً بالإضافة إلى (محمد بن تركي بن عبد الله بن سعود) كلٍ من: (محمد بن ناصر بن سعود بن فرحان) و(مشاري بن عبد الرحمن بن حسن بن مشاري) الذي هرب من سجنه في مصر، وعاد إلى (الديرة)[1] محاولاً حُكم ما تبقى من أرضٍ ظلت وفيةً لأرث نفوذ الدولة الـمُغتالة، لكنه - ويا للهول - أحدث فتنة وهو يريد إصلاحاً.. لقد قتل خاله (تركي بن عبد الله) والذي فر في أيام حصار الدرعية، والمعلن في عام 1240هـ، أنه إمام دولة سلفية ثانية، حاولت أن تنهض من جديد على أنقاض الدولة الأولى الأوسع والأمكن؛ وهذا الادعاء أطلقه كذلك (مشاري بن عبد الرحمن) حتى وهو يحظى بعطف خاله وصداقته القديمة معه التي لم تضعفها أيام سجنه الطويلة في مصر. وأذكر أننا كنا نتبادل - ونحن في أسرِنا المصري - رسائل (ابن فيصل.. تركي) الـمُرسلة

(1) الديرة: الموطن.

Twitter: @ketab_n

لـ(مشاري)، ودعواته له للعودة إلى نجد لمساعدته في إقامة الدولة الثانية، ولن أنسى كما غيري قصيدة (تركي) لابن أخته المحركة للمشاعر التي بدأت بالبيتين الشهيرين:

طار الكرى من موق عيني وفرا

وفزيت من نومي طرى لي طواري

سر يا قلم واكتب على ماتورا

أزكى سلام لابن عمي مشاري

وبالفعل عاد (مشاري) إلى الديار النجدية لمساعدة خاله وابن عمه، لينتهي كتاب التعاطف بصفحة الاغتيال الأثيم، والمتبوع سريعاً بانتقام دموي من (مشاري) كان بطله (فيصل بن تركي). وقعت حفلات القتل المتتابعة تلك قبل عودتي كـ(منقذ) لأرض الآباء والأجداد بثلاث سنوات[1] تقريباً!

من الأسماء التي تحضرني أيضاً وهي تُرحل من الدرعية ابن الأخ: (سعد بن عبد الله بن سعود بن عبد العزيز وولداه وثلاث من بناته)، كما لا تفوتني الإشارة إلى أن (أم الأولاد) الكبار لوالدي - رحمه الله - كانت معنا وبرفقتها ابنتها، ولم تنسَ المرأة الصالحة أن تُشركَ في هودجها والدتي.. رحم الله الجميع!

كان عدد (آل سعود) من غير المماليك والأتباع مئتين وأربعة وخمسين شخصاً، أما أسرة الشيخ (محمد) فقد بلغ الأسرى منهم والمرحلون إلى مصر مائة وخمسين عالماً ومعهم محارمهم وخدمهم.. ومن أشهرهم: الشيخ (عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب) ومعه زوجته وابنه (عبد الرحمن)، وكان من ضمن أسرى الأسرة الكريمة (عبد

---

(1) قُتل الإمام (تركي بن عبد الله) مؤسس الدولة السعودية الثانية وجد الأسرة الحاكمة الحالية في آخر يوم من عام 1249هـ الموافق للعاشر من أيار/ مايو 1834م.

Twitter: @ketab_n

الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب) ترافقه زوجته وابنه الصغير البالغ من العمر ثماني سنوات. وأرسل (الباشا إبراهيم) إلى مصر مع قافلتنا الشيخين (علي وإبراهيم) ابني المصلح (محمد بن عبد الوهاب) وبعض هؤلاء الأفاضل (أبا راشد) عاد إلى الرياض في أثناء ما أُطلق عليه (عهد) الإمام (تركي بن عبد الله) وبعضهم تأخر قليلاً، وآخرون قضوا نحبهم في مصر خلال سنوات النفي.

... قاد أحد مساعدي (الباشا) والمسمى (إسماعيل أغا) قوافل الأسرى، وحرسهم، والقائمين على خدمة مجاميع المنتصرين والمهزومين، إلى حيث تقرر أن يبقوا بقية أعمارهم.. أو أن يقرر الله أمراً كان مفعُولا!

سلكت القوافل التي يحمل رُكبانها مشاعر شتى، طريق (الحيسية) ثم اتجهنا صوب (ضرماء)، في طريقنا بعد ذلك إلى (شقراء) حيث حامية (الباشا) الكبيرة المتواجدة هناك، ومن هناك وبعد أيام عديدة اتجهت القوافل نحو (المذنب) إلى أن وصلنا (بريدة) التي (أنخنا)[1] فيها لمدة أسبوع تقريباً، لتأخذنا أقدارنا لاحقاً إلى (الحناكية) غير البعيدة عن (المدينة المنورة)، التي وصلناها بعد - حوالى - شهر من مغادرتنا (عاصمتنا) المُهدمة.

... بعد عشرة أيام من المكوث في مدينة الرسول - صلى الله عليه وسلم - اتجهنا غرباً نحو البحر الذي يتوسد أحد شطآنه ميناء (ينبع)، هذا المرسى الذي ظل على الدوام محطة تأتي وتذهب منها الإمدادات من وإلى مصر، إلى جانب قوافل المنسحبين والأسرى.

وحالما وصلنا (ينبع) ورأى (صبيان) الأسرة زرقة البحر.. تقافزوا

(1) أنخنا: يقصد بروك الإبل واستراحتها.. ومن عليها.

Twitter: @ketab_n

من على ظهور مطاياهم، مغتبطين بلقاء مَن سمعوا عنه كثيراً، ولم يشأ حظهم رؤيته وهم في بلادهم الداخلية القصية.. ذات الصخر الـمُترب.

... مساكين صغارنا.. أبرياء! نسوا ما مرّ عليهم قبل أشهر من الخوف والذعر، أسقطت طفولتهم كل حسابات الـحُكم وتصنيف الناس بين مُلتزم ومبتدع؛ ضحكاتهم وهم يخوضون في المياه المالحة التي يحاولون - عبثاً - أن يحملوها بين أيديهم الصغيرة الواهنة، اختزلت أزمنة كل ما عرفوه وشاهدوه وقرأوه. تمنيتُ لحظتها - والله - أن أفعل ما فعله (جُهالنا) لكن ترددتُ مخافة بقايا كبرياء (اندست) في داخلي، كما انحشرت مثيلاتها في دواخل (عُقلائنا) الذين أزاحوا عيونهم عن منظر البراءة والطفولة اللاهية، التي لم ترغب في مواصلة حمل ما لا يُحتمل.

... بعد يومين من وصولنا إلى ينبع أزحت كل دثار الترفع والكبرياء المصطنع، وتناسيت وأنا أخلع تلك الألبسة الثقيلة، مصائب شهورٍ مضت. نعم..! اقتربتُ إلى حد الملامسة من شاطئ البحر، وخالطت قدماي المياه الباردة وزبدِها.. ثم جلست القرفصاء لأدع مياه البحر تضرب بموجها الربيعي كل جُزءٍ من جسمي، ورحتُ والحبور يغمرني أكمل فعله، عندما حملت راحتاي ما تستطيعان حمله - وهو قليل - من كنوز (القلزم)[1] لأسكب وبصورة غير شعورية ما تبقى من - ذاك - الماء المنساب من يديَّ على شعر رأسي الطويل الـمُجدل، الذي أزحت عنه عمامتي الثقيلة كرمزٍ لِتحلُلٍ نجدي.. غير مسبوق!

... داهمتني لحظتها أخي (حمد) نوبةٌ من الضحك المسموع، كنتُ أحاول وأنا أزحف شيئاً فشيئاً داخل الماء، الصُراخَ في وجه الحياة والزمن، كنت أريد بفعلي - ذاك - الـمُرمز أن أخرج لساني مستهزئاً

(1) القلزم: اسم البحر الأحمر القديم.

Twitter: @ketab_n

بالوعود التي سمعتها من قبل في الدرعية، عن حكم (أهل التوحيد) لمشارق الأرض ومغاربها.. وما بين البحار والبحار؛ كنت أرغب بفعلي النـزق - ذاك - أن أعلن أنني لا أخاف من القادم ولا آبهُ له.

... لكن سرعان ما عاد إليّ (رُشدي).. انتبهتُ أنني غامرتُ في دخول أعماق البحر وأنا الجاهل بالسباحة، وانتبهتُ أنني اقتحمتُ الأبعاد الإنسانية التي تحكمنا ولا نحكمها.. وأنا الحدث في سِنه، والفقير في أرصدته وتجاربه المعرفية والحياتية!

... توقف الضحك.. تبع ذلك صمتٌ موحش.. ثم بكيتُ مثلما لم أبكِ من قبل.. وتساءلت:

يارب الأكوان.. يا خالق الأقدار: حق لنا، ونحن عبادك الضُعفاء الـجُهلاء من يوم مولدنا وحتى ساعة الاحتضار والتفاف الساق بالساق، أن نطلُبَ تفسيراً - عاجلاً وليس آجلاً - منكَ لما يحدث لنا على هذه الأرض؛ لهذا التوزيع السريع الذي نظنه - نحن الـجُهلاء - بعيداً عن روح العدالة في الأرزاق، والرفع والخفض، والسمو والانحطاط؟ تفسيراً من الذي عنده كل التفاسير الصادقة عن سرِ شق البشرية الباكي، وشقها الضاحك الثاني؟!

... لم تأتني إجابة ساعتها، ولم أشك أنني لن أتلقى رداً شافياً على قلق المعرفة عند (غُلام) أُتيح له ولأسرته فرصة كتابة سطرٍ في سفر الحياة، مع التنبيه عليهم أن يسرعوا في إنجاز عملهم، لأن طوابير المنتظرين بعدهم طويلة جداً، ولِكُلٍ حاجته وأمله واعتراضه!

... جففتُ دموعي وأنا أخرج من الماء ثم عدوت وأنا أضع يديَّ على وجهي إلى حيث لا مكان، وعند لسان بحري بعيد نسبياً عن مضارب القافلة ومساكن أهالي الميناء المتواضعة، توقفتُ فجأة لأجلس قُبالة الشاطئ الضحل الذي ترسو بقربه قوارب صغيرة تأخذ الراغبين - وغير الراغبين - إلى حيث السُفن الأكبر حجماً وقدرةً والمستعدة للإبحار

Twitter: @ketab_n

نحو المواطن.. والمنافي المختلفة. في جلستي تلك لم استدعِ فقط شوارد الأفكار والتوهمات واستنطاقات الغيب، بل أخذت استحضر الأنباء التي وردت إلى قافلتنا المسافرة، عن المجازر التي راح الغُزاة يقترفونها في الدرعية خصوصاً وفي نجد عموماً؛ مُتذرعين بحجج مساندة الأهالي السابقة (لدولتنا)، التي لفظت أنفاسها قبل أشهر. سمعنا عن قيام (الباشا) وجنده بتعزير الوجهاء والعلماء وصفوة القوم والمحاربين، حالما تُسمع وشاية فيهم، أو حتى عندما يعِنُ للغازي المحتل مراجعة (قوائم) سبق أن بُذلت العهود لتناسيها وإغفالها.

وسمعنا كذلك عن انتشار عمليات القتل والاغتصاب والنهب. وانفرط تباعاً لذلك، وكنتيجة منطقية لسقوط دولة قوية تعايش معها السكان طويلاً، واستبدال حُكامها ذوي المنهج السلفي، بحُكامٍ غُزاة أشيع عنهم أنهم من أصحاب الموبقات والبدع والانحرافات العقدية، انفرط الأمن الذي لا يختلف المحبون والكارهون لدولتنا على أن (آل سعود) وعلماء دولتهم، حققوا نجاحات غير مسبوقة في بسطه وفرضه في جزيرة العرب، التي لا يُعرف أنها تنقاد إلا للاستثنائيين.

... قيل لنا، أخي (حمد): إن قتلى الغُزاة قد تجاوز عددهم العشرة آلاف مقاتل ومساعد، وإن قتلى جند الدعوة والدولة السلفية ومعهم المسالمون من الأهالي الآمنين يماثل قتلى الجيش المحتل، لكن كُل هذا الكم من الدماء في كفة، وفي الكفة الأخرى شعور السكان بأن أيام التيه السياسي والاجتماعي والديني السابق لميثاق الشيخ والأمير، قد عاد مرةً أخرى. وكان بعض العُقلاء يأمل - خفيةً - أن تساعد مرويات الأخبار عن هروب وتواري هذا الأمير من (آل سعود) هنا وهناك، في إعادة الأمل بأن أيام الاحتلال وبقاء الغُزاة على أرض الجزيرة العربية معدودة، ثم تتبعها - كأمل - عهود جديدة للأسرة، التي يبدو أن قدر الجميع، في الأراضي التي كانت تحت إرادتهم، مرتبط بهم وبأفعال

Twitter: @ketab_n

صمودهم.. أو نقيضه؛ من هؤلاء الذين اعتقدَ - البعض - بأنه يمثل عودةً للأمل المسلوب والمنشود.. أخي (مشاري بن سعود بن عبد العزيز)، هذا الأخ - إن كنت تذكر - انسلَّ هارباً من حُراس قوافل الأسرى من عائلته، حينما كنا نقطع المسافة الفاصلة بين المدينة المنورة وينبع. ففي مكان محدد يُقال له (الحمراء) صباح أحد أيام الترحيل المشؤوم، افتقد الجميع أخي (مشاري) لكن الأمر لم يكن صعباً لا علينا ولا على حراسه لمعرفة أن (الهارب) لم يستطع التعايش مع الواقع الـمُر ذاك، ولا مع حقيقة أن الزمن قد قلبَ لأسرته - ولو مؤقتاً - ظهرَ المِجن.

على كُلِ حال أخي (مشاري)، لم يكن حظه وأمله مُشرقين.. للأسف! فقبل شهر من وصولنا إلى مصر عرفنا أنه بدأ يُجيش الجيوش في الوشم استعداداً للانطلاق بعد ذلك تجاه بقايا العاصمة القديمة، وهناك اصطدم بكبير العيينة وخال جده لوالده (محمد بن مشاري بن معمر) والذي كان (معنا) أثناء حصار الدرعية.

علمنا لاحقاً يا أخي (حمد) ونحن في مصر أن حوادث عديدة أطرافها (ابن معمر) و(تركي بن عبد الله) والأخ (مشاري) أدت إلى مقتل (ابن معمر) على يد (تركي) رداً على تقديم الأول لأخي كهدية لقائد جيش الغُزاة (أبوش أغا) والذي خلف الباشا (إبراهيم) بعد استدعاء والده - في مصر - له، ويقول الرواة: إن (مشاري) قُتل تعذيباً على يد المحتلين وأعوانهم وهو يُهم بإرساله - كسجين - في منتصف عام 1235هـ. ويُضيف الإخباريون كذلك: بأن ذلك وقع في سجن بلدة عنيزة - حيث للغزاة حامية كبيرة - وقبل الترحيل الثاني (للتعس) إلى حيث كنا في مصر.. رحم الله (مشاري) وعفا عنه!

... ولعل سؤال ظل يُلح عليك يا (أبا راشد) عن مصير إمام قائد الدولة السلفية.. أخي (عبد الله بن سعود). الحقيقة أن أخباراً غير

Twitter: @ketab_n

مؤكدة وردت إلينا ونحن نتأهب للمرحلة الأخيرة من التسفير في (ينبع) عن مقتله في الآستانة. لكن هذه الأنباء لم نتأكد منها ومما حملته من صور الانتقام البشعة الغريبة عن روح الإسلام.. إلا بعد أسابيع من وصولنا إلى مصر. هناك - وأستميح أخي عُذراً على تقديمي لمسار الأحداث.. للضرورة - صُدمنا بالمعلومات التي لا تقبل الشك، بأن وعود (إبراهيم) ووالده (محمد علي) في الدرعية وفي مصر، التي أُعطيت لأخي بأنه سيكون في مـأمن، لم تكن إلا سراباً خادعاً، مثلما هي وعود الغُزاة الأخرى، المؤمنة للأرواح والممتلكات في داخل نطاق نفوذ ما كان يسمى بالدولة السعودية الموحدة.

نُقلَ لنا يا (أبا راشد) من مصادر موثوقة، لا تستفيد من البُهتان، تفاصيل لقاء الإمام بالوالي.. قالت: وصل الإمام (عبد الله) إلى مشارف القصور الحاكمة في مصر يوم عاشوراء سنة 1234هـ، وأنه أُقتيدَ بعد أسبوع، وهو راكب على هجين ومعه (عبد الله بكتاش) قبطان السويس إلى دار (إسماعيل باشا)، وقبل دخوله القصر ضربت المدافع طوال الطريق بين القلعة وبولاق تحيةً لآسِريه، ونكايةً بأسيرهم.. الاستثنائي. وتنقُل المصادر الموثوقة ذاتها تفاصيل اللقاء الذي تم في اليوم التالي بين الوالي (محمد علي باشا) الذي كان موجوداً في قصره بشبرا، وبين أخي (الإمام).. قالت: (نهض الوالي باشاً معانقاً قائد الدولة السلفية في الجزيرة العربية، ثم أجلسه بجانبه وأفاض في الحديث معه وقال له: ما هذه الحرب التي لم يظهر أن لها نهاية؟ فرد عليه أخي: الحرب جولات ولابد من الصبر، ثم سأله الوالي عن بأس ابنه (إبراهيم).. فقال (الإمام): (لم يقصر قائدكم وبذل جهده.. ونحن كذلك.. إلى أن قدر المولى ما كان). ورغبةً من (الباشا) في بث روح الاطمئنان في نفس أخي قال له كما أوردت نصه المصادر: (إن شاء الله أترجّى فيك العفو عند مولانا السلطان)، وهنا أشهر (الإمام) ما عُرف

Twitter: @ketab_n

عن (أسرتي) من تجلد وصبر وإيمان عندما قال: (المقدور يكون.. ولله الأمرُ أولاً وأخيراً). وقبل أن يغادر (عبد الله) مجلس الوالي ألبسه خُلعة كإشارة على الإذن له بالانصراف. وفي يوم الأربعاء 19 محرم تم (ترحيل) أخي إلى الإسكندرية، وهناك وُضع في سفينة مسافرة إلى (اسطنبول) ومعه جُند تعود أصولهم إلى (التتر) حيث سلموه إلى حراس دار السلطنة في عاصمة الخلافة ومعه مرافقوه.)

... هنا تنتهي أقوال المصادر المصرية الموثوقة، لتبدأ أقوال أخرى لمصادر تركية (موثوقة)، لم تكن راغبةً في حدوث القصاص الشنيع الذي أوقعه السلطان على أخي ومرافقِيه.. قالت المصادر الأخرى: وصل (الإمام) إلى خليج اسطنبول مُقيداً هو ومساعدوه بالسلاسل في اليوم الخامس عشر من شهر صفر سنة 1234هـ، وهناك سيقَ على الفور إلى سجن (بوستانجي باش) وقبل وصوله لسجنه مُررَ (القائد) الكريم على طرق كثيرة تجاور الباب العالي، حتى تتاح للناس رؤيته ونعته بأسوأ النعوت. وفي السجن مكث الثلاثة (العُظماء) ثلاثة أيام أجريت معهم تحقيقات مُضنية طويلة، في محاولة لاستخراج معلومات من صدورهم أرادها حُكام الآستانة أن تُوضحَ لهم قبل يوم القصاص المُريع.

... محاكِمات (اسطنبول) الهزلية أُطلعتُ على محاضرها بالفعل عند إحدى زيارتي لعاصمة الخلافة العثمانية، وجاء فيها - بتصرف - حسب الوثائق التي أُتيح (لي) الاطلاع عليها - قصداً - في قصور الخط الهمايوني[1] وغرف أوراق الباب العالي وفي المكاتب الرسمية الأخرى.. مايلي:

(لقد بُوشر قبلَ كل شيء بإخراج المرقوم "عبد الله بن سعود"

(1) الهمايوني: السلطاني.

Twitter: @ketab_n

منفرداً ووضعه في غرفة أخرى ثم وُجه إليه الحديث الآتي: إننا نسألك عن بعض الأشياء فإذا كنت ستُجيب عن أسئلتنا فإنك ستنجو، أما إذا كنت ستتذرع بالإنكار وتقع فريسة الادعاءات الباطلة، فستصبح حينئذ معرضاً لمواجهة عاقبة وخيمة. وسؤالنا الأول هو: حين استولى والدك (سعود) على المدينة المنورة، كنت معه ومرافقاً له، حينئذ وصلتم الروضة المطهرة وسلبتم الخزانة السعيدة، وقد أحضرتم معكم هذه المرة من الأشياء المباركة ما هو جُزءٌ تافه قليل مما سُلب.. فأين بقية التبرُكات والأشياء النفيسة؟

... أجاب (عبد الله):

إنني بالفعل كنت مع والدي لما دخل المدينة المنورة، لكنني لم أدخل معه الحجرة السعيدة، لأنني لم أكن راضياً قطعاً، عن ذلك وعن سلب الأشياء المباركة، وأنا لم أتدخل قطعياً بهذا الأمر ولم آخذ أي شيء منها قلَّ أو كثُرَ. ووالدي (سعود) هو الذي دخل وحده إلى الحجرة المباركة ومعه أعوانه وخواصه ومنهم: (عبد الله بن مطلق) و(غصاب) و(حباب) و(أحمد الحنبلي) و(إبراهيم بن سعيد) والموجودون (الآن) في الدرعية، وأنني أُقسم أنني لا أعرف شيئاً مما نُسب لي وسُئلت عنه، لأنني نفرتُ من أبي - منذ وقوع الحوادث المذكورة - واعتزلته وعشتُ لوحدي، وبقيتُ بعيداً عنه ولم أذهب إلى جهته حتى وفاته!

... هذا ما جاء بإفادة (عبد الله)، ثم أُحضر رفيقه المدعو (عبد الله السري) الذي زعم أنه مجرد خادم عند (عبد الله)، وأنه بهذه الصفة لا يمكنه أن يَطَّلعَ على هذه الأمور التي سُئل عنها، ولا يعلم بالتالي شيئاً عن الأموال والأشياء المبحوث عنها، وأنه لم يرَ الصندوق الذي أحضره مولاه للسلطان (=الخليفة) إلا عندما أتت به أُخته (موضي بنت

Twitter: @ketab_n

سعود) الموجودة (الآن) في الدرعية وسلمته إلى (عبد الله) لكي يأخذه معه؛ لافتراض أن الدولة العلية ستسأل عنه.

... ومرةً أخرى تم استجواب (عبد الله بن سعود) الذي أقر بأن بعض الأشياء ذات القيمة الكبيرة التي كانت موجودة بالصندوق الذي أخذه - أبوه - (سعود) من الحجرة الشريفة، قد بيعت إلى الشريف (غالب) المتوفى بمعرفة نسيبه (محمد عطاس)، وأن الشريف المتوفى أرسلها أيضاً من قبله إلى الهند لكي تُباع في تلك الجهات، وأن ما تبقى من الموارد والأشياء وزعه والده على هذا وذاك وأتلفه، وأن الباقي تم حفظه عند شقيقته (موضي) التي سلمته إياه حالما تم تسليم الدرعية للباشا (إبراهيم).

... بعد ذلك استُحضر رفيق (عبد الله) الثاني والمدعو (عبد العزيز) الذي كرر ما قاله (عبد الله السري).. أهـ).

... يا للغصة يا (حمد) وأنا أكتب الأسطر السابقة.. والتالية: تضيف المصادر التركية، التي أيدت أقوالها الوثائق التي أطلعتُ عليها لاحقاً في ديوان (مكتوبي عموم)[1] عن يوم إعدام الإمام (الشهيد): (بعد التحقيق مع "عبد الله" ومساعديه أُرسل إلى السراي الهمايونية القديمة حيث كان السلطان وحاشيته يتفرجون على ألعاب الفروسية و"الجريد" ورمي السهام والنبال، وبعد أن جرى عرضهم عليه (=على الخليفة)[2] وعلى الجماهير، أخذوهم إلى ساحة "بالي كوشك" حيث جرى إعدامهم في 18 صفر سنة 1234هـ[3]). وتُزيد الروايات عن يوم الإعدامات المقيت ذاك.. فتقول: (قُطعتْ رقبة "الزعيم" أمام البوابة

---

(1) مكتوبي عموم: المكتب العمومي.

(2) الخليفة العثماني آنذاك هو السلطان محمود الثاني.

(3) ديسمبر/ كانون الأول عام 1818م.

Twitter: @ketab_n

الرئيسية لكنيسة القديسة صوفيا، وقُطعت رقبة "الوزير" أمام مدخل السراي، وقُطعت رقبة الثالث في أحد الأسواق الرئيسة للعاصمة وعرضت جُثثهم ورؤوسها تحت الإبط.. وبعد ثلاثة أيام ألقوا بها إلى البحر)!!

ألـمْ تذرف الدمع يا (أبا راشد) وأنت تستحضر - ولو بعد سنين عديدة - مشاهد الإعدامات والقصاص.. الفاجر؟

... لا شك في هذا، ولا أشُك كذلك أنك تحسبُني أتصبب عرقاً وأنا أكتب التالي.. لاهث الأنفاس:

(...أمَرَ بعد الإعدامات (صاحب الجلالة) برفع أدعية الشكر العامة لله على انتصار جُند السلطان، كما قامت الذات الشاهانية بالإنعام على (محمد علي باشا) وابنه (إبراهيم) بسيفٍ و(قفطان) أرسل إليهما الفرمان بذلك..!)

أما نحن.. أسرة الشهيد، فقد صلينا عليه صلاة الغائب عندما تأكدنا من مقتله، و(أنعمنا) على أنفسنا بكثيرٍ من الأحزان والأسئلة، التي ليست طبيعتها معرفة ماذا حدث لإمامنا وقائدنا، لأننا قد استشعرنا مصيره منذ يوم استسلامه؛ ولا علاقة لتلك الأسئلة كذلك بالآمال المشروعة في عودةٍ لما انقضى من مظاهر القوة والحكم، فنحن قد أيقنا و(الدرعية) تُدمر، وصفوتها تُرحل أو تُقتل، أن لكل عصرٍ دولةً ورجالاً، وألا عودة (لـحُكامِنا) إلا عبر صناعة دولة لها نفس الاسم، لكنها تختلف في أساليب الحكم والأهداف التي تصبو إليها عن القديم الذي ولّى. محاولات فهمنا المحورية حينها كانت لا تتعدى - فقط - الرغبة في معرفة كيفيات مصائرنا.. واختلافها - أو عدم اختلافها - عن مصير (الإمام).

... في يوم مغادرتنا لشاطئ (ينبع) حانت من كل (أسير) و(أسيرة) التفاتةٌ صوب تلك الأراضي الجرداء، التي مثلت لهم كل شيء، حتى

Twitter: @ketab_n

وهي تُخِلّ بوعدها لهم - الذي صنعته المخيلة لا غير - بأنها ستكون أمهم الرؤوم وهم يغادرونها محاربين منتصرين، وهي التي لا يمكن أيضاً أن تلومَ ولا تندبَ، عندما ينهزمون ولا يجدون بعدها إلا ملاجئ صحاريها وجبالها. التفاتات الـمُرحلين والذين لم يستطيعوا الخروج - حتى تلك اللحظة - من أسر الدهشة بأنهم يُساقون إلى منافيهم، ومن سجن صدمة تنكُر الأرض والبشر والأماني لهم، كانت تتشابه مع التفاتات أبطال التاريخ.. الـمُعلنين استسلامهم في ظروف مختلفة، لكن شيئاً واحداً - أظنه - شديد الاختلاف (بيننا) وبين أمثالنا التاريخيين: الإيمان بقضاء الله وقدره، هذا الإيمان الذي تفضل به الخالق، لإراحة النفوس القلقة ذات الوجع، والخيبات، والزلازل الجوانية.. رحم الله (المعري) وهو ينوب عن أمثال هؤلاء.. وأمثالنا في قوله:

تحب حياتك الدنيا سفاهاً ... وما جادت عليك بما تحب
وما يحميك عِزٌ أن تُسبى ... ولو أن الظلام عليك سب
ولم يدفع ردي سقراط لفظٌ ... ولا بقراط حامى عنه طب
إذا أسيتني بشفاً صريعاً ... فدعني كل ذي أمل يتب
ولا تذبب هناك الطير عني ... ولا تبلل يداك فما يذب

... أتعرف يا (أبا راشد) كيف ودع الأهل والإخوان و(خواصنا) أرض الجزيرة؟! غرسوا أقدامهم بقوة على رمال الشاطئ لعلها تبقى كأثر يُعلم عنهم وأنهم مروا من ذاك المكان، وما درى المساكين أصحاب الذاكرة المثقوبة، أن لحظات مدٍ سريعة قادمة ستُزيل ما ظنوه ثابتاً.. لايُزال!

... دعني (أخي) الحبيب أصف لك مشهداً طريفاً جاء ضمن مشاهد الألم الكثيرة في تلك الساعات: قفزت والدتي وكأنها صبية، إلى جوف القوارب الصغيرة الآخذة (الجزعين) إلى تجاه السفن الأكبر الراسية بعيداً عن الشاطئ الضحل. فِعلُ والدتي - ذاك - ذَكَّرَ الآخرين

Twitter: @ketab_n

الذين لم يستطيعوا منافستها في وثباتها الناجحة والملفتة للنظر، بأن للعبودية وتسفير (بعض) البشر بين الموانئ شرقاً وغرباً فوائد.. منها: تعلم التكيُّف مع عوادي الأيام وانتكاساتها!

... بين ثلاثة وخمسة أيام - لم أعد أذكر - دامت رحلتنا البحرية بين (ينبع) وميناء (السويس) المصري، وخلال تلك الأيام رحت رغم دوار البحر، أتفرغ للعبادة وقراءة القرآن وتأمل السماء مُسبحاً، على أنني وأنا أقوم بواجباتي الدينية وسُننِها في وسط سطح الأخشاب العائم، الذي أقلني وقسماً من الأسرى - الـمُتوزعة بقيتهم على السفن الأربع المرافقة - كُنت أحاول الاختباء من ذعري البحري المبالغ فيه، عبر غُلُو الاستغراق في الصلاةِ والتسبيح. وعندما يفشل تبتُلي وتنسُكي في إبعاد مخاوف الغرق، والتهام أسماك البحر للأجساد المسافرة - قبل قتلها على يد والي مصر - أهرع من فوري للقسم المخصص في السفينة لزوجات والدي وأخواتي غير الشقيقات، وهناك أجلس مع والدتي الطيبة على انفراد، لأبُثها وتبُثني - في محاولة لهربنا من ذعر العيش في وسط الماء - الشجون، واسترجاعات مضامين كوابيس منامتي تارةً، وأساطير الغابات المطيرة في الحبشة تارةً أخرى.

... هكذا مضت أيامنا.. إلى أن وصلنا ميناء السويس في 15 رجب عام 1234هـ[1] بعد رحلةٍ استغرقت أسابيع طويلة تخللتها وقفات في عدة مدن.

... وعلى الفور اصطحبنا صاحب المكانة الإدارية الرفيعة وقبطان السويس الشهير (عبد الله بكتاش) والذي اصطحب إمامنا (الشهيد) قبل ذلك في رحلته النكدة من الميناء المصري، إلى حيث كان مُنتظر الركب المشهور.. والي مصر وممثل دولة الخلافة العثمانية في بلاد العرب.

---

(1) الموافق للعاشر من أبريل عام 1819م.

Twitter: @ketab_n

كان يبدو، أخي (حمد) من استقبال (القبطان) ومُسيري قوافل الأسرى، صوب المدينة التي بناها وأعطاها اسمها المتفرد القائد الفاطمي (جوهر الصقلي) منذ ما يزيد عن ثمان مئة عام، عدم الاهتمام الشديد بـ(حمولة) قوافلهم. فعلى العكس من اهتمام الوالي وقادته و(شعبه) في مصر لأنباء قدوم الأسير العَلَمْ.. قائد وإمام الدولة السلفية، لم نحظَ نحن (المساكين) الأقل شهرة بتلك الهالة الاحتفالية التي قيل أنها (أُقيمت) لـ(عبد الله).. رحمه الله! (الجبرتي) - مثلاً - في كتابه التاريخي (عجائب الآثار) يُخبر: بأن سقوط الدرعية قابلها في مصر (ضربُ) مدافع كثيرة في القلعة والجيزة وبولاق والأزبكية احتفالاً بزوال الغُمة، وانتشر المبشرون على بيوت الأعيان لأخذ (البقاشيش)، وتبع ذلك مهرجان وزينة داخل المدينة وخارجها، وشُوهدت في تلك الأيام الخيام والصواوين، حتى الحوانيت والخانات وأبواب الدور.. زُينت، وتمت إنارة القناديل ذات الوقود، وسُمحَ بالسهر وإظهار الفرح والملاعيب.. مع ما فيه الناس من ضيق الحال والكد في تحصيل المعاش وعدم وجود ما يسرحون به من الزيت والسمن. الاحتفالات بسقوط الدرعية تكررت وبصورة أكبر في يوم عاشوراء من السنة التالية، عندما شاهد أهالي المحروسة وولاة أمرها الأسير المطلوب رأسه بأي ثمن. يومها دُقت الطبول - كما يروي الجبرتي - والمزامير والنقرزانات في السفائن. أما (طبلخانة)[1] الباشا فكانت تضرب في كل وقت؛ وبعد العشاء تُوقد المشاعل وتعمل أصناف الحراقات والشُعل، وتتقابل القلاع المصنوعة على وجه الماء، وفيها فوانيس وقناديل، وغالب هذه الأعمال من صناعة الأفرنج..!

(1) الطبلخانة: يماثلها الآن الفرق الموسيقية الخاصة.

Twitter: @ketab_n

. . . أما نحن (يا أبا راشد) فقد خصنا (الشيخ عبد الرحمن)[1] بأربعة أسطر فحسب: (يوم الخميس الثامن عشر، حضر - بواقي - الوهابية بحريمهم وأولادهم وهم نحو أربع مئة نسمة، وأسكنوا بالقشلة التي بالأزبكية، وابن (عبد الله بن مسعود)[2] بدار عند جامع مسكة وخواصه - من غير حرج عليهم - طفقوا يذهبون ويجيئون ويترددون على المشايخ وغيرهم ويمشون في الأسواق ويشترون البضائع والاحتياجات. . .أ هـ.) رحم الله المؤرخ الكبير، لم يجد أكثر من هذا في وصف حالتنا ومشاعرنا، بل إنه لم يذكُر أن أحداً احتفى بنا ولو بنعتٍ قبيح. . أرزاق!!

نسيت. . !

صُدمنا ونحن قادمون من السويس إلى مصر العتيقة[3]، عبر الطريق الجنوبي الشرقي. . مما شاهدناه. اتساع مساحات المشاهد الصباحية التي تلتقطها العيون - بعد أن ولى الندى الفجري الثقيل خوفاً من أشعة الشمس - جعلنا تلقائياً نربط بين انطباعاتنا السابقة عن المشاهد ورموز الحياة التي تركناها خلفنا في نجد والجزيرة، وبين النقيض الذي نراه ونحن نهمُ بدخول أول المناطق الآهلة بالسكان في عاصمة الـمُعز. . والوالي.

رأينا بشراً يشبهوننا - وحتى أجمل - خارجين من مساجدهم، وسبق أن قيل لنا في الدرعية أن عوالم ما وراء الجزيرة لا يُصلُّون، وأن أشكالهم تُقلَّبُ بين القردة والخنازير عقاباً لتركهم الصلاة! رأينا غابات النخيل والفاكهة الممتدة، والمروية من نهرٍ ليس هناك أوسع ولا أطول

---

(1) يقصد عبد الرحمن بن حسن الجبرتي.

(2) قصد الجبرتي: بن سعود.

(3) مصر العتيقة: هي القاهرة، وفي رسائل (الإمام) خالد يتناوب اللفظان للدلالة على نفس المعنى.

Twitter: @ketab_n

منه، وقد نُصحنا عندما كنا نشاهد نخيل نجد والإحساء بأن نطلب استمرار النعيم الذي هو صورةٌ مُصغرة من نعيم الآخرة! رأينا الناس في مصر يوم دخولنا لعاصمتهم يتذمرون من هتان المطر متذرعين بأن نيلهم وهو يفيض تلك السنة، يُغنيهم بتدفقه الساحر غير المعروف المصدر عن الغيث والرجع، وقد قيل لنا في (بلادنا): إن في الآخرة فقط هُناكَ نهرٌ وعيونٌ جارية! شاهدنا العامة رغم فقرهم المشابه لفقر عامتنا، يعملون ويزرعون، لكنهم يزيدون على هذا باللعب والضحك.. ومغازلة النساء.. أعاذنا الله من سوء المصير!

شاهدنا حدائق غُلبا ذات بهجة، وأبنية ذات صروحٍ ممردة، وقد أُسمعنا في (الديرة) ألا وجود لمثل هذه (المُتع) إلا عند الجبارين.. أو في جنات عدن!

صُدمنا.. ودهشنا.. ولفنا الاستغراب.. كل ذلك حدث.. وأكثر! ولعلي ألفِتُ انتباه أخي (حمد) إلى أمرٍ مُهم، وأنا أعرض على أنظاره مشاعرنا في تلك اللحظات التي لاتُنسى: عندما أقول بصيغة الجماعة كلمات مثل.. صُدمنا ودُهشنا؛ فلأنني - أُخمن - أن مشاعر الغير تُشابه مشاعري، فكُلنا تلاميذ مدارس فكرية واحدة، وأبناء بيئة عقلية واحدة، فلماذا أفصِلُ الآخرين عن انطباعاتي وما يقوله داخلي؟! لكنني أعترف - هنا - بأنِ الاختلاف سمةٌ من سمات بني البشر، بل هو أحد فضائلهم.. النادرة، وحسب هذا الفهم فمن الممكن أن بعض الآخرين في قوافل الأسرى قد أغمض عينيه وفكره، ورفض ربط هذا.. بذاك.

... اقتربنا يا (أبا راشد) من المدينة الجميلة المحصورة بين النهر والجبل أكثر فأكثر، لِنشاهد القناطر المُدهشة للخليج المصري الرابط بين النيل والمقطم؛ ثم لاح لنا الخليج الناصري ذا البِرك المُتخمة بالمياه. وما هي إلا ساعة - أو أقل - حتى كُنا وجهاً لوجه أمام الدور الفسيحة التي خُصصت لسُكنانا. حريمُنا ومحارمنا أُختير لهن بيوت

Twitter: @ketab_n

متقاربة لا تبعد كثيراً عن قشلة الأزبكية، بل إن المشاهدة الأولى قد تجعل من تلك البيوت جُزءاً أصيلاً من الثُكنة العسكرية، التي تتحول أيضاً إلى (مضيفة) للقادمين إلى مصر.. رغم أنوفهم.

... الرجال من أسرة (آل سعود) و(آل الشيخ) ومعهم مماليكهم وخواصهم، صدر أمر الوالي بإسكانهم في بيوت كثيرة تُحيط بالجامع الكبير في حي (مسكة)[1] القريب من الأزبكية والغورية والسيوفية، أما الأزهر الشريف ومرقد الإمام (الحسين) - كما يعتقد المصريون - فإنهما على أعتاب منازلنا المجاورة لقرة قول[2] مسكة.

... في ثاني يومٍ وصلنا فيه للقاهرة استدعى والي مصر (محمد علي باشا) بعضاً من (كبارنا) لمقابلته، وعندما عاد (وفدنا) الذي ضمَّ تسعة أشخاص منهم الإخوان (فهد وسعد وعبد الرحمن وعمر وحسن) بالإضافة إلى ابن العم (مشاري بن عبد الرحمن بن حسن) وابن الأخ (سعد بن عبد الله بن سعود) واثنين من المشايخ الأفاضل هما: (علي وإبراهيم) أبناء الشيخ (محمد بن عبد الوهاب)، عند رجوع (الوفد) من مقابلته (للباشا) لم نكترث بتفاصيل اللقاء، قدر اهتمامنا بنوعية المعاملة التي سنلقاها مستقبلاً، والأهم من ذلك ألا يشير اللقاء بملمح (تسفيرنا) إلى بلاد الروم، وفي ذلك إشارةٌ غير حميدة وقاتلة، وتُذكر بما وقع لأخينا الشهيد! لكن الوفد طمأن الجميع لانتفاء حاجة العثمانيين وسلاطينهم لمزيدٍ من الدماء النجدية، فما أُريق منها فيه كفاية! وزادنا البشير بأن أخبرنا نقلاً عن الوالي الذي ضمِنَ - وهو يتحدث نيابةً عن الخلافة في الآستانة - معاشاً لنا يُقدر بألف قرش لكل فرعٍ من عائلة (آل سعود) وخمسمائة قرش عثماني لكلِ فرعٍ من فروع عائلة (آل الشيخ).

---

(1) مسكة: الموسكي الآن.

(2) قرة قول: مصطلح تركي يعني قسم الشرطة.

Twitter: @ketab_n

ولأن أخبار اللقاء وما دار فيه، وانعكاسات روح (المحبة) التي أبداها الوالي (لضيوفه)، ورغبة الآخرين في إشهارها وإذاعاتها، بدت أنها غير قابلة للانتهاء السريع، انفصلت عن هذه المجاميع التي (كانت) قبل أشهرٍ سادةً.. مُطاعين!

أين أذهب بدلاً من الجلوس في حلقة أحاديث الاستكانة، و(تبليع) قوائم المحاذير والنواهي التي لا تُهضم ولا تنتهي؟!

فكرتُ للوهلة الأولى، بالهرب إلى نجد، وبنفس طريقة القدوم.. لكن كيف؟ وهل وصول فتى من (آل سعود) وهو لا يكاد يملك غير ثيابه، إلى تلك الأرض المليئة بالدخان، وجماجم الموتى، والتنافس بين الطامحين لخلافة (المُرحلين) إلى مصر أو المصلوبين على أبواب الآستانة، أمرٌ فيه حِكمةٌ وفهم؟ ثم ألا تستحق (الأرض الذهب) التي عشقها (عمرو بن العاص) منذ القدم.. أرض الحضارات، ومقاصد الغازين من كُل عِرقٍ وملة، ألا تستحق أن يعيش فيها قليلاً الغارب شمس آماله وأحلامه.. لعلَ وعسى؟!

طرحتُ تلك الأسئلة التي لا تكاد تُفارقني، إلا لماماً، وأنا أتجول في الأمكنة والأزقة التي سأعيش فيها طويلاً.. كما يبدو. رحتُ أتفرس في وجوه الناس وراح الناس يتفرجون في ملامحي الغريبة، والتي يزيدُها غرابةً ملابسي النجدية، وهالات التوجس المرسومة على وجهي من هؤلاء البشر الخلائط في سحناتهم وتصرفاتهم، وكأن الروم والزنج والعرب وأهالي ما وراء النهر قد تزاوجوا دفعةً واحدة وفي وقت واحد.. وجاؤوا بهؤلاء، الذين يرمقونني بنظرات التعجب المحشور فيها الود وروح الطرافة!

كان القوم يعرفون أنني من (الوهابيين الخوارج) كما يسموننا بعد أن ألحَ واليهم عليهم أن يطلقوا علينا هذه التسمية، لكن المعرفة تلك والخلفية المشوشة التي تحملها مُدركاتهم تجاه بني قومي، لم تمنعهم -

Twitter: @ketab_n

والحق يقال - من أن يتقدموا صوبي عارضين مساعدتهم في إرشادي إن كُنتُ تائهاً، أو إطعامي إن كنتُ جائعاً، أو سُقياي إن كنتُ من العطشى. . للمشارب المختلفة! شكرتُ لهم (عطفهم) ولطافتهم، وحاولت أن أتحدث معهم باللغة العربية الفُصحى مُبتعداً عن محليتي النجدية، فما كان من محاولتي تلك إلا أن زادت من روح التندر (المؤدب) عند القاهريين!!

. . . بعد أيام وأيام من التجول والطواف المحملين بكثيرٍ من الدهشة وسلوكيات التقاء الغرباء، تعرفتُ على البدايات المعرفية الأولى اللازمة لتاريخ وحاضر الأمكنة المقدر أن أعيش فيها ثمانية عشر عاماً:

حي الأزبكية التي ستعيش فيه والدتي ونساء الأسرى النجديين الآخرين، أتى اسمه من بِركةٍ عمَّرها الأتابك[1] (أزبك بن ططخ) في عام 880هـ ضمن بِركة أكبر سُميت باسم (بطن البقرة)، الأتابك المذكور لاحظ خراب البِركة الأم، بعد منع تدفق (خليج الذكر) الذي كان يُغذيها، فلم يتوانَ الأتابك عن حفر مجرى يوصل الخليج الناصري بالبِركة الجديدة التي أُطلق عليها اسمه. ولم يتردد الأتابك (أزبك) كذلك من السُكنى بجوار (بِركته) المزدانة بالقناطر والأرصفة؛ وما هي إلا سنوات حتى استقطبت بِركة الأزبكية الأهالي، الذين شيدوا منازلهم ومساجدهم وحماماتهم وطواحينهم بقُربها؛ وتقول المصادر التاريخية: إن (أزبك) كان من مماليك الأشرف (برسباي)[2]، ثم انتقلت (ملكيتُه) إلى الظاهر (جمقمق)[3] الذي زوج (أزبك) من ابنته الموحية لوالدها بتعيين زوجها نائباً له على الشام. وبعد سنوات عُين (أزبك) أتابكاً أيام الأشرف (قايتباي) ولمدة طويلة.

---

(1) الأتابك: لقب تركي أطلقه السلاجقة على بعض رجال البلاط والوزراء والقادة.

(2) يوسف برسباي (الملك الأشرف) سلطان المماليك في مصر.

(3) الظاهر جمقمق: هو الملك الظاهر، سلطان المماليك في مصر.

Twitter: @ketab_n

عند دخول العثمانيين مصر عام 923 هـ[1] توسعت القصور الـمُقامة حول بِركة الأزبكية، ومنها قصر منيف سُمي باسم (العتبة الزرقاء)[2] وقصر آخر للمملوك الشهير (محمد بك الألفي) وفيما بعد ردمَ (إبراهيم باشا) قاهر (الدرعية) بِركة الأزبكية ليبني قصراً لوالده عليها.. إلا أن الحي لم يتأثر بهذا المتغير حيث ظلَ يتوسع ويكبر.

... حي (مسكة) الذي اتخذناه والرجال القادمون من (الدرعية) المهدمة موطناً لنا.. رغم أنوفنا؛ وُلدَ أولاً كطريقٍ شُقَّ في أول أيام (محمد علي باشا). هذا الدرب يمتد من آخر طريق السكة الجديدة بجانب قنطرة المسكة، وآخره ينتهي عند العتبة الزرقاء.

الطريق المذكور نُسب إلى الأمير (عز الدين موسك) أحد أبناء عمومة السلطان (صلاح الدين الأيوبي)، لأنه أنشأ قنطرة هناك نُسبت إليه فيما بعد.. مع تحريفٍ بسيط. وألفت انتباه أخي (حمد) إلى أن كُل الطرق التي لها تقاطعات مع طريق (مسكة)، بُدئ بشقها ونحن نستوطن تلك الأحياء، فطريق السكة الجديدة - مثلاً - رأيناه يُدك عام 1251هـ، ليتوقف مشروعه - كما قيل لي - طويلاً، ثم يُعاد التفكير في تنفيذه فيما بعد وأنا أُساكن الحرم الشريف.. كضيفٍ غير مرغوب فيه!

هذا يا (أبا راشد) عن الأمكنة الصغيرة.. لكن ماذا عن الـجُزء الكبير.. وطننا الثاني.. مصر؟!

الحديث عن مصر وتاريخها لا يمكن أن تستوفيه أوراقي القليلة، ولا مدادي الذي شارف على الانتهاء.. ما لم يُنجدني بغيره الابن (مشاري).

... مصر يا (أبا راشد) هي مهد الحضارة الإنسانية في المشرق

---

(1) الموافق لعام 1517م.

(2) العتبة الخضراء فيما بعد.

Twitter: @ketab_n

الأدنى، إلى جانب حضارة ما بين النهرين في العراق، ولا يبزُهما في العراقة سوى حضارة الصين القديمة؛ ويُجمع عُلماء تاريخ الحضارات الإنسانية، على أن عوامل معينة ساعدت في اختيار مصر لتكون أحد أعمدة خيمة الحضارة البشرية.. ومن تلك العوامل: موقعها المتميز، واستحواذها على أنصبة عظيمة من مياه نهر النيل، إلى جانب خصوبة الأرض المصرية، واستيطان أعدادٍ كبيرة من الناس على ضفتي نهرها العظيم؛ هؤلاء السكان المتوحدون في اللغة والأعراق والتطلعات الوطنية، كانوا أيضاً حاذقين في الزراعة واستصلاح الأرض غير المتعبة؛ لتتبلور من خلال كل هذه العوامل شواهد (التحضر) المصري القديم، مع عدم إغفال أسباب أخرى.. مثل: استقرار الحكم هناك، والمدعوم بحصانة حدودية طبيعية.

... حُكم الفراعنة، أخي (حمد)، بدأ بعد أن زالت أزمنة ما قبل تدوين التاريخ الإنساني، واستمر عبر ثلاثين أسرة فرعونية مختلفة. تلك الأسر التي وحدت مملكتي الشمال والجنوب المصريتين، أشرق عصرها الأول السحيق عند القرن الواحد والثلاثين قبل مولد النبي عيسى - عليه السلام - حسب أغلب الروايات التاريخية، ولفظت تلك الحضارة آخر أنفاسها مع فتح (الإسكندر المقدوني) لمصر وثلاثة قرونٍ تفصل بين ذاك (الفتح) وقدوم (المسيح) للدنيا. حُكمتْ مصر بعد ذلك من الرومان الوثنيين في أول حضارتهم والمتمسحين في آخر عهودهم، ليأتي لاحقاً عهد (هرقل) البيزنطي الذي أورث أُمته مصر حتى جاءته رسالة مكتوبة بالعربية، وهو متوسدٌ أريكته في (القسطنطينية) تدعوه فيها إلى عبادة الواحد الأحد، وكان مُرسل الرسالة مَن تعرفه (أخي) بالتأكيد.. مُعلم الإنسانية (محمد) عليه أفضل الصلاة والتسليم.

... منذ دخل المسلمون مصر طاردين غيرهم، توالت عصورٌ زاهية وبائسة على أرض الكِنانة المحدودة ببلاد النوبة ودنقلة جنوباً، وشمالاً

Twitter: @ketab_n

بسواحل مراقية[1]. أما غرباً فتتماس مصر مع الصحراء الغربية الداخلة فيها واحة نسترية[2]. وفي الشرق هناك الحدود التي يصنعها بحر القلزم وبلاد البجاة والبشارين.

بعد الخلافة الراشدة ودولتي بني مروان والعباسيين، حَكَمَ مصر (أحمد بن طولون) الذي عُرف عهده وعهد مَن أتى بعده بأنهما يمثلان العصرين الطولوني والأخشيدي، ليأتي بعد ذلك دور الفاطميين الممتد عهد حكمهم لمصر مُدةً تتجاوز المائتي عامٍ. . بقليل.

الدولة الأيوبية - التي عُرفت بهذا الاسم نسبةً لِمؤسسها الخارق (صلاح الدين الأيوبي) - تشكلت أول ما تشكلت - كدولة - في مصر، بعد أن أعلن قائدها وفاة حُلم (عبد الله الشيعي) ببقاء دولته الفاطمية مُخلدة. وبهذا دخلت (بلادي الثانية) في هذا العهد الذي انتهى نفوذه عام 648هـ[3] بمقتل آخر السلاطين الأيوبيين (توران شاه) على يد زوجة أبيه (الصالح أيوب) ومملوكها (عزالدين أيبك). ومُذاك الحدث، مر على مصر مماليك بحرية ومماليك برجية، مماليك مر كل جنسٍ ولون. . عدا أن يكونوا مصريين خالصين! نعم حفظَ (المماليك) لمصر هويتها ودينها، وذبّوا عنها مخاطر الغزو والاحتلال لِعقود، لكنهم من جانب آخر أورثوها الاستبداد والمظالم والكوارث التي لم يستطيعوا - حتى - التخفيف عن رعيتهم توابع مُصائبها، كما دفعوا بالبلاد التي أعطتهم - رغماً عنها - السلطنة بعد أن أصبحوا أحراراً، إلى أن تقع فريسةً سهلة للغزو الصليبي الجديد[4]، الذي ظهرَ برغم فظائعه وعنفه مع أهالي

---

(1) مراقية: سواحل البحر المتوسط.

(2) واحة نسترية: واحة سيوة.

(3) الموفق لعام 1250م.

(4) يقصد غزو نابليون لمصر.

Twitter: @ketab_n

المحروسة، وكأنه مُنقذٌ لمصر من عهود الجهالة والتخلف والعُزلة وفقدان التأثير على المحيط.

... أقول عهود الجهالة والتخلف التي (فضحها) الغزو الفرنسي، وأنا لا أعني هنا يا أخي (حمد) المماليك فقط، بل الدولة العثمانية كذلك والمتعايشة مع كُل ما مثله المماليك حتى وهي تهزمهم بالقرب من حلب في معركة (مرج دابق) الشهيرة سنة 923هـ، وتقتل سلطانهم (قانصوه الغوري) وتتبعه بشنق نائبه (طومان باي) عند (باب زويلة).

... نعم يا أخي (حمد) لم تختلف الإدارة العثمانية منذ عهد (فاتح) مصر السلطان العثماني (سليم الأول) عمّا سُمّي مجازاً بـ(الإدارة المملوكية لمصر)، السابقة لهيمنة دولة (بني عثمان) على مصر بخمسة قرون (مملوكية)؛ قطعاً لم تكن عهود (الروم) في مصر والممتدة لحوالى ثلاثة قرون أخرى، كافية لإزالة آثار ما قبلهم، بل إن مصر بعد (سليم الأول) دخلت في مزيج من الانحطاط المُذهل: بكوات المماليك المتأخرون، والذين يمثلون أسوأ أزمنة المماليك على الإطلاق، يساندون حُكاماً عثمانيين هم أقرب إلى فرق (الانكشارية) منهم إلى مصلحين لعهود الطغيان المملوكي المتأخر؛ قُدِرَ لمصر في القرن السابق (للغزو) الفرنسي أن تتواءم مع ولاة أعطى التاريخ ظهره لدولتيهما. . أو بالأصح للدولة ولنصف الدولة، وأعني هنا السلطة العثمانية وبقايا المماليك في مصر الذين فرضوا أساليب حكمهم المتخلفة الاقطاعية على رعيتهم. . والمساجد تدعو للخليفة البعيد في الآستانة، وكأن ما قِيل عنه فتحٌ عثماني لمصر لم يكن إلا حدثاً تاريخياً اسمياً فقط. ولعلك تريد أن تسألني أخي (حمد) عن الأسباب المؤدية إلى هذا التشكُل الانهياري الغريب؟ السبب هو أن مصر عايشت وهي تشاهد للوهلة الأولى الجنود الأتراك في القاهرة، البدايات الأولى كذلك لانهيار الدولة - ذاتها - القائمة على العصبيات؛ تلك البدايات (=النهايات) التي تَحدَّثَ عنها

Twitter: @ketab_n

بشكل عام (نابش) التاريخ (عبد الرحمن بن خلدون) في مقدمة سفره النادر (كتاب العِبر وديوان المبتدأ والخبر). وسأورد شواهد أمراض دولة (بادشاة)[1] لك أخي (حمد) فيما بعد مستعيناً ببعض مما جاء من أفكارٍ في ذاك السفر العظيم؛ لأنني سأنتقل قبل ذلك إلى القسم الثاني من أسباب جرِ مصر إلى منطقة ظلال التقدم الإنساني.. وأقصد هنا أبناء (الـخزر) من المماليك، والذين تحولوا في أواخر عهودهم إلى أورامٍ تأكل الخلايا الحية وتقتات عليها ضاربةً عُرض الحائط بِخُلب الآمال المعقودة على العثمانيين في تغيير الراكد المتعفن من حياة أبناء الكِنانة، غير الآبهين بمن جاء وراح من الحكام، بعد أن عرفوا خبايا العقل الإنكشاري، وبعد أن عرفوا كذلك أن (الفاتحين) وأسياد أرضهم الطيبة الـجُدد، لا يحملون في جعبتهم تطبيباً لفالج عصي على المعالجة.. سوى إدخال مسميات جديدة على التقسيم المناطقي القديم لمصر!

ولم ينتهِ عصر الظلام ذاك إلا بقدوم مُستبد عادل من أمثال (الباشا) صاحب العلاقة الـمُلتبسة الدموية مع الدرعية.. وأهلها.

... يا الله!!

لقد نسيتُ نفسي ومحيطي العائلي، وأنا أتحدث عن مصر التي أحببتُها، كما أحببتُ أرضي البعيدة ذات الماضي المجيد والحاضر التعيس، لكن عذري وأنا آخذك إلى حيث صُنع نصف شخصيتي الثاني، أنكَ خيرُ من يتفهم، أنَّ الزمان والمكان وما بينهما من أبناء البشر، لا يمكن فهم أحدهم بمعزلٍ عن سياق فهم المقابل.

... عندما زال القلق الوجودي الذي لم يترك - تقريباً - أحداً من (مُرحلي) الدرعية إلا وعصف به، بدأ (ضيوف) الباشا في الاصطدام مع واقعهم وظروف عيشهم الجديد؛ وعند هذا المفترق الحياتي الفاصل

(1) لقب للسلاطين العثمانيين.

Twitter: @ketab_n

تظهر الشخصية الإنسانية عاريةً من كل ما تدثرت به سابقاً من القيم والأحكام أو الأعراف، مُشكلةً وصانعةً بعد وقت قد يطول أو يقصر، من - ذاك - العُري المجازي، هدوماً[1] لِلتو فصلت من أقمشة ما توقعهُ هذه الشخصية بالآخرين وما يوقعهُ الآخرون بها. عالم جديد مُشخصن لا علاقة له بما سلف. قد يكون هذا الجديد أسوأ.. وقد يكون أبهى وأثرى. وهنا أرجو ألا تتوسع حدقتا عينيكَ تعجباً من قولي هذا: أنا لا أقصد - ألبتة - المفاضلة بين الحرية والأسر، وبين أن تكون قائداً أو مقوداً، كلامي السابق لا ينطبق إلا على من فُرض عليه أن يعيش ويخالط ويُفكر في الحاضر والغد.. رغم أنفه. ماذا عساه يفعل مكسور الجناح والحالة كذلك؟..أيعزل نفسه؟ يقتُلها حسرةً وبكاءً؟ أيُشهر سيفه - في حال كان له سيفٌ وغمد - ليحارب أُمةً بقضها وقضيضها، يأخذ منها بإحدى يديه بقايا خبز حاف يسد رمقه، ويطعنها بيده الأخرى؟!

... لا يأخذ الإنسان (العاقل) عادةً مثل هذه الخيارات الحدية، لكن يتواجد في مثل هذه الأوضاع مَن يركل هذه الخيارات كلها، ويقفز إلى المجهول في لعبة موت قد تكسر جمجمته.. أو قد تقوده إلى البطولة وصنع شيءٍ من لا شيء؛ كثيرون - منا - اختاروا جانب (العقل) الذي - بالفعل - لا يملكون غيره، هذا (التعقل) سيُنعت من غير الأسرى.. المالكين لحرياتهم، والقارئين للتاريخ المكتوب بعد سنوات وهم مسترخون في بيوتهم وبين ذويهم، بأنه صنو الذل.. وخيار العار!

قليلون - منا - اختاروا الهروب من سجن (الباشا) في مصر وسجن المقادير، خُذ مثلاً: ابن العم (فيصل بن تركي بن عبد الله) والقريب الآخر (مشاري بن عبد الرحمن بن مشاري). الأول والذي يتحكم في مقاديركم يا (أبا راشد) الآن، تسلل من سجانيه في مصر سنة

---

(1) بمعنى ألبسة.

Twitter: @ketab_n

1243هـ[1] أي بعد تسع سنوات تقريباً من ترحيله (الأول) إلى مصر، وقبل (تنصيبي) كإمام بسنواتٍ مثلها. (تركي) انضم بعد هروبه إلى والده الذي حكم شطراً من نجد وأعلن (الرياض) بعد صراعات مع آل (عريعر) و(آل معمر)، عاصمةً له بدلاً من عاصمته الـمُهدمة القديمة. وما لبث (إمامكم) إلا قليلاً حتى (أُعيد) إلى مصر أسيراً مرةً أخرى في (عهدي) عام 1254هـ[2]. أما الثاني فقد سردتُ عليك يا (أبا راشد) أخبار أعراس الدم الكثيرة التي أقامها قبل ذلك.. ولعلك لم تنسَ تفاصيل تلك القصة البائسة؟!

... أخي (حمد)

ألم تُلاحظ أن الهاربين من سجن (الباشا) إلى حيث موطنهما المليء بالفوضى السياسية، كانا من فروع (الأسرة) الأخرى التي لم تحكم بشكل مباشر إبان نهوض الدولة الموحدة؟

ابنا العمين الهاربان وقرّ - كما أظن - في نفسيهما اعتقادٌ بأن الإمام (عبد الله) الوارث حكمه عن أبيه.. عن جده، قد فشل في الحفاظ على بناء أول دولة سلفية في الجزيرة العربية بعد انتهاء عصر الخلافة الراشدة، وإن الثمن الذي لابد أن تدفعه سلالته هو أن تبتعد عن التفكير في العودة إلى حيث مراكز الأمر والنهي. لقد حـمّلَ الاثنان - وآخرون - الإمام (عبد الله) ووالده مسؤولية الاندفاع التوسعي غير المحسوب للدولة. وحملوهما كذلك وزر استفزاز الدولة العثمانية بلا سبب واضح، مع أن في مقدور (القيادة) السابقة (التحايل) في مسألة الخضوع الظاهري لدولة الخلافة، مع استمرار الاستقلال فعلياً بدون أن ينتقص هذا من

(1) الموافق لأواخرلعام 1827م.

(2) الموافق لعام 1838م.

Twitter: @ketab_n

ذاك، الدليل على ما أقول هو ما اتخذه (تركي) وابنه (فيصل) لاحقاً من تحركات سياسية وحربية فيها دهاء لافت.

ففي الوقت الذي كان حاكم الرياض الحالي يثبت فيه أركان (دولته) الجديدة، راح يُرسل الرسائل إلى الباب العالي؛ راغباً تعيينه قائم مقاماً على (نجد) على شرط أن يتابع تطبيق القوانين العثمانية، بل ويعطي الضريبة السنوية لخزينة الحجاز، هذا لم يكن يحدث في أيام دولة الإمامين (سعود) و(عبد الله) اللذين أعلنا الحرب على جميع الفُرقاء في نجد والحجاز والبلاد المجاورة للجزيرة كلها!

الشعور بأن الدولة السلفية الأولى - التي لم يتوقف توسعها - قد أحبطت بنفسها مشروعها في الحكم والدعوة، عبر تسرعها ونزقها القيادي، هذا الشعور كان غامراً لا عند فروع (الأسرة) الأُخرى الطامعة في وراثة حكم السابقين من عصبتهم فحسب، بل غمرنا نحن الأسرى المعنيين بالأمر أيضاً، وتُرجم هذا الشعور، بعدم مبالاة الجميع من سلالة الإمام (عبد العزيز بن محمد بن سعود) بما راحَ يلُح على الآخرين: تأسيس دولة سلفية جديدة!

أمراؤنا من السلالة المنكسرة وعلماء عصرهم، أخذوا يوماً بعد يوم، وشهراً بعد شهر، وسنةً بعد سنة، (يستطيبون) وطنهم الثاني ويأنسون لمعاشيرهم ومخالطيهم الـجُدد، طبعاً هذا لم يُرضِ القلائل من ذوي النـزعة الدائمة لقول: (لا) للواقع.. مهما بلغت وطأة الحاضر واستحال تغييرُه.

... (فيصل) وابن العم (مشاري) من هؤلاء. وقبلهم وبصورة استثنائية تدلل على القاعدة، كان أخي (مشاري) الذي عاد مُتمرداً، قبل أن يرى مصر.. وما في مصر.

هل تصدق يا (أبا راشد) ولديك بالتأكيد طرفٌ من العلم، أن

Twitter: @ketab_n

سلالة الإمام (محمد بن سعود) وأبناء العمومة الآخرين كُلهم ماعداي ووالدتي ونُدرة من الأقارب، مستمرون - حتى الآن - بالعيش في مصر، بعد أن أخذ الموت ما أخذ منهم؟ وهل تصدق أن لفيفاً من المذكورين قد (فتح) الله عليه وبزَ المصريين في التجارة وكسب العيش الحلال؟ وهل تصدق أن منهم من تزوج من بنات العائلات المصرية المعروفة مكوناً سلالة جديدة ذات دِماء مُختلطة؟

أين أنا من تموجات مشاعر أهل نجد تلك؟

بالرغم من عيون الأهل التي كانت ترقبني، لعلها تجد فرداً آخر من (العصبة) تحتويه الانحناءات الدائمة للعاصفة، ومِنْ ثم لا تجد البقية حرجاً فيما قرروه داخل أنفسهم، والقاضي بألا رجعة في التفكير بدولة وزعامة، ولا لدعوة مُستفزة مهما رفعت من شعارات، وأن هناك خياراً ثالثاً - أفضل! - غير الرئاسة والقبر. وبالرغم من عيون (بصاصين) الباشا وحُراسه السريين، المراقبة والفارزة لشباب الأسرة الحاكمة - سابقاً - لسبب غير معروف حينها؛ بالرغم من كل هذه العيون وإن اختلفت ترجمات نظراتها، رحتُ أهيمُ في كل طبقات المجتمع المصري: الطبقة الـمُتندرة الحكيمة، حتى وهي تعايش الفقر وعذاباته. وبطبقته الأخرى العابسة الجادة، حتى وهي تملك وتنفرد بالحكم.. بعد إزاحة كوابيس المماليك وأيامهم المليئة بالأزمات.

صاحب القلعة الذي أرسل جنده ومدافعه، لهدم عاصمة بلادي وإشعال محارق أمال الأهل والدُعاة، كرهته وأحببته في الوقت نفسه؛ كرهت يديه الـمُلطخة بالدماء والاغتيالات، وأحببتُ فيه - كما هدتني إلى ذلك ميولي المتناقضة - نوعية القيادة الفذة ذات النظرة البعيدة الهادفة لإلغاء مستحيلات النهوض والتحضر، والتي اعتقد الجميع بعد قرونٍ من التحالف معها، أنها مصائر أهل الكنانة الـمُحتمة؛ مَن يصدق - مثلاً -

Twitter: @ketab_n

أن الأميرالاي[1] العثماني المولود في قرية (قولة) الألبانية، والقادم لمصر في سنة مولدي تقريباً[2] ضمن حملة القبطان (حسن باشا) التي أرسلتها الدولة العثمانية، وبنصيحة من الإنجليز، لإخراج الغُزاة الفرنسيين من مصر؛ من يصدق أن هذا (الأميرالاي) سيصنع من مصر الرازحة تحت أغطية الركود الفكري والانهيار الاقتصادي. بلداً مركزياً في تأثيره، تتآمر عليه القوى العالمية المتحكمة في خيرات الشعوب، بعد ثلاثين عاماً - فقط - من مجزرة المماليك في القلعة، والتي أوقعها بهم (الباشا) وانفرد بعدها بحكم مصر بدون منازع؟

استطاع (محمد علي) في الثلاثين عاماً - ما لم نحتسب السنوات المصرية الأولى له - دفع مصر إلى أن تصبح مُرشحة لخلافة (حقيقية) للدولة المريضة في الآستانة، هذا الرجل (الأسطوري) يا (حمد)، بدأت مشاريعه لجعل مصر تقود ولا تُقاد منذ جرّدَ الحملات على الأراضي التي كان يعتبرها امتداداً طبيعياً ومجالاً حيوياً لمصر.. أعني بلاد السودان الجنوبية. كتب (الجبرتي) في عجائب أثاره عن الخطوات الأولى لانتصارات (محمد علي) المتوالية.. مايلي:

(واستهل شهر ذي الحجة سنة 1236هـ[3] وفيه خرجت عساكر كثيرة ومعهم رؤساؤهم، وفيه آلات الحرب كالمدافع وجبخانات البارود واللغمجية وجميع اللوازم، قاصدين بلاد النوبة وما جاورها من بلاد السودان، وفيه سافر (محمد كتخدا لاظ) إلى (إسنا) ليتلقى القادمين ويُشيّع الذاهبين، وفيه وصلت بشائر من جهة قبلي باستيلاء (إسماعيل باشا) على مدينة (سنار) بغير حرب ودخول أهلها الطاعة فضربت لتلك الأخبار مدافع القلعة)!

---

(1) رتبة عسكرية تعادل العميد في السلم العسكري الحالي.

(2) الموافق لعام 1801/ 1802م.

(3) الموافق لليوم الأخير من أغسطس / آب 1821م.

Twitter: @ketab_n

مَن يعرف (الباشا) كان يجزم بأن دخول بلاد السودان العصية إلى حمى الطاعة المصرية، هو إشارة الانطلاق لجيوش (الوالي) في كل اتجاه نفوذي مُغر، وهذا يعني ضرورة بناء جيشٍ مُهاب.. لكن كيف؟

... بدايةً لاحظ (الباشا) أن الاعتماد على جيشٍ ذي أساليب ومعدات ومدارس حربية قديمة، أمرٌ غير مُجدٍ، وسيفشل حتماً والعالم الحربي الآخر الراغب في الاستعلاء، يستنبط الوسائل الهادمة للحصون والقاتلة للحشود، والقاذفة بحمم البارود الـمُميتة براً وبحراً، والمهددة بعد ذلك لحريات الأمم. الباشا لاحظ أن هذا الاعتماد يجب أن يتوقف حالاً في مصر ليعاد بدلاً منه خلقُ جيلٍ جديد مُجيش يعتمد على أساليب حديثة قتالية، إلى جانب امتلاكه لمعدات فتاكة، بإمكانها أن تصمد أمام أعداءٍ مختلفين عن أعداء العصور الوسطى وما بعدها. صحيح أن المحاولة الأولى قد فشلت في عام 1231هـ حالما شرع (الباشا) في إزاحة عهود طويلة من اختلاطات العناصر الحربية، المعتادة على التمرد والفوضى وعدم الانقياد والانضباط، والمسماه (باشبوزق)[1]، هذه العناصر عُرفَ عنها أنها ذات بأس قتالي شديد، لكن عِللُها الداخلية تجعل من الاعتماد عليها مسألة خطيرة جداً، في وقتٍ اشتدت الحاجة فيه للدفاع عن رايات الأمم المهددة في حرياتها من قِبل قوى كونية استعلائية جبارة. ثم أعادَ (الباشا) الكرةَ مرةً أخرى، بعد أن أرجأ محاولته الأولى مؤقتاً عندما لاحظ بوادر ثورة عليه، وانتفاضة من رؤساء الجند الذين حرضوا بعد ذلك مرؤوسيهم. المحاولة الجديدة رأت النور في عام 1236هـ حالما شتت (محمد علي) جنود (الباشبوزق) وأخرجهم من القاهرة، على شكل توزيع جديد لهم على الثغور الساحلية الشمالية المصرية، ترافق هذا التحرك مع فتح مدرسة حربية في (أسوان) جنوب

(1) الجنود غير النظاميين.

Twitter: @ketab_n

مصر، والمرتجى منها إنعاش الجيش المصري برؤساء فرق حربية مُحترفين لفنون القتال الحديثة؛ ثم توالت مدارس التخريج الحربية: مدرسة قصر العيني، ومدرسة المشاة والفرسان بالجيزة، مدرسة المدفعية بطره، مدرسة أركان الحرب بالخانكة، المدرسة البحرية بالإسكندرية. ولم يكتفِ (الباشا) بتلك المدارس، بل أرفق معها (فرمانات) أخرى داعمة لجيشه الجديد: كإنشاء مصانع للأسلحة والمدافع بالقلعة، ومعمل آخر لصب المدافع بالمقطم، حيث تُصنع فيه كل شهر ثلاثة مدافع من عيار أربعة وثمانية أرطال، كما تُصنع فيه مدافع تسمى (هاون) ذات السبعة بوصات، وغير بعيد عن هذا المعمل كانت هناك مخازن للبارود والقنابل، وأذكرُ يا (حمد) دلالةً على عظم مخزون الأسلحة عند (الباشا) حينها، حريقاً هائلاً رأيناه يشبُّ سنة 1240هـ في مخازن البارود القريبة من القلعة، حاصداً ومُخرباً بعده أرواح أربعة آلاف نفس وخمسين منزلاً!

هل توقفت جهود (الوالي) عند ما ذُكر؟

... لا يا (أخي)، بل قام هذا - الفذ - بخطوةٍ جبارة نحو الاكتمال العسكري، مُتمثلة بالتجنيد الإجباري لأفراد الصف من الجنود، وهنا وقع (الباشا) في حيرة: مَن هُم الجنود الصالحون للمهمات التي تكتظ في رأس الداهية الألباني؟. .أولاً فعلَ (محمد علي) فكرة أولية بسيطة: لا تجنيد للأتراك والأرناؤوط، لأن تلك الأعراق جُبلت على عدم التقيد بالأنظمة. . وعلى الشغب. كما أزاحَ فكرة تجنيد المصريين لأنه إن فعل ذلك أهاج شعبه عليه لاعتقادهم أن التجنيد سيعني أعباء إضافية مكوسية[1]. كما أن تجنيد المصريين سيعني كذلك فراغ الأراضي المنتجة من المزارعين الذين يشكلون سواد الشعب المصري، وبالتالي ستنتكس الأحوال الاقتصادية فوراً. ما العمل إذاً؟ الحل عند (الباشا)

(1) مكوس: ضرائب.

Twitter: @ketab_n

كان: استخدام شعوب الأمم التي هيمن عليها (الباشا) حديثاً، ولا أقصد هنا (عُربان) الجزيرة العربية الذين يتوارثون رفض العمل - وحتى التعاطي - مع قاتل آبائهم وأجدادهم، بل أعني السودانيين (الطيبين) المتسامحين من سكان كردفان وسنار؛ ولهذا قيل أن أكبر باعثٍ لغزو (الباشا) لجنوب بلاده المصرية هو تجنيد شعوب تلك المناطق المهزومة، وضم القادر منهم - وهم كُثر - إلى جنده!

أهالي (كردفان وسنار) الـمُختارون والمقدر عددهم بعشرين ألفاً تدربوا تحت إشراف ابن (الباشا) (إسماعيل)، وخضع هؤلاء لأنظمة التدريب العسكرية الحديثة على يد ضباط متخرجين من مدرسة أسوان الحربية، وقبل تخرج الدفعات الأولى كان (الوالي) قد أقام الثكنات الكافية والمجهزة بالمؤن والملابس والأدوات الطبية، وما أن جاءت السنتان 1239/ 1240هـ حتى شهدت مصر تجهيز ست كتائب من الجيش النظامي الذي ضمَ - في وقت لاحق - وهو يناهز خمسةً وعشرين ألفاً من الجند، أفراداً من المصريين الأهالي.

ولاختبار ما تعلمه هذا الجيش وما تقرر له سلفاً من مهمات عِظام، أُرسل جزء منه إلى الحجاز ونجد حيث لاتزال الاصطدامات بين السكان ومحتلي بلادهم، أو بين السكان أنفسهم المتنافسين على الزعامة. وأُرسل جُزء آخر إلى السودان لمواصلة (الفتوحات)، والبقية إلى بلاد (المورة) في اليونان لمحاربة.. (المشركين)!

... تداعت الأحداث والوقائع يا (أبا راشد) بعد أن اكتملت - أو كادت - العقيدة الحربية المصرية بقيادة (الباشا) الطموح، وكأن الأحداث الخارجية البعيدة عن مصر، كانت تنادي تطلعات (الوالي) إلى لعب أدوارٍ أكبر من التي كانت بلاد الكِنانة تعطيه لحاكِمها المتوهج.

البداية - إن نحن استثنينا حروب الدرعية والسودان، وقبل ذلك حروب التمكين الداخلية - كانت عندما ناشد السلطان العثماني (واليه)

Twitter: @ketab_n

على مصر، أن يُغيثه وهو يواجه محنة كُبرى بالقرب من مقر الخلافة؛ المحنة المعنية هي الثورة اليونانية التي اشتعلت في داخل البلاد الرازحة تحت السيطرة العثمانية منذ قرون. ولأن لكل محتل ومسيطر على بلاد الغير زمناً لابد أن يواجه فيه مُطالبات الاستقلال للشعوب الـمُحتلة أراضيها، حدث هذا (المتوقع) في البلاد اليونانية وسلاطين (بني عثمان) تنهش الأمراض الحضارية دولتهم. انتشرت يا (حمد) الجمعيات السرية والتنظيمات الثورية في البلاد التي (كان) مُعتقداً أنها أهدأ وأخنع من أن تثور وتُطالب وتحتج؛ وضمت التجمعات المتخفية تلك أطيافاً واسعة من اليونانيين: كبار القوم والشبيبة ورجال الدين والثقافة. ودعمهم وهم يرفعون حجاب السرية عن أنشطتهم في سنة 1237هـ[1] قطاع أوروبي واسع من المؤيدين والكارهين لكل ما تمثله الدولة العثمانية من قيم ورموز. بدايات الثورة وإرهاصاتها كانت ضعيفة نسبياً وهي تنطلق أولاً من (ياسي) القريبة من روسيا القيصرية؛ لأن تداخلات أوروبية محلية معينة أدت إلى فشل المحاولة الأولى المقموعة من جيشٍ تركي ضخم، عبرَ نهر (الدانوب) في طريقه للفتك - الذي حدث - بالثوار وزعيمهم (ابسلنتي). هذا الإخماد السريع لم يمنع تطاير شرر الثورة إلى مناطق أخرى من البلقان، وتحديداً في قلب بلاد الإغريق نفسها بالقرب من شبه جزيرة مورة.

في تلك الأيام العصيبة على الباب العالي في الآستانة شوهدت في الربيع أعلام الثوار المتكاثرة براً وبحراً بقيادة كاهن يوناني اسمه (جرمانوس) الـمُعلن في (كلافريتا) بعد أيام من الاحتشاد الشعبي والهيجان الثوري العاطفي، الثورة على الدولة العثمانية الـمُحتلة لبلاده عبر شعار شهير: (الإيمان، الحرية، الوطن).

---

(1) الموافق لعام 1821م.

Twitter: @ketab_n

لبى اليونانيون دعوة زعيمهم، وشرعوا يقتلون ويأسرون ركاب السُفن التركية في بحر الأرخبيل، واقتحمت قوات الثوار مدن المورة حيث تتواجد جالية تركية كبيرة فيها، وهناك لم يُبقِ الثوار نفساً تتكلم التركية إلا وقطعوا أوتار رقبتها. ثم تألفت جمعية وطنية انعقدت بعد تسعة أشهر من الثورة لتعلن استقلال الأمة اليونانية وتضع دستوراً وطنياً، للمقاطعات اليونانية المنفصلة عن الدولة العثمانية، ولم تمضِ أسابيع حتى أُشهرت مدينة (نوبلي) كعاصمة للدولة (الجديدة).

عندها فطن (السلطان) الذي كان يواجه أزمات لا حصر لها في داخل بلاده ذاتها، إلى أن حلوله للأزمة المتفاقمة في مقاطعاته البلقانية واليونانية قد نفذت، وأن معالجته للتبعات اللاحقة المتوقعة للثورة اليونانية لن تجدي نفعاً.. إن لم!!

... و(إن لم) هذه تعني: الاستعانة بالأسطول المصري الذي أعده لمثل هذه الأوقات، (الباشا) الخبير.. صاحب القلعة في القاهرة.

طلب (السلطان) من (الباشا) أولاً أن يساعده على تطهير البحار القريبة منه، فاستجاب الـمُستنجد به فوراً، مُرسلاً ست عشرة سفينة كاملة التجهيز الحربي وعلى متنها ثمانمئة مقاتل بقيادة (إسماعيل بك).

نفذَ الأسطول المصري مهمته العاجلة في سنة 1236هـ، تلتها مهمة أخرى أكثر تعقيداً وخطورةً: إخماد ثورة أهالي جزيرة (كريت) اليونانية وأختها ثورة أهالي بلاد المورة، ولأجل إتمام هذه (الواجبات) الواسعة النطاق، أقلعت (عمارة)[1] مصرية تضم خمسة آلاف جندي بقيادة (حسن باشا) مُتجهةً إلى جزيرة (كريت) التي اكتسحها الجنود المصريون في الصيف. وبعد سنة من القتال الشرس أُبيد الثوار وهرب كثيرون منهم إلى

(1) الأسطول.

Twitter: @ketab_n

الجزر اليونانية الأخرى، ليعود بعده هدوءٌ غريب للجزيرة وسيطرة (اسمية) عثمانية.

... الأمر في بلاد المورة كان مختلفاً: الجيش التركي يعجز عن إيقاف توسع الثورة، مما يجعل (السلطان) يفطن إلى حقيقة كانت غائبة عنه: لماذا لا يُشرك جيش (محمد علي) ليضرب عصفورين بحجر واحد، إخماد الثورة من جهة، ومن جهة أخرى استنفاذ قوة الجيش المصري، المتطلع وقائده الأعلى، للعب دورٍ فيه خطورة بالغة على الباب العالي في الآستانة؟

ويستجيب (الباشا) الطموح لما فيه للنداء الجديد للسلطان، ثم تكر سبحة النجدات والانتصارات المصرية بقيادة (إبراهيم باشا) في المورة، وعلى شواطئ الأناضول، وعند أبواب (نافارين) اليونانية، حيث دارت معركة تاريخية بكل ما تحمله الكلمة من معنى، ليطير اسم (محمد علي) وابنه (إبراهيم باشا) واسم الأسطول المصري كذلك إلى كل أرجاء أوروبا الخائفة من إعادة إحياء دولة قوية مشرقية لها جذور إسلامية، ظنَ الأوروبيون أن مواطن العرب والمسلمين لم تعد تخرج مثلها، بعد مداهمة الأمراض العديدة للدولة العثمانية العظيمة.. سابقاً! وللتذكير فقط.. المعارك البحرية الشهيرة تلك وقعت في ربيع عام1242هـ[1]

وحتى لا أطيل عليك يا (أبا راشد) سردَ وقائع المعارك بتفاصيلها المملة، أستطيع أن أمرر لذاكرتك إضافات تاريخية حول كل ذلك: فُتحت مدينة (كريبولتسا) عاصمة المورة في صيف عام 1242هـ، تبع ذلك فتح مدينة (ميسولونجي) في ربيع السنة التالية، وأخيراً استسلمت (أثينا) صيف عام 1243هـ بعد حصارها، وعند هذا الحد تدخلت النـزعة القومية و(الدينية) الأوروبية لنجدة أصحاب الحضارة القديمة،

(1) الموافق مايو 1825م.

Twitter: @ketab_n

مُرغمةً (الآستانة) على توقيع معاهدة (لندره) في صيف استسلام (أثينا).. وإلا!

ونقيض (إلا) أخذ به السلطان العثماني على أساس استقلال اليونان الداخلي مع بقاء السيادة التركية - الاسمية - عليها، لكن (السلطان) بإيعاز من واليه على مصر حاولا تسويف إنفاذ المعاهدة حتى تصل قواتهما البحرية إلى (نافارين) حيث احتشدت الأساطيل الأوروبية الضامنة للمعاهدة سابقة الذكر.

... بعد الانتظار الـمُضني لكل الفرقاء، وتحت حجج واهية، شُوهدت أول طلقات مدافع البوارج الفرنسية والانجليزية والروسية التي كانت تُعدُّ سراً لمثل يوم التحشد الأوروبي هذا، ولأن السفن المصرية والتركية كانت مُصطفة داخل ميناء (نافارين) على شكل ثلاثة صفوف متوازية، باغتتها وبصورة قاتلة تلك الرمايات المكثفة الفتاكة. ومما زاد من حرج الموقف المصري التركي، انسحاب الضباط الفرنسيين – والذين استمروا بعد مغادرة (نابليون) لمصر في خدمة جيش (الباشا) وعبر كل حروبه السابقة - مِن على متن سُفن الأسطول المصري حيث كانوا يديرون مدفعية البوارج المبحرة من الإسكندرية. وتقول الروايات التاريخية: إنَّ كُلَّ المساعدين الفرنسيين تواطأوا مع بني جلدتهم في الأسطول المعادي المقابل – سوى – الضابط (سيف) الفرنسي الأصل، والمعلن إسلامه بعد أن أطلق على نفسه اسماً شرقياً هو (سليمان باشا.. الفرنساوي).

في ظهر أحد أيام أوائل خريف عام 1244هـ[1] قُضيَ بعد معركة استمرت ساعتين فقط، على العمارة المصرية التركية بعد خطة مُحكمة غادرة من أساطيل الحلفاء الأوروبيين، وبعد مقاومة باسلة من الجانب

(1) الموافق لأكتوبر عام 1827م.

Twitter: @ketab_n

الآخر، شابها نُقصان الاستعداد لمثل هذه النوعية من المكائد والمفاجآت.

. . . النتيجة كانت كارثة: ابتلع البحر الأسطولين (المسلمين)، وقُتل ثلاثة آلاف بحار مقاتل من المصريين والأتراك، في حين خسر الطرف المقابل مئة وأربعين بحاراً مُجنداً. . فقط.

عرف (الباشا) أن هذه المعركة البحرية قد قضت على كل أسطوله - تقريباً - والذي قضى عشر سنوات لبنائه وإعداده، وعرف كذلك أن أموال الشعب المصري قد تبددت في ساعتين لا غير، كما تنبه (الباشا) إلى أن الاختلاف بينه وبين دولة سلطان الآستانة قد وقع، بعد اكتشاف نتائج معركة (نافارين) الـمُذهلة الكارثية، والمتبوعة بعنادٍ تركي تمثل في عدم الاعتراف بهذه النتائج، ولا باختلال موازين القوى بين الأطراف المشاركة في حرب اليونان!

. . . (محمد علي) كان (يا أبا راشد) واقعياً وهو يخسر في كل حروب (الآخرين) ثلاثين ألفاً من جنوده، بعكس الدولة العثمانية؛ ولهذا عقدَ بعد تهديدات من الحلفاء بغزو مصر وتخريب ميناء الإسكندرية المصري، معاهدة تنص على إخلاء الجيش المصري لبلاد المورة وفق شروطٍ أخرى قاسية ومُذلة، مع اعتراف أوروبي هامشي خفف من وقع الخسارة، هذا الاعتراف جاء على شكل معرفة الدول الاستعلائية بقوة الجيش المصري وكفاءة قيادته وشجاعة منسوبيه، وأنه وارثٌ طبيعي لتهالك الجيش التركي. . حالما تُتاح له فرصة هنا أو هناك. وكلمتا (هنا وهناك) تُرجمتا على شكل عزيمةٍ لا تلين عند (صاحب القلعة) تدفعه لغزو سورية وضمها إلى مصر، تعويضاً عن خسائره السابقة التي ورطته فيها تركيا، ولجعل سوريا كذلك فاصلاً بينه وبين دولة الباب العالي، في حال فكرت الدولة (المريضة) بغزو مصر تعويضاً عن خسائرها المماثلة في حروب اليونان والبلقان!

Twitter: @ketab_n

... الغيوم تتكاثر في سماء المشرق عموماً ومصر خصوصاً، مُنذرةً بحرب جديدة بين أصدقاء الأمس. كنا نسمع في مصر حُججاً لـ(فتوحات) مُقبلة (للجيش) المصري، وإضافة للتبريرات السابقة، قِيل لنا يا (حمد): إن (الباشا) وابنه (إبراهيم) اللذين لا يتكلمان العربية بطلاقة كان يفكران ببسط نفوذ مصر على كل المحيط السياسي المجاور وتكوين دولة (عربية)، إلى المدى الذي لا يتوقف - إلا - بانتفاء مُتكلمين باللسان العربي.. حسبما نُقل عن (إبراهيم باشا)..!

... مرةً أخرى أقول: اختصاراً لوقتك الثمين يا (أبا راشد) الذي أفردته لقراءة هذه الرسائل، ولطرد الملل الممكن أن يزورك وأنت تُخبر بوقائع التاريخ الذي لابد أنك سمعت عنها، أود أن أقفزَ معك حواجز الحشو التاريخي وصولاً للمراد:

... جرد (الباشا) حملة عسكرية مصرية لغزو أملاك تركيا في الشام، وهو يقول رداً على استغراب البعض من إشهار سيف (تركي) سابق ضد الدولة التي رعته: (أنا لست تركياً، فأنا جئتُ مصر صبياً، ومنذ ذلك الحين مصرتني شمسها، وغيرت دمي، وجعلته دماً عربياً)!

كل هذه المشاعر الفياضة لـم تغير من اعتقاد الكثيرين بأن الأسباب الاقتصادية وحدها كانت وراء حملته الجديدة، في ظل تململ المصريين من أعباء المكوس والسُخرة، مما جعل هذا الشعب المغلوب على أمره يهاجر إلى الشام بحثاً عن الرزق وبعيداً عن مصائد التجنيد والموت على الشواطئ البعيدة، ناهيك عن مطامع (الباشا) في المعادن والأخشاب التي تزخر بها الأرض السورية شمالاً.. وهكذا تداعت الأسباب الخفية والمعلنة للتجريدة المصرية الجديدة، والتي رفدها ضعف الدولة العثمانية السابق واللاحق، بعد هزائمها في الحرب اليونانية، والحرب الروسية، وقرارات السلطان (محمود الثاني) الناصة بعضها على إلغاء

Twitter: @ketab_n

(الإنكشارية)[1] التي كانت بحق ورغم فوضويتها، صُلب وعماد الجيش العثماني.

... سنة 1247هـ[2] تحول التفكير بالغزو إلى واقع: حشد (الباشا) ستة ألوية من المشاة، وأربعة مثلها من الفرسان بقيادة ابنه صاحب المهمات الصعبة (إبراهيم باشا)، والذي حمل معه أربعين مدفعاً بكل ذخائرها ومؤنها. هذا على الجانب البري، أما الجانب البحري فقد ضم الجيش الغازي أسطولاً مكوناً من ست عشرة سفينة حربية، ومثلها من سُفن نقل المعدات والمؤن، وكان قد ضُربَ موعداً للحملة مُسبق هو شتاء ذلك العام، لكن وباءً خطيراً حل بمصر أزهق أرواح مئة وخمسين ألف نسمة - لست منهم ووالدتي لـحُسن الحظ - أُرجئ الموعد المحدد إلى خريف العام نفسه.

... تحرك الجيش العرمرم من (الخانكة) ونحن - النجديين والأهالي المصريين - نلاحقه بعيوننا التي لم تغب عنها هالة قائد الجيش الذي نعرفه جيداً، والمتوجه صوب فلسطين، بعد مروره بالعريش، مُحتلاً (خان يونس) بعد يوم من الاستراحة.

أيامٌ قليلة فصلت بين الوضع السابق واكتساح الجيش المصري لغزة ويافا وحيفا، ثم توقف الزحف عند أسوار (عكا) المنيعة التي ضُرب حولها حصارٌ بري وبحري، لكن هذا التوقف لم يحل بين (الباشا) الصغير، وزحفه الآخر تجاه صور، وصيدا، وبيروت، وطرابلس.. والقدس.

بعد تلك الانتصارات المتتالية السريعة، وبعد توسلات تركية لم تُسمع في (القاهرة) اصطدم الجيش المصري والجيش التركي بقيادة

(1) الإنكشارية: فرق متميزة من جنود المشاة الأتراك.

(2) الموافق لعام 1831م.

Twitter: @ketab_n

(عثمان باشا) في طرابلس وحمص، وعند سهل (الزرّاعة) وقعت حربٌ ضروس انتصر المصريون فيها على الجيش التركي بفضل دهاء (إبراهيم باشا) وعنفوان مدفعية ضابطه (سليمان باشا.. الفرنساوي)، ولم يتوقف بعد هذا الانتصار تقهقر الجيش التركي إلى أن وصلت فلوله الهاربة نهر (العاصي)، حيث غرق مَن غرق في مياهه الربيعية الهادرة.

... (عكا) فُتحت في ربيع عام 1248هـ، ليأتي الدور بعدها على دمشق، التي جعل سقوطها (الباب العالي) يحشد جيشاً آخر التقى مع الجيش المصري بقيادة قائده الدائم (إبراهيم باشا) في مكان غير بعيد عن (حمص)، ثم ينقشع غبار المعركة الرهيبة بين الطرفين مُجلياً حقائق لا تكذب: ألفا قتيل من الجيش العثماني، بالإضافة إلى ألفين وخمسمئة أسير، واستيلاء الجيش المصري على عشرين مدفعاً تركياً مع كل ذخائرها؛ وفي المقابل خسر المصريون ستمئة قتيل ومئة واثنين وتسعين جريحاً. ولم تكن نتائج المعركة اللاحقة عند (بيلان) الواقعة جنوب (الإسكندرونة) تختلف عن النتائج السابقة لمعركة (حمص)، بل إنها كانت مزلزلة للجيش التركي أكثر من الأولى.

... حَركتْ تلك الانتصارات الـمُذهلة الكبيرة مشاعر النصر عند القيادة المصرية، وحركتْ أيضاً المطامع بالاستيلاء على أراضي الدولة العثمانية في الأناضول نفسها، وكان هذا - بحق - خطأً فادحاً وقع فيه (الباشا)، كما وقع في أمثاله القادة المنتصرون في كل مكان وزمان.. حتى في نجدا

... عبر الجيش المصري بعد ذلك عدة أنهر وهو في طريقه لاحتلال (أدنة) و(طرسوس) و(أروفا) و(قيصرية)، ليواجه لاحقاً جيشاً تركياً من كل جنس ومعتقد، بلغ تعداده خمسين ألفاً، حشده السلطان (محمود الثاني) ليناجز الجيش الفرِح بانتصاراته في (قونية) التركية ورياح شتاء عام 1249هـ تزمجر.

Twitter: @ketab_n

انتهت المعركة الكبرى في (قونية) التي لا تبعد سوى ستة أيام عن قصور السلاطين العثمانيين في الآستانة، بعد سبع ساعات فقط، مُخلفةً أسر ستة آلاف جندي تركي.. وعلى رأسهم قائدهم الصدر الأعظم[1] (محمد رشيد باشا). أما قتلى الجانب المهزوم فكانوا - حوالى - ثلاثة آلاف جندي، كما غنم المصريون - الذين قُتل منهم مئتان واثنان وستون جندياً فقط - ستة وأربعين مدفعاً حديثاً!

خشيت انجلترا وفرنسا، وروسيا الطامعة في وراثة أملاك الدولة العثمانية (المريضة)، من معاني الانتصارات المصرية غير المسبوقة على من (كانت) أقوى دولة على وجه البسيطة قبل قرون قليلة، وتُرجمت المطامع تلك بدايةً من خلال نجدةِ روسيا لعدوها السابق.. الجيش التركي! مُترافقاً مع إنذار مُشترك إنجليزي فرنسي (للباشا) بأن يتوقف، الأمر الذي رفضه الأخير بشدة، آمراً (ابنه) بدلاً من التفكير في الأمر باحتلال (أزمير) التركية، لكن الضغوطات الحربية والسياسية المتعاظمة توالت على (الباشا) وجيشه، إلى أن رضخ أخيراً ووقع على معاهدة (كوتاهية)[2] التي تنص على ضم سورية وإقليم أدنة، وكريت، والحجاز، إلى أملاك الدولة المصرية، مع عدم تهديد مصالح وأراضي الدولة العثمانية من جديد.

... ومنذ التوقيع على تلك المعاهدة، شهدت بلاد الشام ثورات متتالية على (محمد علي باشا)، الذي وعدَ أهل الشام، بأن قرون مكوثهم (الأتراك) في بلادهم وطُرق إدارتهم السياسية والاقتصادية المتخلفة الضعيفة.. لن تعود. لكنها عادت لأن المحتلين يتشابهون دائماً!

---

(1) رئيس الوزراء.

(2) وُقعت عام 1833م.

Twitter: @ketab_n

دامت الثورات التي أفلست الخزينة المصرية وأزهقت أرواح المصريين المجندين، خمس سنوات - تقريباً - مُعقبةً بعدها نُذر حربٍ جديدة بين مصر وتركيا، أشعل نارها إعلان (الباشا) عزمه على إعلان استقلاله عن تركيا وخلع بيعة (السلطان) المتهم من الجانب المصري بإشعال نيران الثورات الشامية، الأمر الذي زلزل السلطان (محمود الثاني)، كما حرك بواعث الخوف عند الدول الأوروبية الـمُظهرة خداعاً في تقرُبِها المصطنع مع حكام الدولة المريضة.

وقعت الواقعة المنتظرة بين الجيش التركي الذي ضم ضباطاً ألمان وبين الجيش المصري عند (نصيبين) الواقعة على ضفاف نهر (الساجور) الفاصل بين مناطق النفوذ المصري والتركي في بلاد الشام.

هذه المرة كما في المرات السابقة هُزم الترك وانتصر المصريون، لكن المعركة الظافرة نفسها أدمت جداً الجيش المنتصر، الذي بلغت خسائره أربعة آلاف بين قتيل وجريح!

وبينما كان الطرفان يعُدان قتلاهما ويتعرفان على خسائرهما المادية، وردت أنباء من الآستانة بوفاة السلطان (محمود الثاني) وتنصيب غلام اسمه (عبد المجيد) خليفةً على المسلمين، وكانت أول (البشائر) لهذا الفتى البالغ من العمر سبعة عشر عاماً، هي استسلام الأسطول التركي - كُله - سنة 1255 هـ لأسطول (الباشا) الأقوى والأكثر ناجزية.. كما هو حالي - وقتها - في صراعي مع أبناء العمومة في نجد!

... كل تلك التطورات الخطيرة أدت إلى ما كان بعيداً عن مخيلة المنتصر المتكئ على وسادته في القلعة.

... لقد تدخلت الدول الكبرى يا (أبا راشد) في المسألتين المصرية والمشرقية تدخلاً مباشراً، حيث رأت تلك الدول الاستعلائية أن انتصارات المصريين وهزائم من ينتظرون وفاته قريباً، ستخل بالتوازن الدولي الهش حينها، والطريف أن الدول الكبرى ضغطت على الجانبين

Twitter: @ketab_n

المنتصر والمنكسر على حدٍ سواء، حتى يوقعا معاهدة جديدة بينهما في (لندرة)، وهو العام نفسه - تقريباً - الذي أعلنتُ فيه هزيمة مشروعي في نجد[1].

نصت المعاهدة الجديدة على ألا يملك (محمد علي) إلا مصر و(عكا)، وأن يدفع المنتصر جزية للمُعلن استسلامه، إلى جانب ضم الجيش المصري للجيش العثماني.. وهكذا وقعت الأطراف كُلها على نصوص المعاهدة عدا مصر وفرنسا.

... تمنع يا أخي (حمد) من الرد الباشا حتى والدول الكبرى تمهله عشرة أيام وإلا خلعته وعائلته من حكم مصر نفسها، لكن كل هذه التهديدات والتلميحات لم تُجدِ نفعاً مع (محمد علي) الذي أصبح في حالة حرب مع تركيا والدول الكبرى؛ وتأزم بعد ذلك موقف (الباشا) والمصريين مع اندلاع ثورة أهلية جديدة في الشام، لتتساقط بعد تعقد الموقف كل أحجار اللعبة من يد (الباشا) وابنه، وينتهي تاريخ لعبة القوة التي لعبها (صاحب القلعة) بمشهد طلب (إبراهيم باشا) إنفاذ معاهدة (الندرة) وشروطها مرةً أخرى، مع تخلي مصر عن - كل - امتيازاتها السابقة.

... وربيع عام 1257هـ[2] يتأهب لقرع أبواب الشرق، وصلت الجيوش المصرية المنسحبة إلى الإسكندرية بعد تكبُدها الأهوال والتقهقر والذُل والانكسار، وفقدان ثلاثين ألفاً من الجند في عملية الإنسحاب.. وحدها!

... وتتوالى (فرمانات) الآستانة، المُنقصة من هيبة مصر وخزائنها المشرفة على الإفلاس، وكما وقعتُ من قبل في انكسارات الروح

(1) عام 1840م.

(2) الموافق لعام 1841م.

Twitter: @ketab_n

ورحلتي - الخائبة - إلى نجد توشك على الزوال، أوقعتْ نفس الخواتيم نفسها غير المنتظرة الهم والحزن. . في قلب ووجدان (الباشا) و(ابنه) المحارب في كل جبهة، ليموت الأول عام 1265هـ[1] فاقداً عقله، ويهلك الثاني الطامح لخلافة والده، بِحُمى الضنك. . وحمى فقدان الأمل ببناء أمبرطوريات لم ترَ النور أبداً.

أخي الحبيب (حمد):

علك الآن تلوي شفتيك وتحرك رأسك تعجباً من تناقضٍ ظاهر في أسطري السابقة: فكيف أُعجب وأنا أقدم لك نفسي الحائرة في مصر، بمن قتل الأهل والأحبة، ودمر حلمَ الدولة السعودية السلفية، ومن أجبر أُمته إلى أن تلعب أدواراً أكبر من حجمها بكثير؟ لك الحق يا (أبا راشد) في طرح مثل هكذا سؤال، لكن دعني أُلقي عليك سؤالاً مُقابلاً: متى كان للمشرقيين عندما يصلون إلى مشارف القوة الأولية داخل بلدانهم عقول يدركون بها حدود قوتهم وقوة الآخرين؟ ومتى كانوا يسمعون الرجاءات المكتومة للناس البسطاء، الذين يأملون أن يكتفي الحاكم (المستبد) بلهب ظهورهم بسياطه المؤلمة، وإذلالهم اليومي، بدلاً من إرسالهم وبنيهم إلى موت المدافع الذي تقصر عنه السياط والمذلات؟! كل (حكامنا) المشرقيين قديماً وحديثاً هم من نوع (محمد علي باشا)، فحالما تضيق بهم أرضهم، وتتناقص مواردهم بعد أن يمسهم شيطان القوة وحُب السيطرة، أو حالما يظنون أنهم مُصلحون لـ(فساد) ما حولهم، يترجمون تفكيرهم بعد وقتٍ قصير من رسم الخطوط على الرمال، بغزو هذه الأرض لأن بها موارد، وتلك لأنها بعيدة عن الله وشرائعه، وعندما تعجزهم التبريرات، يبتكرون حادثة معينة صغيرة لإشعال حروبٍ كبيرة لا ينتهي أوارها.

---

(1) الموافق لعام 1849م.

Twitter: @ketab_n

هذا المس الشيطاني للقوة يا (حمد) لا يتخبط حكامنا المشرقيون به فقط، فكل التاريخ حافلٌ بمثل هذه النوعيات من الطغيان ومناحي التفكير الدموي.. مهما تبدلت الـمُعتقدات والمذاهب والأسماء.. ومنهم مُكاتبكم!

ما أثار إعجابي بالرجل متوسط القامة ذي الحاجبين المقوسين البارزين، والفم الصغير الـمُسترخى تحت أنفٍ كبير، هو ذلك النـزوع نحو الرقي ومخالفة واقع التخلف، مهما كان مُتمترساً وراء مصالح فئات، أو خلف أخلاق قرون العزلة، والأمية، وكراهية التجديد والتحديث.

قام الرجل خلال العشر السنوات الأولى من حكمه بما يشبه المعجزات.. أكان مُتخيلاً - مثلاً - أن تنتهي عصور المماليك الطويلة جداً، التي لم يستطع العثمانيون ولا الفرنسيون ومعهم الإنجليز، أن يزيحوها عن صدور المصريين المغلوبين على أمرهم، ويستطيع في المقابل رجلٌ واحد تحقيق ذلك.. وأكثر، بلا عُصبة تُنجده، ولا عصبية ترفع لواءه، ولا مستشارين أكفاء تركهم له الحاكم الذي كان قبله، ولا حتى أرضية إصلاح وبناء وصناعة في المنطقة الـمُراد إنمائها؟!

المخيلة تتراجع كثيراً أمام واقع صناعة (محمد علي) للتاريخ المصري الحديث، أترك يا (أبا راشد) أحكامك السابقة - المفترضة - تجاه أخطاء (الباشا) العسكرية وقرارات الحرب خلال فترة حكمه، التي تُشي بِكمٍ هائل من شراهة التوسع والهيمنة والتسلط.

..وأترك عنك أخباريات الأساطيل والمدافع والجند، وتمعن - فقط - في المعجزة الباشوية.

سأضرب (لأخي) أمثلةً على سابقية (الباشا) لعصره، ورغبته في تدعيم ركائز استقلال مصر ونهضتها:

وجد (محمد علي باشا) مصر وهي تغطُ في نومٍ تعليمي عميق؛

Twitter: @ketab_n

فبادر - فوراً - إلى نشر المدارس المختلفة، ومن ذلك أمره بإنشاء مدرسة الهندسة بالقلعة، التي تُخرج المهندسين المعماريين في سنة 1231هـ. . - أي قبل أن (يستضيفنا) في بلده بثلاث سنوات تقريباً - وأول خريجٍ لهذه المدرسة اخترع بعد سنة من تخرجه آلة لضرب الأرز وتبييضه!

. . . وقبل (ترحيلي) إلى نجد لألعب دور الإمامية بسنتين تقريباً، افتتح (الوالي) مدرسة أخرى هي (المهندسخانة) ببولاق، وفيها تخرجت أفواجٌ كبيرة من المهندسين الأكفاء. وقبل ذلك بثلاث سنوات أسس (الباشا) مدرسة للطب بأبي زعبل، وكان الغرض من إنشاء تلك المدرسة، التي وصل تعداد منسوبيها بعد عشر سنوات من بداية الدراسة فيها ما يقارب من مئة وأربعين طالب طب بشري وخمسين طالب صيدلة، تخريج أطباء يمارسون مهنتهم لخدمة العامة. . والجيش. ولابد من الإشارة إلى أن تلك المدرسة المذكورة أُلحق بها مصحات تحتوي على سبعمئة وعشرين سريراً، بعد أن لاحظ (الباشا) توسع الطلب على المستشفى والمدرسة على حدٍ سواء، الأمر الذي دفعه إلى نقل المنشأتين إلى (قصر العيني) في القاهرة، حيث توسعتا وزادت مناشطهما.

. . . مدارس أخرى غير بعيدة عن المجال الطبي رأت النور في عهد (الوالي) مثل: مدرسة الصيدلة، ومدرسة الولادة، والعاملة فيهما طوائف من طواقم التمريض المدرب والمستقدم من الحبشة والسودان. وعلى كُل لِبنةٍ من لبنات أسس تلك المدارس الطبية، كانت هناك آثارٌ لأصابع أخرى غير أصابع (الباشا)، المصمم على الاستعانة بالخبرات الأجنبية مهما كلفه هذا الاستدعاء من أموالٍ وجهود، الأصابع التي أُشير إليها هنا هي أصابع (كلوت بك) الفرنسي الذي أتى به (محمد علي) من فرنسا عام 1241هـ ليعمل طبيباً استشارياً للجيش المصري، هذا الفرنسي (الكافر) شفى عِلل المصريين المستوطنة في بلادهم، ومنع عنهم

Twitter: @ketab_n

- بعد الله - تفاقمات الأوبئة الكثيرة، التي كانت تتناوب عليهم مع (بساطير) المماليك المسلمين!

... في العام الذي بدأتُ فيه رحلة المغامرات الجديدة إلى نجد[1]، أنشئت في مصر مدرسة (الألسن) بالأزبكية التي أُنيط بها تخريج علماء يترجمون الآداب والعلوم الأجنبية إلى العربية، وليكونوا صلة اتصال معرفية بين الفكرين الغربي والشرقي، أما ناظر المدرسة الذي اختاره (الباشا) فلم يكن إلا الشهير.. (رفاعة بك الطهطاوي) الرحالة والأديب والعالِم وكاتب الدساتير المعروف.

... منارات علم كثيرة افتُتحتْ: مدرسة المعادن بمصر القديمة، ومدرسة المحاسبة بالسيدة زينب، مدرسة الفنون والصنائع، مدرسة الزراعة بشبرا، مدرسة الطب البيطري المُتولي نظارتها الفرنسي (المسيو هامون). ثم فكر (الوالي) في إقامة إطار إداري يضم أنشطة المدارس العالمية والخصوصية، اسماه (ديوان المدارس)، أو ما عُرف بعد ذلك بـ(وزارة المعارف العمومية)، الخطوة الجبارة والتي لا تقل عن الخطوات الداخلية النهضوية، كانت إرسال (الباشا) لبعثات علمية مصرية إلى أوروبا ليأخذ شباب مصر العلوم من منابعها، وليدرس شباب مصر مناهج الزراعة الحديثة التي تحتاجها مصر، كما الهندسة والطب والكيمياء والرياضيات وفنون الحرب، إلى جانب فنون السلم والصنائع، وحتى الإنسانيات المتقزز منها شرقُنا، الشرق الذي بدأت - للعجب - أول سور قرآنه المجيد بكلمة (اقرأ)..!

... يا الله!!

مالي أحدثك عن اختلافي عن الآخرين من (ضيوف) الباشا النجديين في هياماتي بحراك الشعب المصري وقيادته.. وحتى

---

(1) عام 1836م.

Twitter: @ketab_n

بالانتكاسات والآثار الجانبية لهذا الحراك، الذي وقف الأزهر - للأسف - ضده، ومعه المنابر ذات التأثير البالغ في قرارات الأمة، والـمُنذرة أجيال (محمد علي)، من عواقب اتباع بدع الكفار المستحدثة، حتى لو كانت تلك البدع أفضل من القمع والتخلف السابقين؟! مالي وكل هذا، وصمتي مُطبق وقلمي يسكنه الجفاف، حالما أنوي إعلامك بما كان يخص روحي.. جسدي.. رغباتي.. ومشاعري. مالي أسوِّفُ ما لا يمكن تسويفه لأنه (الأصل) وكل ما عداه فروع.. فيما أظن! سأُعري لك يا (أخي) نفسي ولن أتردد عن ذكر كل شيء فعلته في مصر، مع تعهدي لك بأن أختصر وأبتعد عن حشو الحديث.. وزيفه.

... شيئاً فشيئاً، أخذت أخي (حمد) أبحث عن نفسي المبعثرة، من خلال تلك الفواصل الواهنة بين تماسات الوهم والحقيقة.

عالمي النجدي الأسير، المتكوم - بعضه - على نفسه، والمخرج من وقت لآخر دفقاتٍ من رفض الاعتراف باضمحلال عوالم الدرعية المثالية السابقة.. هذا العالم الصغير لم يعد يمنحني - كما في السابق - جنات الطمأنينة التي تخلُقها إجابات - مثالية - لأسئلتي الدائمة الاستعار، والـمُحدثة (طنيناً) في رأسي لا يمكن وصفه.

انعدمت الإثارة لدي حتى وأنا أشاهد تلك التساقُطات اليومية لممانعة الأهل والصحب السابقة، للانخراط اللازم في بنية (المجتمع الجديد) والتعامل معه!

شقة الاختلافات بيني وبين أصحاب العباءات والعمائم النجدية كانت تتسع، وأيام وشهور المنفى آخذة في الانصرام مع وجود قاسم مُشترك - نسبي - بيننا.. هو الحنين إلى نجد وما تمثله أرضنا الجرداء من قيمٍ وتجريدات فكرية؛ أزعجتني في تلك الأيام يا (أبا راشد) نمائم الأهل ولغو حديثهم، مللتُ من مشاريع وخطط (فيصل بن تركي) و(مشاري بن عبد الرحمن) للهروب و(حكم) نجد من جديد، أصبحت

Twitter: @ketab_n

ممجوجة قصائد (ابن تركي)[1] التي يبث من خلالها لوعاته واشتياقه إلى حريته الشخصية و(إمارته) الموعودة على من بقى حياً معافى من أهالي نجد، الذين كانوا يقاسون خلال السنوات الأول (لترحيلنا) من فراغ السلطة في قلب الجزيرة، ومن الفتن، وضيق الحال واليد، بعد سنوات الأهوال التي عاشوها، أثناء حروب سابقة بين حُكامهم المؤمنين.. وبين المنافقين أهل البدع!!

لم يكن الضجر من المحيط العائلي بقسمه (الأكبر) الـمُجدد نفسه ورؤاه بسرعة متناهية مُحيرة، أو حتى من قسمه (الأصغر) الـمُزدري تهافت شطره الأول على قروش (الوالي) وعطاياه. مصدر إحباطي وتبرُمي الوحيد، بل كانت هناك أسباب أخرى.. من بعضها - لا كُلها - تلك المشاهدات لآلام المصريين النفسية وهم يعايشون أيام الحروب وصراعات القوى. ولم تكن الحيرة داخل مصر - وبالتالي داخل نفسي - تتمثل فيما ذُكر فقط، بل أن ما كان يُشاع فيها من قِبل مُعلمي الأزهر وتلاميذه، عن رغبة دفينة لـ(محمد علي) في سلخ مصر عن عالمها الإسلامي، وعن ارتباطاته بجماعات لا دينية متزندقة، وهو يجد في مسيرة التحديث والتطوير والتنوير، الآخذة مصر - في رأيهم - إلى مجهول العالم الكافر، زادَ من بلبال عقلي وتمزق روحي.

وللهروب من كل خواص وعوام الحيرة، ومن الأخبار الكالحة الواردة من بلاد نجد الباعثة على الكآبة والنشيج، وحتى من شواهد تقلبات (المزاج) غير المحدد اتجاهه، الـمُتأثر بحروبٍ تقوم هنا وهناك، ودولٌ تمرض وأخرى تنهض. للهروب من تلك الهموم اليومية، سارعت في إشغال نفسي بأمورٍ بعيدة عن جالبات التعاسة تلك، وبما يؤمن لها راحة مصطنعة، أنا متأكد أنها سرعان ما تُذيبها شمس أفعال البشر

(1) يقصد (فيصل بن تركي بن عبد الله).

Twitter: @ketab_n

اليومية وتداخلاتهم.. لكن ما العمل وأنا أكاد أُجن، وتقعدني المخاوف والحيرة؟!

لقد قررتُ يا (أبا راشد) أولاً أن أبحث عن عمل أشعر أنه يحقق ذاتي، ويبعدني عن حقيقة تعايش معها كثيرون من (ضيوف) مصر النجديين.. والقائلة: إنَّ قرش (الوالي) تسد الحاجة وزيادة.. هذا صحيح، لكنها في الوقت نفسه تدوس - وهي ترن - على كرامات وأنفة مَن جارَ عليهم الزمن، وشاهدوا عياناً - لا إخباراً - كيف تقوم الدول والممالك؟ وكيف تُسقط وكأنها أثرٌ بعد عين؟!..يا للسخرية وأنا أتحدث عن الكرامة والأنفة والشموخ، وكل ما حولنا يُخرج لسانه لكل هذه المفردات الفاقدة معناها ووقعها، ولِمَ لا وأحوال (ضيوف) الباشا تضرِبُ يومياً مواعيد غرامية.. مع الاستكانة والخمول والاستسلام، التي أرادها (المُضيف) قوتَ (الضيوف) ومناط آمالهم؟

... تسألني أيها (الحبيب) عن العمل الذي انتزعني من كل هذا.. ولو مؤقتاً.

طلبتُ من وراق في الأزبكية ربطتني معه صداقة متينة، أن يجعلني أُساعده في ترتيب قراطيسه وكتبه ومخطوطاته، وألا يكتفي معي بهذا فقط، بل يدربني على مواجهة (الأجانب المُشركين)، وهم يبحثون بلا ملل ولا كلل في خزائن الكتب عن أشياء تُشغل فكرهم وتدعوهم إلى طرح الكثير من الأسئلة، والعودة بعد ذلك إلى البحث عن إجابات لأسئلتهم التي قد يقترب بعضها من الشك في كل شيء!

من خلال أسئلة (الروم)[1] عن كتب التاريخ وعلوم الإنسان والفلسفة المشرقية، وما يمكن إيجاده من نثار أساطير الحضارة الفرعونية، التي (كانوا) يحاولون فك رموزها، لاحظتُ أنهم يحاولون

(1) مصطلح (الروم) يقصد به هنا الأوروبيون عموماً.

Twitter: @ketab_n

تدوين المعرفة وتقنينها، وأنهم بعيدون عن حب الاطلاع العابر والشغف المعرفي الموشوش الذي يوهم الآخرين.

الأجانب في السنوات الأولى لقدومنا إلى (القاهرة) كانوا يتكاثرون بشكل لافت، وذلك بأمرٍ من الباشا وبرغبة مُلحة منه، هذا الباشا الذي راح يستقدم أصحاب البشرة الوردية والعيون الزرقاء ليشاركوا مصر في عمليات النهوض من عثراتها، وشفائها من عللها، وبناء ما هدمته قرون اليأس الحضاري المنصرمة. كُنا نرى (الروم) يسرعون في مشيتهم الواثقة في المصحات، وفي مدارس الألسن العالمية، وفي كليات الزراعة والبيطرة والمدارس التجهيزية، أو وهم يخططون ويرسمون كيفية بناء القناطر المائية، والقصور ذات الحدائق الجميلة في شبرا وما حولها، والمتناثرة حول شوارع فسيحة مُلئت أرصفتها بالزهور وبأشجار الفاكهة والنباتات المجلوبة من كل أصقاع العالم. وعندما يعسعس الليل أو يكاد، ينقلب (الأجنبي) من عامل ومخطط ومهندس ومعلم حرب، إلى باحث عن كتب معينة لدى الوراقين وبائعي الكتب القديمة، المفترشين بُسط أسفارهم حول أسوار مصر.. القديمة، أو عند أركان حارتها المستحدثة.

ولم أكن أكتفِ بهذا الاختلاط الهامشي والسريع الذي يتم عادةً بين بائع الكُتب ومُشتريها، بل تعهدتُ نفسي على الذهاب الدائم إلى المقاهي الشعبية، حيث يعنُ في كثير من الأحايين (للأجانب) وخاصةً المستشرقين منهم، الجلوس على مقاعدها الخشبية الـمُكسرة، وشرب مشروباتها الساخنة والباردة ذات اللون الداكن، مُتبسطين - قصداً - في الكلام مع رواد المقاهي من الأهالي الأُميين منهم والمتنورين على حدٍ سواء.. وحتى مع (الأسرى) من أمثالي.

في تلك المقاهي يا (أبا راشد) وعند أبواب الوراقين أخذتُ

Twitter: @ketab_n

مداركي العقلية تتعاظم، وأسئلتي تتضخم، ولهفتي على الاستزادة من كل علوم الأقدمين و(الغرباء) لا توقفها حدود.

لكنني لاحظتُ أن (الكفار) أخذوا وهم يتسامرون في المقاهي، أو وهم يقرأون فهارس الكتب واقفين، يطرحون على من يبادلهم الحديث بالعربية، أو (يرطن) معهم بالفرنسية الـمُكسرة، التي أخذ الناس في مصر يتعلمون مبادئها - وأنا منهم - آراء عجيبة عن كل شيء كان محذوراً الحديث عنها في السابق: عن المرأة ولماذا تُحجب وتُمنع مشاركتها في فعاليات الأمة (الناهضة)؟ وعن آراء الـمُستمعين المختلفة مشاربهم في مجريات تاريخ أمتهم الإسلامية؟ وهل كان هذا الماضي بتراثه الفكري والسلوكي والاعتقادي سبباً في تأخر الأمم والشعوب الإسلامية والعربية.. أم أن نسبية المسارات الإنسانية هي المتحكمة؟ وراحوا يسألون أنفسهم والآخرين: كيف تعرف الشعوب المغلوبة على أمرها طُرق النجاة من فساد الحكام المستبدين؟ وكيف تفصل الأمة بين معتقداتها الدينية، ولجوء هؤلاء المستبدين من الحكام لهذه المعتقدات - نفسها - عندما يرغبون في تبرير مظالمهم واستعبادهم لرعاياهم؟ وتزداد أسئلتهم حرجاً لمستمعيهم فاغري أفواههم دهشةً من جرأة مثل هذا الطرح: هل الإسلام عقبة للتقدم؟ ولماذا لم ينهض المسلمون مادام أن في (كتابهم) إجابةً عن كل سؤال وعِلماً عن كل غامض؟ قليلون من رواد المقاهي، ومرتادي (بسطات) الوراقين، كانوا قادرين على الإجابة عن أسئلة (الأجانب) المستفزة وتفنيد ما فيها من تهافت وتبسيط.

حاول مكاتبكم يا (أخي) الرد على أقوال القادمين من وراء البحار الشمالية، لأن ما يقولونه استفز اعتقادي واعتقاد الآخرين، لكنه في الوقت نفسه جعلني أبحث في داخلي عن الإجابات الحقيقية لتلك الأسئلة وأخواتها من الطروحات الجريئة، فهذه النوعية - مهما كانت طبيعتها - عندما تُثار وتُطرح يبدأ، العقل في التصدي لها، ويحاول -

Twitter: @ketab_n

وفي ذلك كُل الخير - استحضار ملكاته المغيبة والمهملة التي تظل هكذا - لولا - عملية البحث عن الإجابات المناسبة؛ ولن أنسى ذلك اليوم الذي انبرى فيه أحد المصريين من النخبة المتعلمة، التي لم تمنعها شعبية المكان وعامية الأجواء، من القدوم إلى (مقهايَ) المفضل، سائلاً أحد المستشرقين والذي يتحدث العربية بطلاقة - وأظن أن اسمه ريمون - عدة أسئلة بعد أن سرد (=المستشرق) على السامعين حكاية عن نبوءة قال فيها إلّهٌ من آلهة الكفار، كلاماً موجهاً لطائفة من الناس الـمُستعبدين: (يا أيها الناس، فلتعرفوا إذاً أولئك الذين يحكمونكم على أنهم قادتكم لا سادتكم، إنهم مندوبون عنكم لا مُلاك لكم، وإنهم لا سلطة لهم عليكم، وإنما لأجل فائدتكم، وإن ثرواتهم تخصكم، وإنهم مسؤولون أمامكم، وإنه سواءً كانوا ملوكاً أم رعايا، فإن الرب جاعلٌ جميع البشر متساوين، وإن أحداً من الفانين لا يملك الحق في اضطهاد أخيه)!..سأل المصري - المقدام النبيه - المستشرق ذا العينين الجاحظتين: مادامت قلوب آلهتكم وقلوبكم على المستعبدين المشرقيين جِدُّ رحيمة، فلماذا قدِمتُم لخدمة (والينا) الـمُستبد.. العادل؟ ولماذا تدفعونه لصنع الأسلحة والمدافع، التي تُقتطع أثمانها من قوت شعبنا بدلاً من انكبابكم على ما ينفع شعب (الوالي) المحتاج للغذاء والدواء وللعلوم المختلفة؟ ولماذا تستعبدون الأمم الـحُرة تحت مقولة كاذبة بأنكم وأنتم تفعلون هذا الذنب وتلك الخطيئة، إنما تحررون الشعوب من الاستعباد المحلي؟! ماذا أتى بكم إلى مصر والشام؟ ولماذا تهاجمون الفُرس والترك والعرب، وتمنعون عنهم بعد أن تتقاسموا بلادهم وخيراتهم، ما تعطونه من استقلالٍ لشعوب الأمم ذات العرق الأوروبي.. الرازحة تحت النفوذ العثماني؟!

... بعد تلك الأسئلة والتي تُشبه مدافع (المشركين) في تأثيرها، رد المستشرق على (النخبوي) المصري بأنهم أتوا إلى هنا بعد طلب

Twitter: @ketab_n

(والي) مصر الذي فرض نفسه على بلاد النيل، بدون مقاومة شعبية تدل على رفضه من قِبل العموم، وأنهم ومعهم من بقي من بني جنسهم بعد الحملة الفرنسية على مصر، إنما يساعدون - كمقيمين - المحرومين من الغذاء الكريم، والتطبيب الـمُنظم، وفهم كيف تُحصل العلوم، وأن الحالة - بدونهم - لم تكن تُسر صديقاً ولا عدواً، وأنهم في حال غادروا مصر وغادرها (الوالي) العادل.. المستبد، فستبقى شواهد ما عملوا من حضارة حتى لو أتى من بعدهم من ينكر هذا ويسفهه...

أضاف هذا (المستشرق) أيضاً: بأن (محمد علي) حقبة استبدادية (عاقلة)، ولكنها لازمة ستأتي بعدها - بالتأكيد - حقبات التنوير الحقيقية، وستتحقق أحلام الناس في اختيار حكامهم الراشدين الـمُصلحين، وهو ما تحقق - حسب قوله - فعلاً في فرنسا وانجلترا وكثيرٍ من البلدان الأوروبية؛ ثم تغاضى (الأجنبي) عن الردود الأخرى على أسئلة (النخبوي) المصري، الذي لم نعد نراه مرةً أخرى في المقهى، ويقال إنه لم يعد يُرى في كل مصر، لأن رجال (الباشا) قد (استضافوه) في مضافةٍ تختلف عن شكل ونوعية ضيافتنا.. ولله الحمد!!

شخصياً لم أكن أريد أن أُشارك كثيراً في حلقات الإثارة الفكرية تلك.. بالرغم من أن كل مُداخلاتي القليلة، كُلها كانت مُحكَّمةٌ.. بشهادة كثيرين، لكنها لم تفِ بما في صدري من المنطق والعلم والرغبة في المجادلة.

ما منعني من المشاركة الواسعة التي يستحقها عقلي وقراءتي الكثيرة، ومحاولاتي للربط بين الـمُقدمات والنتائج، وبين المتغيرات التي حاولت سبر أغوارها، هو أنني ظننتُ أن تلك المجادلات وقفٌ على المصريين، وعلى الأجانب الذين (يعلنون) أنهم قدموا لخدمتهم، كما شعرتُ أنَّ (الوالي) يراقب (ضيوفه) النجديين بدقة ومتابعة لا مثيل لها، ويخصني شخصياً بمُتابعة استخبارية. لسبب مجهول عرفته فيما بعد،

Twitter: @ketab_n

وبالتالي فهؤلاء الضيوف (الأعراب) لهم حدود يجب أن يتوقفوا عندها، أولُها وأهمُها.. ألَّا تَدَخُّلَ من قِبل (الأعراب) في الشأن المصري الداخلي.. ولا حتى في أحوال البلاد التي احتلتها جيوش الوالي.. مثل نجد.

... سمعاً وطاعة للوالي، لكن لا سمعَ ولا طاعة له عندما يتعلق الأمر بثروات العقل المبثوثة في الكتب التي رحت أعاشرها ليلاً ونهاراً، وأغرف من ينبوعها النقي الشافي.. إلى جوار كلام الله المحفوظ بالطبع. لقد باشرتُ يا (أبا راشد) أناملي النهمة للأحبار وسطورها، في تصفح كُتب الأدب والفلسفة والتصوف التي توافر العديد منها عند صديقي ومعلمي الوراق. كُتب الأدب والسير لم تكن أكثر ما شد انتباهي في ثروة (محمدين)[1] المكتبية، لأن هذا الضرب من المعارف لم يكن مجهولاً كلياً في عالم الدرعية المُتشدد في منع أتباعه من الاطلاع على ما أبدعه العقل البشري.. سوى كتب الحديث، والتفسير، والفقه، و(قسمٌ) من التاريخ، وبعض أشعار الحماسة والرثاء. ما أخذني إلى فضاءات الحكمة القاهرية، والبحث عن الحقيقة الصعبة المنال، إبداعات أسماء كنت أجهلها وأنا أهرول بسلاحي في حي (الطريف) الدرعاوي مُردداً قول الفرزدق:

ولولا سيوف من حنيفة جردت

ببرقان أمسى كاهل الدين أزورا

... اختفت من مُخيلتي هرولتي تلك، وأشعار الحماسة، وما حدث وكان في شهوري الهالكة؛ لم يبقَ ما يثيرني ويشغل كل تفكيري ووقتي -إضافةً لسويعات بكورية مقتطعة لتأمل النهر الخالد وهو ينساب شمالاً بدون أن يُعيرَ انتباهاً لأحداث الزمان حول دفتيه - سوى فك

(1) محمدين: هو اسم الوراق الذي عمل معه صاحب الرسائل.. كما يبدو.

Twitter: @ketab_n

رموز قول (محجة الحكمة)[1]: (إن الفلسفة هي العلم بالوجود من حيث الوجود)، والانتقال بعد ذلك لمساهمات (الطلبة) المتأخرين الذين أضافوا على قول معلمهم الأول تفسيرات أخرى لمعنى الفلسفة: مرةً على أنها نمطٌ من التساؤل، ومرةً أخرى يصفونها بأنها محاولة لتفسير الوجود وما فيه. الفلسفة يا (حمد) في نظر عُظماء البحث عن الحقيقة، تدور مباحثُها حول سؤالين عظيمين.. أولهما يقول: ما الوجود.. وما غايته؟ وثانيهما يصرخ: ما نحن.. من أين أتينا.. وإلى أين نحن صائرون؟

عقيدتي أوضحت لي بما لا يحمل مزيداً من التأويل والتساؤل، إجابات الأسئلة السابقة، لكن أليس (إبراهيم) و(موسى) عليهما السلام، قد سألا الله عدة أسئلة آملين الإجابة عنها حتى تهدأ خواطرهما وبراكين الأسئلة في دواخلهما؟ أأكون أنا - وغيري - أفضل من أولي العزم من الأنبياء والرُسل الكرام؟

لم أقف عند هذه الإشكالية كثيراً يا (أبا راشد) وأنا أتعرف على عوالم فِرق الكلام الأولى عند المسلمين، وهم يطرحون قضاياهم حول مسألة الإيمان والكُفر، أو مسألة قضية الإمامة والخلافة، أو الأخرى التي تبحث عن مسؤولية الإنسان وحريته، وأخيراً قضية القضايا عندهم.. صفات الله!

استغرق تفاعل العرب و(العجم) الفكري مني جهوداً مُضنية، كما أخذ حركات الترجمة والنقل إلى العربية، أسابيع طوالاً من البحث والإطلاع.

... سحرني (الفارابي) يا (حمد) وهو يحاول أن يبسط فلسفته في الإلّهيات، والفيض، والنفس الإنسانية؛ كم هويت يا (أخي) أفكاره حول المدينة الفاضلة التي قال عنها وهو يفصل أسباب رغبته في وجود مثل

---

(1) أرسطو.

Twitter: @ketab_n

هكذا مكان: إن السعادة الحقيقية تفترض بلوغ الكمال وبالتالي تحصيل العلوم كلها، ولما كان هذا متعذراً في ظل مجتمع فاسد، كان لازماً تدبير (القوم) تدبيراً صالحاً، بحيث يعيشون في مدينة يقصد الاجتماع فيها، التعاون على الأشياء التي تنال بها السعادة الحقيقية.

... ماذا يمكنني أن أقول عن (الشيخ الرئيس)[1] يا (حمد) وهو يأخذني إلى عالمه الخيالي الـمُفصِل لمراتب الوجود والموجودات، التي تفيض هابطه من الأول إلى المادة؟ كتَبَ (الشيخ الرئيس) كل شروحاته الفلسفية، وعلومه الطبية، ونقولات علوم الأسبقين، وهو يشهد انحطاط خلافته العباسية، وتناهش ملوك وأمراء وسلاطين الطوائف والقصبات.. أملاكها، فلم يزيده هذا البؤس في السياسة وانعدام الأمن في ظل أنحاء عالمه الإسلامي، إلا إصراراً على قول الحقيقة التي لا يعرفها ولا يقولها الساسة عادةً.. إن رغبوها أصلاً!

من كان منهم يعرف ما في كُتب (الشفاء) و(النجاة) و(الإشارات والتنبيهات)؟ مَن الذي وقف من الساسة على طائفة رسائل (ابن سينا) وشروحاته في النفس والعقل، وهو مشغول بمحاربة الآخرين والدفاع عن مطامعه؟ بل هل كان قادة أمة الإسلام في فسحة من الزمان وهم يتقاتلون على مغانم زائلة، ليقرأوا قانون الطب عند (ابن سينا)؟..يا لضياع الأقدمين - والمتأخرين - عندما أهملوا قول (ابن سينا) هذا: "لا شك أن ههنا وجوداً، وكل وجود فإما واجب، وإما ممكن، فإن كان واجباً فقد صح وجود الواجب وهو المطلوب، وإن كان ممكناً فإنا نوضح أن الممكن ينتهي وجوده إلى واجب الوجود."

أما الإبحار مع الحياة العقلية والأدبية مع صاحب (معرة النعمان)[2]

---

(1) ابن سينا.

(2) أبو العلاء المعري.

Twitter: @ketab_n

فذلك شيءٌ آخر من الـمُتعة الفكرية والإلهام؛ لم أستطع يا (حمد) أن أُريحَ ناظريَّ، إلا بعد أن التهمتُ كل ما جاء في (سقط الزند) و(رسالة الغُفران) و(لزوم ما لا يلزم).

تشاؤم (التنوخي)، كان يستفزني للبحث عن بواعث الألم والسعادة عند مَن يخُطُّون مذاهب التفكير الإنساني، وأحسب أنني وجدتُ هذه البواعث والأسباب، لكنني لم أعرها انتباهاً وأنا أبهرُ يوماً بعد يوم بمن قال:

الخير بين الناس رسمُ دوائرٍ والشر نهجٌ والبرية مَعْلَمُ
طبع خُلقت عليه ليس بزائلٍ طول الحياة وآخرٌ مُتعلمُ

أليس حكيماً ما قاله يا (أبا راشد)؟..أو ليس عظيماً كذلك هذه أبياته التالية:

يسود الناس زيدٌ بعد عمروٍ كذاك تقلُّب الدولاتِ دولَهْ
ومن شرّ البرية رب ملكٍ يريد رعيةً أن يسجدوا لَهْ

... لم تُفتني يا (أخي) مُؤلفات (ابن رُشد).. الشارح الأكبر للفيلسوف اليوناني (أرسطو)؛ وكيف أُفوت من ترافع كثيراً في حق الإنسان أن يُفكر، وحق العالِم في اختيار منهج تفكيره وطرق الوصول للصواب والحقيقة؟ وكيف يتسنى لي إهمال كُتبٍ مثل: (فصل المقال) وهو يحوي مثل هذه العبارة التوفيقية: (إن كان فعلُ الفلسفة ليس بشيء أكثر من النظر في الموجودات، واعتبارها من جهة دلالتها على الصانع، فإن الموجودات إنما تدل على الصانع لمعرفة صنعتها، وأنه كلما كانت المعرفة بصنعتها أتم، كانت المعرفة بالصانع أتم، وكان الشرعُ قد ندب إلى اعتبار الموجودات وحثَّ على ذلك)؟

... وقبل (ابن خلدون) كان يا (أخي) التاريخ محشواً بالمغالط والمفاسد - كما قال صاحب المقدمة - وهو أقرب إلى الخرافة منه إلى الواقع، واقتصر دوره على نقل أخبار الأيام والدول، لكن (ابن خلدون)

Twitter: @ketab_n

حول يراعه إلى عِلم الحوادث البشرية، حيث أهم قواعده مبدأ السببية، وعن هذا الشأن قال: (حقيقة التاريخ أنه خبر عن الاجتماع الإنساني، الذي هو عمران العالم وما يعرض بطبيعة ذلك العمران من الأحوال.. مثل التوحش والتأنس والعصبيات، وأصناف التغلبات للبشر بعضهم على بعض، وما ينشأ في ذلك من الملك والدول ومراتبها، وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والعيش والعلوم والصنائع، وسائر ما يحدث من ذلك العمران بطبيعته). يا ليتَ أن (ابن خلدون) يا (أخي) كان حاضراً لدينا في (الدرعية) وهي تُهاجمُ وتُدمر، ليُعلمنا أن لكل ما حدث تعليلاً وتفسيراً، مُختلفين عن تلميحات البُسطاء حينها، بأنها مُجردُ حروب بين المؤمنين والكافرين!

وبين كتابٍ وكتاب ومخطوطٍ وآخر، كنتُ أراجع دائماً تلك الأقصوصة العجيبة لفيلسوف (وادي آش)[1] وطبيبها.. والمسماة (حي بن يقظان):

طفل الغابات رمزٌ أراده (ابن طفيل) أن يكون مستودعاً للحكمة التي تفيض حيويةً وابتكاراً، لتخلُص القصة (المعني) إلا أن (بطلها) الذي تدرج من عيش الغابات إلى عيش المدن، تصفح طبقات الناس فرأى كل حزب بما لديهم فرحون، وأنهم قد اتخذوا إلههم هواهم، ومعبودهم شهواتهم، وتهالكوا على جمع حطام الدنيا، وأن أكثر الناس لا تنفع فيهم الموعظة ولا تعمل فيهم الكلمة الحسنة، ولا يزدادون بالجدل إلا إصراراً. أما الحِكمة التي توصل إليها (حي) في غابته فلا سبيل للعامة إليها، ولاحظ لهم منها، لأنهم قد غمرتهم الجهالة وران على قلوبهم ما كانوا يكسبون.. هذا ما قاله (ابن طفيل) قبل سبع مئة عام من (ضيافة) الباشا لنا، فما عساه يقول لو أنه عاش في عصرنا؟

---

(1) ابن طفيل.

Twitter: @ketab_n

أما كُتب الصوفية يا أخي (حمد)، فقد تمنعتْ يداي كثيراً حتى تناولتها أخيراً.. لاحظ هذا الوراق (محمدين) الذي قال لي: (دع عنك إن أنت أردت نهل العلوم والمعارف، مواقفك السابقة من هذا العلم أو ذاك المبحث الديني أو الأدبي. بعد أن تقرأ.. أحكم على ما قرأت ودع العقل هو الفيصل بين الحق والباطل.. هذه نصيحتي لك فاقبلها أو دعها!)

رضختُ أخيراً لنصيحة (مُعلمي) وفي ذهني قبل قراءة ما كُتب عن الصوفية، تلك الأحاديث المكتوبة والتسفهية عن بدع المتصوفة وشركِها الخفي.

سلفيو الدرعية يعتقدون أن أتباع الصوفية قد غيروا وبدلوا في مفاهيم العقيدة الإسلامية الخالصة، وأنهم غالوا كثيراً في تصوراتهم الدينية، إلى حد حلول روح الله في أعلامهم ممن يتصفون - حسب زعمهم - بمقادر كبيرة من الصفاء الروحي، وهو حال كبيرهم (الحسين بن منصور) والمعروف (بالحلاج)، الذي صاح في أسواق بغداد ليعلم الناس عن الوحدة الإلّهية التي لا تتحقق ذات المرءِ إلا عبرها: (يا أهل الإسلام أغيثوني فليس يتركني ونفسي فآنس بها، وليس يأخذني من نفسي فأستريح منها وهذا دلال لا أطيقه)!! ثم أنشد يقول:

حويت بكلي كلَّ كُلّكَ يا قُدسي
تكاشفني حتى كأنك في نفسي
أقلب قلبي في سواك فلا أرى
سوى وحشتي منه وأنت به أنسي
فها أنا في حبس الحياة مُمنَّعٌ
عن الأنس فأقبضني إليك من الحبس.

الصوفية - حسب أقوال منظري الدرعية - ابتدعوا طريقاً إلى الله لا يشمل ما تعارف عليه السلف، بل عبر الوجدان الصوفي الذي قرروا أنه

Twitter: @ketab_n

الطريق الأسلم و(الوحيد) وهو الآخذ بيد المؤمنين إلى معرفة طريق الحق بعيداً عن الأحكام الشرعية والفرائض، ورداً على تلك المقولات الغريبة المشوشة للعقل الديني السلفي هاجمت دعوة الشيخ الإصلاحية ما تعتقد أنه كُفر بواح جاء ممن يدعون أنهم مسلمون، جاء ذلك عبر نقدٍ شديد وُجه إلى الطرق الصوفية عامةً من تلاميذ الشيخ (محمد بن عبد الوهاب) ومنه شخصياً، والذين قالوا: إن الصوفية شوهت تعاليم الدين، واستعانت بفلسفات الشرق والغرب لتطرح أفكارها المتأسلمة - زعماً - والمستمدة من خزعبلات الكُفار والمشركين.

(الوهابية).. كما يطلق عليها أعداؤها، صدمتها أقوال الصوفية، عن علم الظاهر الذي قال به الرسول - صلى الله عليه وسلم - وصحابته والتابعون، لأن ظاهر العلم - في رأي الصوفية - لا يوصل إلى الحقيقة المنشودة، وفي هذا كُفر مُبين.. حسب الاجتهاد السلفي! أما الولي الصوفي الذي يعتقد الـمُتصوفة بأنه قادرٌ على الوصول إلى مقام قريب من الله - لأنه يمتلك قداسةً وصفاءً أكثر من الأنبياء في بعض الأحايين - هذا الولي وفكرته وضعه الفكر السلفي في خانة الكُفر والشرك الأكبر، ولِمَ لا وأتباع الطرق الصوفية يُقدِمون النذر للأموات من الأولياء (الصالحين) ويطلبون منهم تفريج الكربات وحل المشكلات؟ وهنا - حسب الاعتقاد الـمُناقض - عَودةٌ لا شك فيها إلى الشرك الأكبر الذي ما جاء الإسلام إلا لمحاربته وهدمه، قبل الانتقال إلى بناء دولته وترسيخ مفاهيمه الأخرى!

السلفيون يظنون كذلك أنَّ من أشعل الحرب على دولتهم في الدرعية هم (الصوفية) الذين حركوا حكام الآستانة ومصر المستفيدين من أموال المتصوفة والخائفين من نفوذهم، إلى جانب القوى المتوجسة بدايةً من حركة الإصلاح الديني في نجد.

Twitter: @ketab_n

الصوفية من جانبها وكما سمعت من كثيرين في مصر لم يقصروا في تشويه سمعة (الوهابيين) وتحميل دعوتهم ما لا تُحتمل.

فهُم - أي الوهابيون كما يُطلق عليهم في مصر - كارهون للرسول - صلى الله عليه وسلم - وما توجبه محبته، بعد أن حوَّلوا العقيدة الإيمانية إلى مجرد طقوس لا حياة فيها، وأنهم يحكمون على القلوب قبل الأعمال، وحكمهم هذا جعلوه ديناً خالصاً، بعد أن كَفَّروا كل من يخالفهم في فهم الصلة بين الله والإنسان، وحتى في محاولة الوصول إلى ماهية التوحيد، التي قد تعني إفراد الله بصفات تميزه عن بقية المخلوقات، أو إفراده بالوجود الحق.

وبعيداً عن كل تلك التهويمات العقدية أو الإنشائية من الجانبين، والذي يناديني شعورٌ داخلي بالانحياز لأحدهما بحكم جذوري الفكرية، توصلت يا (أبا راشد) إلى مفهومٍ خاص - بي - عن الصوفية:

التصوف الذي يعود لغةً لفعل (تصوفَ). أي لبس الصوف، يعني - في رأيي - وبعيداً عن الاشتقاقات اللغوية: مرآة الحياة الروحية التي يرى المؤمن فيها نفسه وهو يجاهد ويروض نزعاته، عابراً نحو كشف الحقائق فوق زورقٍ قلبي صافٍ. كان هذا ديدن نبينا - صلى الله عليه وسلم - وهو يتعبد في غار حراء، وكان هذا فعل سيدنا إبراهيم - عليه السلام - وهو يحاول أن يكتشف ربه عبر الظواهر الكونية؛ هذا المنهج الكريم الذي قال عنه (ابن خلدون): (أنه في العلوم الشرعية الحادثة في الملة - إلا - أن له أصلاً في سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين من العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن زخارف الدنيا والزهد فيما يقبل عليه الجمهور، والإنفراد عن الخلق في الخلوة والعبادة، وتعبيراً عن الرغبة في إيجاد الصلة بين الخالق والمخلوق بواسطة التقوى والورع والتقشف والإعراض عن الشهوة والجاه، والانطلاق من ثمَّ إلى عالم الروح والفضيلة واتباع الهدى.)

Twitter: @ketab_n

هذا المنهج استحال بعد أن كان مرآة للحياة الروحية والإيمانية، إلى علم غريب يدعي بواطن الأمور.. كما قالت بذلك - قبل أن يستدعي أفكارها العلم الصوفي الإسلامي - أساطير وفلسفات الهند وفارس واليونان. بحيث وجدنا أحاسيس ووجدانيات وكشوفات الصوفية، تتحول إلى رموز ومجاز - ثم إلى توحد مع الذات الإلهية - وفي ذلك مخاطر شركية لا يمكن أن تُخطئها العيون.

على أنني يا (حمد) وحتى بعد أن أعطيتُ نفسي تعريفاً ووصفاً ذاتياً للتصوف والصوفية، لم أجد بُداً من الانخراط في طُرقهم لعلي أبتعد - عملياً - عن مدائح هذا الفريق لنفسه وقدح الفريق المقابل لهم، التي حفلت بها الكُتب الكثيرة. لقد أردتُ وأنا أصبح من مريديهم الفعليين بعد سنتين من (تسفيري) إلى مصر، أن تكون (صفاتي) الصوفية نوعاً من العبادة عبر مجاهدة النفس.. وإن على طريقة المريدين. لم أكن أريد يا (حمد) أبداً أن أكون علماً صوفياً أو من مجاذيبهم، ولا أن أكون مُتأولاً أو صاحب نزعة حلولية يجتمع فيها الفاني بالباقي - معاذ الله عن هذا - كما عبر عنها شعراً، وبصورة لا لبس فيها (ابن عربي) في إحدى (شطحاته) التي منها:

يا خالق الأشياء في نفسه ... أنت لما تخلقه جامع
تخلق ما لا ينتهي كونه فيك ... فأنت الضيق الواسع

... تحولت الصوفية عندي وأنا ألوذ بالخلوة المربعة (للخانقاه)[1] الصوفية القرقماسية الكائنة في شارع (الأمير كبير) بقرافة المماليك، إلى ممارسة واختيار حياة، لكن (المريد) لم يستطع إطلاقاً الوصول للنشوة الروحية التي قيل له كثيراً عنها!

حاولتُ يا (أبا راشد) ولمدة سنة كاملة وأنا أخلو بنفسي في

(1) كلمة فارسية تعني معاهد دينية مُخصصة لإيواء المنقطعين للعلم والعبادة والزهد.

Twitter: @ketab_n

الأركان المُظلمة في تلك (الخانقاه) وأمارس الإنشاد الجماعي مع المتصوفة، والمريدين، وزوار الأضرحة، أن أصل بعد أن يغتسل قلبي من الشهوات إلى مرحلة موجبة، وأن أبتعد عن كل سالب؛ وأن أجعل روحي تسبح في حرية طبيعية، مُتلذذة بالحرمان، والتسامح، والبعد عن التعصب وكره الأغنياء والوجهاء، وإعلاء شأن العامة والرعاع، فما استطعت لذلك سبيلا. كل ما خرجت به من تلك التجربة القاسية والغريبة، زيادة أخرى لهمومي وحزني، لا تقلل منها ضحكاتي على نفسي بما فعلته فيها خلال شهور التصوف.. النجدي!!

فطنتُ يا (أبا راشد) أنني قد انقطعتُ طويلاً عن عالمي الأسير في (الأزبكية) و(الموسكي)، وفي المقابل لم يعد الكبار والصغار يسأل عني ولا عن أحدٍ آخر، انشغل كل فردٍ بأمره، وتدبير رزقه، والتقرب من (الباشا) وإدارته، لعل وعسى يأتي يومٌ يُختار فيه منهم - من يكون قائماً على مقامية نجد و.. ما حولها. وإن لم يكن يحدث هذا، فتجارة مصر وإقطاعيات أرضها المُذهبة تُغني عن فتوحات جديدة لأراضي الصخر والسموم؛ أما البقية الأخرى من (الجماعة) والتي لا يتجاوز عددُها أصابع اليد الواحدة، فقد انتشرت أخبار خطط هروبهم - أو تهريبهم - من ضيافة (الباشا)، إلى حيث الأماكن القديمة التي انتزعوا منها، والمعايشة - الآن - محنة إنسانية كبرى، وقودها البشر هناك.. وجُند (الباشا) الضاجين من الحرِ، وانعدام الأمن، وضبابية الهدف، والثمن البخس الذي يدفعونه مقابل حروبٍ لا تنتهي لإزاحة أمير على قرية.. وتنصيب آخر!

شخصٌ واحد من (الجماعة) كان يسأل عني وعن كوابيسي الليلية ونزقي القديم المكتوم.. إنه والدتي - المرأة الحبشية - التي اشتقتُ فعلاً أثناء غياباتي الطويلة المستمرة عن قصور (ضيافة النساء النجديات)، إلى أصابعها الرقيقة الماسحة لكل أجزاء شعري، ومحاولتها

Twitter: @ketab_n

للتخفيف من كربي وحزني، وإلى أساطيرها الاستوائية ذات المغزى والمعاني الـمُبطنة.

... بعد أن نبا إلى علمي سؤال والدتي عني ولهفتها لرؤيتي، ذهبتُ من فوري إلى (قشلة الأزبكية) طالباً الإنفراد بها، بعد أن أمطرتني بقُبلٍ وأحضان وملامسة لكل أجزاء جسمي الظاهرة، التي تعوَّدتْ على تحسُسِها، لعلها تتأكد من أن أزمنة (الباشا) لم تأخذ من جسمي شيئاً، كما أخذت عقلي وروحي طوال شهورٍ عديدة، انقطعتُ فيها عن مشاهدة طلعة (جميلتي) الرحوم السمراء!

... انفردت بي والدتي في ركن قصي من (القصر) عقب حضها لي أن ألقي التحايا على زوجات والدي وأخواتي وبقية (المحارم).. ثم سألتني عن (أحوالي) وهي تختمُ سردَ فاصلٍ طويلٍ من أخبار النساء في (مضافة) الباشا.. عن أحوالهن، واشتباكاتهن اليومية المعبرة عن ضيقهن بحالهن، وإهمال الأزواج والأبناء والآباء لهن، زيادةً على ما سمعنه عن (إشاعات) زواج رجالهن بنساء مصر الجميلات اللعوبات؛ قالت لي والدتي أيضاً إن نساء (الأسرة) في مصر أكثر رغبةً في العودة إلى وطنهن من رجالهن، الذين وجدوا - كما يبدو - ما يشغلهم عن طلب الإمارة والتسلطن ونشر دعوات الإصلاح الديني؛ أما النساء وقد انعزلن عن الجميع فماذا يفيد بقاؤهن في مصر، وحتى لو سكنَّ القصور، ورأين الأنهار، وأُجيب طلبهن من الفاكهة ولحم طيرٍ مما يشتهيه الأحرار.. والمساجين أحياناً؟

بعد كل تلك الأخبار الـمُحبطة ذات الدلالات الحزينة، سألتني مرةً ثانية: ماذا تعمل الآن؟ وكيف قضيت كل الشهور السابقة؟ وهل تفكر في العودة إلى نجد مثل أصحاب قصائد عشق الوطن والمكانة؟ سألتني كذلك عن الهوى.. هل غزا قلبي.. ومن هي فتاتي التي لا تتمنى أن تكون (أجنبية)؟

Twitter: @ketab_n

أعطيتُ والدتي إجابات تُحب أن تسمعها الأمهات عادةً، لا شيء فيها يا (حمد) كان قاطعاً ولا ألزمتُ نفسي بشيء، ولا أفصحت عمّا قمتُ وانخرطت به في أيامي الطويلة السابقة. وعندما شاهدتُ في عينيها علامات احتجاج على مصداقيتي الضعيفة، سحبتُ يديَّ من يديها بخفة وسرعة، ثم أعقبتُ ذلك بقُبلة حارة بين عينيها، جمعتُ فيها كل حُبي لها، وأملي بأن لا تطرح أسئلة جديدة عليَّ!!

لم أعرف عمق ما جرى بيني وبين والدتي إلا بعد ساعات من جلوسي بين شجرتي صفصاف.. قبالة النهر غير العادي حضارياً وجغرافياً؛ كنت أود أن أقول لوالدتي يا (حمد) أنني في أزمة نفسية عاصفة، لم تستطع شهور قراءة الفلسفات والتاريخ والآداب، ولا حتى شهور أخرى من (التصوف) والإنشاد الصوفي الهادئ.. والعنيف، ولا حتى معرفتي المتزايدة بأحياء مصر وشوارعها، ومخالطتي لطيبي مصر وأشرارها، أن تُهدئ روعي وتضمد جروح روحي.

أنا مازلتُ حين جلست تحت شجرتي الصفصاف، أتذكر أزمنة الدرعية العصيبة، التي لاتزال تُذكرني حيناً بعد حين بأنني شريدٌ، أسيرٌ، ضائع يبحث عن نفسه ومن تكون؛ الأسئلة المصيرية الوجودية الكبرى مُرهقةٌ جداً يا (أخي).. كيف لا وإن ترافقت مع إحساسٍ داخلي يتفلت ولا يقاوم..يقول: إنني في هذه الأرض مهما قُذف بين يديَّ من قروش عثمانية لا حصر لها، ومهما تعلمت من لغات (الروم) وفهمت فلسفات المشرق والمغرب، ومهما سمعتُ من أخبار حروب (الباشا) وما يدور في الداخل المصري، فلن أقتنع بأن مكاني (هُنا). أنا غريب في هذه الأرض، أشاهد أحداثها من بعيد وفي عُزلة. وجداني يا (حمد) مهما خالطته حكايات التعاطف مع النصر المصري هنا، المتبوع بهزيمة هناك، وبعدوى مرضية فتاكة، ونقصانٍ في الأموال والأنفس تعصف عادةً بالخلق المتراصين حول النهر بعد ذلك، وجداني لايزال هناك.. في

Twitter: @ketab_n

الدرعية، وسط واديها الجاف أغلب الأعوام؛ قلبي مُرتبط بأيام الصبا، وبالمشاعر المكبوتة، وحلقات الدرس، وبأخبار المعارك النجدية، وأسماء مشاهير سلالات الخيل والإبل، وبمشاهدة الرؤوس وهي تدور في أوائل كل خريف بحثاً عن غيمة شاردة لعلها تتراكم وتمطر!

الزمن وإن طال بنا مقاماً في مصر بين من يصنعون تاريخها قادةً أو مقودين، فلن يعدو أن يكون فاصلاً من السنين أعود به إلى داخل دائرة الحيرة من جديد. أنا - وغيري من الأسرى - لسنا مصريين.. ولن نكون، ولسنا في وضعنا - آنذاك - ننتمي إلى أي أرض وعرق، سوى أننا (ضيوف) على الباشا..فقط!

... عند هذا المنحنى من التفكير (قررتُ) أنني لابد أن أكون هناك.. في نجد.. في الأرض الثائرة على غُزاتها كما هي ثائرة على نفسها وأوضاعها، لكنني لن أعود إلا بمشروع نهضوي يشابه ما يفعله (الباشا) في مصر. لا رغبة، ولا طاقة لي، ولا أمل (لبلادي) للعودة إلى حيث (كُنا) نعتقد بأننا مُصلحو الكون، خُلفاء الله على الأرض وأمناؤه.

لا رغبة ولا طاقة لي للعودة للعبة العبث في مصائرنا من جديد. ولا رغبة لي ولا طاقة للعودة لِبناء (درعية) جديدة تُهدم مرةً أخرى، متى خدعتنا قوة زائلة لا تعرف مكامن قوة الآخرين، وخطوط نفوذهم الحمراء!

... نعم وأنا الآن أمام النهر الخالد تحت أشجار الصفصاف، أحلم بدعوة إصلاحية فيها (القليل) من التجديد العقدي القديم، والأفكار الدينية المتشددة السابقة، وفيها (الكثير) من الإنهاض، والتحضر، والأخذ بيد الناس العطشى، والجوعى، والمعوزين.. في نجد خاصةً، والجزيرة العربية عامةً.

ستبقى بلادنا في عزلة وفي خوف من غزو جديد، وتحت طائلة

Twitter: @ketab_n

حماة الأخلاق والعقيدة، الذين لا يقرون باختلاف المفاهيم وطرق نشر الدعوة المختلفة، إن هي كررت - تحت حكمي المفترض - نفس ما كانت عليه الأوضاع أيام الإخوان والآباء والأجداد، عليَّ أن أهيئ نفسي - من الآن - لعودةٍ ولا كل العودات، ومشروع حضارة ونهضة ولا كل المشاريع.. متى وكيف تكون تلك العودة وذاك المشروع؟ لا أعرف، ولكنه سيتحقق بالتأكيد، ولن أكون أبداً نسخةً من بعض الأهل والإخوان المستعجلين العودة إلى حيث كان الموت وباقات الأحلام الـخُلب، ولن أكون أيضاً نسخةً من بعض الأهل والإخوان ممن استطابوا البقاء في مصر النهر والقناطر والأرض ذات الزرع والمقام الكريم. لا.. لا! لن أكون مثل هؤلاء وهؤلاء.. سأكون نسيجاً وحدي، مُتطلعاً للغد المشرق الـمُبهر.. لكن مرةً أخرى متى وكيف؟ ستُجيب على ذلك الأزمنة القادمة وتقارير (بصاصين) الباشا، الذين أشعر أنهم يتبعون خطاي في تلك الأيام، ويقرأون أفكاري، ويستعلمون من مُخالطيَّ عن أقوالي، وما تخرجه - بغير قصد - الأركان المظلمة في داخلي.

كنت أشعر يا (أبا راشد) بأن عيون (الباشا) وهي تراقبني، قد ملت من الآخرين قليلي الحيلة ضُعفاء الهمة في دائرتي الأسرية، وأنها تيقنت - بل وقررت - تهريب الـمُزعجين الثائرين منهم، لعلهم وهم يتقمصون روح الحياة المصرية، يُريحون عبر طاعة مُعلنة - عقب عودتهم كحاكمين لبلادهم - جُند (الباشا) في الجزيرة، من متاعب ومخاطر وتكاليف الإشراف اليومي على السلم الداخلي هناك، والذي لا يبدو أن استقراره سيتحقق في المنظور القريب.

وحتى تحين مواعيد القدر معي، والذي أشعر أنه اختار لي (شيئاً) عظيماً قد يكون مُفرحاً.. أو مُبكياً.. أكثر من بكائيات رحلة التغريب نفسها، حتى يحين ذاك الموعد، عليَّ أن أرجِعَ إلى قراءات الفلسفة والتاريخ و(شيئاً) من التصوف، وعليَّ أن استعد - مع آخرين مُنتخبين -

Twitter: @ketab_n

للسفر السياحي الذي بلغنا من قِبل أحد مساعدي (الباشا) المدعو (حماد عبد العاطي باشا)، أن علينا الاستعداد له ولرؤية الآستانة.. عاصمة الخلافة العثمانية، وعليَّ قبل ذلك وأهم من كل شيء أن أُذيق نفسي عاجلاً بعضاً من نقائض حرمان التشدد الحقيقي القديم، وأخيه التزمُّت المصطنع الجديد.

... أتريد يا (حمد) أن تعرف ماذا أقصد بكلمتي (التذوق) و..الحرمان؟ سأُجيب وأنا خجِلٌ منك جداً، لكنني أقسمتُ أن أصارحكَ بما حدث معي.. حتى لو كان ثمن هذا إحمرار وجه مكاتبك الآن، وتعرق يديه وكل جسده:

... عرفتُ أول (اللذات) عندما تعرفت جيداً على خارطة جسدي التي دلتني على تضاريسها.. فتاتي اللعوب!

رأيتها وأنا ابن واحدٍ وعشرين عاماً في حي (باب الشعرية) الذي يمثل أحد أضلاع مثلث.. الموسكي..والأزبكية.. وذاك الحي.

هي ابنة عطار مشهور هناك، رآتني وأنا أخرج من مقهى شعبي في حينها، لتتلاقى عيوننا.. فتكلمتا بدون أن تنطق شفاهنا بكلمة، ثم تعددت (صُدفة) اللقاءات، إلى أن قررت أن أواجهها بما في قلبي من لواعج عشقٍ شكَّله صقيع الغربة، والحرمان، والواقع المرير.

... بعد خلوات (بريئة) معها ومعرفتها من أكون، ومعرفتي بمن تكون هي وبِمَ تُفكر، فاتحتها بـ(حبي) الذي لا أعرف معناه إلا أنني لم أعد أستطيع أن (أُمرر) يوماً إلا وتحدثت معها عن كل شيء.. ببراءة!

سحرتني (زينب) بغنجها وأنوثتها الطاغية، وطلاوة حديثها، وأظن أن ما أعجبها في أكثر، هو مخالفة (شكلي) وطباعي لكل ما حولها من رسوم الناس وأخلاقهم؛ ولا أنسى يا (حمد) لحظات ضحك (ست البنات) من مزيج كلامي.. النجدي المصري، عندها وبعد أن تُفطن لحرجي وضيقي، تروح تُقبلني على وجنتي.. وأحياناً على شفتي و..

Twitter: @ketab_n

... ثم تمر الأيام إلى أن يقع (المحظور) بين أخصاص البوص الكثيفة في حي الزمالك القصي الـمُنعزل.

... وأنا بين يدي فتاتي التي لم أكن الرجل الوحيد في حياتها.. كما صرحت لي بذلك في إحدى نزوات العشق الملتهب. نسيتُ أخبار (تركي بن عبد الله) في نجد ومحاولاته لتأسيس دولة سعودية جديدة، ونسيتُ الأخبار الموسعة لحروب (الباشا) في السودان، وغاب عني نقصان النيل وفيضانه، وتذمرات العامة من غلو أثمان البضائع والمأكولات؛ لم تعد تعنيني أعمال العمران في مصر وحالتها الاقتصادية والصناعية، هربت مني ملكة استحضار أسماء سلاطين بني عثمان (وصدورهم) العظام، لم يعد يحضرني وأنا في أحضان (فتاتي) نمائم الأسرة - الأسيرة - وخلافاتها السطحية، ولا حتى ازدراءات (فيصل بن تركي) لهم وثورياته، ولا منبع الأساطير الحبشية التي تُحبني، حتى لو غبت عن ناظريها - قاصداً - شهوراً عديدة.

لكنني عرفتُ يا (حمد) في الوقت نفسه أن ما كان بيني وبين (زينب) ليس حُباً بل رغبة جسدية ليس إلا، عندما تكررت لقاءاتي الجسدية العابرة الأخرى مع فتيات تركيات، و(مشركات أجنبيات) أردن اختبار نقاء السلفية النجدية!

وفي كل مرة تهبط غرائزي، وتتناسى ذاكرتي كل ما قرأته قبل مدة عن التطهر، والزهد، والتبتل، وعشق التجريدات، آخذُ نفسي إلى (الجامع الأزهر) لأصلي واضعاً وجهي وخدي على الثرى باكياً. طالباً العفو من صاحب الرحمة والغفران.. على ما قدمت من ذنوبٍ عظيمة، مُعاهداً الخالق بأنها المرة الأخيرة من (الخطيئة)، وأن مُتعة ما قبل الصلاة، هي آخر مرة لِزلل عبدهُ وشنيع صنيعه.. لكن المرة الأخيرة التي وعدتُ ربي بأن تكون هي نهاية الآثام.. تبِعها سقوطٌ آخر - للأسف - لتعود رحلة الـمُتعة الآثمة من جديد ونسيان العهود.. وما حولي. إلى

Twitter: @ketab_n

أن جاء (ذاك) اليوم الذي أغرقتُ نفسي في فاصلٍ - مُعتاد - من البكاء، والاستغفار، وطلب الصفح من الرحمن الرحيم؛ بعد أن نطقتُ يا أخي (حمد) بآخر جملة من ذلكم الفاصل الذي حفظتُ جُمله، متبوعاً - في تلك المرة فقط - بدعاء تثبيت القلوب وكشف ضُرّ الانجذاب وغمه، وُضعتْ كفٌ عريضة على كتفي الأيمن، لألتفت صوب صاحب الكف المنتصب القامة بجواري الذي بادرني بقوله: يا أفندي (خالد).. (الباشا) في انتظـارك!

... في قصره بشبرا رأيتُ (الوالي) الـمُهيب لمدة ربع ساعة فقط، أخذني له كبير (بصاصيه) الذي كان يرفع له تقارير عن قراءاتي وسلوكي ومشاويري.. وحتى ما كنت أفكر فيه تحت أشجار الصفصاف!

هو كما وُصف لي: متوسط القامة، عالي الجبهة يبدو أنه أصلع الرأس، لأن العمامة التركية التي كانت تغطي الجزء الأكبر من رأسه كانت تنسحب إلى الخلف فيبدو هذا الصلع واضحاً. كان قوس حاجبيه بارزاً، وكانت عيناه ممتلئتين سواداً حتى لكأن البياض غير موجود فيهما، صغير الفم، كبير الأنف، متناسب الملامح العامة، له لحية بيضاء.. كثيفة مع استدارة، منتصب القامة، سريع الحركة وهو يخطو نحو مقعده، الذي توسط قاعة الاستقبالات الصغرى في قصر شبرا.

ملابسه خليط من التركية والمملوكية، وفي إحدى يديه علبة صغيرة عبارة عن (سعوط)، وفي اليد الأخرى استرخت مسبحة حمراء طويلة.

... تقدمتُ منه إلى حد الملاصقة لإظهار طقوس السلام وإلقاء التحايا المبالغ بها عند مقابلة الولاة الكبار.. من أمثاله، ثم دعاني للجلوس بعد كرسيين من المقعد الذي جلس عليه أحد أعوانه المدعو (حسن أغا أزرجانلي).. ليقول بلغة عربية غير فصيحة بالمرة، وتدعو للضحك.. الداخلي:

Twitter: @ketab_n

((. . .لقد اصطفيتك يا (أفندي) خالد أنت وبعضاً من أهلك لأدوارٍ عظيمة، تقومون بها مستقبلاً في أوطانكم، تُثبِتون من خلالها أنكم تعلمتم دروس الماضي، التي لا تترك للولايات التابعة للدولة العلية أو (لنا) أن تُقرر مصيرها بنفسها. . عوضاً عن تقرير مصائر المتصرفيات الأخرى ممن تستطيع الولايات المزهوة بقوتها - الطارئة - هزيمتها واقتحام أراضيها؛ لن نكون مُجاهرين في المستقبل بتواجد جُندنا في أراضيكم النجدية، إن (أحسنتم) التصرف كعائلة كانت بيدها مقاليد الأمور هناك. . و(الإحسان) المقصود هنا، هو إعلان ولائكم (لنا)، ولكم بعد هذا إدارة شؤونكم كما ترغبون، ولقد أوصيت (كتخدا باشا) في الديوان العالي بالقلعة، بالتنسيق مع من - اصطفيناهم - لتدارس كيفية إتمام ما نوينا فعله سوياً، على أن تفهموا أن ذلك لن يتم قبل مضي مدة ليست قصيرة من الزمن، يتم فيها إعداد بعضكم - كحاكمين - عُقلاء متفهمين لمصالحكم الشخصية، كما هي مصالحنا (هنا) التي من أهم معالمها إنفاذ الطاعة في الرعية. كما أُحبُ أن أزف - إليكم - بُشرى زيارتكم المتعددة لقصور الباب العالي في إسطنبول، حتى تنظر (مكاتب) الصدر الأعظم في (الاستعدادات) الشخصية، لمن تم اختيارهم - من قِبلي - لأصعب المهام وأخطرها في قلب جزيرة العرب، وحتى تتأكد (الدولة) السنية - أدام الله ظلها - بأننا في مصر لا نُضيع وقتاً ولا جهداً فيه مصلحتها ومصلحة ولاياتها ورعاياها إلا وعملنا في اتجاهه مُتلمسين الخير والمنفعة للجميع. وأنني أُبشرك يا (أفندي خالد) وحسب - ما رفع من تقارير لحضرتي - بحصول (نجابتك) التي أتوسَّمُها فيك، على أرفع المناصب. . لعلَّ منها قائمقامية الديوان الموصلة بالتأكيد. . لقائمقامية نجد. . فلا تُخيب ظني فيك))!

. . . بعد أن خرجت من قصر شبرا يا (أبا راشد) لم أعرف إلى أين أتجه بعدها، هل أهرول إلى (الأسرة) لأزف لها بُشرى مقابلتي

Twitter: @ketab_n

للوالي ونص حديثه، أم أترك الوالي يُعلم من (اصطفاهم) غيري بتبليغ الرسالة؟!

مِلْتُ للاختيار الثاني.. وعملتُ به، وتركت للوالي و(بصاصيه) و(كتخدياته) أمر إبلاغ (الرسالة) لأصحابها، وتفرغتُ أنا إلى ما يرفع شأني في عين الوالي، ويحقق ما توقعه (الداهية) لمستقبلي الذي كان في علم الغيب حينها.. وياليته ما كُشف لي!

أمرٌ آخر - وأهم - وجدتُ فيه الخير كُله بعد تلك المقابلة: لقد أقلعت منذ يوم لقاء الخامس من محرم سنة 1238هـ[1] من فعل (الخطايا والآثام). لقد وسط الله (الباشا) ومهماته التي قرر إناطتها (بمحبكم)، بيني وبين أحضان فتيات الـمُتعة والهوى.. لبئسَ ما كُنت أعمل.. وإن كان شهياً!

ملاحظة لابد من ذكرها:

زادت حالتي المادية سوءاً، ولا أقول هذا لإثارة حمية العطاء عندك - وإن كنتَ أهلاً لها - لأنني والابن (مشاري) نعرف أن حالتكم في (الرياض) لا تسرُ، وأنها مُشابهة، إن لم تكن أكثر ضيقاً في ذات اليد.. منا!

... أقول: زادت مأسوية حالتنا المادية يا (أخي) لأن المساعدات التي كانت تأتينا من الآستانة بتوصية من خُلفاء (الباشا)، توقفت تماماً ولهذا فقد ذهبت إلى الحرم.. طالباً كشف الـغُمة، ولائذاً برب الكعبة المشرفة من شر العوز والفقر، لكن ما حدث - واستغفر الله من الذنب - كان مُعاكساً لـمُناشدتنا للرب السميع العليم:

لقد سُرقت بقية المال التي خبأتها في جيب ثوبي الأيسر.. قاتل الله السارق، ألـمْ يجد غيري ليسرقه؟ أتركَ - الخبيثُ - الأغنياء

---

(1) الموافق للنصف الثاني من سبتمبر / ايلول 1822م.

Twitter: @ketab_n

والموسرين، ليأتي للغريب اللاجئ، خاطفاً آخر قروش يمكن أن تشتري دواءً لأُذن شيخ يعُدُ أيامه الأخيرة، أو طعاماً يسد رمق شابٍ هو أقرب للهزال والعلة، منهُ للصحة والعافية؟!

هذه مشيئة الله يا (أبا راشد) وما شاء فعل. ولو رأيت ما حدث بعد ذلك لكدركَ الأمر أكثر:

جلسنا عند الصفا أنا و(مشاري) مذهولين مما حدث، وقد لاحظ بعض المعتمرين حال الشقاء الذي كُنا فيه، ففسر الأمر بغير حقيقته، لذا رمى هذا البعض بعض الدراهم بين أيدينا التي تشكلت حركتها حسب ما تقتضيه حالة الصدمة، بحيث ظن الـمُشفقون أننا (نشحذ) من الأخيار عطاءً عابراً.. ألا قاتل الله الفقر والحاجة وذُل السؤال؟!

كُتبتْ هذه الرسالة الـمُطولة في اليوم الأخير من شعبان سنة 1277هـ. كتبها أخوكم الـمُشتاق لرؤيتكم.

(خالد السعود)

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الرسالة السادسة

خيبـــات

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

كل شيء لي، وكل شيء سأستعيده
كل شيء سيستعيدني بعـد قليـل
الشجر
الغيوم
والأرض التي أطؤها
وسأمضي وحيداً بعد ذلك.. بلا أثر

(بار لاجيركفيست)

ساعة واحدة فقط، هي كل الوقت المتبقي الذي يمتلكه رئيس الدرك ونائبه، لإنهاء قراءة آخر رسالتين (للأفندي خالد) قبل أن يرفع أذان صلاة عصر يوم وفاة الرجل النجدي، الذي ظنا أن مراقبته التي أوكل شريف مكة مهمتها إليهما كانت عبئاً على الجميع، إلى أن أكملا قراءة الرسالة الخامسة، حينها تبين للرجلين أن (الأفندي) لم يكن بهذه الخفة والسذاجة، اللتين قطعا في السابق، بأن رؤساءهما في مكة وجدة قد غابت فطنتهم عن إدراكهما، في شخصية الذي ظلَ رجال الدرك يرفعون التقرير وراء التقرير لمرؤسيهم مؤكدين فيها، أن (المراقب) يرزح تحت وطأتهما، وأن لا شيء يبرر كل تلك الكثافة التتبُعية الأمنية للرجل ولسلوكه!

لقد أبحر الرجلان مع (الأفندي) ورسائله في عُباب التاريخ الذي صنع وسيصنع كل تلك التقاطعات في حياة أبناء الطين، وهما على استعداد لقضاء ساعات طويلة أخرى من القراءة، لو أن بحوزتهما - إلى جانب الوقت - مزيداً من الرسائل، عدا الرسالتين الأخيرتين الباقيتين، لعل ذلك سيحمل لهما كثيراً من إجابات الأسئلة، التي طرحها (بطل) ساعات القراءة الماضية على نفسه، وعلى طيف صداقة قديمة في الرياض:

Twitter: @ketab_n

بسم الله الرحمن الرحيم

*أخي (حمد بن محيمل):

سلام عليكم من الله ورحمة وبركات لا تُحصى

عساكم بخير.. والأهل بصحة وعافية.. آمل هذا من العزيز القدير..

أخي المبجل: يُصاب عادةً المسافر براً وبحراً بحالة من عدم الاتزان والتوافق مع المكان والزمان عندما يصل إلى وجهته الجديدة: يضطرب نومه.. تتلبك أمعاؤه.. يعاوده الحنين كثيراً للأماكن التي سافر منها، إلى حد التفكير الـمُفعل بأن يترك كل شيء جاء من أجله - فقط - ليهنأ بساعة في حمى القديم البعيد؛ وقد تصل حالة الشعور بالفراغ الكامل لديه إلى حد طرح أسئلة لم يكن من الـمُعتقد طرحها من قبل، وأشواق السفر والترحال من أجل المقاصد والأهداف التي قيل له إنها عظيمة، تحجب فوهات اشتياقه إلى الموطن والجذور. وكلما ازدادت محطات السفر وموانيه، وتعمقت وطأة الرغبات بتحقيق الأحلام العراض، التي كانت بسببها أصلاً السفر والترحال، زادت في المقابل مشاعر الفراغ واللا توازن وتأنيب النفس، التي أغرت بالشتات، ودفعت المسافر إلى أتون صعاب الدنيا ومستحيلاتها!

حالتي يا (أبا راشد) تشابه حالة هؤلاء المسافرين: فبين طورٍ من العمر لم يتواءم مع محيطه الاجتماعي والفكري، الـمُعقب لحقبة المنفى، والبحث عن الهوية والمعنى؛ وبين طورٍ آخر شكلني وكأنني مُنقذ وحيد لبلادي و(محتلها) من ورطتهما المشتركة؛ بين كل تلك المراحل عاش (أخوكم) الذي لا يكاد يقترب مما ظنه الخلاص واستجلاء حقائق ما حوله، حتى يُدفع به إلى محطة سفر جديدة، فيها

Twitter: @ketab_n

من اغتراب الأرواح، مثلما فيها من الحراك الموجع للأجساد والهيئات..

بعد مرور أيام من مقابلتي لوالي مصر في قصره بشبرا، راحت السكرة وجاءت الفكرة؛ أفقتُ يا (أخي) على حقيقة أنني في الطريق إلى الدخول إلى عالم الغرائب والمغامرات، وأنني قريب جداً من تمنطق المسؤوليات والعزائم الكبار، التي - قد - يصفها البعض بأنها أم البطولات وخلاصة نكران الذات - وقد - يصفها آخرون بأنها مجرد تمرير مستتر لأهداف ومبتغيات الأجنبي المحتل، عبر واجهة إنقاذ الداخل!

... الغرابة كل الغرابة إنني يا أخي (حمد) لم أشعر ألبتة وأنا أقف بين يدي والي مصر ومحتل بلادي في جزيرة العرب، بتلك الغصة، ولا بتلك الوخزات من شوك الحقد التي تداهم عادةً من يرى عياناً قاتل أهله وأحبابه.. أتدري لماذا؟ لأن الضغائن تأخذ مقداراً كبيراً من طاقة الراغب في إعادة كتابة التاريخ، وإصلاح ما أفسدته يد الزمان ذات المخالب المسمومة.

العدو في المقابل يسره كثيراً حينما يبدد خصمه وقته وانفعالاته وكل قواه في صناعة المكائد الصغيرة التي قد تؤذي، لكنها لا تُشفي غل الانتقام والاقتصاص.. أمرٌ آخر: في اعتقادي أيها (الصديق) أن أشكال الانتقام تختلف باختلاف مكونات شخصيات المنتقمين. هناك إنسان يغرس سيفه في قلب خصمه اللدود معتقداً أن كل شيء قد انتهى، وهناك مَن يحاول معرفة مكامن قوة الخصم لينقض عليه فاتكاً - لا - عبر الطرق التي عبدتها للبشرية قصة الأخوين هابيل وقابيل، بل من خلال ابتكارات مناجزة غير تقليدية، تُعري الـمُتربص به من وسائل ومكامن قوته وعنفوانه.. ثم يُترك الخيار للمنتقم بعد ذلك!..المهم، أن يكون خياره الأول إصلاح ما أفسدته معارك العداء السابقة، وتوابعها التي لا

Twitter: @ketab_n

تقل عنها سوءاً، ويزداد هذا الخيار أهميةً عندما لا تكون الإطارات المتحكمة بمعارك الحياة مُشخصنة، بل أوسع من هذا وأشمل لتصل إلى مستويات الأمم والمجتمعات، عندها لابد أن تكون - أيها المنتقم - حصيفاً وحذراً وإلا لخسرت الانتقام الذكي، كما ستخسر رفعة من تُريد الانتقام لهم.. في حال بقي هناك سؤدد ورفعة عند من ظل حياً وهو فزع.

(الباشا) قتل بصورة مباشرة وغير مباشرة لفيفاً من الأهل والصحب.. هذا صحيح! (الباشا) دمر أحلام الحالمين بدولة الإسلام السلفي الواسعة، والمجددة لعهود النبوة والخلافة، والشخص نفسه جعل عاصمة هذه الدولة الحلم أنقاضاً ينعق في أرجائها البوم، ويسرح في طرقاتها الوحش.. لا شك في هذا! أصبحنا بعد غزوته غير المباركة من أهل الشتات الذين انضموا لمن كان قبلهم من أعلام التاريخ الخاسرين المهزومين.. الشواهد لا تنفي هذا.. بل تؤكده! لكن هذه المبررات لصناعة انتقام فردي انفعالي، لا تكفي لإخراج جيش الغزاة من أرضنا المحتلة، ولن تُعيد طوابير (ضيوف) الوالي في مصر إلى بلدانهم وهم أحرار من ضيافته الإجبارية. الذي يخرج الغازي هو الأسلوب نفسه الذي أخرج فيما مضى الترك (فعلياً) من مصر، وأبقى فقط أدعية خطب الجمعة لهم كترضية لمن تهاوى حكمه وسلطانه. يجب أن تقوى مناعة الأجساد المراد تحريرها من الأمراض أولاً، حتى يسهل بالتالي إخراج إنتان السقم من الجسد العليل، حتى لو تأخر الإبلال قليلاً، وحتى لو تشكلت العدوى في أشكال مرضية لا يعرفها المعالج قبل النتيجة الحتمية: الانتصار بدون كي ولا حجامة، وبلا مزيد من تمائم الراقين والمعالجين.

كان حريٌ بي أن أُزيح مشاعر حقدي وضغينتي - وقد فعلت - على (مضيفنا) الألباني جانباً، لأُفرغ عواطفي وما أملك من جهد، لإعادة

Twitter: @ketab_n

جزءٍ من عزة البيت السعودي الموحد، ولأبقي جذوة الأمل بإنشاء دولة الحلم السابقة.. وإن بمواصفات وأشكال جديدة. لأن البديل عن تلك الإزاحة، سيكون سنوات أخرى من التيه النفسي والعقلي، والتنقل بين دكاكين الوراقين والعطارين في مصر!

وهنا لا يمكنني أن أتغافل عن خصلتي الذكاء والفطنة اللتين عهدتهما في (أبي راشد) وهو يهم بطرح سؤال على أخيه، كان لزاماً على من كان دائماً يحمل بين جوانبه أثقال قلق المعرفة.. طرحها:

أيستطيع على مَن كان مثل (خالد) تحمل مشاق المسؤوليات الكبرى التي نوى (الباشا) وضعها على كتفيه الواهنين؟

اسمح لي أن أجيب بدلاً عنك:

لم يعتمد (الباشا) على قراءة ما في دواخل العيون وتحليل معانيها فقط، مع ما في ذلك من صعوبة مرهقة إلا على قليلين من أصحاب الفراسة مثله، ولم يكتفِ بما يرفعه له عادةً (بصاصينه) الأكثر ذكاءً من مخبري هذه الأيام عن سلوكيات الـمُتتبع؛ بدلاً من كل ذلك الذي سبق، أمضى (الوالي) في نفسه قراراً بأن يكون رجل الساعة السعودي المقبل شبيهاً بنصف (محمد علي).. لأنه لا أحد يشبه هذا الرجل بالكامل! صاحب المهمة العسيرة في نجد والجزيرة، من المفترض أن يكون صاحب مشروع نهضوي مُشابه لما أنجزه من قبل (محمد علي)..وهذه الرغبة تلمسها (الوالي) في مُكاتبكم.. بلا شك!

... أقبلتَ العرض يا (خالد)؟!

أقسمت عليك يا (صاحبي) أن تصدقني القول: ألم يمرُر على خاطرك مثل هذا السؤال الاستنكاري وأنت تقرأ أسطري السابقة؟..أكاد أسمعك تقول: نعم!

معك ألف حق في هذا السؤال يا (أخي)، لكن أسمع ما أريد أن

Twitter: @ketab_n

أوضحه لك ولكل الحيارى غيرك، ممن أَشْكَلَ عليهم فهم تاريخ بلادي آنذاك:

ما الضير عليَّ أن أوافق على (عرض الباشا) الذي أنا متأكد أنني الوحيد المعني به، ولا أحد في الأسرة يمكن أن تنطبق عليه شروط (الباشا) وتطلعاته.. سواي، وأن الآخر - أيُ آخر - من أسرتي قد يُضم في خلال فترة الإعداد إلى مجموعات مختارة لدخول مغارة المفاجآت ليس إلا شكلاً من أشكال التمويه على (الإمام)، الذي شاء سعده - أو سوء حظه - أن يُنتدب إلى حيث غوامض المهام في قِفار الجزيرة وجبالها الجرداء..

أعيد القول: ما الضير عليّ ألا أتردد في الموافقة على عرض (الباشا)، مهما أطلق الناعتون على مثل هذه الموافقة وما سيتلوها من أفعال وسلوكيات.. من نعوت، إن كانت النتيجة المفترضة والنهائية هي تحرير بلادي من جبروت الاحتلال وفظائعه؟! ويا للفخر إن تواكب هذا التحرير مع نهضة حضارية في بلادي، التي عانت كثيراً من سماع صليل السيوف ورؤية لمعانها المعدني المشوب بالحمرة. أكُتب على أمتنا في الجزيرة أن تحمل عبء نشر الرسالات، وعبئاً متبوعاً آخر لا يقل ثقلاً عن الأول ألا وهو: إحياء ما ظن أنه اندثارٌ لقسم كبير من الدين؟ أكُتب على هذه المواطن أن تكون مصدراً دائماً للعنفوان الديني، بدلاً من أن تكون مصدراً للهداية المستنيرة، مضافاً إليها ذلك النوع الهجين من الرقي الممزوج بهيبة الدين وخفاره؟!

... نعم أنا لم أتردد ولم أكن لأتردد حتى لو عاد بي الزمن القهقرى مرات ومرات، نظراً لأنني كنت أعتقد - ولا أزال - أن أمتي وبلادي في حاجة حينها - ولا تزال - إلى قيادة نوعية، تدعمُ إرث الأجداد السياسي والديني، بمشروع آخر تقوم به لإنهاض شعوبها من عثرات الفقر والعزلة والتخلف الحضاري.

Twitter: @ketab_n

... نعم أنا أعرف أنَّ حُكمَ التاريخ على أقوالي هذه وما سبقها من اجتهادات على الأرض، سيكون خليطاً من الظلم والجحود وسوء الظن، ولكم يؤلمني هذا جداً، بل أنني أدفع أثمان هذه الأحكام في وقتنا الراهن، لكنني بالرغم من هذا لست نادماً على ما فعلت، فالتجربة (إياها) تستحق بالفعل هذه الأثمان، لأن كل أمة لا تصل إلى مشارف رُقيها إلا عبر سلالم من أحلام كثيرين من بنيها، وليست أمتي ولست أنا بعيدين عن هذا المثال.. أليس كذلك؟

تبقى حقيقة الحقائق في هذا الأمر وكل أمر: لا يتحكم في مصائر الناس مخطط يضعه (زيدٌ) أو (عمرو)، ولا رغبة متلهف حالم، النتائج والأسطر الأخيرة في كتاب الحياة تكتبها يد القدر التي لا يُعلى عليها.. ولها الكلمة الأولى والأخيرة!

... اختار (الباشا) وأعوانه أربعة من الأسرة التي (كانت) حاكمة كأمراء منتخبين من ضمن عشرات من أمثالهم، أُبعدوا من دائرة الاصطفاء لهذا السبب أو ذاك. أنا يا (أبا راشد) مُكملٌ لهؤلاء: الأخ (حسن بن سعود)، و(محمد بن تركي بن عبد الله بن سعود) و(محمد بن ناصر بن سعود بن إبراهيم بن فرحان). بعض هؤلاء في مثل عمري، وبعضهم أكبر مني قليلاً. ولم يكن التفاوت العمري مقصوداً بذاته عند الاختيار، بقدر ما كان التفاوت في القدرات والاستعدادات الفطرية لمثل هذه المهام، هو شاغل واضعي خطط الإمامة السعودية.. الجديدة.

أنا - وأعوذ بالله من هذه الكلمة - لم أكن في وارد الدخول مع الإخوة وأبناء العمومة في منافسة لتزعم قائمة (المصطفين)، لثقتي في نفسي أولاً، ولضعف المنافسين - المقصود - ثانياً، ولشيء يشدك إلى قدرك الذي لا تعرف ما يكون.. ثالثاً وأخيراً!

الإعداد...؟!

... نعم أتذكر كيف ومتى تم إعداد (الفريق) الذي تناقص حتى

Twitter: @ketab_n

أصبح واحداً، للقيام بما هو واجب عليه لإتمام صفقة الربح المشترك، المنضوية تحتها آمال عُراض مستترة، إلى أن يحين الموعد المناسب ليكشف كل طرف بعدها عن دفين مشاريعه.. ما لم تأكلها بلاعيم الأيام وثقوب الواقع والمتغيرات، ألم تتحطم - مثلاً - روح (الباشا) في آخر أيامه بعد أن تبعثرت الأحلام وقالت الوقائع والمتغيرات كلمتها الفصل؟

بدأت التحضيرات الأولى بعد سنواتٍ أربع من وصولنا إلى مصر كـ(ضيوف) على (الباشا)، وأول كلمات تلقيناها - كمتدربين - قالها لنا الموكلون بإيصال أفكار وتجارب (محمد علي) وهي الكلمات نفسها التي قيلت بعد ذلك وإن بشكل مغاير في اللفظ، عندما كان (الباشا) يودع أبناءه وأحفاده سنة 1264هـ[1]، وكأن تلك الجمل الوداعية كانت دستوراً قديماً غير مكتوب للدولة المصرية الحديثة: (أبناء الأمم التي تمتاز بالقوة والمدنية لم يصلوا إلى مكانتهم الحالية عفواً، بل اجتازوا فترات الانحطاط والانكسار في بادئ الأمر، ثم ظهر بينهم أفراد نابهون جعلوا همهم بث حب الوطن بين إخوانهم، فتكاتف الجميع على رفع شأنه فتقدمت بلادهم، بينما نحن في المشرق غافلون عما يتطلبه حب الوطن من إقدام واهتمام وإخلاص، ولهذا تأخرنا عن غيرنا من الأمم، لقد سمعتم أو رأيتم ما صنعته الأمم الأخرى لتصل إلى ما هي عليه من مجد ورفعة شأن، فعلى الذين اتصل بسمعهم أو شاهدوا بأبصارهم شيئاً من هذا أن يرددوه، أو يصوروه أو يقفوا عليه من لم يسعده الحظ بالسماع أو الرؤية، وبهذا يسهل تحقيق الآمال في زمن يسير، عليكم برعاية حق المصالح العامة التي تُوكل إليكم فلا تضيعوا مصلحة عامة في سبيل مرضاة كبير تخشى سلطته، أو صغير ترجى مودته).

قالَ تلك العبارات التي كانت تعاد في مصر كل يوم أبان تلك

---

(1) الموافق لعام 1847م.

Twitter: @ketab_n

الحقبة - وحتى بعد ذلك - فطاحل الحرب والسياسة من مساعدي (الباشا) وخُلصائه؛ وبالطبع لم تُقل تلك الجمل تباهياً واستعراضاً، بل لإعدادنا النفسي للأهم والأبرز فيما بعد، ولشحن هممنا التي كانت تحتاج بالفعل لتلك الملهمات من الأقوال. الكلمات المختارة قالها مثلاً مع بعض التعديلات الشكلية التي صنعها ضعف الذاكرة عندي: (مصطفى مختار بك) مدير ديوان المدارس والمبتعث إلى فرنسا في السنوات الأولى لمجد (محمد علي)، (مصطفى بك) هذا ساهم بقوة في الحرب السورية الأولى عندما كان يتقلد رتبة أركان حرب (إبراهيم باشا)، ثم ياوراً خاصاً له، وبعد الحرب عُين (معلمنا) الأول مديراً لإدارة (ديوان المدارس) الذي يعادل رتبة وزير المعارف في الدول الأخرى.

ومن الشارحين الكبار لفكر (الباشا) وتطلعاته للنجديين حاملي لواء التحضر والتمدن (المفترض) لبلدانهم المضطربة: (حماد عبد العاطي باشا) الذي درس في فرنسا فن الاستحكامات والفنون الحربية ليعود بعد ذلك إلى بلاده حاملاً رتبة (الأميرلاي) وبعد ذلك درجة المستشارية.

... ومن بين أساتذتنا في الحقل السياسي (أسطفان بك) والذي كان من تلاميذ البعثة الأولى، ثم عُين مديراً للمدرسة المصرية التي أُنشئت للإشراف على البعثة العلمية الخامسة في باريس، وقد قيل لنا إن (الباشا) كان يفكر في تعيينه مشرفاً عاماً على الشؤون الخارجية للبلاد المصرية، وهو الأمر الذي تحقق فيما بعد.

من السياسيين أيضاً الذين أوكل لهم والي مصر مهمة تثقيفنا سياسياً: (البك آرتين) الذي عاد من فرنسا بعد أن أتم دراسته في الحقوق والإدارة الملكية، ولعلم أخي (حمد) فالمُعلِم المذكور كان مُنسقاً بين (إبراهيم باشا) ووالده، وبين وكلاء الدول الأجنبية في مصر أبان الحرب السورية الثانية، أما بعد ذلك فقد تولى (آرتين) وزارتي التجارة والخارجية في مصر وذلك في شكل تعاقبي.

Twitter: @ketab_n

كل تلك النخب كوّنها (الباشا) كخلية تعليمية لها رأسان: حربي وسياسي، وعبرها كان يتم (إعدادنا) من خلال محاضراتهم وتدريباتهم لمواجهة ما سوف ينتظرُنا - أو ينتظرني بالأحرى - في سنوات لاحقة لتلك الدروس العظيمة!

انتقل الفريق التعليمي النجدي حيثما انتقل المحاضرون والمدربون في كل أرجاء القطر المصري.. على السواحل.. وبالقرب من ضفاف الوادي المهيب.. أو على رؤوس الجبال المبنية عليها القلاع والحصون. ومن خلال تلك الجلسات التدريبية والتثقيفية سرب المحاضرون إلى نفوسنا، تلك الإشارات الذكية التي يقول بعضها: بأن ما نتلقاه وما أبديناه من موافقة مبدئية للتحرك نحو الأهداف المرسومة - بعد إعادة صياغة عقولنا وأرواحنا - لا يتنافى مع المواطنة ولا مع الغيرة على الدين والقوم، وإن أحوال أهلنا في الجزيرة لن تكون أفضل بدون تدخلنا (الجديد) والمغاير لعهود الحكام السابقين التي سنزيدها عمقاً وشباباً.. وإن بشكل مختلف تماماً عن الماضي، الذي لا يضير اعتماده كمرجع للهيبة التاريخية.. فقط.

بالتأكيد لم تكن مهمة (أساتذتنا) هي إيصال العلوم والتسريبات النفسية لنا فحسب، بل كانت لهم مهمة أخرى ألا وهي استكشاف (الصالح) من فريق الحكام السعوديين الجدد، توطئةً لاختيار أخير يفوز به واحد منهم لا غير؛ ولأجل هذه الغاية تواجدت معايير عديدة كالاستعداد للتعلم وهضم الثقافات والمهارات المختلفة التي من أولها بالطبع الفن العسكري الحديث، إلى جانب استكشاف مدى تغلغل الإيمان بالأفكار (الباشوية) في نفوس تلك الثُلة من الوجهاء النجديين. ولم تكن الاختيارات صعبة ولا تنافسية لا في أوائلها ولا في أواخرها، لأن النتيجة وإن تأخرت لدواعٍ أمنية ونفسية إلى جانب مبررات أخرى

Twitter: @ketab_n

فنية، ستكون معروفة سلفاً: القائد المختار هو (خالد بن سعود) ولا أحد غيره!

أهذا كُل شيء؟

طبعاً لم يكن الأمر مجرد إلقاء وسماع محاضرات ودروس وينتهي بذلك يومنا ويومهم، كنا في الحقيقة نعيش في شبه معتقل مع بعض الاستثناءات: كان يُسمح لنا مثلاً بزيارة الأهل والأقارب والاستمتاع ببعض (الفُسح) والنشاطات المحسوبة، على ألا نخالط معارضين مصريين أو (خوارج)، وعلينا الابتعاد عن اللقاءات العاطفية مع الجنس الآخر التي يمكن أن تستنفذ طاقاتنا الواجب توظيفها من أجل معالي التطلعات والغايات، إلى جانب أن اللقاءات العاطفية - إن تمت - فلن تكون إلا نقيضاً للسمو الأخلاقي والتطهر الروحي اللذين لابد لإمام الأمة في نجد وما حولها أن يتصف بهما، وإلا لبارت دعواه وتعثرت أحلامه في أواسط المتشددين - وما أكثرهم - من بني قومه، الذين لا يمكن أن تقوم دولة وسلطان بدون تأييدهم ونُصرتهم.

الكُتب لا مانع من قراءتها وتصفحها - عدا - ما يتحدث منها عن العقد الاجتماعي بين الحكم الرشيد والرعية، أو التي تسرد تجارب الأمم الأخرى في حكم نفسها.. غير ذلك كان مسموحاً به مع بعض التقييدات المفاجئة التي كانت تخلط فجأة بنود السماح والامتناع، ويمكن إرجاع ذلك إلى رغبة خلية التعليم والتدريب في معرفة حدود الانضباط عند أواسط الفريق النجدي، المشغول في سباقه مع الزمن، للوصول إلى لقب الإمامية والشروع بالتالي في بناء كيان الأمة الجديد!

أكُنا يا (أبا راشد) مع المشرفين على إعادة صياغة مكونات شخصيتنا من الحالمين الساذجين.. وكل ذلك الجهد يُبذل؟

... إليك إجابتي: منذُ متى توقف البشر عن صناعة الأحلام،

Twitter: @ketab_n

وإنجاب التفكير الساذج بإمكانية الوصول للأهداف السرابية؟...نعم يا (أخي) رغم معرفة الكثيرين بصعوبة تحقيق أمانيهم العِراض، فإن تلك (المعرفة) لم تكن لتمنع أبداً المتحاربين من محاولة كسب حروبهم العبثية، ولا راغبي التغيير - مهما كان نوعه - من الشروع في تنفيذ مخططاتهم الخطرة؛ ولم تمنع كذلك المعرفة (البائسة) حتى من تكرار الفشل الباهظ الثمن الذي تدفعه غالباً أمم العرب والعجم على حدٍ سواء، في وسط ضباب الحياة وتصادمات الأماني مع الواقع، وصراخ المولد والموت؛ تتقدم دول وتسقط أخرى وتعمر شواهد ضخمة وتندثر مثيلاتها، ولا شيء يمنع الأحلام! هذه التكرارية العصية على الفهم، لسنا النجديين ولا أساتذتنا في مصر غرباء عنها، بل نحن وغيرنا عبر الزمن أحد مكوناتها الأصلية الـمُضيئة والمحرقة في آنٍ واحد!

أخي (حمد):

استمرت فترة الإعداد والتهيئة من أوائل عام 1238هـ وحتى قبل أشهر قليلة من الحملة المشتركة التي قدتها مع (إسماعيل بك) في أواسط عام 1252هـ[1]. ولا خداع نظر في هذه التواريخ يا (أبا راشد).. إنها بالفعل أربعة عشر عاماً من الاستعداد، والتخطيط، وحساب نقاط القوة والضعف في الحملة العتيدة غير المسبوقة في شكلها ومضمونها، والمزمع إرسالها إلى الجزيرة العربية التي كان يتحكم جزئياً في شؤونها اثنان من مدعي خلافة أسلافهم.. وهما: (تركي بن عبد الله بن محمد بن سعود) وابنه (فيصل).

لقد تغير في (أخيكم) الشيء الكثير خلال تلك المرحلة المصرية الطويلة: ففيها تخطيتُ مرحلة المراهقة واليفاع عبر تصعيد عمري مُفتعل، ودفنتُ أحلامي السابقة وأنجبت أخرى مغايرة؛ حتى تقاطيع وجهي

(1) الموافق لعام 1836م.

Twitter: @ketab_n

الجميلة التي تختلط فيها ملامح العرب والأحباش، غزتها التجاعيد المبكرة، بفعل الهموم وإشغال الفكر بالكرب المحتمل، حتى قبل أن يحين موعد هذا المجهول وينكشف غموضه.

خلال تلك الأعوام، التي أسلمت فيها نفسي لما يريده الآخرون سكبه في دواخلها، نسيت كل التجريدات اللفظية الـمُرمَّزة: كالحب، والكشف، ولذات المعرفة الخالصة من كل غرض.. إلا غرض البحث عن الحقيقة الـمُجردة كيفما تكون.

لم يعد يا (حمد) من جهد خلاق يمكن أن أذكره لك - غير تلك المتطلبات السياسية - سوى زياراتٍ ثلاث إلى عاصمة الخلافة الإسلامية حيث زار الوفد النجدي الآستانة بشكلٍ جماعي مرتين، أما الثالثة فكانت خالصةً لي!

أولى زيارات (السياحة المعرفية) كانت في النصف الأخير من سنة 1238هـ[1]. وفي تلك السنة كان (الباشا) مشغولاً بحروبه في السودان، لكن هذا الانشغال لم يمنع توجيهه لمساعديه ألا يترددوا بالاتصال به، كلما كان ذلك مطلوباً وهم يشرفون على عملية التربية القيادية لفتيان (آل سعود)، القادمين على الخيول المصرية لحكم بلدهم المحتاج للقيادات الجديدة غير التقليدية. أما الزيارة الثانية فتمت وحبال الود لاتزال ممدودة بين (والينا) المصري وبين الباب العالي في الآستانة، وذلك في صيف عام 1243هـ[2].

آخر الزيارات وأهمها التي قمت بها (وحدي) بإذن وإيحاء من (الباشا)، جرت وقائعها وحبر اتفاقية (كوتاهية) لم يجف بعد، وللتذكير فقط فتلك الاتفاقية المشهورة قد نصت بنودها على تثبيت (محمد علي

---

(1) الموافق لعام 1822م.

(2) الموافق لعام 1827م.

Twitter: @ketab_n

باشا) سيداً أوحد على مصر. وإسناد ولاية سورية له ولعقبه اعتباراً من عام 1249هـ، مع تجديد ولاية ابنه (إبراهيم) على الحجاز برُمته وتخويله إدارة إقليم (أدنة).

وهنا لابد أن أقف قليلاً مع أخي (حمد) قبل الانتقال إلى السطور التالية، حتى نُطالع سوياً تاريخ الدولة العثمانية في أطوارها المختلفة، إلى أن أصبحت دولة عليلة تتنافس الدول الكبرى وحتى الصغرى خطف إرثها الكبير الواسع:

دولة الخلفاء والسلاطين من بني عثمان لم تستطع قصورها ودلائل العظمة القديمة في عاصمتها حين قمت بزيارتها أول مرة، إخفاء مؤشرات الاهتراء والانحلال التي أصابتها، وكأن (ابن خلدون) لم يُنهِ آخر صفحات كتاب مقدمته إلا على أحد أرصفة مضيق البسفور. لقد كنت أتخيل صاحب المبتدأ والخبر وهو يتطلع خلفه لمشاهدة مُلك العثمانيين المتداعي في سرعة عجيبة، وهو يقول لمن أراد دليلاً على صدقية منهجه التحليلي في كيفية قيام الممالك وسقوطها: إن هذه الدولة هي خير تطبيق لأفكاري التي وردت في مؤلفي.. حتى وإن تأخر عمر الدولة العليلة كثيراً عن توقعاتي وافتراضاتي!

بدأت قصة مولد وشباب الدولة العثمانية - التي أوردت شيخوختها ومحاولة تصابيها المتأخر (الدرعية) مورد البوار والهلاك - عندما رحلت إحدى قبائل الغز التركية والمسماة (قابي) من أواسط آسيا حيثُ مراعيها الفقيرة في مناطق الاستبس الآسيوية، وحيثُ خوفها المزمن من قبائل المغول الشرسة والمجاورة لها، إلى مناطق أكثر رخاءً وأمناً.. نحو الأناضول. قاد المدعو (أرطغرل) قبيلته تلك إلى وجهتها، لكنه وفي أثناء رحيله الطويل - وكما تقول الأساطير العثمانية - أدخل قبيلته التركية في حربٍ ضروسٍ كانت تدور بين أحد سلاطين السلاجقة وأعداء قديمين له، عندها قرر (أرطغرل) وبشكل غريزي الوقوف في صف السلطان

Twitter: @ketab_n

السلجوقي، هذه الوقفة حسب نفس الأساطير أدت إلى انتصار السلطان السلجوقي (علاء الدين الأول)، وكرد لجميل الفارس التركي أقطع الأول منطقة تابعة لحكمه في شمال غرب الأناضول والمتاخمة للحدود البيزنطية السلجوقية، لـ(أرطغرل) مع إطلاق مسمى محافظ ولاية (سكود) الحدودية عليه.

راح القائد التركي في سنة 630هـ يتوسع في اقطاعيته الجديدة إلى أن ضم قبل أن يتوفى بسنوات طويلة مدينة (إسكي شهر) إلى ممتلكاته المرنة في حدودها، وبعد وفاة (أرطغرل) في عام 687هـ خلفه في حكم المناطق التي تسيطر عليها قبيلته نيابة عن السلطان السلجوقي، ابنه المدعو (عثمان) والتي سُميت فيما بعد الدولة والأمة باسمه.

اعتنق الأمير (عثمان) ورعيته الدين الإسلامي بعد قليل من وفاة قائدهم الوثني السابق، بسبب صلاتهم الوثيقة مع الدولة السلجوقية المتأسلمة، وعندها اجتمعت الروح الدينية المتحفزة مع الخلق العسكري البدائي المترهبن للعثمانيين، وبالتالي عرف الناس السلوك الذي ميزَ العثمانيين طوال تاريخهم الاشتباكي مع الأمم الأخرى بعد ذلك. ورغم الاندفاع نحو التوسع لم يغفل الأمير (عثمان) عن سن القوانين التي جعلت من القبيلة أمة تخضع لأنظمة صنعتها طبيعة الزمان والمكان العثمانيين. وكان من حظ هذه الدولة الناشئة المليئة بالعنفوان أنها جاورت الدولتين البيزنطية والسلجوقية اللتين بدتا للجميع أنهما دولتان تحكَّمَ فيهما الأعياء إلى حد كبير، جراء صراعهما الوجودي المشترك، وصراعهما كذلك مع الحملات الصليبية والغزوات المغولية المتكررة؛ ومن هنا كانت الحاجة - كما في كل سانحة تاريخية - أن تملأ الدولة الجديدة الفراغ الذي ظهرت تباشيره في آسيا الصغرى، وأن تبدأ تبعاً لذلك رحلة التماس الحربي مع الجيران المسيحيين كممثلة لجهاد دار الإسلام ضد دار الحرب.

Twitter: @ketab_n

وقبل أن تلفظ سنة 726هـ[1] أنفاسها توفي (عثمان) الذي أصبح سلطاناً، بعد انهيار الدولة السلجوقية إثر غزوة كاسحة للمغول على مقار حكمها، لكن قبل هذا بكثير بدأ السلطان التركي بتوسيع دولته إلى أن توج هذا التوسع باستيلاء ابنه (أورخان) على مدينة (بروسة) المهمة، وما لبث السلطان الجديد حتى أمر بأن تكون هذه المدينة عاصمة جديدة للدولة العثمانية، وأن يُنقل رفات والده إلى داخل كنيستها الرئيسية بعد أن حولها الابن إلى مسجد ومزار.

ترافقت الفتوحات الأولى للعثمانيين مع تسليم (أبو عبد الله الصغير) مفتاح آخر معاقل المسلمين في غرناطة إلى القشتاليين المسيحيين، مما أدى إلى تعويض نفساني للمسلمين في كل مكان بعد أن خسروا فردوسهم الأندلسي المفقود.

ويمكن تقسيم التوسع العثماني الحربي إلى عدة مراحل، ففي البداية كان (الفتح) بُلقانياً أناضولياً خالصاً منذ عهد (عثمان) مروراً بـ(أورخان) و(مراد خان) و(بايزيد الأول) و(محمد جلبي خان) وأبنائهم (مراد خان الثاني) و(محمد الفاتح) إلى أن وصل التاريخ إلى عهد (بايزيد الثاني) سنة 886هـ، حينها تحولت الإمارة وشبه الدولة إلى إمبراطورية عاصمتها القسطنطينية، التي بشر الرسول الأعظم (صلى الله عليه وسلم) قائد فتحها وجيشه بالجنة.

لاحقاً انتقلت الإمبراطورية إلى مرحلتها الثانية. . عهد (سليم الأول) الممتد من سنة 918هـ وحتى سنة 926هـ؛ العهد المشار إليه اتجه فاتحاً صوب المشرق الإسلامي، وليس إلى وسطه الذي بدأ يختنق بنهم العثمانيين الدائم بالتوسع والفتح، ومذاك الوقت كثرت رعايا الدول التي

---

(1) الموافق لعام 1326م.

Twitter: @ketab_n

يهيمن عليها العثمانيون، وتعددت هوياتهم وسحناتهم بالتالي، مما زاد من المسؤوليات والتبعات.

أما المرحلة الثالثة فكانت الأشمل والأخطر في الوقت نفسه: زحفت الجيوش العثمانية بقوة واندفاع مذهلين إلى كل القارات التي تستطيع قواتها الوصول إليها: آسيا.. أفريقيا..وأجزاء كبيرة من أوروبا. ولم تقتصر معارك العثمانيين على البر فقط، بل كانت لهم صولات وجولات بحرية ضد أعدائهم القريبين والبعيدين على حدٍ سواء، وحسب المعيار التاريخي فهذه المرحلة تبدأ منذ الأيام الأولى لتنصيب (سليمان القانوني) سلطاناً على الدولة العلية في عام 926هـ إلى أن خسرت الدولة - بعد ذلك - كل أملاكها السابقة بعد أن خسرت نفسها.

... تحزن كثيراً على نهاية الدولة العثمانية، فمهما كان موقفك يا (أبا راشد) من سلوكها عبر التاريخ، وانعكاس هذا السلوك عليك وعلى عشيرتك وعلى بني قومك، يعود لك سريعاً رشاد التحليل والمنطق، فتعرف حينها أن تلك النهايات الحزينة لم تأت من فراغ ولا من خبط عشواء قدري، بل نتيجة حتمية لأوضاع الدولة الداخلية وعدم مقدرتها على تجديد نفسها، وعلى جهلها بالتغيرات العالمية في كل المناشط حولها، إلى جانب عزل الدولة نفسها بعيداً عن محاولات كسب قلوب المتغلب عليهم والمفتوحة بلادهم، وتلك لعمري مهمة عسيرة في حال القيام بها، أما في حال التقاعس، فالمصائب والهزائم تبقى أمراً مفهوماً ومتوقعاً للدولة المعنية.

... أعود مرةً أخرى لِمُمحص التاريخ (ابن خلدون) لأقف أنا وأنت يا (أخي) مع ما خطه يراعه في سفره العجيب.. يقول: اعلم أن العدوان على الناس والظلم مؤذن بخراب العمران والدول، وأن من علامات هرم الدول والأمم كثرة الـحُجّاب الذين يزينون للحكام الانفراد بأنفسهم بعيداً عن العامة والخاصة حفاظاً من مُعانيه ما يسخط الناس

Twitter: @ketab_n

عليهم، والحجاب - كما يقول ابن خلدون - لا يقع في الغالب إلا في أواخر الدولة التي فقدت عصبيتها ويكون دليلاً على هرمها وانتهاء قوتها، وعندما ينـزل الهرم بالدولة لا يرتفع أبداً حتى لو تنبه متأخراً مَن له يقظة في السياسة، عندما يرى ما نزل بدولته من عوارض الهرم، ويظن أنه ممكن الارتفاع فيأخذ نفسه بتلافي الدولة وإصلاح مزاجها، لكن هذا جهد بلا طائل!

. . . هكذا قال علامة الزمان، وهكذا أكدت وقائع تاريخ الدولة العثمانية كلامه، وإن كانت هناك أسباب أخرى لهرم دولة سلاطين الأتراك، حال عُمر (العلامة) المحدود، وعدم قراءته للبدايات الأولى للدولة العثمانية، من تدوينها وعرضها كأسباب إضافية عجلت في ظهور الشروخ الكبرى داخل بناء دولة أبناء (أرطغرل). . الفارس ذي العصبية.

ستسألني يا (حمد) بالتأكيد عن ماهية تلك الأسباب الأخرى التي جعلت قائداً مغموراً لفيلق حربي عثماني كـ(محمد علي باشا) يُقدِم على الاقتراب إلى بعد فراسخ قليلة من قصور سلاطين الآستانة، استعداداً لإعلان وفاة دولتهم التي طال عمرها كثيراً وحان وقت تأبينها؟

الواقع يا أخي أن الأسباب كثيرة. . منها: أن تلك الدولة فقدت عافية الدفع لديها، وأقصد هنا عصبيتها القبلية الحربية والتي غُلفت بغلاف ديني لاحق، وزاد من تفاقم وهن دولة الترك تصادف التقاء رغبة الأمم - التي كانت تخضع لهم - بنهضة وإصلاحٍ جذريين، مع تولي سلاطين ضعفاء سدة الحكم بعد عهود أسلافهم الخلفاء المؤسسين، والفاتحين، والمشرعين الأوائل. هذا اللقاء المتوتر والمشحون ولد نتائج كارثية على الدولة برمتها.

والغريب يا (أبا راشد) أن انتشار الفساد الحكومي في الدولة العثمانية بدأ من فوق. . من المراتب العليا في الدولة، ولم يبدأ من أسفل الهرم الوظيفي كما هو منتشر في بعض الأمم الأخرى، الأمر

Twitter: @ketab_n

الذي قد يبطئ قليلاً من سرعة انهيار أجهزة الحكم ومؤسساته. زد على ذلك أن نظام (الدوشرمة)[1] أو (الانكشارية) الذي كان عماد الدولة في أبان عهود القوة والتوسع، أصبح في وقت لاحق عبئاً مالياً وسياسياً وأمنياً على الدولة التي أنشأته واحتضنته، وعندما ساءت العلاقة بين الطرفين وأراد كل واحد منهما أن يباغت الآخر في مقتل، سقطت الأمة التي اعتمدت كثيراً وطويلاً على هذا الميثاق العُرفي غير المكتوب.

انسحاب سلاطين (بني عثمان) من الحياة العامة وعزوفهم عن مباشرة إدارة الدولة، عجّل من نهايات دولتهم التي كانت تعتمد على هيبة السلاطين وشخصياتهم الإدارية المحورية؛ هذه الحالة الاختلالية ساعدت أيضاً على تفشي سوء الإدارة المعتمدة على نُخب لم تعد خائفة من عقاب السلطان وحميته كما كان الحال في السابق، كما أدت هذه الحالة إلى (تسلطن) غير مباشر للصدور العظماء الذين لا يمتلكون مواصفات القيادة العصبية والجاذبية التاريخية كما يمتلكها سلاطينهم. ومن جانب آخر أدت عزلة السلاطين الضعفاء المتأخرين، إلى حرمانهم من معرفة ما يدور خارج أسوار مساكنهم وقصور حكمهم، سواء كان هذا الذي يدور داخلياً أو خارجياً.

... أما الإسلام الذي رفعت لواءه الدولة منذ تأسيسها الأول فقد غدا مجرد شكلٍ من أشكال التمترس وراء الهوية والمعتقد، وعبارةً عن مظهرية خالية من المعنى الذي قصده مُنزله. لم يعد يُسمع من علماء الإسلام في الدولة العثمانية وخاصةً مَن كانوا في العاصمة أو جوارها، مَن ينتقد التصرفات المالية والسياسية والعقدية للسلاطين ووزرائهم الكبار، ولم تنتقد جمهرة علماء الإسلام ومشايخه في أوائل عهود الضعف، أوضاع الأمة العلمية والاقتصادية المزرية في حال مقارنتها

---

(1) طبقة العبيد المهيئين للقتال والغزو.

Twitter: @ketab_n

بأوضاع الأمم الأخرى الناهضة، ولم ترفع المرجعيات الدينية ومراكز الإفتاء والدعوة والإرشاد، صوتها محذرةً من الظلم الذي وسَمَ عهود السلاطين المتأخرين بالتحديد، بل أن قتل ونفي الخلفاء والسلاطين لإخوانهم وبني عمومتهم خوفاً على عروشهم لم يجابه بصرخة - ولو مكتومة - من علماء الأمة، وأصحاب الأدعية لهؤلاء السلاطين - البعيدين عن روح الإسلام - أثناء كل صلاة جمعة وقنوت.

سبب آخر عجل بمرض الدولة العثمانية ودخولها في مرحلة الاحتضار الآتي بكل تأكيد، حتى لو أخرت الأحداث العالمية زمنه وميعاده، هذا السبب يتجلى في تأخر إطلاع دولة الخلافة (الإسلامية) في الآستانة على مجريات التاريخ الجديد الذي تصنعه الاكتشافات العلمية والجغرافية في بلاد أعدائها القدامى من الأوروبيين، أضف إلى ذلك جهلها بالتغيرات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية في داخل مجتمعات (دار الحرب) والتي أدت إلى عقود مكتوبة، تُقنن العلاقات بين الحكام والمحكومين، وتنظم بالتالي حراك الأمم والفصل بين أجهزتها التي تسير مناشطها المختلفة.

ألم يكن هذا كافياً (يا أبا راشد) لأن ترفع قصور الآستانة رايات الاستسلام لكل من كان يخاف (قديماً) حركة أرجُل فصيل واحد من جيوشها؟ ألم يكن هذا كافياً لأن ترفع الطوائف والأعراق والحركات الباطنية السرية، من وتيرة إشهار كشوف المظالم للسلاطين، مِن خلال العرائض المكتوبة تارةً، وتارةً أخرى عبر الثورات المسلحة الهادفة للانفصال وإعلان الاستقلال؟!

ألم يكن هذا الضعف السياسي والديني وانعدام الرغبة في الإصلاح والالتفات إلى مصادر الخلل الحادث، مبرراً (للدولة السعودية) الإصلاحية لأن تقوم بالإعلان، عن أنَّ دعوتها الإصلاحية الدينية الجديدة والمتبوعة بإصلاحات أخرى اجتماعية على الطريقة النجدية، لن تتم إلا

Twitter: @ketab_n

عبر سواعد - غير - عثمانية.. سواعد بعيدة عن الوهن والفساد والجهل الديني، الذي كان يسكن القصور المطلة على البحار والمضايق في الشمال؟!

البشر المشرفون على الموت والمصابون بأمراض عضال، لا يمكن أن تخطئهم عين الملاحظ اللماح، وكذلك الأمم ممثلة في ظواهر وخبايا الحراك غير الطبيعي في عواصمها ومدنها الكبيرة.

... منذ الزيارة الأولى لاسطنبول، وأنا أشعر أن هذه الدولة تعايش وقت غروبها وزوالها المحتم، بالرغم أن أشياء كثيرة ومعلومات أوحت لنا - قصداً - أن الأمر غير ذلك، وأن في عمر الدولة العلية بقية.. مباركة!

لا أدري يا أخي (حمد) لماذا ربطتُ بين شعوري بالانقباض والكآبة العميقين، وأنا وغيري ننتظر مداهمة جيش (إبراهيم باشا) للدرعية، وقائل يقول لنا: أن جيش الموحدين.. أصحاب الطائفة المنصورة لا يهزم حتى لو تجيشت الأضعاف المضاعفة لجند (إبراهيم) المرتزقة ومعهم مدافعهم الخارقة أيضاً؛ وبين الحقائق المذهلة والباعثة للأسى التي عرفتها بعد أيام قليلة من وصولي للآستانة، وقائل تُركي يقول لنا: أن كل حركات ممثلي سفارات وقناصل الدول الـمُريدة شراً للخلافة الإسلامية.. تحت السيطرة تماماً!

أما الحقائق فكانت تقول: أن نتائج معركة الدرعية كانت محسومة سلفاً لولا المكابرة، والحقيقة في المقابل التاريخي كانت تقول أيضاً: إن كل حركة في عاصمة الخلافة مرصودةً بالفعل لعيون الأعداء، وأن الكثيرين ممن في سدة الحكم في الآستانة أصبحوا مُتداولينَ في سوق النخاسة الدولية، وإن لهم أثماناً قبضها بعضهم مقدماً مقابل خدماتهم الجليلة!

... غيوم أول مساءات وصول (الوفد النجدي) للآستانة، كانت

Twitter: @ketab_n

تمسح شطآن المدينة العريقة منذرةً بصواعق قادمة هوجاء، كان هذا نذير شؤم لنا ومدعاة للانقباض الداخلي، الذي لم تزله حرارة استقبال الأتراك لـ(ضيوف) والي السلطان على مصر، ولم تزله رغباتنا الساذجة - نحن المزهوين بقادم أيامنا - في معرفة ماذا سيقال لنا في عاصمة السلاطين.. غير الذي قيل لنا وسيقال في قاهرة المعز.

بعد أيام قليلة من الزيارة الأولى - وهو أمر تكرر أيضاً في المرتين الأخيرتين - اكتشفتُ أنني اقتطعتُ شهوراً من عمري في عاصمة الخلافة بلا طائل، وأنني كنت - أو كنا - في المكان الخطأ، وفي الوقت الأكثر خطأً، لأتعلم أشياء خاطئة؛ لكن المفاجأة كانت أن الدولة التي أتى الكثيرون ليتعلموا منها شيئاً، كانت في الحقيقة تريد أن تفهم ماذا يدور حولها.. وإلى أين المصير؟!

سرعان ما أدركتُ يا أخي (حمد) أن الباشا في مصر كان يعرف أن في الآستانة مخزون ضخم من الأرشيف والكتب الكثيرة لم يعد يقرؤها أحد، وفيها أيضاً بقايا عز مدبر لا يمكن أن يُخفى عن العين، وفيها ألقاب لسلاطين، ونعوت لصدور عظماء لا تعني لأحد شيئاً، وفي تلك العاصمة الرمز أخبارٌ أيضاً عن جيوش مهزومة وعتاد ناقص، وتململات في تابعيات الدولة القريبة والبعيدة، وفيها حقائق عن السفراء والقناصل العديدين والذين يندر أن يمر يوم دون أن يُسمع عن نشاطاتهم التي كانت تهيئ لمراكز جاسوسية ضخمة، استعداداً لما بعد اليوم الأخير في عمر الدولة. كل ذلك كان (الباشا) يعرفه لكنه أراد أن نعرف ما يعرفه ونحن مُقدمون على تجربتنا الفريدة، وأن يدخل إلى يقيننا ما كان في يقينه فعلاً، وأنه وهو يرسلنا إلى حيث الضعف والاستسلام وتكالب الأعداء، كان يريد أن يُكمل - فقط - الشكل الطقوسي الذي بقي للدولة العلية صاحبة الفضل العظيم عليه، وأخيراً فلا ضير من أن يأتي (الوفد النجدي) بمعلومات شاردة - يمكن - أن تكون قد غابت عن علم

Twitter: @ketab_n

(الباشا) وعن تقارير بصاصيه في عاصمة الخلافة، والذين يصطفُّون مع طوابير جواسيس الدول الأجنبية الأخرى، انتظاراً لأشياء خطرة. . وما أكثرها!

سأطرح سؤلاً مُلحاً على نفسي لابد أن أخي في (الرياض) قد فكر في طرحه. . قبلي:

مَن كان على سدة الحكم من السلاطين العثمانيين عندما بدأت زياراتنا المتكررة للآستانة؟

سلطان الزمان الصعب، الذي شهد عهده حروباً وقلاقل لا تعد ولا تُحصى مع أعداء الداخل العثماني وخارجه، هو (محمود الثاني) المتربع على عرش دولته سنة 1223هـ، إلى أن حانت منيته سنة 1255هـ وهي السنة التي سبقت وفاة أحلامي في نجد بأشهر قليلة.

(محمود الثاني) هو أحد القلائل من سلاطين بني عثمان المتأخرين الذين حاولوا معاكسة تيار الضعف والانحطاط في دولته، وهو الذي بدأ عملية إصلاح (متأخرة) للتصدع، الذي أصاب كيان جيل الآباء والأجداد العظام.

بدأ هذا الانهيار قبل تولي (محمود الثاني) بحوالى مائتين وخمسين عاماً، ففي ذلك التاريخ القبلي تولى سلطان سكير اسمه (سليم الثاني) الحكم حينما بايعه شيخ الإسلام (أبو السعود) والعلماء والوزراء والأمراء، وبمباركة لا تعلم الغيب من الصدر الأعظم (صقلي محمد باشا) والذي يعتبر أحد الرجال القلائل البارزين الذين ظلوا على وفائهم لإرث الأنظمة والقوانين، الذي تركه والد السكير. . السلطان المشهور (سليمان القانوني).

الصدر الأعظم (هذا) حاول بدون جدوى وقف مسلسل الانهيار وإطفاء نيران الفوضى التي كان يشعلها في فسطاط الدولة نزق وجهالة

Twitter: @ketab_n

(سليم الثاني). المحاولات باءت بالفشل وبعدها عرفت الرعية وجوهاً أخرى للدولة ولسلاطينها الذين جاؤوا بعد السلطان السكير.

كانت تلك الأوجه تتمثل في الترف وانغماس السلاطين في حياة الملذات الحسية، وأصبح للنساء المحظيات اللواتي يقضي معهن هذا السلطان اللاهي أو ذاك جُل وقته، اليد الطولى والكلمة المسموعة، بل كُنَّ تلك النسوة يسيرن أمور الدولة ويعينَّ الوزراء والأمراء برضا وموافقة سلاطينهم المنغمسين في حياة أخرى، لا علاقة لها بهموم الدولة، ولا بمتطلبات الرعية ولا بالقادم الـمُرعب.

وجه آخر من الأوجه السيئة تمثل في فساد الإدارة التي انتشرت في أروقتها الارتشاء والاختلاس وبيع الذمم الوظيفية، مما جرأ زعماء الحركات الانفصالية في أقاليم الدولة المترامية الأطراف، مُدعين - وهم على حق - بأن هذه الدولة عاجزة عن كبح جماح أطماع ونزق السلاطين والأمراء، وأنها بهذه الصفة الوضعية تستحق أن تُنـزع يد الطاعة منها، وألا خوف بعد هذا النـزع من عقاب رادع، فالكل في المركز والأطراف لاهٍ في جمع الغنائم والأموال.

أما الامتيازات الأجنبية (الـمُلزمة) التي مُنحت للدول الأوروبية تحت عذر الإشراف على رعايا تلك الدول من المسيحيين، فقد كانت باباً واسعاً لم يستطع السلاطين الضعفاء سدّهُ، لتدخل منه ريح الشروط والتدخلات الأجنبية في أوضاع الدولة العثمانية الداخلية وفي علاقاتها الخارجية.

أسبابٌ أخرى لا تقل وجاهةً أدت إلى ضعف الدولة العثمانية وأعطتها ذاك الوجه المعاكس للقديم شديد التمكن.. خذ مثلاً يا أخي (حمد): تفشي القتل من أجل القتل فقط، أو لشك غير مبني على حقائق راود مخيلة سلطان تجاه أخٍ أو ابنٍ أو قريب له، الأمر الذي أدى إلى ضعف التماسك الداخلي للأسرة الحاكمة العثمانية. وزاد من طينة

Twitter: @ketab_n

الضعف بِلة، الفساد الذي انتشر في نظام جباية الضرائب لدولة اتسعت جداً وتعددت قوميات رعاياها.. الحقيقة أن كيان الدولة كُلها بدأ يترنح، مُفسحاً المجال بعد ذلك، للجمعيات السرية، والتنظيمات المحلية، والتكتلات القومية أن تحل محله، فلا فراغ كما تعرفون يا أخي في الكون ولا في حياة الأمم كذلك!

أمر أخير مهم يعطي دليلاً على وجاهة الضعف الذي اعترى الدولة العثمانية، وأظنك يا (أبا راشد) تُردِده قبل أن أقوله: إنه ضعف الحجة الدينية التي تذرعت بها الدولة العثمانية طويلاً وهي تفتح البلاد، وترغم سكان البلاد المفتوحة على الإذعان لها ولما تمثله تلك الحجة من أخلاقيات ومُثل.

... بالطبع هناك أسباب أخرى للضعف والانهيار الذي صبغ وجه الطور الضعيف للدولة العثمانية، لكنني لست هنا لأعدد لك تلك الأسباب كُلها، بل لأصل وأنا أسرد لك (حكايتي) إلى تلك المفاصل الحياتية المهمة، التي أدت إلى أن أكتب رسالتي التبريرية هذه.. وشأني كما تعرف!

الطريد الخائف يود أن يقول لأخيه في (نجد) وهو يهز رأسه مؤمناً - كما اعتقد - على كلامي المكتوب السابق: إن كل ما قيل عن أسباب ضعف هذه الأمة أو تلك، وعن إمكانية تلافي تلك الأسباب، لا يلغي الحقيقة التي أشار إليها ناقد التاريخ[1] الأبرز، وهي أن لكل أمة عمراً تنتهي بعده حياتها مهما طال هذا العمر، وأن حتميات الفناء الإنساني تسري أيضاً على الأمم والدول في الشرق والغرب، ولن يفيد إن حلَّ زمن رحيل الدول تواجد مُصلح، ولا رفع لواء عصبية مندثرة، ولا حتى ارتداء مسوح الدين والتقوى.

---

(1) يقصد ابن خلدون.

Twitter: @ketab_n

صدمتك (أبا راشد).. أليس كذلك؟!

المهم..! تدحرجت مكانة الخلافة العثمانية ابتداءً من (سليم الثاني) مروراً بأربعة عشر سلطاناً أتوا بعد من كان يُنعت بالسكير، إلى أن يصل التاريخ إلى عهد (عبد الحميد الأول) سنة 1187هـ. هذا السلطان الذي كان مسجوناً قبل أن يتولى الحكم، وقعَ على أم المعاهدات مع الدولة القيصرية في روسيا، المعاهدة المشار إليها نصت على تخلي الدولة العليـة عن (القرم)، و(القفقاس)، كما نصت على حق تدخل روسيا في شؤون رعايا الدولة العثمانية من النصارى الأرثوذكس، وعلى أن تدفع دولة السلطان لروسيا المنتصرة عليها في حرب (فارانا) غرامة حربية، مع إعطاء الحق للمنتصرين في ممارسة التجارة الحرة على أرصفة موانئ المسلمين!

بعد هذا الخليفة تولى السلطة في عام 1203هـ ابن أخيه (سليم الثالث) الذي لم يتردد في عقد معاهدات صلح مع أعداء دولته الأجانب، ليتفرغ لعملية إصلاح ما يمكن إصلاحه داخل دولته. الخليفة المذكور شرعَ في أول خطواته الإصلاحية الكبيرة.. والخطرة، ولا يمكن أن يكون للكلمتين الأخيرتين معنى آخر سوى: الإنكشارية؛ هذه المجموعة العسكرية كثيرة العدد.. عماد العقيدة العسكرية العثمانية، أصبحت عبئاً ثقيلاً على صانعيها، ورمزاً لتأخر الدولة العثمانية وتقدم أعدائها الغربيين، الذين تغير جلدهم العسكري بعد أن تغيرت جلودهم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وغدا الـحُكام وشعوبهم غير ما كانوا عليه في عصور الظلام.. عقود الإقطاع وهيمنة الكنيسة.

السلطان الشاب ذو السبعة والعشرين ربيعاً كان مؤمناً بأن الإصلاح ليس له معنى إلا معنى واحد: تغيير القديم والثورة عليه من الداخل وسريعاً، قبل أن يأتي الغرباء لفرض التغيير، بعد أن فرضت انتصاراتهم العسكرية واحتلالهم للأراضي العثمانية، واقعاً مختلفاً شكلاً ومضموناً

Twitter: @ketab_n

عن سابقه. وتصادف - وكثيراً ما تتصادف الأشياء في عالمنا المشرقي - أن تعرَّف (سليم الثالث) على طبيب إيطالي من البندقية اسمه (لورنزو) ومن هذا (الحكيم) حصل السلطان الجديد على الترياق لعلته، وعلى الكثير من المعلومات حول كيفية شفاء الأمم وتحضرها. ولم يكتفِ (سليم الثالث) بمعلومات طبيبه الإيطالي فقط، بل بعث عبر وسيط مؤتمن على سره اسمه (إسحاق بك) رسائل إلى (لويس السادس) ملك فرنسا وإلى وزرائه، طالباً فيها تزويده بما لديهم من خبرات عن كيفية إدارة الدول وماهية القوانين المناسبة للأزمان المعاصرة، لكن الرسائل توقفت من جانب واحد لأن الملك في فرنسا خُلع عبر ثورة عاتية، اقتلعت النظام الملكي برمته هناك وأرست قواعد للحكم الجمهوري، حينها تبين لـ(سليم الثالث) أن (لويس السادس) كان يحتاج لمن ينقذه، لا لمن يأخذ رأيه في إنقاذ حكم الأصدقاء!

خطآن كبيران وقع فيهما (سليم الثالث)، أولهما: رغبته الثورية في الإصلاح، الأمر الذي أدى إلى إشكالات عظيمة مع رموز المجتمع المحافظ عنده، والثاني هو تيقنه أن ما يناسب المجتمعات الأوروبية ذات الديانة المختلفة، سيناسب أيضاً مجتمعه المختلف كلياً في الخصوصيات والجذور العقدية، لكن يمكن لو أتيح لهذا السلطان أن يدافع عن نفسه.. لقال وهو يواجه هذه الانتقادات: أنه لا يملك وقتاً إضافياً لتأخير الإصلاح، وإن الانهيار كان قادماً لا محالة ما لم يواجه بشكل شامل وسريع.. ولا شيء غير ذلك. إما مسيحية النهوض والتحضر، فإن ما أمامه حينها من مشاريع وأمثلة حضارية، لا تخرج من أمثلة فرنسية ملكية وجمهورية، إلى جانب أمثلة إنجليزية ونمساوية وبروسية.. وشيء قليل من روسيا القيصرية!

في عهد (سليم الثالث) انتشر التعليم العسكري على الطريقة الأوروبية، بينما (نابليون) وجيشه يُصارعان لاحتلال مصر، وخطوة كهذه

Twitter: @ketab_n

والدولة العثمانية مشغولة في مصابها المصري، لابد أن تُحدث ثورة من بقايا النظام القديم العسكري والمعنون باسم الإنكشارية، على مشاريع الإصلاح والإصلاحيين.

الثورة الداخلية المحافظة التي قادها أيضاً (شيخ الإسلام) آنذاك أدت إلى تراجع (سليم الثالث) عن قراراته الإصلاحية السابقة، لكن هذا لم يكن كافياً لإخماد الثورة التي استمرت في تعاظمها إلى أن ظفرت أخيراً برأس الإصلاح.. السلطان (سليم الثالث)، الذي خلعَ نفسه بعد الانتكاسة المذلة له.

في قصر (القفص) سجنَ (سليم) نفسه - أو سُجن - وهناك راح السلطان المخلوع يقدم دروساً لابن عمه (محمود الثاني) والذي تسلطن بعد فترة من خلع زميله في السجن. كانت الدروس تنحصر في كيفية تلافي أخطاء مشاريع الإصلاح السابقة التي أدت إلى النتائج المعروفة.

عهد (محمود الثاني) كان مختلفاً في كل شيء.. ولم يبدأ هذا (الكل شيء) فوراً، بل بمكر سياسي ظنه الكثيرون غير جدير بفتى سجين مرهف الحس والإحساس.

انحنى (محمود الثاني) منذ الأسبوع الأول لحكمه الذي دشنه سنة 1223هـ[1]، أمام عاصفة الثورة الماضوية؛ مكر السلطان اللافت للنظر أخذ شكل إلغاء كل إجراءات الإصلاح التي قام بها سلفه الحقيقي[2]: الإنكشارية تم تجديد نشاطها، والأوامر السابقة التي نصت على تكوين فرق نظامية حربية تعتمد على الأساليب العسكرية الأوروبية.. أبطلت.

خلال صراع (محمود الثاني) مع أعداء التحديث ومن أجل تثبيت حكمه، نشبت حروب بين دولته وأطراف خارجية، وحتى داخل بيته

---

(1) الموافق لعام 1808م.

(2) صاحب الرسائل يسقط هنا فترة حكم (مصطفى الرابع) القصيرة.

Twitter: @ketab_n

العثماني، كما صُرعَ على مذبح التنافس الداخلي صدران عظيمان هما: البيرقدار (مصطفى باشا) والبيرقدار (يوسف باشا).

حروب الدولة العثمانية ضد روسيا، تبادل فيها الطرفان الانتصار والهزيمة إلى أن جلس الـمُتعبون معاً لتوقيع معاهدة (بوخارست).

طاقة السلطان الإصلاحي استُنزفت قليلاً بعد تلك الحرب عظيمة الشرور والمتبوعة بمعضلة داخلية كبرى ظهرت على السطح.. كان اسمها (الدولة السعودية ودعوتها الوهابية)، ولم يكن أمام خليفة المسلمين من حل لهذه المعضلة - للأسف - إلا أن يرسل واليه في مصر المنتظر فرصة كهذه لتثبيت نفوذه على المشرق العربي، خاصةً وأن السلطان مشغول بمشاريعه الإصلاحية الخاصة، وحروب التنافس مع مراكز القوى المحافظة التي رأت في حروب سلطانها مع روسيا، فرصة سانحة للمطالبة بتأجيل مشاريع الإصلاحيين التي يترأسها (محمود الثاني)، إلى حين انقشاع غمة الاعتداءات الروسية التي دعت تلك القوى الله ألا تنتهي، وذلك لغرض في نفس قبيلة يعقوب (المحافظة) كلها!

... بعد تلك الهموم قفزت الدولة العثمانية وهي تتعلق في ثياب سلطانها الشاب نحو مجهول آخر: الثورات الداخلية. ولعل أخي (حمد) يتذكر أنني قد سردتُ عليه في رسائلي السابقة جزءاً من تاريخ ثورة اليونانيين ضد الحكم العثماني، والنتائج المذهلة التي تلت تلك الثورة النموذج لغيرها من الثورات، ولا ضير هنا أن أذكر أخي بمعلومة جديدة: رحمُ الجمعيات السرية داخل مجتمع جزيرة (مورة) اليونانية، أنجبَ ثورة غدت مثالاً لحركات انفصالية أخرى.. مثل: حركة (علي باشا) والي (يازما) وحركة (باسفان أوغلو) وبكوات الأناضول، إلى جانب فتنة المماليك في العراق وليبيا، وتململات الأعراق والعصبيات في الشام.

لاحقاً وعندما شعر (محمود الثاني) أن أمور دولته تحت السيطرة

Twitter: @ketab_n

النسبية، خاصةً بعد توقيع معاهدات الصلح مع روسيا، والانهيار المخطط له للدولة السعودية الموحدة، والقمع المؤقت للحركات الانفصالية داخل بيته العثماني، تحول نظر السلطان إلى المشاكل المحلية المزمنة لدولته.

وفي يومٍ لا يشبه غيره من الأيام[1]، هجمت مجاميع عظيمة من الفيالق العسكرية الراجلة والمؤللة المرتبطة بالسلطان ذي العزيمة الشديدة والدهاء العظيم، هجمت على فرق (الإنكشارية) الـمُرابطة في ثكناتها المطلة على ميدان الخيل بإسطنبول، وما هي إلا ساعات حتى أحاطت فيالق السلطان بفرق الانكشارية من كل اتجاه، ثم سُمعت أصوات قذائف المدفعية المدوية التي دكت ثكنات المتمردين، وتبع ذلك هجوم واسع وكثيف لجند المشاة، في اليوم التالي عُرفت نتائج معركة الطرف الواحد: قُتلَ ثلاثة آلاف انكشاري وشُنق سبعمائة عنصر منهم، إلى جانب الطرد من العاصمة لألفين آخرين من تلك الطوائف المتمردة والـمُزعجة!

كانت عملية تقويض بناء دولة الانكشارية المقامة داخل الدولة الأكبر أمراً غير مسبوق بالفعل، أما دلالات ذلك فحدّث ولا حرج؛ ألا يكفي مثلاً الإشارة إلى أن إنهاء هذا الكيان كان يعني بالفعل إنهاء الشكل القديم للدولة العثمانية وإطلاق إشارة البدء للتحول نحو الفرنجة والتحديث؟ لكن في المقابل: ألم يكُن يُشير ذلك أيضاً إلى إنهاء دور المؤسسة العسكرية القديمة في الحياة اليومية للدولة العثمانية، واعتماد أطياف واسعة من الطبقة الحاكمة في الآستانة عليها؟..ألم يكن يشير هذا إلى زوال الدولة العثمانية كما رسمتها المخيلة التاريخية؟

في ذلك العمل الجبار الذي قام به السلطان (محمود الثاني) أوجه

(1) الموافق للعاشر من يونيو عام 1826م / ذي الحجة 1241هـ.

Twitter: @ketab_n

إيجابية بلاشك، وأوجه سلبية على كيان الدولة بلاشك أيضاً! الإصلاحات (المحمودية) لم تكتفِ بالشأن الانكشاري على أهميته، بل شملت ترميماتها الهيكل الحكومي ذاته، فقد أُلغيت الطبقية الإقطاعية المسماة (بالتيمار) كما أنهت الأدوار التي كانت محاكم الـمُصادرة تقوم بها. وأبطل حق الباشوات في قتل من يرغبون قتله بلا محاكمة، كما عدَّل السلطان الشاب عن طقس رديء سلوكي اختصه لنفسه من كان قبله من السلاطين الضعفاء.. وأعني هنا العزوف عن مقابلة الناس وتصريف شؤونهم في الديوان الهمايوني؛ أما أعظم إصلاحاته الأخرى فكانت بلاشك شمول الإشراف الحكومي لمداخيل الأوقاف الضخمة التي لم يعرف من قبل كيف تُصرف.. إلا أن محسوبين كباراً للدولة يهتمون بها وبنشاطاتها! أصدر السلطان (محمود) قرارات إضافية بالغة الأهمية كإلغاء الأساليب القديمة في تحصيل الجزية، والجبايات، وكل الفروض والاشتراطات المالية غير القانونية، كما أنه قام بتصغير الجهاز الحكومي المتضخم وإلغاء نظام الحاشية وألقابها.. إلا وظيفة معروفة المعالم والاختصاصات.

أمورٌ كثيرة تغيرت: مكاتب الترجمة انتشرت في العاصمة والمدن العثمانية الكبرى حسب توجيه السلطان.. سفارات عثمانية في البلدان الأوروبية فُتحت، في الوقت الذي فُتحت فيه سفارات (الكفار) في عاصمة الخلافة.. أُدخلت إصلاحات جذرية في عمل وشكل الإدارات الحكومية مع تحديد مهام نشاطاتها وإزالة معوقات اتصالها بالجمهور.. أُنشئت محاكم عدلية متخصصة.. إلخ.

وفي تصرف غير ذي صلة بمضمون الإصلاحات طلب من العامة والخاصة ارتداء الملابس الأوروبية وتهذيب لحاهم إلى حد كبير، وكزيادة في حث الجمهور على هذا السلوك وإزالة ترددهم، ابتدأ السلطان نفسه بما أمر به الآخرين في الهيئة والملبس!

Twitter: @ketab_n

أين كانت بوصلة روحي من كل هذا؟

أنا (شخصياً) لم أشعر بالانبهار في كل ما قام به (محمود الثاني) على ضخامته، لأنني قد امتلأت أصلاً من الإصلاحات الجذرية للباشا في مصر، وشتان بين هذا وذاك. ما قام به (محمود الثاني) لم يكن إلا محاولة لإطالة عمر مريض أُصيب منذ زمن بمرض عضال، أما (محمد علي) في أرض الكنانة فقد قام بتغذية سليمة وذكية لـ(فتى) كان ينمو هزيلاً لولا العناية المبتكرة والـمُذهلة لذاك الألباني.. الطبيب الحاذق، أنا (شخصياً) رأيتُ في أوجه معينة من عملية التحديث التي قام بها خليفة المسلمين تنازلاً غير مبرر للأفرنج وطرائقهم في العيش والتفكير، ألم يكن يكفي أخذ أسرار التطور والنهوض، وترك تلك السلوكيات التحرشية مع تراثيات المشرقين وعقائدهم، كما فعل ذلك - بنجاح - والي مصر؟ أكان ضرورياً اقتراض هويات الآخرين وطرق مناهج تفكيرهم المشككة.. في كل شيء؟

بعيداً عن هذا التمزق النفسي الذي شعر به الكثيرون في دولة الخلافة الإسلامية، ولامس بهوائه الساخن مناحي التفكير والعاطفة لديَّ، رحتُ بعد أن مللتُ من المشاهد الخارجية والمحايدة لما كان يحدث في الآستانة، والضيق بالطقوس اليومية في مقابلة المسؤولين عن ديوان (أوراق مكتوبي عموم الولايات) وزملائهم المشرفين على ديوان (المسائل السياسية) بقسميها المصري والنجدي، وما بين هذه المكاتب من (مشاوير) مراجعة ملفات وأرشيف ديوان (تصنيف الخط الهمايوني) و(غرف أوراق الباب العالي)، رحتُ بعد أن خرجت من ثيابي تبرماً من كل هذه الطقوس الاطلاعية والبحثية المملة، أبحث يا أخي (حمد) عن شيء آخر بعيد عن الكلمات غير المفهومة التي كان يقولها لنا صدور الوزراء العظماء من الذين عاصرت ولاياتهم أثناء زياراتي الثلاث لإسطنبول مع الوفد النجدي: (عبد الله باشا، علي باشا سلحدار، محمد

Twitter: @ketab_n

باشا غالب، محمد باشا سليم، محمد باشا عزت، محمد باشا رشيد)، ولا يقل عن تلك الجمل - المليئة بالمواعظ - ثقلاً على القلب إلا شقيقاتها الأخرى التي كان يرددها على مسامعنا (شيوخ الإسلام) في عصر (محمود الثاني)، والذين يضيفون من عندياتهم كميات من الإسقاطات المقللة من شأن الدعوة السلفية.

أين الملجأ من حزمة الملل والتكرار والعبثية تلك؟

ملجئي - وأنا هنا أتحدث عن نفسي فقط - كان هناك في زوايا بعض شوارع العاصمة، والتي تعرض في بعض دكاكينها كُتب تتحدث عن الفلسفة والتصوف والتاريخ وأسرار الموسيقى وجمالياتها؛ وجدتُ نفسي في المقاهي والمطاعم المزدحمة بطوائف جمهور عريض عاصمي يتشكل في طبقات عديدة، بالإضافة إلى لفيف من الأفرنج المستشرقين الباحثين عن معلومة، والساعين إلى دسيسة أو مغنم مادي. الساعات كانت تجري وأنا أئنُّ من متعة التدليك عند صبيان الحمامات التركية، والذين يروحون - وأنا تحت رحمة أيديهم - يحدثونني عن الطبقة الجديدة والمستفيدة اقتصادياً - للأسف - من عمليات الإصلاح الواسعة، وعن أغنياء الحروب والقلاقل السياسية، الذين بدأت علامات الثراء الفاحش تظهر عليهم، والمحاولين قدر إمكانهم قلب ثروتهم الدنسة حتى تصبح طاهرة، عبر إنشاء مراكز عمل وتجارة لا يساور أحداً الظن أنها تمدُ أصحابها بمال ملوث؛ إخباريات صبيان الحمامات التركية، كانت تتحدث أيضاً عن: ازدهار تجارة الرقيق الأبيض في قلب دار الإسلام.. بالقرب من قصور خليفة المسلمين، وكان بودي لولا بقايا حياءٍ وخوف من الله أولاً، ثم من الذي يتربع على عرش مصر أن أتحقق (شخصياً) من حقيقة تلك التجارة الغريبة!!

سلوتي في الساعات الحرة البعيدة عن النشاط (التثقيفي) لا تكاد

Twitter: @ketab_n

تتعدى من حين لآخر قطع الفراسخ ذهاباً ومجيئاً سيراً على الأقدام بجوار مقر ضيافتنا المجاور لقصر (توب كابي) أو على طول أرصفة شطآن المضيق، بينما تروح عيون الجواسيس التي لا أدري إن كانت عيوناً مصرية أو تركية تراقبني، وكأنها تراقب السفن الكبيرة أو الصغيرة العابرة للمضيق!

أخي (حمد):

سأطوي معك صفحات التاريخ ووقائع الزمن لأصل إلى المفترق الثاني الأهم في حياتي. سأترك تفاصيل كثيرة لم تكن إلا مثل الفواصل بين الكلمات، سأسقط العديد من الأحداث الهامشية التي كأنها المسارات الخيالية لرحلة الأعمار، الموضوعة بين قوسي ابتداء الحياة وانتهائها.

في يومٍ شتائي قاهري استثنائي ذرفت فيه السماء دموعها الغزيرة، استُدعيتُ على عجل إلى (القلعة) التي بناها المظفر (صلاح الدين الأيوبي) قبل مئات السنين على مرتفعٍ من شرق القاهرة.

في يوم القاهرة المطير ذاك الذي أتذكر تاريخه بالتحديد وكأنه اليوم، رأيتُ (الباشا) وجهاً لوجه بعد مضي سنواتٍ طوال من مقابلتي الأولى والوحيدة له.

الخامس من شهر شعبان سنة 1252هـ، هو اليوم الذي توالدت بعده خيباتي الكبيرة، وهطل مطر حزني الأسود؛ كنت وحدي عندما قابلت (الباشا) في قصر الجوهرة بالقلعة، الذي اتخذه (معلمي) مقراً لإدارة حكمه، الذي امتد في يومٍ من الأيام من جبال طوروس في الأناضول، إلى اليمن، مروراً بالشام وفلسطين وشبه الجزيرة العربية.. وقبل ذلك ببلاد النوبة والسودان.

Twitter: @ketab_n

كنت وحدي لأن أعضاء الفريق النجدي الذي انتخب الباشا أفراده تساقط الواحد منهم تلو الآخر، إما لمرض البعض أو لعجز الآخر عن استيعاب المهام التي أوكلت لهم. وفي كل الأحوال كان هؤلاء المنسحبون طوعاً أو كرهاً (تكملة عدد) فيما أظن، أراد (محمد علي) أن يضرب عصافير (مرافقتهم) لي بحجر واحد، وقد أتم الداهية عملية الضرب واصطاد عصافيره، التي لا أدري لماذا طيرها أصلاً واصطادها بعد ذلك؟!

وجدتُ (الباشا) يا أخي (حمد) وقد هرم وكثرت تجاعيد وجهه وتقوس ظهره، جالساً القرفصاء على (دكة) فُرشت بأفضل السجاد. كان هناك في القاعة الكبيرة العديد من الأعوان والكتخدات والمساعدين يجلسون على شكل شبه دائرة حوله، وأمامه وُضعت خرائط لمشاريع بناء وتعمير كان يشرح تفاصيلها لسيد مصر الأميرال (محرم بك) قائد الأسطول المصري في حرب اليونان، ومحافظ الإسكندرية يوم وقوفي في حضرة (الباشا).

جال نظري في القاعة الواسعة لألمح أبناء الباشا الصغار: (سعيد) المكتنز لحماً وشحماً و(عبد الحليم) الفتى الرقيق الأمرد.

وبالرغم من ارتقاء قدر المحيطين بـ(الباشا) وقربهم منه نسباً وفكراً، لم يتعد اهتمامي بعد نظرات الاكتشاف الأولية للمحيط العام، حركات وسكنات سيد مصر، الذي رفع عند دخولي للقاعة التي يدير فيها حكمه، عينيه اللتين كانتا مشغولتين بتفاصيل خرائط الأميرال (محرم بك)، مُتبعاً هذه (البحلقة) بإيماءةٍ من رأسه دليلاً على رد التحية، وابتسامة خاطفة علامة على مشاعر الود.. كما يبدو!

تسمرتُ يا (أبا راشد) لثوانٍ في مكاني بعد تلك النظرات

Twitter: @ketab_n

والإيماءات من (المهاب). حقيقةً لم أكن أعرف ماذا أعمل؟ هل أواصل الوقوف، أم أجلس على أقرب فسحة من الدكة الطويلة التي توسطها رجل الشرق القوي؟

وكأن كل شيء كان مرتباً بعناية قبل دخولي: هرول رئيس التشريفات إلى المكان الذي كنت أقف فيه، ثم أقعدني على مسافة مماثلة للمسافة التي فصلتني عن (الباشا) أثناء لقائي الأول معه، همس رئيس التشريفات في أذني بكلمات فهمتُ منها أن سيده سيفرغ من عمله بعد قليل ليتفرغ للأمر الأهم في جدوله هذا اليوم: الحديث معي.

استمر جلوسي وصمتي لمدة ربع ساعة تقريباً، وهو نفس حال الأقارب والمساعدين، عدا نظرات خاطفة تجاهي وهمسات بينية تُنبئ بأمر جلل أنا أحد صُناعه.

وفجأة.. أنهى (الباشا) مشاغله مع محافظ الإسكندرية ليستدير بكل جسمه تجاهي، ثم نهض بخفة الشباب فاتحاً ذراعيه وكأنه يدعوني أن ألقي نفسي بينهما علامة على الاهتمام والمحبة، التي يُكِنُهما لـ(إمام) نجد الجديد.. المصنوع في مصر!

فعلت ما كان متوجباً ومستحسناً أن أفعله، لكنني سحبت نفسي سريعاً من بين ذراعيه القصيرتين الممتلئتين، بعد أن داهمتني فجأة مشاعر اشمئزاز جوانية جراء تذكر تداعيات مأساة (الدرعية) المؤلمة، تلك المأساة التي كان للهاش الباش أمامي الدور الكبير في صُنعها!

زالت سريعاً المشاعر المتناقضة - التي كان بعضها بدون معنى بعد كل السنوات من المعايشة والرضوخ للواقع - بعدما سحبني الباشا إلى مكان قريب جداً من مقعده، وهو بهذا الفعل كان يؤشر إلى أن مرتبتي قد تغيرت بالفعل.. للأعلى، وزاد من تأكيد صدقية هذا المؤشر طلبه

Twitter: @ketab_n

من الحضور عبر تصفيق من يديه وحركة رأسه المفهوم للحضور.. بأن باشروا الانصراف من القاعة فوراً.

... فعل الجميع ما أراده (الباشا)، تاركين (الوالي) مع ضيفه، وبعض ممن اختارهم سلفاً لحضور الدرس الأخير، الذي سيلقيه على مسامع تلميذه!

... مَن استمرَ جالساً في القاعة كانوا ابني الباشا، ومحافظ الإسكندرية المقرب للوالي، والكاتب السري لديوان الباشا الخاص، بالإضافة لرئيس التشريفات والأوسمة.

بعد السؤال عن الصحة وأحوال (الأسرة)، وبعد الاستفسار عن شؤون النُخبة الدينية من (آل الشيخ) القاطنين في الأزبكية والموسكي، تبادل الباشا مع الحضور ومعي أحاديث عامة عن الطقس الشتائي غير المسبوق في مصر والبلدان المجاورة، لينتهي كل هذا الحشو اللفظي سريعاً مُفسحاً المجال للأحاديث الجادة التي جيءَ بي أصلاً لأجلها.

قال الباشا وقد تلبسته مرةً أخرى ملامح الجد والفوقية: إسمع يا (ولدي) يعلم الله كم أحبك، لأنني أرى فيك بعض ملامح شبابي وأحلامي القديمة، أنا وأنت يا أفندي (خالد) ابنان لقصتين مأساويتين فيهما تشابه كبير، والقدر يبدو أنه ينادي دائماً المواليد الذين يظن في بادئ الأمر بأن حظوظهم الأرضية قليلة، كقلة أمطاركم في الجزيرة العربية، وضعيفة كضعف عقول من يعتقد أن الحظوظ وانتظار هدايا السماء هما فيصل النجاح أو السقوط في الحياة.. أنا - مثلاً - لو أنني استسلمت للمعطيات الأولى في حياتي، لكنت الآن رجلاً هامشياً في (قولة) المقدونية بعد أن تركني والدي طفلاً مخروماً من الحنان والمال، ولو ارتقى القدر بي قليلاً لكنت جندياً الآن عند (الشوربجي)، وفي حال ابتسم من يسمونه حظاً لمحدثك، فلن يكون مكاني في التاريخ - هذا إن

Twitter: @ketab_n

كان لي تاريخ - إلا عبارة عن آمِر تجريدة (قولة) المنضمة لحملة (حسين باشا)، التي أرسلتها الدولة العلية لإخراج الفرنسيين من مصر، أو ستجدني - فقط - قائداً لحرس (خسرو باشا) والي مصر بعد تحريرها من الإفرنج. لكنني لحسن الحظ لم أُطِع حتميات ذاك الواقع اللعين الذي ركلته بقدمي، قافزاً إلى سدة حكم مصر بعد معارك عديدة مع الحامية العثمانية والمماليك والأرناؤوط، ولا استثني هنا معاركي العديدة مع تداخلات الفرنساوية والإنجليز في الشأن المصري.

كل ذلك أصبح تاريخاً يُحكى، وبقي الأمر الملموس والحقيقي.. ألا وهو أنني حاكم مصر وأجزاء كبيرة من المشرق العربي والإسلامي، اندثر الرجال الهامشيون في (قولة) ولم يعد أحد يذكر (الشوربجي) ولا غزاة مصر وما يمثله (خسرو باشا) ولا حتى أعداؤه المختلفون؛ هي الهمة والإقدام يا (ولدي)، وهو الخليط من عوامل أخرى منها تحديد الهدف والتخطيط لاقتناصه، وعدم التردد في جعل تلك الأهداف السامية والبعيدة قريبة التحقق، حتى لو اعترضت تلك الأهداف عقبات صغيرة يصنعها البشر أو فخاخ من عمل الحياة؛ أنا يا (أفندي خالد) لم يكن هدفي الأسمى حكم مصر فقط، فهذا الأمر كان سهلاً نسبياً عبر مسالك الدم والرقاب المتطايرة، بل كان تطلعي واهتمامي الذي تصغر عنده كل التطلعات والاهتمامات الجانبية الأخرى: هو وضع مصر في المصاف الأولى المتقدمة المتحضرة. كنت أريد - ومازلت - ألا أكون نسخة من الدولة العلية في الآستانة، التي دخلتُ - كما تعرف - معها في حروب هدفها إنقاذ الدولة العثمانية من نفسها التي بدأت تُدمر ذاتياً، وإنقاذ مصر من نفس مصير مَن نظل ندعو لهم في صلواتنا أن يبقوا معافين.. وبعيدين عنا. وإن لم يبقوا بعيدين عنا ويكُفوا أيديهم عن التدخل في شؤون الشام وفلسطين وجزيرة العرب، مُكتفين بالدعاء المنبري

Twitter: @ketab_n

لسلطانهم، فستكون العاقبة وخيمة عليهم، وأقسى مما حدث عندما وصلت جيوش ابني (إبراهيم) إلى مسافة قصيرة من دورهم.

آه. . .

. . . لا عليك يا (أفندي) من استطراداتي الدائمة، فأنا أريد أن تعرف مقدار النجاح الذي ستصيبه إن أنت حددت أهدافك وقست وسائلك وقدراتك حسب نوعية تلك الأهداف!

. . . أول هدف أريد أن يرسخ في ذهنك كمعيار للنجاح والفشل هو أن تأخذ بيد أمتك إلى معالي الرقي والنهوض بعيداً عن النداءات الأخرى التي قد تغري بعض المتطلعين الضعفاء، والقائلة بأن الواقع أقوى رسوخاً من الأماني والأحلام، وأن اليوم خمرٌ وغداً أمرٌ - كما يقول شاعركم - لابد من تحقيق ما نريده (اليوم) واشرب (غداً) طيبات المشارب احتفالاً بالانتصارات.

يعلم الله يا (أفندي خالد) أنني لم أكن أريد أبداً أن أهدِمَ عاصمتكم ولا أن أشرد أسرتكم وأحبابكم، لكن (السلطان) الذي دفعني لهذا لأحقق له ما جبُنَ عن تحقيقه ولاته وأمراؤه، لكنني اعترف بأنني لم أمانع في تحقيق رغبة الدولة العلية وصولاً لتحقيق أهدافي التي رسمتها منذ زمن بعيد، وللأسف كنتم أيها النجديون ضحايا الضعف العثماني والقوة المصرية الجديدة، كما منحتني أخطاء قيادتكم، فرصة تحقيق أهدافي وأهداف أعدائكم السابقين. وإنني لأرجو أن تكون ولايتك القادمة أيها (الإمام) والتي سيكون لدولتي وجندي الدور البارز في تثبيتها ونجاحها، تكفيراً عن أخطائي السابقة بحقكم. . وأخطائكم بحق أنفسكم.

ردُكَ للجميل يا (ولدي) - إن حدث - سيُتيح لجيشي المبعثر والمتورط في حروبكم الصحراوية العبثية، أن ينسحب ليتفرغ للمهمة

Twitter: @ketab_n

الأصعب: حروبي مع أعدائكم السابقين وخُصمائي الحاضرين، الذين لا نريد شراً بهم، إن هم عرفوا حدود قُدراتِهم، وقُدرات من يثيرون عليه القوميات والعصبيات المذهبية، في المناطق التي كانوا يسيطرون عليها من قبل، قاصدين جرهُ معهم في حفرة انهيار الدول وفنائها.

والآن...!

عليَّ أن أضع بعض الحقائق أمام ناظري حاكم نجد الجديد:

أولاً: إن مهمتك العظيمة القادمة لحكم بلادك وإشاعة الاستقرار في ربوعها، ستكون ذات فائدة مزدوجة لبني قومك ولنا هنا، فأنت ستستعيد حكم آبائك وأجدادك، وسيرى الناس فيك الاستمرارية لعهود ماضية، ونحن بدورنا سنتخلص من عبء الحكم المباشر لدياركم وسنسحب أعذار الثائرين الخوارج عندكم، المدّعين أن بقاء قواتنا في أرض الجزيرة مدعاة لعدم الاستقرار والتوتر والفتن هناك، وسنتفرغ كذلك للأهم من القضايا الكبرى التي تشغلني وأركان حكمي.. مثل: شكل العلاقة بين مصر وبين دولة السلطان في الآستانة، وكيفية مواجهة الثورات المتعاقبة والمتعاظمة في بلاد الشام، وتحسس مقدار علاقة الدولة العثمانية بعصيان (الشوام) الرافعين لواء الاستقلال القومي بمختلف أشكاله.

... لكن ونحن نتجه سوياً نحو تحقيق فوائد عودتكم المظفرة (بإذن الله) إلى نجد، لابد أن أُذكرُكَ بأن أي تقاعس من جانبك في تحقيق ما سعينا طوال السنوات الماضية إلى تلقينك كيفية إنجازه على أرض الواقع، وأي انتصار - لا سمح الله - من أعدائك عليك وعلى ما تمثله، وعودة لغة التعالي على المذاهب والأمم الأخرى ونعتهم بالكفار، وما يجره ذلك من احتكاكات حربية دامية مع الآخرين المختلفين معكم في هذا التصور أو ذاك، هذان الاحتمالان من التقاعس والهزيمة إن تحققا فيجب أن تعرف أن بطشنا سيكون مضاعفاً، وأن أيام هدم الدرعية

Twitter: @ketab_n

على رؤوس أصحابها ستعود مرةً أخرى، ولكن هذه المرة على (الرياض) وساكنيها، وعلى المدن والقرى التابعة لنفوذ من اتخذتموها عاصمة لكم، وبهذا فلن تُتاح لأمتكم فرصة إدارة شؤونها بنفسها، ولا فرصة تغيير وجه الحياة في بلادكم والمتعايشة طويلاً مع الجهل والمرض والتخلف.

ثانياً: نؤكد لك أننا سنبقى أوفياء في تعهداتنا لك بالنصرة والمؤازرة.. بالمال والعتاد والرجال، وعليك ألا تشكك أبداً في هذا الوعد.

ثالثاً: اختيارنا لك لا دخل للعواطف والميول فيه، وجاء عبر مراقبة وتمحيص واختبارات عديدة لك بعد أن فشل الآخرون فيها..وأصدقك القول: بأنه كانت أمامنا خيارات محدودة فيما يتعلق ببعض أفراد أسرتك ممن طغت عليهم الحماسة الزائدة، لقد رفض هذا البعض مثلاً مناقشة أمر التعاون المسبق معنا وأصروا على عودتهم إلى ديارهم، مع إعطاء وعودٍ غامضة لنا بأنهم سيكونون مختلفين عن أسلافهم فيما يتعلق بتطبيقات المنهج الديني القديم، وأنهم سيبتعدون عن أخطاء دولتهم الوهابية الهالكة، وأمامك مثال على ذلك.. ابن عمك (فيصل بن تركي) الذي صدقَ أنه احتال علينا في مسألة هربه من مصر، وما درى المسكين أننا قصدنا تهريبه لنعرف مدى صدقية وعوده الغامضة لنا، خاصةً بعد اعتقادنا أنه تشربَ طوال عشر سنوات من الإقامة بين ظهرانينا، روح التغيرات الجديدة في مصر؛ لكنه للأسف خيب ظني فيه، وخيب أمل أمته في رؤية عهود من السلم الداخلي والخارجي تُكتب باسمه في صفحات التاريخ الذي لا يرحم، وأود وأنا أتحدث عن المكاشفة الثالثة أن أصارح (الابن خالد) بحقائق أرجو ألا يُساء فهمها.

... عندما وقع الاختيار الأخير عليك للقيام بأعباء المهمة التاريخية فإنني كنت أعرف عنك كل شيء منذ أسرك الأول في الدرعية،

Twitter: @ketab_n

وحتى حلولك (ضيفاً) علينا في القاهرة: أنت تكره الحرب وتحلم بالسلام الشامل، الذي وددتُ لو وُزِّع بين فُرقاء أيامك تلك.. أليس كذلك؟ نعم كذلك..!

وهنا في مصر عشتَ صوفياً تارةً، فيلسوفاً تارة أخرى، وفي وقت آخر كُنتَ (زير نساء). أنت تحب العزلة وتكره الاختلاط الكثير بالناس القريبين منك والبعيدين، تأتيك أحلام مزعجة مثل الكوابيس، وبينك وبين والدتك علاقة فريدة، تشتكي من عِلة مزعجة ومعقدة في أذنك.. كل ذلك كنا نعرفه، لكننا - وأنا هنا أتحدث بلساني ولسان أعواني - كنا والوقت يمضي نزداد تمسكاً باختيارنا لك.. أتدري لماذا؟ لأنك كنت تُذكِّر الكثيرين - وأنا أولهم - بأمسهم، ولأنك شديد الشوق للعودة لمسقط رأسك ومكان ذكرياتك القديمة لا فاتحاً فحسب، بل مُصلحاً على الطريقة العصرية، ولعمري فبلادك تحتاج للمصلحين أكثر من الفاتحين!

رابعاً: عليك يا (أفندي خالد) ألا تتردد في سفك الدماء عندما يحتاج الأمر لذلك، ولا تستنكف أن تجنح للسلم عندما يحتاج التدبير السياسي لهذا التصرف، وإياك أن تباشر أياً من الخيارين وأنت شحيح بمالك، فالمال وخاصةً في بلاد فقيرة ومحرومة مثل بلادكم، لهُ سحرٌ لا يقاوم، وأقوى حتى من البارود والسيوف.

خامساً: نحن نعاهدك بألا نتصل بأحد من مدعي الإمامة والإمارة من بني عمومتك أو من أعلام البيوت النجدية الأخرى، مادُمتَ (صديقاً) لنا وحافظاً لعهودنا معك، وما دمت حياً لم تصرع، وقوياً لم تنسحب من المناجزات، وقطباً يجتمع الناس من حولك ولا يتفرقون.

سادساً: عليك يا (ولدي) ألا تشعر بالخزي والعار وجنودنا ورؤساء الجيش المصري بجانبك ومن أمامك ومن خلفك؛ لا يداخلك أبداً إحساسٌ بأنك (عميل) للمصريين وأنك ذو ميول مصرية وتربية مصرية

Twitter: @ketab_n

وهوى مصري، فالذي سيقول ذلك عدوك في ميدان السياسة وخصمك في الحكم والسيادة، وهذا العدو والخصم كان يراسل - ولا يزال - السلطان في الآستانة ويراسلني كذلك، بل أن آخر أئمتكم على الدرعية **كان يراسل السلطان في اسطنبول في الوقت نفسه الذي يقول لرعيته:** إنه عدو للمبتدعين الخارجين عن الملة! سأقرأ - مثلاً - لك بعضاً مما جاء في رسالة لأخيك (عبد الله) مُرسلة إلى طرف الدولة العلية في تركيا، وقد مرت عليَّ قبل إرسالها إلى حيث عنوان المرسل إليه.. يقول أخوك:

(إلى السلطان ابن السلطان سيدنا السلطان محمود الغازي، أُقدم عريضتي هذه المشتملة على الضراعة.. إنه لما كان (عبدكم) هذا من المسلمين الذين لا ينفكون في أداء شروط الإسلام.. إلخ)

هل أكمل؟ لا تثريب عليك إن لم تجب، فأنا أعرف ما تريد أن تقول! السياسة يا (ولدي) لها أوجه ويجوز فيها الكذب، كما يجوز فيها الاحتماء بالبعيد درءاً للمخاوف القريبة، ويجوز كذلك الاستعانة حتى بالشيطان ليسلم القسم الكبير من الأمة.. إن لم يكن كلها.

الشعور بأنك تحت رعاية أصدقائك في مصر، وأنك تستعين بهم حتى يشتد عود حكمك وجندك، والذين سيقمعون الفتن ويرسخون السلم الداخلي، هذا الشعور يجب أن يكون مقروناً بالفخر لا بالعار والخزي، وإن أنت سمحتَ للأحاسيس الـمُقللة لشأنك أن تُعيق خططك وأهدافك فستضيع الفرصة التاريخية من بين يديك، وستضمحل عزيمتك حتى قبل أن تباشر مجالدة أعدائك، وعندها سيتفرق من حولك تاركيك تعيش لحظات مشاعر الذل والدونية.. فلا تنسى هذا!

سادَ كل أرجاء القاعة الواسعة صمت عميق، وخِلتُ - لانبهاري - أن السكون الذي دام للحظات ولفَّ ما حولي، لا يزعجه إلا أصوات لهاث أنفاسي ودقات قلبي المتسارعة، وفي ثواني - أو دقائق لا أعرف

Twitter: @ketab_n

- الصمت تلك، تيقنتُ كم هو ذكي هذا (الباشا) وتسلسل أفكاره الكثيرة التي عرضها - وعليها غِلافُ الفوقية - يدلل على هذا. وتأكدتُ أيضاً كم هو ساحر هذا (الوالي) وهو لا يتركني أفيق من صدمات تهافت وتلفيق بعض أحكامه ورؤاه، إلا وتأخذني غيبوبة أخرى من الخدر الذي يجرني إليه هذا الكم الهائل من اقتطاعاته الـمُجزأة والمخلة بصحيح التاريخ وأحداثه.

أنا أعلم. . وهو يعلم يا (أبا راشد) أنني لن أعترض جهاراً على كلامه الذي قاله لي بأستاذية واحترافية مُذهلتين، وحتى لو كان علمي وعلمه مُدركين لعمق الاختلافات بيننا في أسباب وجودي في قاعته الواسعة، وفي النتائج التي يرتجيها كل منا بعد أن تنتهي مهمتنا المشتركة. . إن قُدر لها النجاح. لكن هل يستطيع مثلي أن يجأر بكل ما في صدره وهو يعلن استسلامه واستسلام عاصمته الرمز منذ أكثر من ثمانية عشر عاماً مضت؟ وهل يستطيع مثلي أن يُظهر السخط على حديث (ولي نعمته) وهو يأخذ منه الألقاب الوهمية والموعودة. . و(المعاش) المبالغ فيه قياساً بما يحصل عليه أقرانه جميعاً؟

سعلةٌ مكتومة ومفتعلة - من أحدهم - أعادتني إلى ضروريات الرد على كلام (الباشا) الـمُترقب لما سأقوله:

(حضرة صاحب الدولة والعاطفة والجلالة سيدي (الباشا) الأفخم، يعلم الله كم ألهج وتلهج ألسنة (الأسرة) الكريمة بالشكر على عطفكم وحدبكم الدائمين، ونحن نعتقد أن ضرورة الإشارة الدائمة إلى حالات الامتنان والرضا وحفظ الجميل فيه انتقاص لولي نعمتنا، لأن ما استقر في وعينا وصار يحكم تصرفاتنا وألسنتنا، هي هذه المشاعر الصادقة، ونقيض ذلك هو ذكرها والتنبيه عليها من حين لآخر. و(ضيوفكم) غير مستعدين لترك الخير الصادق المستمر، ليحظو بالمتقطع الهزيل، وأنا أرى أن الحديث الآخر عن أحداث مضت وانقضت أبانَ كل أطرافها -

Twitter: @ketab_n

عدا طرف واحد[1] - موقفهم منها وسوء الفهم الذي لف أفعال، وردود أفعال هذا الجانب أو ذاك حينها، هذه العودة فيها نكء لجراح اندملت ببلسم النسيان.. وعطف صاحب الدولة والرحمة، وهكذا فلا فائدة تُرجى من وخم استرجاع مؤلمات الماضي، التي إن كانت لها من فائدة تذكر، فهي معرفة شمس منظار ذاتكم الولية النعم!

... ما قاله - مولاي - في حديثه العاطر المفيد الذي شنف أذني قبل قليل، سيبقى وساماً على صدري، وذكرى في عقلي، وكتاباً مُرشداً في كل أمري، فقرَّ عيناً يا مولاي بابنكم الحافظ لجميلكم والباقي وفياً عارفاً دائماً لكل حرفٍ، وفعلٍ، وعلمٍ أخذه من مصباح الشعاع الوفير، ومن مساعديه الكرام الجهابذة البررة؛ ويرغب - الابن - إن سمح له (والده) وحيد قطره، بتبيان وجهة نظر مختصرة صغيرة حول ما سيجري لاحقاً وفيه الفائدة - كما ذكر مولاي - لبلاد صاحب الرتب العلية، ولبلادكم الثانية المحتاجة لمساعدتكم وغوثكم).

صمتُّ يا (حمد) لبرهة لأرى صدى كلماتي على وجه (الباشا)، لكن ملامحه بدت لي جامدة وخالية من أي تأثيرٍ أحدثتهُ تلك الجمل السجعية المليئة بالتزلف والمداهنة، وكأنه كان ينتظر عندما أشار إليّ بكفيه المفتوحتين بشكل أفقي أن أُكمل حتى الوصول إلى الأهم الذي سيُطرح بعد إزاحة كل حشو حديثٍ مُتكلف.. فاستجبتُ:

... يا (مولاي)! إنني متأكدٌ من مساندتكم المعنوية والمادية للابن المخلص الذي اخترتموه لإنجاز أخطر مُهمة، يمكن أن يقوم بها إنسان في جزيرة العرب، والتي تكثر فيها الادعاءات بالإمارة والتسلطن، وتنشقُ أرضها يوماً بعد يوم بمن يزعمون أنهم يمثلون مصالح الأمة ومعتقداتها. وأنهم وهم يوازنون بين خضوع القيادة لمتطلبات تراث الأمة

(1) يقصد الدولة العثمانية.

Twitter: @ketab_n

وهويتها ومنظومتها الدينية المحلية، وبين كسب اعتراف الدولة العلية في الآستانة، إلى جانب استمالة عطف مولاي في مصر، إنهم بهذا التوازن يبشرون قومهم بألا خوف ولا جزع مما ستحمله الأيام القادمة - في رأي المدعين - ما دامت الأمة متمسكة بهم وبقدرتهم على حفظ التوازنات الصعبة، حتى إن أسرفوا في القتل، والترهيب، والتفريق بين القبائل والعشائر من أجل السيادة والإمامة!

ولأن الأمر كذلك في خطورته، والصورة كما رسمتها لكم، ورسمها قبلي قادة جيشكم الميداني في نجد وما حولها، والـمُنبئة بنذرِ شرٍ مستطير على بلادي وعلى جيشكم، فإنني أجزم بأن (مولاي) وقيادته لم تخطئ ألبتة في نياتها التي تترجمها أفعالها هذه الأيام، بإرسال جيش لجج إلى نجد أنا (قائده)، حاملاً معه الأمل بغدٍ آمن وعيش رغد، وبوحدة تجمع لا تُشتت، وتعطي ولا تأخذ. أنا أجزم كذلك بأن مشروع مولاي الجديد في الجزيرة سيُكلل بالنجاح وأنتم تتفرغون لمتابعته ومساندته، لكنني أخشى أن تحدث أزمات عظيمة - لا سمح الله - بين الدولة المصرية وبين دولة السلطان في اسطنبول كما تُشير بذلك.أحداث هذه الأيام في الشام وفلسطين، وسيتبع ذلك بالتأكيد تفرغ من (سيدي) وقادته وجيوشه لإدارة الأزمة الكبرى شبه العالمية على حساب إدارة أزمة صغرى بنجد، وحينها أخشى أن أُترك في ميدان الوغى وحيداً لا ناصر لي ولا معين - بعد الله - إلا جند محليون تم إنشاء جيشهم على عجل، وتوحدوا لأنهم كانوا ينتظرون مغنماً مادياً من الإمـــام الجديد، وعندما سيشعرون أن جيوش دولتكم السّنية الـمُهابة قد أُمِروا - وهذا منطقي - بالرحيل لدعم جبهات الحرب المفتوحة الأخرى، أو للتقليل من مصروفات ضاغطة على خزينة دولة محاربة كالدولة المصرية (رعاها الله) تحارب على مساحات من الأرض شاسعة، فإنهم سينفضُّون من حولي، وسيتوجهون - حسب ما جرت عليه العادة في بلاد العرب - إلى حمى

Twitter: @ketab_n

الآخر المنتصر، مُعلنين أنهم بريئون من مساندتهم السابقة للخاضع للأجنبي.. كما سيزعمون!

... أنا أدعو الله ألا يأتي هذا اليوم، لكن إن حدث فما العمل؟ لابد أن أحتاط لكل أمرٍ كما عودنا دائماً عِلمُ مولاي الغزير، ولا أرى بأساً إن سمح مولاي أن أُناقش ما قد يطرأ مستقبلاً من أوضاع غير محسوبة على الخطط المرسومة مُسبقاً مع قادتكم الميدانيين، ومع المساعدين الذين سبق أن التقيتُ بهم مرات عديدة في شهور السنوات الماضية.. أمرٌ آخر أريد من ولي النعم وعداً في شأنه: مستقبل بلادي، ودماء أهلها!

أنا يا صاحب الأفضال أتعهد لكم في حال حكمتُ تلك البلاد، التي (دعت) تصرفاتٍ معينة من قياداتها لم تناسبكم، إلى اتخاذكم للقرار المثير للجدل في الماضي، ألا أُكررَ نفس مواقف إخواني وآبائي السابقة، ولا أخطائهم التي أثارت لا للجدل فحسب، بل عداء مَن كان لابد أن تُكسب صداقته، ويُستجلب حدبه بدلاً من مدافعة وخيلة.

وبما أن قَدر الله قد وقع وأضير جرَّاء هذا القدر كثيرون منا ومنكم، وتبع ذلك أهوالاً من الأحداث والوقائع، لايزال يجري بعضها الآن في الأرض حاضنة الأخطاء القديمة، وبما أن ذلك كله جرى ودولتكم كما (ابنكم) المتنعم بعطائكم واختياركم، يحاول إنهاء أصل المشكلة وتبعاتها عبر هذه التجربة الخيرة، التي لا يفصلنا عن حركتها نحو المشرق إلا إشارة موافقة من ذاتكم البهية، فإن من الأفضل ووعدي الذي أنا مُلتزم به قائمٌ، أن أحصل من (مولاي) على وعدٍ يُمنح (للابن)، بأن يُجدول، بعد أن تُعاد الأمور إلى نصابها، وتثبت قوة سلطاني في قلوب الرعية، ويظهر لهم فوائد خيارات السلم والأمن، ومشاريع الأخذ بأيديهم نحو قمم التحضر والرقي.. كما فعلتم في مصر، انسحاب قواتكم المنصورة المهابة إلى تجمعات خارج المدن

Twitter: @ketab_n

والقرى أولاً، توطئةً لعودتها النهائية للبلاد التي تفضَّلَ عليها الرب بحكمكم العادل.

إن بقاء الجند - يا مولاي - في داخل الأسواق وحول بيوت الأهالي، سيكون داعماً للقائلين - كذباً - بأنكم محتلون غُزاة يجب جهادهم ومدافعتهم، وسيكون أيضاً مدعاةً للتقليل من شأني في نفوس الرعية، لأنني لم أستطع التخفيف من وجود من أتيت معهم ومن خلالهم.

هذا الطلب يا (مولاي) لا يتناقض مع طلبي الأول، ألا أُباغتَ بسحب سريع للقوات المنصورة جراء أحداثٍ قد تشدُّ انتباهكم صوب مكان قصي، فشتان بين فراغٍ أمني وسياسي خطير، يجره انسحاب فجائي للقوات المصرية صاحبة الفضل، وبين انسحاب مجدول مخطط له مُسبقاً يُراعي تحقيق الأهداف المرجوة كلها.. أو غالبيتها العظمى على الأقل!

وعدٌ آخر أطمع فيه لمعرفتي بخلقكم الكريم: مهما كان من قوة الخلاف بيني وبين بني عمومتي ومَن يحتشدون وراءهم، فالأمل كل الأمل أن يُقتصد في إراقة دمائهم، بل الأفضل ألا يُراقَ دمٌ لهم قط، مادام هناك أملٌ ضئيل في رجوع كُل مخالـفٍ لحكمي، إلى حمى منطق العقـل وجنة التبصُر في عواقب ثنائية الحكم الـمُثيرة للشقاق والفتنة. دماء أهلي وبني قومي غاليةٌ عليَّ جداً يا (حكيم عصره)، وهي إن أُريقت فسأجد نفسي مُتخبطاً في الخروج من مُستنقعها اللزج، وهي فوق ذلك وقبله نقيض طبعي ومعاكسة لمشروعي، الذي سأُقدم به نفسي إلى بلادٍ أرجو أن تكون أيامها القادمة عزاً وسؤدداً، بدلاً من عشقها لأوضاع القلاقل والخوف الذي عانت منها طويلاً).

... (نهض الباشا) فجأة فاتحاً ذراعيه لي مثلما فعل في أول المقابلة، لأرتمي بينهما مودعاً هذه المرة، وفي فهمكم كفاية يا (أبا راشد) لأن تصل إلى نتيجة أكيدة تقول: إن جزءاً كبيراً من حديثي

Twitter: @ketab_n

السالف لم يعجب كبير مصر وداهيتها، هل يمكن تخيل أن تصل الأمور إلى حدٍ قد يضطر فيها الجيش المصري إلى سحب قواته من مناطق نفوذه العديدة، لتجميعها في الشام وفلسطين وحتى في مصر، ردعاً لهجوم عثماني أو أجنبي محتمل؟ هذا الأمر لم يكن في مخيلة والي مصر وقتها، لأن موازين القوى الإقليمية والعالمية لا تُشير إلى أن مجريات الأحداث ستأخذ الجميع إلى حافة الهاوية، بل إن العكس هو الصحيح.. في نظر (الباشا)، فالثورات التي بدأت في الاشتعال في بلاد الشام وفلسطين وبدعم من السلطان العثماني وبعض البلاد الأوروبية، يمكن أن تُعطي - للمفارقة - عُذراً (للباشا) في المستقبل لنقض المعاهدات السابقة مع الدولة العلية، والتي ضمنتها أوروبا الكبرى، ومَن ثمَ معاودة احتلال الأناضول كلها وصولاً لقصور الآستانة. إذاً لا داعي لأن يطرح (الأفندي النجدي) والذي لا يعرف السياسة إلا قليلاً فرضية سحب القوات المصرية فجأة من جزيرة العرب، دعماً للثغور المصرية المتهاوية.. أبداً لن تصل الأمور إلى هذا الحد.. هكذا اعتقد الوالي واهماً. إما أن يحدد الإمام (النجدي) الجديد متى وكيف يُريق الجيش - الذي سيأتي به كقائد - دماء النجديين ومقاديرها، ومن ستسلَّم أوتار رقبته من (الأسرة) ومن لا يسلم منهم.. أو من غيرهم، فذلك كثيرٌ على من قرر في السابق مصائر الحروب والمحاربين.. لا غيرُه.

تبقى نقطة أخيرة في حديثي أثارت حنق (الباشا) كما يبدو: سحب القوات المصرية نهائياً من جزيرة العرب حتى لا تُثير حمية وأحاسيس النجديين المرهفة، وحتى يسلم شرف (الإمام) الجديد من الأذى.. هذا هراء وتخريف غير مقبولين عند من كان مثل (الباشا)، الذي لم تدخل قواته بلداً وخرجت طوعاً منه.. إطلاقاً!

أما الناحية المضحكة في حديثي الذي وجده (الباشا) مُسلياً.. والأكيد أنني لا أعنيه تماماً.. في رأيه، فتلك الإشارة إلى الجدل حول

Twitter: @ketab_n

الغزو العثماني المصري للدرعية، وجعلها أطلالاً ينعق فيها البوم. هل يمكن أن يجادل المنتصر (ذاته) في صواب أفعاله، وجيوشه تُسقط رؤوس الأعداء، وتغنمُ المغانم، وتقضي على الدول والدعوات الإصلاحية؟ الجدل يجب أن يكون من نصيب المنكسرين المهزومين.. ذلك شأنهم وحدهم!

كل ذلك فهمتَهُ يا (حمد) كما فهمته أنا.. أليس كذلك؟!

وأنا أرجع إلى الخلف بعد أن سحبت نفسي من بين ذراعي (الباشا) الذي استمر يتمتم بالأدعية لي ولمهمتي.. ولجيشه بالطبع، تذكرت أنني لم أحصل من (مُضيفي) على كلمة السر التي توضح متى تتحرك (أم التجريدات) نحو البلاد التي غادرتها فتىً منذ أكثر من ثمانية عشر عاماً، إلى أن عُدت إليها ثانيةً كهلاً مُحملاً بالهموم والمخاوف والآمال الكبيرة.

لم تستمر حيرتي طويلاً فما إن وصلت إلى باب القاعة الكبيرة معطياً وجهي إلى حيث جلس (الباشا) وأبناؤه ومرافقوه الـخُلص، حتى رأيتُ كاتب ديوان (الباشا) السري (رشدي بك) يُهرول اتجاهي منادياً:

يا (أفندي خالد)..!

... توقفتُ مُلبياً النداء، وعندما وصل أمين السر إلى مسافة قصيرة مني مد عنقه صوب أذني اليُسرى ليهمس فيها:

" موعدك مع النصر والتمكين سيبدأ يوم رابع العيد الصغير.. بعد رمضان.. هكذا أمر الباشا! "

(أخي حمد):

إلى أن مرت أيام ما قبل رمضان، وانقضت عدة الصوم وهَلَّ العيدُ الذي ليس كمثله عيد، رحتُ أودع كل شيء - تقريباً - في مصر: الأهل والمعارف والأصدقاء، من أتى أولاً ضمن رحلة الأسر، ومَن وُلدَ وتربى بعد ذلك في كنف (ضيافة) الباشا. طلبتُ الصفح من المقاهي وروادها،

Twitter: @ketab_n

قبلتُ أشجار الصفصاف والجميز التي طالما جلستُ تحت غصونها الوارفة، مُراقباً سريان مياه النهر العظيم.

سلام من مودع قد لا يعود يا مزارع مصر وسواقيها وقناطرها، يا أرضها الطيبة وناسها الكرام (الغلابة)، المحاربين قسوة الزمان وجور الحكام، واستخدامهم المستمر كوقود للحروب والمطامع.. بتلك الطرائف والهزليات ذوات المعنى المبطن. إلى لقاء مشكوك فيه يا شمس مصر الحانية، وأنتِ تغيبينَ بين غابات النخيل وتُشرقين بين الجبال التي شهدت أم الحضارات، سيُحزنُني فراقك يا قمر مصر البهي، ويا تلك الأحاديث المسائية للفلاحين، وهم يعزفون على الناي الحزين. مَنْ لي بمثل حارات وسكك مصر وهي تُحيل غربتي إلى وطن، وكآبتي إلى فرح، ولهفتي إلى العلم والبحث عن الحقيقة والذات، إلى واقع ملموس ثري بعطاءاته.. لله أنتُن يا بنات مصر فكم حفظتن من أسرار نزقي وسقطاتي!

وأنت أيها (الباشا) وكل حكومتك.. ماذا تراني أقول لكم وكتاب عمري الذي كتبتم أغلب صفحاته لم ينته بعد؟ أأقول لكم شكراً على نشأتي وتعليمي لوسطية الدين، وتقديمي لـ(رعاياي) في نجد كإمام جديد لهم بعد غيبة الموت والأسر لأئمتهم السابقين؟ أم أقول لكم كما قال حكيم قديم لامرأة بغي: ليتكِ لم تُخطئي ولم تستغفري؟!

والدتي الحبشية الطيبة والتي طلبتُ من الباشا عبر ديوانه أن ترافقني في رحلة العودة إلى نجد، مع أخت لي غير شقيقة ماتت أمها (الأمة) في مصر، هذه الأم ظلت تبكي كذلك مثلي على فراق مصر.. مثلما كانت تبكي خوفاً عليَّ من رحلة المجهول.. وحقَ لها هذا وذاك!

.. مصر.. تركيا.. الدول الأوروبية.. الشام وفلسطين.. أين نجد وأخبارها من كل هذا الإسهاب واللوعات؟

ألم يراودك سؤال كهذا يا (حمد)؟

Twitter: @ketab_n

الحقيقة يا (أخي) أنني مسكون جداً بتاريخ الدول والأمم، ولا يمكن أن نمر هكذا على بلادٍ أثّرت سلباً وإيجاباً على حياتنا في نجد، دون أن نغوصَ في أعماق المشهد العام لمجتمعات تلك الدول: كيف بدأ تاريخهم مع طبقاتهم الحاكمة وقراراتهم المتفردة؟ وكيف كانت أقدارهم مع النهضة أو الانهيار.. ومع الحروب البينية التي تعبث بكل شيء جميل؟

كان لابد يا أخي (حمد) أن أكثر من الصفحات التي تتحدث عن كل هذا أو بعضاً منه على الأقل، لأنه لا يمكن فهم ما كان يدور في نجد، وإسقاط حراك الأمم الأخرى التي لها صلة بأرض الجذور.. في الوقت ذاته؟!

أما نجد فلا يمكن أن أنساها مهما طالت أزمنة الفراق ومهما نأت مساحات البُعدِ والانفصال.. ولله درُ (قيس بن الملوح) حين قال:

أحن إلى (نجدِ) فيا ليت أنني سقيت على سلوانه من هوى (نجد)
ألا حبذا (نجد) وطِيب ترابه وأرواحه إن كان (نجد) على العهد

الأمر الأكيد يا (حمد) أننا في مصر كنا نؤثر عليكم في نجد عندما (نُرسل) لكم من حين لآخر (إماماً) جديداً يدعي أنه صاحب المجد والأمل، وكنتم أنتم تؤثرون علينا بما يردنا عنكم من أخبار.. فيها ما فيها:

فرَ ابن العم (فيصل بن تركي) من سجنه في مصر.. كما يقول، في سنة 1243هـ[1] ليجد والده (تركي بن عبد الله بن محمد) يؤسس دولة سعودية سلفية صغيرة الحجم، قياساً بما حققه أسلافه في الدولة الأولى، الدولة الثانية لم يكن اتساع نفوذها هو الذي يفرقها عن الأولى فقط، بل شواهد أخرى.. منها: أن مؤسسها اتخذ من الرياض عاصمةً له بدلاً من

(1) الموافق لعام 1828م.

Twitter: @ketab_n

مقر الآباء والأجداد في الدرعية، وسوّغ كل هذا الفعل بقوله: إن الرياض أقوى تحصيناً من الدرعية، وبها مزارع أكثر وموارد مياه أغزر، وتلك لعمري أسبابٌ لم أستطع هضمها ولم تقنعني ألبتة، أما أكثر الأشياء مغايرة بين دولة الخلف والسلف، فهو الادعاء بأن فرع الأسرة الآخر[1] هو الذي يملك حق إحياء الدولة الفانية، بعد أن فرطَ الفرع الآخر بها بسوء تدبيره أولاً ومسايرته لضيافة (الباشا) في مصر ثانياً.

المهم..! عاد (فيصل) ليجد أباه يسيطر على أنحاء كثيرة من نجد بعد جلاء أكثر القوات الغازية المصرية منها؛ وتجمعَ عدد كبير من أسرة الشيخ (محمد بن عبد الوهاب) حول (تركي) وعلى رأسهم العائد من مصر الشيخ (عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب)، وقد أعطت عودة (فيصل) لأرض الآباء والأجداد قوة دفع لإدعاء والده العريض، في أنه الأصلح والأوحد لوراثة الدولة التي ناصرت الدعوة الإصلاحية منذ ثمانية وثمانين عاماً مضت. قوة الدفع تلك عُبر عنها من خلال حملة للأب والابن هدفت لاستعادة الإحساء التي ضاعت مع (أملاك) كثيرة كانت للدولة الأولى.

في عام 1245هـ تحقق للاثنين ما أرادا، بعد إخراج (بني خالد) من حكم الإحساء وما جاورها، لكن نجاحات (تركي) وابنه في الإحساء وحاضرة نجد لم تتكرر كما رغبا في البادية، التي أخفق الاثنان في إخضاعها لنفوذ دولتهما. أما العثمانيون - الذين تسبب اصطدام (دولتنا) الأولى بهم، إلى وصولنا للنتائج التاريخية المعروفة - فكان موقف زعماء ما سمي بالدولة السعودية الثانية منهم ليناً جداً، إلى حد أن هؤلاء الزعماء لم يجدوا غضاضة في مراسلة والي العراق العثماني والتودد له،

---

(1) الإشارة هنا تتجه إلى انتقال الحكم في الدولة السعودية الثانية إلى ذرية عبد الله بن محمد بدلاً من ذرية الإمام عبد العزيز بن محمد.

Twitter: @ketab_n

بل الإعلان أنهما تابعان للدولة العثمانية، وكأن حروبنا السابقة معهم لم يكن لها معنى!

... (الباشا) في مصر، لم يجد - من جهته - في (تركي) وابنه، خطراً مُحدقاً عليه يضطره إلى الانشغال بأمرهما، بدلاً من تكثيف جهوده للقضاء على ثورة (عسير) الجنوبية، ولاسيما أن (أمير) الرياض أعلن المرة تلو المرة أنه لن يتحدى حكومة (الباشا) في مصر، ولن يهاجم مناطق نفوذها في الجزيرة العربية.

... قُتلَ (تركي بن عبد الله) - كما ذكرت سابقاً - على يد ابن أخته (مشاري بن عبد الرحمن) في سنة 1249هـ[1]، وكان هذا الاغتيال، والقتل الذي أوقعه (فيصل) في قاتل أبيه بعد ذلك، إشارةً إلى أن ثمةَ خلافاً داخل البيت الحاكم (الجديد)، وهو أمرٌ مُناقض لسمة الائتلاف الظاهري أبان حكم أئمة دولة الدرعية طيبة الذكر!

هكذا كانت الأحوال عندما وصل (فيصل بن تركي) إلى نجد هارباً حسب قوله ومُهرباً حسب قول المصريين، وهكذا بدأت أيام حكم (فيصل) بعد مقتل أبيه.

أنا أعرف يا (حمد) أن تذكيركم بكل تفاصيل تلك الأحداث وما رافقها من أيام نحسٍ تناوبت على الأهالي حينها، إما بسبب حروب من أجل التسيد، أو جراء معاناةٍ من القحط والجفاف وقلة ذات اليد التي كأنها الأصل في حياة بلادنا اليومية، هو أمرٌ باعثٌ على الملل، لكن هذا السرد مهما بدا مُملاً ورتيباً كان لابد لي من تذكيركم به، حتى أختبر صحة المرويات التاريخية - إن قُدرَ لي أن أتلقى منك رسالة جامعة فيها تجديد لمحبتكم وصداقتكم - وفيها كذلك التأكيد أو النفي -

(1) الموافق لعام 1834م.

Twitter: @ketab_n

من مصدر لا يكذب - لكل ما سمعنا حينها عن أخباركم ومن ثـمَّ لا يبقى أمام أجيالنا وأجيالكم إلا الحقيقة وحدها.

نعود مرةً أخرى إلى ما كنا نتحدث عنه:

الأخبار كانت تأتينا مُتدفقة في مصر عما كان يحدث عندكم، ومن تلك الأخبار ما كان يذكر عن المخاضات الصعبة التي أنجبت أحداثاً عظاماً بعد ذلك.. وحتى و(فيصل بن تركي) يحقق أحلامه الـمُجاهر بها عندما كان (ضيفاً) على الباشا في مصر.

ما بين تأسيس الدولة (الثانية) التي يختلف الكثيرون على من أسسها بشكلها الذي أكتب الآن هذه الرسالة وهي عليه، وبين دخولي الرياض (فاتحاً) في صفر عام 1253هـ[1]، زاد ضيوف (الباشا) من (آل سعود)، وهذا الأمر كان غير منطقي بالمرة، لاسيما وأن الناس كانت تسمع عن هروب جماعي لأفراد الأسرة الـمُستضافين في القاهرة، إلى حيث وجهتهم التي عقدوا العزم على الاتجاه صوبها.. إلى الأرض التي ظلت تنادي وريثاً منتظراً، يحكم البلاد العاشقة - دائماً - للقادة والأبطال الأسطوريين.

كيف حدث هذا؟ الأمر في غاية البساطة، وفهمه لا يحتاج إلى كثير عناء، فمن كان (يهرب) من مصر كانوا قلة، أما من كان يُرحل إلى القاهرة بعد كل تجريدة عسكرية مصرية، فكانوا كُثر.. فهناك مثلاً العم: (عمر بن عبد العزيز بن محمد بن سعود) وأبناؤه: (عبد الملك، ومحمد، وعبد الله) هؤلاء قبضَ عليهم القائدان (أبوش أغا، وحسين بك) أثناء حصار (تركي بن عبد الله) في الرياض عام 1236هـ.

وما بين تجريده وحمله، وموت إمام وتنصيب آخر، وما بين قحط مستديم وغيث خاطف، عاشت (نجد) سنوات ما بعد سقوط (دولتنا)

(1) الموافق للسادس عشر من مايو 1837م.

Twitter: @ketab_n

الموحدة الأولى، إلى أن وصلت الحملة التي يرأسها قائدان: رئيسٌ سابق في شرطة القاهرة اسمه (إسماعيل بك).. وأنا!

... هذه التجريدة وصلت ميناء (ينبع) وعشرٍ باقين من شهر شوال عام 1252هـ، وكانت (بحق) أعظم الحملات العسكرية التي أُرسلت من مصر للعبِ لعبة الموت مع السلفيين النجديين، إن نحن استثنينا حملتي (طوسون وإبراهيم) أبناء (محمد علي باشا) قبل ستة وعشرين عاماً من (تجريدتي) العتيدة تلك. الحملة العتيدة المذكورة وصلت أعداد قواتها حوالى الألفين من منسوبي سلاحي المشاة والمدفعية، بالإضافة إلى سلاح الفرسان الذي ناهز عدد أفراده المنضمين لـ(حملتي) ألف فارس.

... أنا ومعي سلاحا المشاة والمدفعية أخذنا طريق البحر متجهين لميناء (ينبع) بعد مرور سريع على ميناء (السويس) المصري صاحبه احتفالٌ وداعيٌ كبير، مماثل للاحتفال (القاهري) الذي أقيم لنا قبل ذلك بخمسة أيام، أما سلاح فرساننا وعلى رأسه (إسماعيل بك) فقد أخذ الطريق البري الذي تأخذه تقريباً كل تجريدة مصرية مُيممةً وجهها تجاه وسط الجزيرة العربية.. وأعني هنا طريق العقبة/ ينبع.

لم يتقاعس (الباشا) على الإطلاق في تجهيز (جيشنا) المختلط بكل المتطلبات التعبوية: السفن، الغلال، الخيل، والجمال والبغال، قِرب الماء، شالات وكراكة، فِراء لقادة الجيش وكهدايا لشيوخ القبائل الذين لا يمانعون من مرور التجريدة عبر أراضيهم - سِلماً - إضافة لسروج مزركشة، وآلاف الخيام ذات العمودين، المرفق معها مطابخ كاملة العدة، وأطباء وأدوية وأخيراً وأهم من كل هذا.. مالٌ كثير!

أخي (حمد):

حالَ ما قيل لي إن سفينتنا ستصل بعد ساعة لشواطئ ميناء (ينبع)، أخذتُ أهتز مثل المصاب بنوبة صرع كبرى، ولم تتركني هذه الحالة

Twitter: @ketab_n

التشنجية إلا وبيوتات (ينبع) الصغيرة البيضاء تلوح في أفق مساء ذاك اليوم التاريخي.. بالنسبة لأخيكم!

فكرتُ يا (أخي) أن أذهب من فوري وسفينتنا ترسو على رصيف الميناء الصغير، إلى حيث تسكن والدتي - منذ أواخر شهر شعبان - في ضيافات الإدارة الحكومية هناك، بعد أن أبدت عدم استساغتها لفكرة سفرها مع الجند الذين أذاقوا الحنظل لمساكين نجد.. كما تصفهم والدتي!

فكرتُ أن أذهب إلى المكان الذي يضم بين جدرانه (امرأة) تتخاطفها المشاعر المتناقضة، لكن هذه الفكرة أرجأتها لأتمم ما نويت فعله منذ أن تحددت مواعيد التجريدة..: السجود لله، وطبع قُبلة على ثرى الجزيرة العربية.. أُمنا التي أذاقتنا خبز القوة والضعف في الماضي، والتي سنستمد منها - افتراضاً - الرغبة والقوة في التحديث والتغيير في قادم الأيام..

سجدتُ لله شاكراً له نُعماء ما اختصني به (الباشا).. كما نصحني بهذا بعض أقربائي في مصر، وسجدتُ له شاكراً أن تركني حياً وعاقلاً حتى الآن بعد كل الذي جرى.. كما نصحني بهذا بعض البسطاء في مصر!

أما القُبلة (الترابية) فكانت طويلة جداً، رحتُ فيها أتذكر محاولات بعض الأسرى من عائلتي وهم (يغرسون) أقدامهم بعنف على الثرى نفسه.. الذي قبلتُهُ، قبل أن تأخذهم سُفن الأسر الذي تحول بعد ذلك إلى (ضيافة) طويلة إجبارية!

كان الواهمون السذج من عائلتي يعتقدون - حينها - أن آثار أقدامهم ستبقى شاهدةً على رحلة التغريب والأسر، وشاهدة على عودتهم بعد ذلك إن شاءت الأقدار، وكنت أنا كبير الواهمين، عندما اعتقدتُ وأنا ألثُم ثرى الجزيرة - في يوم الحملة الجديدة - أن قُبلتي ستكون

Twitter: @ketab_n

أبقى أثراً من أقدام الأسلاف الـمُروعين، وأنها لن تختفي كما اختفت آثار عابري الزمن السابق، الممتلئين خوفاً وأملاً وكبرياءً زائفاً.

بعد أن رفعتُ رأسي وقد امتلأت عيوني بالدمع، وشفتاي وجبهتي وأرنبة أنفي بالتراب الضاحك من الجميع، داهمتني مشاعر ورؤى أخرى، غير مشاعر العاطفة الغارقة في السذاجة والسطحية:

أنا الآن مُقبلٌ على مُهمة تاريخية بالغة الخطورة، بل أنا اللاعب الرئيس في لعبة يطيب للكثيرين ممارستها.. لعبة الموت أو الحياة.. الشهرة أو التقزم.. السيادة أو التبعية.. سألتُ نفسي وأنا أعيش لحظات معرفة ما أنا مُقدم عليه.. وما يتبعُ ذلك من مقارنات:

ماذا تغير في داخلي بعيداً عن التجاعيد التي غزت قسمات وجهي؟

إجابتي الطويلة هي: غدوتُ الآن أكثر إطلاعاً على معارف الإنسان المكتوبة، وأكثر جهلاً كذلك بكتاب حياة الإنسان النجدي البسيط الغارق في محافظته وعُزلته، أصبحتُ الآن من أكبر المتابعين لمحتويات دساتير العالم المتقدم ومناهج حضارته وطرق تفكيره الاجتماعي، في الوقت نفسه لا أملك فيه إلا القليل من المعلومات عن دستور الرمال الخالد وكيفيات تطبيقاته المهلكة أو المنجية! جلبتُ معي في سفينتي كتب التاريخ والتصوف والفلسفة والفنون، ولم أفطن أن أهم الكتب قاطبةً والذي يخالط دم بشر الجزيرة، بل بشر العالم الإسلامي كله، قد هجرتُ مطالعته المتأنية منذ وقت طويل! أتقنتُ قبل قُبلتي التي طبعتها على ثرى الجزيرة فن العزف على الآلات الوترية، لكني تناسيت حقيقة أن عليَّ أن أتعلم كيف أعزف على أوتار قلوب بني قومي الذين أتيتُ لحكمهم، وأنا أجهلُ أصغر منظوماتهم الفكرية، الـمُحددة لسلوكهم وردود أفعالهم.

أقوال التنويريين في مصر وتركيا والبلدان الأوروبية حفظتها عن ظهر قلب، لعلها تنفع وأنا أخاطب أهالي (نجد)، وما ألهمتني مداركي لأعرف أن آذانَ القوم هناك تُصغي - أكثر - لمثل أقوال (فيصل) ووالده

Twitter: @ketab_n

البسيطة الخالية من التكلف، والمشحونة بالعاطفة الدينية، الخالبة لِلُب السواد الأعظم في بلادي.

كيف خطر لي ذلك الخاطر المشوش الذي يزعم، بأن واقع مصر والبلاد التي زرتها وسمعتُ عنها، يمكن أن يُنقل إلى بلادٍ عيشُ أهلها هو نموذجٌ صادق للتكيف مع الفقر والحرمان؟ أين ذهبت رجاحة عقلي عندما اعتقدتُ أن استعراض قوة (جيشي) وأكياس الذهب التي معي كانت كافية لإسكات الزاعمين - أهل الدعاية السيئة - بأنني صنيعة المصريين، والمتناسي لكل ما يمثله تاريخ آبائي وأجدادي؟ كيف فاتني الاستماع إلى نصائح والدتي وتحذيرات (فيصل بن تركي) في زمنه المصري؟ كيف نسيتُ وجوم مفسري الأحلام وهم يستمعون في أثناء أزمنة الشتات إلى تفاصيل كوابيسي الليلية؟

هل الوقت مُتاح لي (الآن) لأتراجع عن المشروع التاريخي برمته.. عن الإمامة والتحديث ونشر الأمن والسلام؟..هيهات هيهات فالوقت متأخر لمثل هذا المنحى من التفكير، وحتى موازين القيم والاستعدادات والملكات مختلة جداً. مثلي يا (حمد) ليس مكانه الدائم (ضيافة) مصرية ولا تابعية في قصور حكم (فيصل بن تركي)، مكاني هناك كسيد مُطاع صاحب رؤية ومشروع أكان في الدرعية أم في الرياض. ألا ليت كلمات (من كان مثلي) لم ترد في قاموسنا العربي، عندها لم يكن ليموت من أجل القِمة كثيرون، صعدوا بدورهم وهم يتجهون لقِمتهم، على جماجم آخرين، إحصاءُ عددهم عبثٌ وتخمين.. ما بعده تخمين!

أخي الحبيب (حمد)

بدايةً من هذا السطر وحتى آخر أسطر رسائلي التي سأرسلها لك، سأوجز وقائع ما حدث بيني وبين (أعدائي)، إلى أن أصل بك - وأنت أحد شهود العيان - وبمن سيقرأ رسائلي بعدك، إلى حيث الأمكنة

Twitter: @ketab_n

والأزمنة (المكاوية) والـمُلخِصة إلى أي حد توقفت عقارب ساعة دهري ومصائري.

قبل أن يتحرك (جيشي) الذي انضمت له تشكيلاته المختلفة القادمة براً وبحراً، جاءنا إلى (ينبع) رسول من (فيصل بن تركي) يُدعى (محمد بن ناهض الحربي) ومعه هدايا كثيرة للقائد المصري - فقط - مُرسلة من حاكم (الرياض)، وقتها فطنتُ للغاية المبطنة التي أرادها (فيصل) من تصرفه المؤدب! وبدوري أبلغت حدسي ذاك لـ(إسماعيل بك) حيث ذكرتُ له أن المودة التي يُظهرها هذا السلوك تخفي وراءها رغبة (فيصل) في تجميع معلومات أكثر تفصيلاً، حول أعداد أفراد الحملة الجديدة وتجهيزاتها الحربية المساندة، والأهم من هذا وذاك معرفة دوافع التجريدة وأهدافها: أهي استعراض قوة؟ أم لتأديب خاطف.. لجيل جديد من الموحدين؟

... في أواخر شهر شوال سنة 1252هـ اتجه جيشنا بقيادتي وقيادة (إسماعيل بك) إلى المدينة المنورة، وحال وصولي إلى هناك اتجهتُ من فوري إلى مسجد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لأداء صلاة الظهر وإقراء صاحب القبة الخضراء وصاحبيه السلام، وبعد أداء الصلاة لم أجد مكاناً آخذ نفسي إليه إلا ذاك (القصر) الذي شغلت بعض غرفه، والدتي المتواجدة في طيبة الطاهرة لأيام عديدة سابقة لمقدمي لأرض الهجرة، وعندما ودعتُ تلك المرأة الطيبة - بعد مكوثٍ حميمي قصير معها - رجتني رجاءً حاراً أن أدعها تقضي أسابيع أخرى بجوار (الحبيب)، على أن أُرسل لها من يأتي بها قبل دخولي إلى الرياض (فاتحاً).. إن سارت الأمور كما هو مُخطط لها!

من المدينة المنورة اتجهنا إلى (الحناكية) ونحن في طريقنا إلى بلدات (القصيم) التي انطلق لها (فيصل) مُسرعاً مع جنده الفزعين من بطش الحملة الجديدة، الجالبة مدافع أكثر تطوراً، وحاكماً (سعودياً)

Twitter: @ketab_n

ينحدر من السلالة التي تعرف كيف تنتقم ممن يشق عصا الطاعة عليها، أو يداخله شكٌ في اضمحلال هيلمانها!

دبت الفوضى المفاجئة في وسط جيش (فيصل) وهو يعسكر في (التنومة) بسبب الأخبار الواردة لجيش أمير الرياض بأن (حملتي) والمتخذة من بلدة (الرس) مركزاً للتجمع والقيادة، مُستعدةٌ للهجوم على القادمين من الرياض، وبسبب هذه الفوضى اضطر (منافسي) للانسحاب إلى (عنيزة) وهو في طريقه مرةً أخرى لعاصمة حكمه. .الرياض.

لكن هذه (الرياض) لم تكن أكثر اطمئناناً من مدن (القصيم)، لِنوايا جيش الإمام الجديد، الـمُحمل بهاله إرث السالفين، وأُقسم لك يا أخي (حمد) أنني لم أُراسل أهل (الرياض) ولم أحثهم على شق عصا الطاعة على أميرهم كما زعم، بالرغم، أن هذا التصرف - لو حدث - هو عين العقل، لأنني كنت أعلم أن محبة فرع الأسرة الذي أمثله لا تزال راسخة في قلوب كبار السن في نجد، وحتى في قلوب الأجيال الأصغر سناً، فالجميع لم يكن ليرضى بحكم الفرع (الآخر) إلا لأنه كان يمثل حلاً للإشكال الذي أحدثه غياب القيادة الأولى، إما بأسرها أو بقتلها، أو باستسلام (بعض) أفرادها للدعة وطيب العيش في قاهرة المعز، أما وقد عاد واحدٌ من هؤلاء (الـمُغيبين) فلا حكم - بعد الله - إلا له. . ما لم يحدث في الدين وتراث الآباء حدثاً، حينها يسقط بعدها هذا (الأحد) مهما كان ومهما فعل!

. . . ذكاء (فيصل بن تركي) وألمحيته: دلاه على طريقة مُثلى للتعامل مع (ثورة) أهالي الرياض عليه، إلى حد منعه من أخذ أقل المتاع من قصر حكمه، حتى لا يأتي (الإمام الجديد) ولا يجد شيئاً من مرتكزات الحكم وأُبهته! فبدلاً من مواجهة الثورة والثوار بالرياض، اختار الواقعي (فيصل) الانسحاب من العاصمة، بعدما أخذ معه ما خف وزنه وغلا ثمنه من قصر الحكم، مُفسحاً المجال - بعد هروبه هو

Twitter: @ketab_n

وأولاده ونساؤه وحاشيته (للخرج) الواقعة في جنوب الرياض - للفاتح الجديد!

في الجهة المقابلة تقدمت جحافل الجيش المصري الذي يقوده نجدي.. وقائد مصري آخر، إلى مشارف (عنيزة) التي انسحبت منها جيوش (فيصل) قبل أيام، وعلى مشارف تلك المدينة دارت مناوشة ضعيفة ويائسة بين من بقي على ولائه لحاكم (الرياض)، وبين حفنة من (جندي). النتيجة المنطقية كانت إعلان (عنيزة) وغيرها من مدن القصيم طاعتها ومبايعتها (لي) بالإمامة، ولن تصدق يا (أبا راشد) مدى فرحتي واعتزازي وفخري وأنا أرى وفود البلدان النجدية تتقاطر إلى (عنيزة)، حيث عسكرتُ مع (جيشي)، لإعلان الولاء لحاكمها الجديد، والبراء من كل عدوٍ له!

تلك الـهبات من العطاء الرباني والرضى القدري لي ومعي، جعلتني أُقرر بعد استشارة (إسماعيل بك) بالطبع، ألا أُضيع فرصة التعاطف، والزخم الولائي ذاك، وأن أترجم ردة فعلي عليه بأن أكون في وسط (الرياض) التي تمثل رمزاً للقوة والتفرد بالحكم، لا يعادله رمزٌ آخر، إلا شعور الجميع بأن مجرى الزمان قد رجع القهقرى، وبأن الأخ (عبد الله بن سعود) لم يُؤسر، ولم يُرحل إلى حيث مقتله واستشهاده.. ولِمَ لا فهذا الشبل من ذاك الأسد.. أليس كذلك يا (حمد)؟!

... تحققت أُمنياتي بأسرع مما تصورت.. هكذا ذهب بي تفكيري وأنا أدخل الرياض في السابع من صفر سنة 1252هـ[1] (فاتحاً) وإماماً. وغير بعيد عن كوكبة خيل (الفاتح)، راح هودج والدتي ومرافقاتها يؤشر، إلى أن مخاوفي من العجائب والمفاجآت التي كان بالإمكان أن تصطدم برحلة المجد، ليست في الواقع إلا كوابيس وأوهام مُزعجة!

---

(1) الموافق لمايو عام 1837م.

Twitter: @ketab_n

أصدرتُ يا (أبا راشد) عدة قرارات عاجلة، حال استقرار الحالة العامة في الرياض، وتيقُّن الجميع أن الإمام (خالد) هو حاكم العاصمة، وما وقع تحت سيطرتها من الأقاليم والمدن. قمتُ مثلاً بعزل أمراء معينين سبق أن نَصبهم (فيصل) على بلداتهم، ولم يكن الإخلاص لمنافسي هو المعيار وأنا اتخذ مثل هذه القرارات، الذي كان يعنيني بالفعل هو ولاؤهم لما تمثله (أسرتي) لهم.. إضافة إلى كفاءتهم.

قرار آخر اتخذته: الكف الفوري عن تتبع وإيذاء خُلص (فيصل) وحاشيته ممن بقوا في الرياض ولم يغادروها، بل إنني أمرتُ بمكافأتهم لأنهم وقفوا في أيام المحن والشدة مع (ابن العم) وما يمثله من امتداد لرمز (الأسرة) الذي ينضوي تحته الجميع، وأغلب الاعتقاد أنه لم يكن في حسبان هؤلاء أن تصل المنافسة الحاضرة إلى ما وصلت إليه، لذا فلا تثريب عليهم، بل هو الأمان والاحتواء ولا شيء غير ذلك.

... طلبٌ خاص قدمته لـ(إسماعيل بك): إبعاد قواته إلى خارج أسوار الرياض، وألا يبقى معي إلا عددٌ قليل منهم، وأن تُناط الحراسات وضبط الأمن لبقية الجند المحليين شبه النظاميين، والذين وجدناهم في الرياض بعد مغادرة (فيصل) لها، على أن يُعاد تأهيلهم نفسياً وعسكرياً. لقد قصدتُ يا أخي من هذه المناشدة نزع كل مسوغات التململ من النجديين الكارهين للأجانب، وحتى إن كانوا مسلمين على طريقتهم..!

... موارد بلادي المالية كانت الشغل الشاغل لي وأنا أمارس مهام الحكم في أول أيام حكمي في الرياض.

... لماذا شُغلت بهذه الموارد؟..لِقلَّتِها ولاعتماد تحركاتي المستقبلية عليها بعد أن ينفذ الذهب المصري، أو حال ما يتجه هذا الذهب ليصب في خزائن دعم جبهات القتال المصرية العديدة الأخرى. وعندما أقول الموارد المالية فإنني أضع الكلمات في غير محلها، فما في

Twitter: @ketab_n

نجد من موارد سوى الزكاة التي كانت - ولا تزال - أهم مصادر الدخل، إلى جانب غنائم الغزوات التي قلّتْ قياساً بما كان عليه الحال في أزمنة الدولة الأولى.

. . . ولأن الشأن المالي في نجد مُزرٍ - كما تعرف - قمتُ فور تسلُمي لدفة الحكم في الرياض، بطلب كشوفات الدولة في عهدها السابق وكيف تُحتسب، ولكنني لم أجد شيئاً للأسف يُعتمد عليه، لأن (فيصل) ووالده وقبلهم أئمة الدولة السلفية الأولى، لم يُعيروا هذا الجانب اهتماماً كافياً، وبدا وكأنهم شيوخ قبائل أكثر منهم حُكاماً لدولة تخضع لمنطق التوازن بين المداخل والمصارف المالية، وأنني بحق لا ألوم الجميع لأن النـزاعات الداخلية وتبعات حملات التطهير العقدي ضد الآخرين خارج نجد، لم تترك فرصة لمثل هذا (البذخ) التنظيمي، وهذا أمرٌ اكتشفته وأنا أحلُّ مكان من انتقدتهم في أول أيام (حكمي)، الأمر الذي اضطرني لاستخدام أقل مواهبي الإدارية في الشأن المالي، وخفض سقف تطلعاتي، واضطرني كذلك لاستنباط وسائل محلية بدائية لإيجاد مصادر مختلفة لدعم خزائن بيت مالي الخاوية تقريباً!

. . . وبعيداً عن (قراراتي) شغلني شاغل استغربه بعض العاملين في قصر الحكم من أتباع والدي الإمام وأخي الشهيد، ممن التحقوا بخدمتي.. الشاغل المعني هو تفحص الهيكل البنائي للقصر ومحاولة مقارنته بمبانٍ أخرى رأيتها في حقبة عمري المصرية.

قصر الحكم في الرياض - وأنت تراه ليل نهار - أقل إبهاراً مما رأيته من قصور الحكم والإدارة في مصر وتركيا، لكنه أكثر تطوراً في معماره والأهداف المرجوة من شواغره وأقسامه، مما كان عليه الحال في قصور الدرعية، وأرجعتُ هذا وأنا أُحدثُ نفسي متفقداً أرجاء القصر والجمع الخدمي يمشي مُتباطئاً ورائي، إلى تغير موقع الدين في نفوس حكام الرياض السابقين، فالذي لا شك فيه أن التأثير الديني على

Twitter: @ketab_n

القرارات السياسية قد اضمحل نسبياً، في عهد حكام الدولة الثانية، مع بقاء الملامح (العامة) لهذا التأثير في حياة الناس الاجتماعية قوياً ومُتغلغلاً حتى بعد مرور سنوات الإصلاح العقدي القديم.

... شيءٌ مما أعنيه هو الترف يا (حمد)، والذي ظهر جلياً في زخارف حُجر قصر الحكم في الرياض، والتي لا تُقاس بالزخارف البسيطة والباهتة في قصور العاصمة القديمة.

ولا يمكن القول هنا بأن (تركي) وابنه قد تخليا عن روح الإسلام النقي، الذي قامت عليه دعوة الشيخ (محمد بن عبد الوهاب) القديمة. لا..! أنا لا أقصد هذا، لأن الاثنين هما أبناء الدعوة القديمة والمشاركان في كل أحداثها الأولى العظيمة، أو على الأقل ممن سمعا عنها وتأثرا بأجوائها الـمُفعمة بالطهارة الدينية التي يقل نظيرها.

ومع هذا فشتان بين تقسيم (الدرعية) للعالم بين كافرٍ ومؤمن، وحالة مقابلة نرى فيها النسخة الجديدة للدولة القديمة، تدفع جزية سنوية (للأشراف) في الحجاز التابعين اسمياً للدولة العثمانية، وتكتب كذلك للمعتمد الإنجليزي في (مسقط)، متعهدةً له بالتعاون مع بلاده لكبح جماح القبائل التي تزعج من يقعون تحت الحماية الإنجليزية!

بالتأكيد لم يعد لعلماء الدين في الرجعة السعودية الثانية الكلمة الفصل، كما كان يحدث في السابق، لقد تم الفصل بين الدين والدولة بشكل مُثير للإعجاب، وغدا حاكم الرياض هو مَن يقرر الحرب والسلم، والفارز مَن هم الأعداء ومَن هم المناصرون، لم يكن هذا ليحدث إطلاقاً في أزمنة الشيخ (محمد بن عبد الوهاب)، ولا في أزمنة الجيل الأول الذي أعقب عصر الـمُصلح الكبير.

... مَن أقرب إلى تفكيري: توأمة الدين والدولة في العهد الأول، أم فصل المهام المتوازن بين هذا وتلك في العهد الفيصلي؟

أنا شديد الحيرة إلى حد العجز عند الإجابة لمثل هذا السؤال.

Twitter: @ketab_n

لكنني أرى أن تصرف (فيصل) العملي أقرب إليَّ من منطق شكل الدولة الدينية التي ظهرت بها لكل الناس (دولتنا) الأولى، لكن - ولاحظ يا "حمد" تكرار كلمة اللكن هذه - كيف يتم الحفاظ على بناء الدولة التي قامت على فكرة دينية خالصة، وفي نفس الوقت الذي يتواجد فيه مفهوم (ما لله لله وما لقيصر لقيصر)؟ ستسقط حتماً - في هذه الحالة – السلطة التي جمعت مساحات شاسعة من الأرض، وأقنعت - أو أجبرت - أطياف البشر المختلفين (هنا) منذ أقدم العصور، على الإنضواء تحت قانونها الخاص؛ هذه السلطة يا (أخي) لم تكن لتستطيع أن تفعل مثل هذا الفعل المعجز لولا رادع الدين وعصبيته.

طريقة بناء قصر الحكم وزخرفته، وعلاقتهما بالدين والدولة، لم يستمر طويلاً (سرحاني) بهما، لأنني تذكرت موعداً مُهماً (لي) في اليوم التالي عندما سأقوم بإمامة الناس في صلاة الجمعة، وقبل ذلك اعتلاء منبر الجامع الكبير المجاور لقصر الحكم لإلقاء بيان (الفتح) الذي تشوق الكثيرون لسماعه، بعد خطبة يوم الأسبوع العظيم، والملقاة على آذان المصلين من الحاكم الجديد نفسه.

في يومي المشهود ذاك وقبيل رفع أذان صلاة الجمعة بدقائق معدودة اجتزتُ الممر الترابي الفاصل بين قصر الحكم والمسجد الجامع الكبير في (الرياض)، وأنا في طريقي إلى المنبر، حيث سأجلس لدقائق منتظراً انتهاء المؤذن من إشعار المسلمين بدخول موعد صلاتهم، لكن انتظار المصلين طال - قليلاً - قبل أن أنهض من مقعدي على الدرجة العلوية لمنبر المسجد الذي امتلأ بالمصلين، وفي مقدمة صفوفهم ثُلة من (آل سعود) ووجهاء أهل الرياض، بالإضافة طبعاً للفيف من (آل الشيخ) الذين فضّلَ بعضهم البقاء في الرياض، بعد أن فرَ بعضهم الآخر إلى منفى قريب، مع مَن يعتقدون أنه ممثل الشرعية الأوحد. . (فيصل بن تركي).

Twitter: @ketab_n

فهمتُ وهمهمات المصلين تصل إلى أذني بأنني قد تأخرت لثوانٍ عن واجب إلقاء تحية الإسلام عليهم، والشروع في الخطبة التي لم يُدخل عليها تعديل منذ ألفٍ ونيف من السنين؛ وبين إصلاح خطأي ذاك وبين ما قبله من سكون عميق مُحير بدر مني، رحتُ أنظر في كل أرجاء المسجد وأكرر فعلي ذاك مرات كثيرة، ثم وللحظات هجمت عليَّ - وللغرابة - خلائط من مشاهد الأمس البعيد: لقد رأيت يا (حمد) خيالات من طفولتي وأيام عواطفي المكبوتة، رأيتُ حلقات دروس العلم الديني في الدرعية، والبدايات الأولى لاستعدادنا العسكري لصد هجوم قوات (إبراهيم باشا) ثم مخاوفنا اللاحقة من هجوم كاسح - تحقق فيما بعد - وأدى إلى انهيار العاصمة القديمة، وانهيار الدولة الموحدة السعودية بأكملها.. وبما لها وعليها.

رأيتُ رحلة الأسر، ودخولنا (كضيوف) لعاصمة (مُضيفنا) والي مصر؛ لمحت جلساتي على مقاعد المقاهي القاهرية، وتنقلاتي بين محطات الفلسفة والتصوف واللهو البريء.. وغير البريء.

تذكرتُ رحلاتي الرتيبة لعاصمة الخلافة المتهاوية في الآستانة، ثم لقاءات اللمسة الأخيرة لرحلة.. النصر والتمكين، كل ذلك الفاصل من السنوات الطوال مرَ عليَّ بسرعة فائقة وعجيبة قبل، أن أتنحنح مُعلناً أن فاصل صمتي المخل قد انتهى..!!

رددتُ نص الخطبة الأولى والثانية بدون تركيز وبلا تفاعل مني، كانت لغتي فصيحة ولا لحن فيها، وإن اختلطت بين مخرجاتها اللفظية لهجة أهل نجد ممزوجة بلكنة مصرية، نتيجةً للمخالطة الطويلة مع أهل تلك الأرض الطيبة. وعليَّ أن أعترف لك يا (أخي) هنا بأنني لم أُحسن وأنا أمر على تلك الـجُمل التي حفظها خُطباء الجمعة منذ القِدم، والمؤكدة بأن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القُربى، فن إيصالها الجماهيري الـمُقنع.. أتدري لماذا؟ الإجابة التي لديَّ تتشكل عبر أسئلة

Twitter: @ketab_n

تقول: كيف أطلب من الذين ينتظرون مني العدل أن يعدلوا؟ وكيف يعدلون وأكثريتهم مُعدمةٌ لا تملك شيئاً؟ ألا ابتدأت بنفسي وعدلتُ في الفوارق بيني وبينهم: من الرزق الوفير، والأمن المضاعف؟ وذوو القربى الذين يحتمون (الآن) في الكهوف - خوفاً - مما قيل لهم عن بطشي وانتقامي منهم، ألا يستحقون أن أفكر فيهم، واتخذ منهم موقفاً ودياً، قبل أن أناشد من يسمعني من المصلين أن يتقرب إلى الله عبر هذا الفعل الكريم؟!

بعد الانتهاء من إلقاء الخطبة وأداء الصلاة التي كُنتُ إمامها، طُلِبَ من المصلين أن ينتظروا قليلاً ليسمعوا بياناً من حاكمهم الجديد؛ ولأن الجميع كـان مُتشوقاً أصلاً للبيان (العتيد)، لم أجد أن صفوف المسجد قد تخللتها فراغات، جراء انسحاب المصلين المتسارع المعتاد بعد كل جمعة..!

نهضتُ إلى حيث كان مقامي قبل الصلاة، ورحتُ بعد البسملة أُحدق مرةً أخرى في أرجاء المسجد، وأنا أُجرجر معي لحظات الصمت البلهاء، إلى أن شعرتُ بأن ما أقوم به - بدون قصد - يهُزُ من مكانتي لدى الرعية.. إن كان لكلمة (المكانة) معنى هنا!

وللخروج من أسر هذا الشعور، ألقيتُ على الـمُنصتين تلك الكلمات البطيئة.. بُطء استجابتي لمحيطي:

"إنني يا (إخواني) لم أَقدمُ عليكم غازياً ولا مُنتقماً، بل أتيتُ وأنا مُتأكدٌ بأنكم فرحون بما آلت إليه الأمور التي عادت إلى نصابها، وبزوال الغُمة، وبطلان الادعاءات غير الصادقة بولاية انتُزعت بغير وجه حق. لقد قيل لكم إن دولة الموحدين الأولى قد زالت بمقتل أئمتها وأسر خُلفائهم وتشرد أعقابهم، وما علِمَ الزاعمون بأن بقية الخير مازالت حافظة لعهود أسلافها، معاهدةً الله على العودة المنتصرة و(الـمُسالمة)، إلى حيث أرض الآباء والأجداد، وإلى حيث بذل الأقدمون الدماء

Twitter: @ketab_n

والأرواح فـي سـبـيـل مـا يـعـتـقـدون أنـه صُـلـب الـعـقـيـدة وأصـل الإسلام. . ألخ. '

. . . لن تخرج الكلمات والـجُمل الأخرى التي تلاحقت بعد تلك المقدمة، عن شروحات تعرض إجابات - من وجهة نظري - على الأسئلة التي قد يطرحها المستمعون: لماذا عُدتُ يا (خالد) بعد كل هذه المدة؟ ولـماذا الآن؟ وماذا كنت تفعل في غيابك؟ وهل الميثاق الأخلاقي والعقدي للأسبقين باقٍ في الصدور؟

في اعتقادي يا (حمد) أن من كانوا في المسجد يومها صدّقوا بعض أقوالي عن أسباب الإياب، وكذبوا بعضها الآخر، الذي يشرح كيف كنت أقضي أيام (ضيافتي) عند (الباشا)، واستنكروا ما جاء لاحقاً في خطبتي التبريرية الشارحة؛ لقد قلت لهم - صادقاً - إنَّ زمان تحميل (دولتنا) ما لا يُحتمل قد ولى، وإنني وأنا (وكيل) العهود الماضية. . لن أزج بني قومي - بعد الآن - في مغامرات صراع القوة مع (الآخرين)، لا لأنني أعرف أنَّ الميزان في غير صالحنا فحسب، بل لأن أرضنا في حاجة لما هو في أهمية السيف والبندق والمدفع. . بل هو أهم من كل هذا لو تم الاختيار: للعلم بمعناه المطلق مقابل الجهل والأمية، والتطبيب مقابل معايشة الأمراض ومعاقرة الأوبئة، ورفع مستوى المعيشة مقابل الإتاوات التي تؤخذ من بُسطاء الناس بحجة الجهاد ومغازي المشركين والمرتدين، وإعطاء عامة الناس وسوادهم حقوقاً تساوي الواجبات الثقيلة الملقاة عليهم.

لم تفهم بالطبع نُخبة القوم كلمات مثل: (النهضة والتحديث والرُّقي والعدالة) عوضاً عن أن تشعر بالاطمئنان والمساندة لها؛ هذه العدوى من ردود الأفعال غير المشجعة، رأيتها حتى على قسمات وجوه غير النخبويين. . إلا فيما يتعلق بالتخفيف من الإتاوات، وإن كانَ هؤلاء تمنوا - كما أظن - ألا يأتي التخفيف عنهم عن طريق إلغاء أحد أهم

Twitter: @ketab_n

روافد الثقافة النجدية حينها: الغزو الذي كان يُطلق عليه جهاداً.. ولا أدري - حتى الآن - كيف يمكن أن يتم هذا بدون ذاك؟!

خرجتُ يا (أبا راشد) بانطباع مُجمل بعد (بياني) الإمامي ذاك، بأن وقتي في (الرياض) سيكون صعباً جداً وعاقبته لا تُبشر بخير؛ الجميع من الذين حضروا البيان شعروا - كما أظن - بنفس ما أحسستُ به، بل إنّ تلك الأقوال الدعائية التي سمعوها عني من (فيصل) وأتباعه ومحبيه، المؤكدة أنني (خالدٌ) غير (خالدِ الدرعاوي) الذي تربى في قصر سلوى، ودرس في جامع الشيخ، واستعدَ مثل أقرانه - قديماً - لمقارعة أهل الباطل والشرك والبدع.. أصبحت يقيناً في نفوسهم لا شك فيها!

... أنت وحدك يا (حمد) والجالس في منتصف الصف الرابع المسجدي. رأيت فيك (صاحبي) القديم الذي كان يختلف وهو في (الدرعية) عن أكثرية الغلمان السطحيين العاديين، ورأيتُ فيك صاحبي الوحيد الذي سأطرح في (الرياض) همومي عليه وأطلب منه النصيحة العاقلة الراشدة المليئة بالخبرة.. وإن لم استمع إلى أكثرها للأسف!!

... أتعرف يا (أبا راشد) لِمَ لم أهرول لك حاضناً بعد أن تعرفتُ إليك بصعوبة، بفعل تغيرات عوادي الأيام والسنين؟ لأنني لم أرغب أن يتأكد المصلون أكثر فأكثر بأن (صاحبهم) مجنون لا يحسن إدراك ما يفعل، ولأنني كذلك كنتُ مشغولاً وأنا أختم (بياني) بهواجس أخرى غرائبية ألحت عليَّ بوطأتها:

ماذا لو قفزتُ مع الزمن إلى الأمام.. إلى مستقبلٍ بعيد، أمعقول أن يأتي إمامٌ من (آل سعود) أكثر تطرفاً من الذين شهدت البلاد في عهودهم غزوات الآخرين لعاصمتيها؟ أأكون أنا آخر الأئمة الـمُتعقلين؟ ماذا لو انعكست الآية، وارتقى هذا المنبر (حاكمٌ) يُشابه الإصلاحيين الأوروبيين، أو رعايا الدولة التركية الجدد القوميين، وراح يُخير الناس

Twitter: @ketab_n

بالقوة بين موروثهم العقدي، وبين سلامتهم الجسدية والنفسية، وإضافاتٍ من وعودٍ خلابة بالرخاء.. إن هم طرحوا هذا الموروث جانباً؟!

... انتهت حفلة تقديمي للناس، برضى كبير داخلي، شعرتُ به لأنني أولاً أزحتُ عن نفسي هموماً (ضميرية) عظام، ولأنني ثانياً كنتُ صادقاً مع الذين كانوا ينتظرون - عبثاً - مني مُعجزات تُشابه مُعجزات الأسلاف، وأخيراً لأنني رميتُ بحجرٍ في بركة بلادي الراكدة منذ أزمنة طويلة.

انتهى (المؤتمر) كذلك بسخطٍ من أعلام (آل سعود) و(آل الشيخ) الذين حضروا الصلاة و(المؤتمر)، ولا ألومهم على هذا السُخط، فقد مسستُ - وأنا أتحدث ببطء - خطوطاً حمراء لم تكُن لِتمُس من قبل، أما المتفعون من الحروب والأزمات الحياتية للناس، فسخطهم لا يحتاج لأن أبرره، فلو كنت مكانهم لقفزتُ على مَن في المنبر مُهاجماً.. فقطع الأعناق ولا قطع الأرزاق!!

بعد أن تفرق جمع المصلين، أتاني بعض من الأقرباء ووجهاء (الرياض) لدعوتي لطعام الغداء، لكنني تمنعتُ بأدب، بحجة أنني سأمرُ مُسلماً على والدتي وأختي غير الشقيقة، اللتين اتخذتا جانباً من قصر الحكم كسَكنٍ لهما، وكان شيئاً رائعاً - شكرتُ الله عليه - عندما لم يُصر الممتعضون من (هذيان) الإمام الجديد على دعواتهم تلك، وترجمتُ الحمد للخالق، بأن رحت أحقق رغبةً لا تنفك تضطرمُ في نفسي منذ مدة طويلة: تفقد (الرعية) ومعرفة أحاسيس ودوافع الناس بعيداً عن قيود الحكم والرئاسة. وأفضل مكان يتلمس فيه المرء نبض الشارع الشرقي لن يكون سوى (السوق)، حيث يبيع الناس ويشترون احتياجاتهم الحياتية، وفي الوقت نفسه يُعبرون من خلال قسمات

Twitter: @ketab_n

وجوههم المنبسطة أو المكفهرة، عن الحالة التي وصلوا لها رفاهيةً كانت أم بؤساً.

أخذتُ نفسي وكوكبة من الحرس تُحيط بي - وتلك لفتةٌ لم استسغها - إلى حيث الأسواق والأمكنة العتيقة حول وغير بعيد من دار (دهام بن دواس) الذي أصبح فيما بعد قصراً لحكم (تركي) وابنه (فيصل) وأفندي أتى من بعدهما اسمه.. (خالد). ويا لفاجعة ما وجدت، يا مَن يعرف بالتأكيد من خلال المعايشة اليومية.. ما وجدت! لم يكن هناك إلا أسراباً عظيمة من الذُباب، وأعاصير من الغبار المنحنية بثقلها على بشرٍ، يعرضون حاجيات بالية لا قيمة لها، على بشرٍ آخرين لا يملكون فلساً ويكاد يقعون من الـهُزال.

أُقسم يا (حمد) أن أسواق الدرعية قبل ثمانية عشر عاماً كانت عامرة قياساً بأسواقكم (الرياضية)، وإن تشابهت الأسواق في أوجُه الركود هنا وهناك؛ كُتب التفسير والحديث والفقه وأنواعٌ من مرويات المغازي الأسطورية، وجدتها وكأن الزمان قد توقف منذ كنتُ في الدرعية.. بل وقبل ذلك بكثير، إلى أن وصلتُ إلى اللحظات التي كنتُ أخدع نفسي فيها، بأن الدُكان الذي يلي الدُكان الخالي البائس الذي للتو مررتُ عليه، قد أجد فيه بعضاً مما يُسري عن النفس كآبتها وخيبتها.

تمنيتُ يا (حمد) أن يخرُجَ بشر السوق عن طقوس تحياتهم واحترامهم للإمام الجديد، المقرونة بإشارتهم الواضحة بطلب غوثٍ يقيهم ذُلَ الحاجة والعوز، ليتواصلوا معي حول أشياء أخرى: أن أحدثهم - مثلا - عن كيفية عيش الناس خارج نجدهم وجزيرتهم؟ أن أحدثهم عن حراك الأمم الأخرى وبراكين الثورة على الماضي، أن أحدثهم - مثلاً - عن تطاحن العقول والنظريات، أن أقول لهم - مثلاً - عن آخر المخترعات الحديثة والمؤلفات التي تحوي عصارة الفكر الإنساني، أن

Twitter: @ketab_n

أتعاطى معهم أحاديثَ غير أحاديث التسلطن والفتح وإعلام الجمهور باسم حاكمهم الجديد. لم يسألني أحدٌ من رواد الأسواق حول قصر (حكمي) عن كل هذا، ولم أستطع أن أقول لهم إلا ما رغبوا أن يسمعوه مني ومن كل حاكم يسود عليهم.

ما خفف عليَّ (فاجعتي) بأحوال (الرعية) الـمُزرية شيئان: احتضانك يا (أخي) في وسط السوق، الاحتضان الذي لم يستطع كِلينا الانسحاب من حميميته ونشيجه، إلا بعد وقت غير يسير، ظننا أنه غير كافٍ لتعويضنا عن فترة الانقطاع والغياب التي حسبناها دهوراً لا تنتهي.

أما البلسم الآخر فكان.. هي!

هي فتاة في التاسعة عشرة من العمر قدِمت مع والدها التاجر الأعمى من (الإحساء) إلى الرياض حيث أراد وليُها استرجاع دينٍ له على تاجر من أهل الرياض، ماطل كثيراً في تسديد حقوق التاجر (الإحسائي). وعندما لم يجد التاجر الضرير بُداً من السفر، أخذ (ابن العفالق) زوجته وابنته الوحيدة إلى حيث ماله المشكوك في تحصيله.

... في الساعة التي كنت أتفقد (رعيتي) رأيتها مع والدها الذي كانت تقوده إلى حيث راح يصرخ - عبثاً - في وجه التاجر (الرياضي)، وهنا تدخلتُ مُستفسراً عما يحدث، ولما عرفني (محمد بن العفالق) عن طريق مُرتادي الأسواق، شكا لي مظلمته، فأمرتُ من فوري بعد التحقق من إثباتاته، بأن يدفع (الظالم) ما عليه من مالٍ مُحتبس.. وإلا فالسجن - الذي يعرفه أهل الرياض جيداً - أولى به وبأمثاله!

... استجاب التاجر (الرياضي) على الفور لأمري الصارم، وكانت تلك (الحدوتة) كما يُطلق عليها أهل مصر، الشعلة التي حركت قلب (الإمام) الجديد، وقلب الفتاة الجميلة بنت الرجل (الإحسائي) الطيب السمح.

نعم..! أحببتُ (سارة) والتي ستصبح بعد ذلك أم ابني (مشاري)،

Twitter: @ketab_n

منذُ (حكاية) السوق المليئة بالمصادفات؛ عيونها نطقت بلغة الحب المعروفة عند كل المحبين، لغة لها قواعد معينة لا يُجِيدُها إلا العاشقون. لكن يبدو أن ما زاد هيامي ساعتها بتلك الفتاة الإحسائية، هو شعوري بالانقباض مما حولي من البشر والمكان والتفاعلات، كنتُ أريد من حبي ذاك أن يكون طوق نجاة أتمسك به، وأنا أُصارع بحر الأحداث العظيم من حولي، والذي يبدو أنه رغم سكونه - المُصطنع - في أول أيام (حكمي) سيغدو عما قريب عاصفاً ومدمراً للأحلام والأماني. الحب يا (حمد) أحياناً هو مجرد هروبٍ للأمام، بل إنني اعتقد أن الزواج وإنجاب البنين والبنات ما هو إلا احتجاج مُقنن ضد العدم والفناء، وزوال الرسوم والأسماء التي تصنع مجريات أحداث العالم.. وعلى كل حال، فالحب قد وقعَ منذ النظرة الأولى.

ما الذي تغير بعد ذلك في كلينا؟ عاشق أنا بقيتُ حقيقةً أو هروباً؛ وعاشقة هي بقت.. كما رجوتُ الله، أو مجرد تعلُقٍ بفارس أحلام من طراز (إمامي) كما همستُ بذلك في أُذني أختي غير الشقيقة!

... بعد الحدثين السعيدين في السوق الكئيب المليئ بالتُعساء، وعند آخر الدكاكين، شعرتُ بعرقٍ غزير وحُمى مفاجئة، أين عنها حرارة القيظ المحيط؟! تهاوت قدما (أخيك) كما أنبأتني يا (حمد) بعد ذلك، ولم أعد أعرف الزمان والمكان، وزاد من وطأة المرض المباغت الذي قد يكون سببهُ عدوى التقطها من مخزن العلل المنتشر في كل مكان حولي، ألم الأذُن وطنينها القديم، وعندما تصل مُعاناة المرضى - عادةً - إلى منتهاها الأخطر، لا يصبح أمامهم - بعد الدعاء - سوى مُنقذ أوحد: غيبوبة تأخذهم إلى.. لا شيء.

أخي (حمد):

تداعت الأحداث بشكل مُثير أثناء مرضي الذي استمر شهراً،

Twitter: @ketab_n

واستمر التداعي بعد ذلك إلى أن انتهى فصل (الإمامة) من كتاب حياتي الحزين:

رسالتي إلى كبير الحوطة (الهزاني) وآخرين معه، المتضمنة الطلب منهم أن يأتوا لمقابلتي في (الرياض) للنظر والتأكد، مما يُقال عن مساندتهم لـ(فيصل بن تركي) وحثهم له على شق عصا الطاعة عليَّ. هذه الرسالة تم رفض مضمونها، وبدلاً من القدوم للرياض كتب المعنيون (لنا) خطاباً.. جاء فيه: (إن كان الأمر لك ولا يأتينا في ناحيتنا عسكر من "الترك" فنحن رعية لكم، ولو كان الأمر للترك فنحن لهم ولك محاربون) ثم أضافوا قولهم الآخر: (ابن عمك "فيصل" لم يعد في الخرج ولا في الحوطة، ولا حتى في أي منطقة جنوبية، أبحث عنه هناك.. في الإحساء عند "ابن عفيصان" صاحب العيال والأتباع).

قبل أن أطلع على خطاب (الحواطى) مُررَ التهديد الكتابي على القائد (إسماعيل بك) الذي كان يسكن غير بعيد عن سكناي، ولأن هذا القائد مشهور عنه سرعة الغضب، أمر جيشه - الذي من المفروض أن يكون جيشي - بأن يستعد لغزو أهل تلك النواحي، ثم جند كل الحدادين في الرياض لصناعة فؤوس وفواريع حادة، كعلامة لما يمكن أن يحدث لرقاب العصاة في الحوطة! ثم طلب مني بشكل استفزازي أن أكتب لأمراء وكبار أهالي (سدير، والوشم، والمحمل) وكل بلدات العارض، بأن يرسلوا ما يستطيعون جمعه من جيوش لمحاربة أهل الحوطة والحريق؛ ولم أستطع أن أعارض طلبه المُلح ذاك، خشية أن يحدث الاصطدام سريعاً بيني وبينه، وتذهب ريحنا المختلفة اتجاهاتها - أصلاً - لصالح ريحٍ أخرى، لكنني أضفتُ إلى الرسائل المشار إليها، رسالةً أخرى إضافية أُنصِّبُ فيها رجلاً عاقلاً هو (أحمد بن محمد السديري) على عموم بلدات سدير، لعل هذا التعيين يخفف من صدمة

Twitter: @ketab_n

الطلبات الـمُرهقة، لأقوامٍ ما فتئوا يخوضون حروب الآخرين بدون مقابل.

... تجمعت القوة القادمة من الوشم بقيادة (محمد بن عبد الكريم البواردي) وقوة المحمل التي على رأسها (حمد المبارك) وقوات أخرى من بلدان العارض، في أسفل (عرقة). ولم يتخلف عن الجمع القادم لمساندتي إلا (السديري)، لأنه عطفَ - كما قيل - على أهل سدير، الذين قاتلهم القحط قبل أن يُقاتلهم (الحواطى).

... انطلق جيشي الخاص المكون من حاشيتي وخدمي و(الخِويا)[1]، إضافة لجند (إسماعيل بك) المتكونين من مغاربة وألبان وأتراك، للاصطفاف مع الجند القادمين من الشمال والغرب، والمنتظرين ليومين كاملين خارج أسوار الرياض الغربية، ومن هناك انطلق الجميع في ثاني يوم من شهر ربيع الآخر لسنة 1253هـ تجاه (الخرج)، التي ضخت جُنداً آخرين بقيادة (فهد بن عفيصان)، أضافوا إلى القادمين (معي) جمعاً مُجيشاً جديداً، ليصل العدد الكلي للجيش المتحالف بقيادتي وقيادة (إسماعيل بك) لحوالى سبعة آلاف مقاتل!

وبعيداً عن الدخول في التفاصيل الحربية التي تبعت كل الحشد الكبير الـمُعلن ذاك، والاستعداد الخفي المقابل لأهل الحوطة والحريق، ولأن تفاصيل المعركة الفاصلة - التي تكرهُها ذاكرتي - معروفة لِكُلِ أهالي نجد تقريباً، وهي أشهر من أن يُعاد التذكير بنتائجها، أستطيع القول - الآن - إن انهيار أحلامي، ومخططات الآخرين - عبري - بدأ منذ أن انقشعت أغبرة (المعركة المأساة) تلك.

... يا للعار يا (حمد)، هُزم السبعة آلاف مقاتل، خلعَ قلوبهم ألفا مقاتل لا يعرفون من فنون الحرب سوى أنها خياران لا ثالث لهما:

---

(1) يقصد بهذه الكلمة المناصرين من الأهالي أو من البادية.

Twitter: @ketab_n

نصرٌ مُشرف أو موت يرتقي بصاحبه لمصاف الشهداء. قُتلَ، وأُسرَ، وتفرقَ في الشعاب آلاف المقاتلين النظاميين، الذين لم تنفعهم مدافعهم، ولا بنادقهم، ولا الدروس التي تعلموها في مدارسهم الحربية النظامية. ولم تزدهم مجاميع مناصريهم من الأعراب والحاضرة، المتوجسين من الغرباء منذُ البداية، والمجلوبين كُرهاً، وطمعاً، وعلى عجل.. إلا شتاتاً وضعفاً.

رؤساء الحوطة، وبلد نعام، والحلوة (تركي الهزاني، وإبراهيم بن عبد الله بن إبراهيم، وفواز بن محمد، وزيد بن هلال) أبلوا بلاءً لا مثيل له في معركة (حرة الحلوة)، وشد من أزرهم، التأجيج المعنوي (العقدي) الذي قام به خير قيام، بعض أحفاد الشيخ (محمد بن عبد الوهاب) والفارون من الرياض في أول أيام (فتحي) لها.

يا للعار..!! مراتٍ كثيرة قلتها - ومازلتُ - وأنا أعود إلى الرياض مع (إسماعيل بك) بألف فارسٍ فقط، بقوا من ذاك الجيش العرمرم الذي ذاب أفراده قتلاً في رمال الصحراء وبين صخور الجبال، ومن سَلِمَ منهم، فكان مصيره - كما مدافعه وأسلحته - بائساً جداً: غنيمةً للمنتصرين المنتظرين على أحر من الجمر، لمثل هذه النوعية من الأسرى، الأغنياء في الرمز والثمن والعواقب!

ما الذي رمى بي إلى الجهة المعاكسة للانتصار؟ أهي (لعنة) هزائم الأقدمين، التي لم تزل ترسل شُرورها حتى بعد خراب (الدرعية) وتشتُت أهلها؟ أين ذهبت تطلعاتي والدروس الحربية القيادية التي طالما أصررتُ على نموذجيتها؟ ما الذي كانت تخفيه تلك القلوب التي تحملها صدور العراة في الحوطة، ولم تحملها قلوبنا المحمية بالدروع؟ وأخيراً ما الذي تفيده أجوبة تلك الأسئلة، والحسم قد حدث والخوف من الآتي قد استقر في القلوب وتعاظم؟

سجنتُ نفسي يا (حمد) في قصر الحكم لعدة أيام خجلاً مما لحق

Twitter: @ketab_n

بي وبجيشي من وصمة عار، وكُنتَ تأتيني - كما تذكر - مرتين في اليوم في محاولة مُخلصة منك لإخراجي من حالة الإحباط والتأزم، كُنتَ - كما أذكُر - تقول لي: إن الهزائم هي طريق الانتصار، وإن المهم هو استخلاص العبر من الانكسارات وصولاً إلى مراحل لاحقة زاهية تطوقها أكاليل الغار.

شفتاك كانتا تقولان ذلك، عكس ما تقوله عيناك الفاضحتان لما في داخلك. اعتقادي السابق والذي لا يزال راسخاً عندي، أنك وددتَ - يا حكيم - أن تقول لي حينها: كفاك يا صاحبي ارتداءً لثوبٍ غير ثوبك.. عُد (خالداً) الذي أعرفه.. قارئ الكُتب النهم.. الباحث عن الحقيقة.. العرفاني السابح مع الذات والباحث عن التطهر.. المُعيد لقراءة التاريخ والناقد له.

أنا أعرف - ومتأكدٌ - أن (حمد) الصادق المجامل والراغب في التخفيف من أحمال أخيه النفسية - كادَ - يُلقي بقذائف صراحته عليَّ، لكن بقية عظيمة من بريق شهوة الحكم، والمطامع، ومحاولة زراعة نبتٍ هجين في تُربة غريبة عليه.. رأيتها يا (أبا راشد) في عينيَّ، أوقف محاولتك الخيرة تلك، خاصةً أنني لم أحاول استدراجها أكثر فأكثر تجاه نفسي المُخضبة - وقتها - بالآلام، والغضب، والرغبة في الثأر من الهزيمة والعار.

... غيرك حاول أن يُخرجني من وضعية فقدان التوازن التي كنتُ أعيشها: أمي وأختي غير الشقيقة بطريقتيهما النسوية الحانية، وإماءٌ جميلات صغيرات في السن حاولن - بنجاح جزئي - استدراجي إلى منطقة النسيان عبر الغرائز، وهناك آخرون حاولوا بطريقتهم ولأهداف مختلفة إخراجي من عُزلتي الاختيارية.. ها هي رسالة من أحد قادة الباشا في جزيرة العرب تقول لي مُعاتبةً ومعنفةً.. وإن بشكل تعاضدي مكشوف التهافت، إضافةً لِلُغتها الركيكة:

Twitter: @ketab_n

(يا "خالد أفندي": إن الانكسار أمام العدو حيناً، والتغلب عليه حيناً آخر، لهو من الأمور المنوطة، بإرادة الله، وليس في ذلك ما يُعاب عليه، كما هو معلوم للجميع، وأنه من المسلَّم به، أن العُسر يعقبه اليُسر، ولذا فليس ثمة ما يدعو إلى الأسف على ذلك، فإن النقود والعساكر متوافرة لدينا، في ظل ولي النعم، وسنمد الرياض، بأكثر مما تحتاج إليه منهما بإذن الله، وقد أعددنا لهذه الغاية، اللواء الحادي والعشرين وخمسمائة خيال ومدفعاً، وطلبنا من عُربان مطير، وعُتيبة، الجمال اللازمة لهذه الحملة، وسترد الجمال قريباً، حيث تقوم هذه الحملة بجميع مهماتها في الرياض، مع الشريف (منصور)، هذا وإننا لنسمع في المشياخ الذين يفدون إلى هذه الجهة، أنَّ (فيصلاً) رجلٌ أجنبي، وأن قبائل نجد تميل إليكم، نظراً لكونكم من (آل سعود)، الواقع أننا وإن نكن لم نتلاق معكم أكثر من مرة واحدة، إلا أننا قد توسمنا فيكم الإخلاص والاستقامة، وسمعنا الناس يلهجون، بحمد خصالكم، ومن كان هذا شأنه، كان بعيد النظر في عواقب الأمور، لابد أن تكون أعماله الطيبة مُرضية للجناب الخديوي، ولي النعم، وعليه فلو توليتم الإشراف على شؤون العربان، وقلتم لهم: إنني وإن كنت أولاً وأخيراً الحاكم على هذه الجهات، فإن شيمة الأتراك، عندما يريدون إرجاع الإنسان إلى وطنه، أن يوصلوه إلى هناك مع العساكر، ويسلموه إلى أهله، وقد أعادوني إلى وطني الأصلي الرياض، التي هي مركز حكومة نجد. وعليكم أن تعرفوا أنني الحاكم عليكم بعد الآن، وعليكم أن تنقادوا لي وتطيعوني وإلا فهناك عساكر كثيرة العدد، تزحف على الرياض، فينالكم منها أشد العقاب، لأدى ذلك إلى إخلاد العربان إلى السكينة، وعليكم بعد ذلك، أن تدبروا ما تحتاج إليه العساكر الموجودة بالرياض في المؤونة وماليها، بأي سبيل كان، لقد شاهدتم أنتم، مبلغ القوة الموجودة في مصر، ومثل هذه الهزيمة لا تُخيف مصر، ومن

Twitter: @ketab_n

الواضح أنه إذا ما هُزم أي جيش يسير خلفه غيره من الجيوش، وعليه.. إياكم أن تتهاونوا، أو تفتر همتكم في سبيل راحة هذه العساكر، ومن ناحية المؤونة، وغيرها من الأمور، ربما تصل العساكر، ولما كان العربان أشبه بالحيوانات الناطقة ولا يدركون بنظرهم القصير، عواقب الأمور، فإن الذين يملكون رجاحة العقل أن يُعاملون البعض منهم بالعطف والكلام اللين، والبعض الآخر بالخشونة والشدة والزجر، الأمر الذي لا يغرب عن فطانتكم، فلو اتبعتم أنتم أيضاً هذه الخطة مع العربان وسخرتموهم لأمركم، حفظتم نفسكم والعساكر من شرهم، ولارتفع قدركم في أنظار عامة الناس، ولكانت خدماتكم مشكورة لدى الجناب العطوف وفزتم بالتقدير والتكريم، فاعلموا ذلك جيداً، وجامع القول أننا نطلب منكم: أن تسيروا على الخطة المرسومة، وأن تحيطونا علماً بالأمور التي تتطلب عرضها علينا...أهـ)

كل تلك المحاولات - وإن اختلفت أشكالها ومراميها - لانتشالي من الفخ الاكتئابي العميق، استطاعت - أخيراً - أن تُعيدني إلى ما يُشبه التوازن بين ما هو مطلوب مني وما هو واقعٌ على الأرض.. لكن إلى حين!

هذا (الحين) أتى عندما ورد إلى (عاصمتي) التي يمكنني بالفعل أن أصفها وحدها بأنها كانت خاضعة تماماً لحكمي، بعد أن تفرد كبار رؤوس العشائر والحواضر - المشمولة سابقاً بسلطان الدولة الثانية - بحكم وإدارة قبائلهم وبلداتهم.. في إشارة فرار من نُذر الشؤم والانكسارات المحيطة بإمامهم الجديد؛ وردت أخبارٌ عن مغادرة (فيصل بن تركي) للإحساء بعد أن ملأت أنباء هزيمتي الأصقاع، قاصداً الخرج، حيث سيجتمع مع (المتآمرين) ضد حكمي، وآخرين ممن سبق أن واجهوا (جيشي) قبل أشهُرٍ بالقرب من بلدة (الحلوة)، وهناك وبعد مؤتمر قصير مُوسع ضم أطياف المختلفين في كل شيء، سوى كُرههم لحاكم

Twitter: @ketab_n

الرياض الجديد، نُصبَ (فيصل) قائداً للخصوم العازمين النية للاتجاه إلى المكان الرمز، الذي أُدير منه حكم الدولة الوليدة، والمترنحة بفعل مناعتها الضعيفة، وغزوات أمراض الكراهية المحيطة بها من كل مكان.

... ولم تكن الأخبار الواردة مبنية على إشاعات وأخبار مُلفقة، لقد كانت مؤكدة والجيش الـمُعادي - الذي رأيته ورآه أهل الرياض الحيارى - يحاصر أسوار العاصمة، ويدخل في حروب متفرقة مع (كراديس) جيشي بالقرب من (المصانع).

ومرةً أخرى حلت الهزيمة بجندي الذين ولوا الأدبار إلى (منفوحة) وجند (فيصل) وراءهم، ولم تدم - للأسف - مقاومة الفرق المدبرة ولا مسانديها من أهل (منفوحة) طويلاً، فسرعان ما شُوهدت رايات الاستسلام البيضاء ورسائل المبايعة والأمان، وكان هذا يعني - فيما يعنيه - أن تقف خيول الأعداء في مواجهة أسوار الرياض وأبراجها مباشرة.

... هل تذكر أيام الحصار تلك يا (حمد)؟

قطعاً تتذكرها..! وتتذكر ما قمتُ به، من استحضار بعض (الدروس) الحربية التي تعلمتها من المعاهد الحربية المصرية، دروس لم تفقدها ذاكرتي المشوشة، وحتى كل ما حولي فاقد الصلة بكل مُعطيات فنون الحرب - التي قيل لنا - إنها نماذج لكل المعارك السابقة واللاحقة!

لقد سددتُ - بمساعدة الجميع.. ومنهم أنت - أبواب أسوار (الرياض) بالطين، بعد أن رتبتُ صفوف مُقاتليَّ في وسط الأسواق، وألزمت مرابطة كل خمسة وثلاثين جندياً على كل بُرج من أبراج الأسوار، وبين كل (مُربعة) وأخرى أوقفت خمسة من المقاتلين ومعهم بنادقهم الحديثة، ولم أنسَ مداولة المهام بين الفرق حتى لا يُصاب الجند بالتأزم والسأم من الانتظار الطويل، خاصةً وأن جيش الأعداء يتوقع منهم هفوة - ولو صغيرة - للانقضاض عليهم.. وعليّ.

Twitter: @ketab_n

. . . (فيصل) في الجهة المقابلة كان عالماً بفنون الحرب والحصار، قطع كل سُبل تزويد الرياض بالمؤن، ولم يسمح إطلاقاً لعاطفته أن تتحكم في قراراته، حتى وهو يرى ويعلم عن الأزمة الإنسانية التي يعانيها الجوعى والمرضى داخل (عاصمته). لقد ارتفع ثمن كل شيء داخل الرياض إلا الإنسان، قُلتَ لي هذه الجملة يا (حمد) وأنت تحاول (فلسفة) أحوال مدينتك، ومدينتي. . ومدينة عدوي المتربص بي وبك خارج الأسوار. كنت ترغب أن تجرني في ليالي الهم والانتظار الثقيلين إلى ملعبٍ أحببتُ دائماً قوانين لعبة معينة تمارس عليه: البحث عن الحقيقة أينما كانت، ومشاركة الإنسان لأخيه الإنسان همومه الوجودية. لكن أين محاولاتك وصراخ الجرحى، وحشرجات الموتى، وزعيق الأطفال الجوعى تصُم الآذان وتكسر القلوب؟ أين جهدك العبثي والطامعون القدماء والجدد، يخربون ما ظل سليماً - لم يُخرب - في المدينة التي جعلها الزمن - لسوء حظها - عاصمةً مليئة بالجثث، والمخاوف، والاستعدادات للمعارك التي لا تنتهي.

. . . للتخفيف من معاناة أهل (الرياض) أصدرتُ أمراً بإخراج ليلي لمن لا يكون له حاجة عسكرية داخل العاصمة، على أن يكون هذا (المطرود) من غير المحليين الأهالي، وهدفتُ من هذا التصرف التخفيف من معاناة السكان الجوعى.

بعد مرور سبعة وستين يوماً من الحصار الـمُحكم القاسي، شن (فيصل) وجيشه - وقد مل الجميع من انتظار استسلامي بعيد المنال - هجوماً كاسحاً على أسوار الرياض، التي أسندوا عليها ليلاً سلالم طويلة في محاولة لتسلقها ومباغتة المدافعين عنها، لكن هذه المحاولة الضخمة فشلت بعد أن تم تحذير المدافعين عن الأبراج بأن تحرك الجيش

Twitter: @ketab_n

الـمُعادي في عصر اليوم السابق، ينُم عن هجومٍ قوي مُباغت قد يحدث في آخر الليل. هذا التحذير فعل فعله، عندما جُوبه المهاجمون بدفاعٍ أقوى بأساً مما توقعوه.

. . . ليلتها يا (حمد) وكما تذكر أكثرنا من القتل في صفوف جيش (فيصل) الذي هاله منظر صرعى جنوده وهزيمته الـمُنكرة، وهاله أيضاً صباح يوم انكساره قدوم جيش كبير لمساندة أهل الرياض وإمامهم. الجيش (الـمُنقذ) كان يتكون من عربان (سبيع) وعلى رأسهم البطل (فهيد الصيفي) والبطل (قاسي بن عضيب) من قحطان.

هزيمة الأبراج وقدوم جندٍ إضافيين جعلا (فيصل) يتراجع عن فكرته الجنونية باحتلال الرياض، وعلِمنا - وأنت منا - في صُبح الحادي عشر من شهر شعبان سنة 1253هـ، بأن مأساة أهل الرياض.. ومأساتي، في طريقهما إلى الزوال - المؤقت - و(فيصل) ينسحب إلى منفوحة حزيناً، ومعه جيشه الـمُثخن بالجراح والحيرة.

ولعلك يا (أبا راشد) تنبهت إلى قهقهاتي العالية صبيحة انسحاب الجيش الـمُعادي، وأتذكر أنك سألتني إن كان للضحكات أسباب أخرى غير نشوة النصر، وقتها أجبتُك: أن النصرَ مُفرح بالتأكيد، لكن ما يضحكني - الآن - هو تبدل مواقع المحاصِرين والمحاصرين؛ أنا كنت قبل ساعاتٍ مُحاصراً مع المصريين، ويُحاصرني ابن عمٍ لي كان معي في حصار الدرعية، الذي قام به أسلاف من يقفون معي الآن مُدافعين.. أليس في هذا مُنتهى الهزل؟!

بعد يومين من اختلاط النصر بالهزيمة أرسل لي (فيصل بن تركي) رسالةً يقول فيها: (كفى قتالاً بيني وبينك يا (ابن العم) ولنُحكِّم الله ورسوله في خلافاتنا التي قد تُطير بأسرتنا، وبتاريخهم، وبما كانوا يأملونه لبني قومهم وبلادهم.. وقبل ذلك لعقيدتهم).

Twitter: @ketab_n

ماذا عساي أن أجيبهُ سوى أن أوافق على الالتقاء به، خاصةً أنه أرجع الأمر كله لله ولرسوله؟!..كم حمّلنا يا (حمد) الله ونبيه وِزرَ ما نفعل؟

... في يوم السابع عشر من شهر شعبان خرجتُ من إحدى بوابات أسوار الرياض غير هيابٍ من عواقب الخروج، واحتمالية أسري، لقد كان الأمل في عودة الرُشد لـ(فيصل) أكبر من مخاوف أهلي وأتباعي.

بعد مرور عشر سنوات ها أنا ألتقي مع الثائر (فيصل بن تركي)، مع الرجل الذي رفض خنوع أكثرية الأسرة لضيافة (محمد علي باشا)، ورفض كذلك عودة أي فردٍ منهم، إلى الحكم، عبر خيول ومدافع أصحاب (الضيافة)، حتى لو كانت العودة تعني السلمَ والأمنَ، ودون إراقة دماء السكان المحليين.. أو حتى (الغُزاة)، الذين سيغادرون (أرضنا) بكل تأكيد، لأن لديهم من المشاغل والهموم ما يكفي، ولأنه لا حاجة لهم لمحاربة من يطلقون عليهم (السلفيين)، والذين أضعفوا سابقاً - من حيث لا يدرون - عدوَ الجميع المشترك (=الأتراك)، وخففوا من دعوتهم القديمة لدولة إسلامية لا تتسع مخيلة (الغرباء) لحدودها، واختاروا بدلاً من ذلك دولةً أصغر كثيراً مما تخيله أسلافهم!

... ياالله..!

كم تغير (فيصل) وكم تغيرتُ أنا.. تلاقت يا (حمد) عيوننا وفيها دمعٌ مُحتبس لم يستطع الانسياب، وأنفةٌ كاذبة تعيده مرةً أخرى للمحاجر؛ مددتُ يدي له ومد يده لي.. فتلامست اليدان المُعفرتان بأتربة المعارك البينية..ببرود؛ كان بودي أن أحضن (ابن العم) وكان بوده أن يُتمم الفعل ذاته، لكن لعن الله الحروب والمطامع ووسوسات شياطين الإنس، ممن يقذفون - عادةً - بالزعماء إلى محارق البغضاء،

Twitter: @ketab_n

إرضاءً لتطلعاتهم الشخصية المبنية على جماجم مَن يُفترض أنهم أهلُ النُهى!

سألني (فيصل): (كيف حالك يا (خالد)؟)

أجبته: (لستُ بخير.. وأنت كذلك! نحن نعرِضُ يا (فيصل) أمام الناس سيوفاً كان من الأولى أن تُشهر لغير ما شُهرتْ له الآن.)

قال: (ألم أُحذرُكَ من سوء العاقبة، إن أنت سلكت الطريق الذي ظننت أنه يأخذك للمجد والإصلاح على طريقة الغرباء.. قتلة إخوانك وأهلك؟!)

صمتُّ هنيئةً لاختار كلماتي بدقة.. ثم قلت: (ألم توصلك تجارب الماضي لتلمس حقيقة مؤكدة.. تقول: إن إغراء الأمة المتعبة والمثخنة بجراح وآلام الحروب السابقة، بمزيدٍ من الاندفاع المتهور، لن يزيدكَ ويزيدها إلا بؤساً وعذاباتٍ.. لها ألفُ وجهٍ ووجه؟)

... ثم أضفتُ قائلاً: (ألم تجد طريقةً أحسن، من إدعاءٍ بحاكميةٍ بُنيت على أشلاء من تقودهم للمهالك، وعلى حقوق "آخرين" كانت لهم الإمامة والقيادة من قبل، والذين أشعت عنهم أنهم قد هلكوا أجمعين)؟

ظَهرت بوضوح علامات الغضب والتبرم على محيا (فيصل)، ثم قال وهو يلوح بيديه في الهواء: (تالله إنك لفي ضلالك القديم.. يا (أخي) التاريخ والبشر في هذه البلاد ينتظرون خارج هذا المكان، ولو استمر هذا الجدال العقيم فلن نصل إلى نتائج.. ماذا تريد الآن)؟

أجبته وأنا أتصنع الهدوء: (لا يستقيم حاكمان على هذه الأرض.. عُد إلى الطاعة.. إلى طاعة إمامك (ابن الفرع) الذي أسس الدولة وذبَ عن الدعوة الإصلاحية)!

زاد هياج مقابلي، إلى درجة أنني وجدتُ صعوبةً في تتبع كلماته: (جدُنا واحد ومنه خرجتُ أنا وأنت، وعلى يديه تأسست الدولة ورُفعت

Twitter: @ketab_n

رايةُ (الشيخ). فلا تعُد لمثل هذه النوعية من الأحاديث؛ أنا لن أسلم البلاد وأهلها إلى (ربيب) أعداء التوحيد، الـمُنكلين بأسرتي وأسرتك، كيف تحكُم بلاداً لم تُعرها انتباهاً طوال ثمانية عشر عاماً، حينما كُنتَ غارقاً في التصوف والفلسفة، وفي ارتياد المقاهي وسماع "الملاهي")؟

... لحظتها صممتُ أن أخرج ما عندي كله.. قلت: (وأنا لن أسلم البلاد وأهلها إلى (أرعن) لم يستطع حتى الاحتفاظ بالمكاسب الهزيلة لوالده، والتي لا تُقاس بمكاسب الدولة المهابة.. دولة أبناء (عبد العزيز بن محمد)، إن حكمتَ يا (فيصل) أنت فلن تورث البلاد وأهلها، إلا الحروب والاقتتال الداخلي، إن هي سلمت من حروب معروفة النتائج، مع أعداء الأمس الأقوياء أنفسهم.)

... هكذا انتهى اللقاء الذي استمر من بعد صلاة الظهر إلى قبيل صلاة العصر؛ انتهى ولم أحكِم أنا - ولا هو - الله ورسوله في شقاقنا واقتتالنا؛ انتهى ودموع عصية على التساقط، تُرى في عيوننا الحزينة على ما وصلت به حال أبناء الدم الواحد؛ انتهى ومخاوفنا المشتركة تمنعنا من رد الأمر كله - بعد الله - إلى الناس، ليختاروا من بيننا من يختارونه، أو لِينصبوا من يرونه.. غيرنا!

... استؤنفت الاشتباكات المتقطعة والدامية مرةً أخرى بين (جيشي) وجيش (فيصل) طوال شهر رمضان، وعلمتُ أن (فيصل) يقوم بمُراسلات خفية عني وحتى عن العلماء الكثيرين حوله؛ كان يُراسل - سراً - الوالي العثماني في بغداد مُبدياً الاحترام ومجدداً العهود بعدم السماح لعُربانه بقطع طريق الحج وتهديد سلامة الحجاج، والأهم من كل هذا إشعاره للوالي العثماني بأنه لا يزال من رعايا الدولة السَّنِية؛ وفي الوقت نفسه كان يُراسل المصريين في الحجاز وفي القاهرة عارضاً تقسيم نجد إلى قسمين: قِسمٌ له يضم: الإحساء والقطيف والبريمي وأجزاء من نجد الجنوبية، على أن يترك الرياض والقصيم وحائل

Twitter: @ketab_n

لـ(خالد).. والمصريين. كما طلب من المصريين السماح له بأخذ بقية ممتلكاته من الرياض!

المراسلات مع العثمانيين كانت بلا فائدة حقيقية لـ(فيصل) سوى أنها تُعطي نوعاً من المهابة الدينية والمعنوية، لاسيما وأن الدولة العثمانية كانت تئنُ من النتائج السلبية لحروبها مع روسيا وخلافاتها مع والي مصر. ما أزعجني فعلاً تلك المراسلات بين (فيصل) وقائد جديد أرسله (محمد علي) لنصرة قواته في وسط الجزيرة العربية؛ المنقذ الجديد يُدعى (محمد خورشيد باشا) وهو قائد ألباني جُلب إلى مصر صغيراً، حيث تعلم في المدارس المدنية والعسكرية، وكان مُقرباً جداً إلى قلب (الباشا) في مصر، حيث شُوهد وهو يقوم بمهام عظيمة في حملات (محمد علي) المبكرة على الدرعية، وها هو يأتي - الآن - لنجدة الإمام الـمُنصَّب، ونجدة زميله (إسماعيل بك)، الـمُحاصَر - مثلي - في الرياض، رغم هزيمة (فيصل) الأخيرة.

المراسلات التي أطلعني على فحواها (إسماعيل بك) بأمرٍ من (خورشيد باشا) الـمُتخذ من (عنيزة) قاعدة رئيسية له ولجيشه قبل الانطلاق إلى الرياض، تهدف لاستدراج خصمي - حسب قول أعواني المصريين - إلى مُهادنة نوعية معه، توطئةً إلى الإمساك به وإرساله مخفوراً إلى مصر بحجة مُقاتلته للإمام الجديد وجنده، ولأنه كذلك تخاذل في إمداد القوات المصرية بالخيل والإبل، وهي تحارب خُصماء لها آخرين في جنوب غرب الجزيرة العربية؛ ولا ضير - كما أخبرني إسماعيل بك نقلاً عن خورشيد باشا - من دغدغة كبرياء (فيصل) عن طريق الكتابة له، بأنه سيكون محل عطف (الباشا) في مصر وقادته في الجزيرة العربية، وأن من المحتمل أن يكون هذا العطف على شكل تقرير يُشكل حدود مُلكه، وبالتالي - حسب الوعود الـخُلَّب - فلن يكون له مُنازعٌ في هذا الحكم لا من أهله ولا من الآخرين، علاوةً على ذلك

Twitter: @ketab_n

فسيُرّسل له مع أمير ينبع (عبد الله الشريف) هدايا متنوعة كدليل على حُسن النية والمودة.

أخبرني (إسماعيل بك) بذلك طالباً عدم انزعاجي حال علمي بتلك المراسلات الخديعة - كما أطلق عليها - وطالباً أيضاً أن أُساعد (خورشيد باشا) في إتمام الصفقة (الفخ) من خلال السماح لمساعدين لـ(فيصل) في دخول الرياض، بحجة أخذ أمتعة وأملاك (خصمي) المتواجد في (منفوحة)، لعل هذا التصرف يُهدئ من روع (فيصل) ويستدرجه من حيث لا يعلم!

أبديتُ موافقة ظاهرية على خطط المصريين، لكن داخلي كان يغلي ويثور.. ويرتعب! فمن يضمن لي أن المخدوع لن يكون (فيصل).. بل أنا؟!

... الأيام والأسابيع التالية أظهرت لي أن مخاوفي وظنوني مُبالغٌ فيها، وأن القادمين الجُدد من عند (الباشا) والممتلئين رغبةً في حسم الأمر نهائياً ومرفودين بقوة عسكرية كبيرة، لن يُساوموا على اختيارهم - لي - كقائد نجدي أوحد، مع الاعتراف - الداخلي - بصدمتهم، من حالتي الخور والحيرة اللتين تظهران على (الإمام) الجديد بين فينة وأخرى!

أرسل (فيصل) إشارة غير مكتوبة إلى (خورشيد) تقول: عروضكم جديرة بالاهتمام وأنا لها مُنصتٌ. وللدلالة على جدية رغبته للوصول إلى حل (ما) مع الغرباء الذين يُعيرني بهم دائماً، أمر (فيصل) قواته بأن تنسحب نهائياً من محيط (الرياض) وتتجه جنوباً للدلم والأفلاج، وبهذا فعلى (خورشيد باشا) أن يطمئن على جُنده ومَن يُدير الأمر نيابةً عنهم؛ ولم يكتفِ (فيصل) بهذا، بل أرسل هدايا مقابلة للقائد المصري مع أخيه (جلوي) الذي بقي مع (خورشيد باشا) طوال مسيرة القائد المصري من الحناكية إلى عنيزة، حيث المقر المؤقت للتجريدة الجديدة.

Twitter: @ketab_n

وطوال الأشهر الباقية لسنة 1253هـ، استمرت الحالة السياسية الرمادية في وسط الجزيرة العربية، واستمرت كذلك موجات القحط وما يتلوها عادةً من غلاءٍ في البضائع والحاجيات. أما من قصر حكمي فلم تصدر إلا قرارات جباية الزكاة، وإعادة تولية (أحمد السديري) على عموم (سدير) و(المحمل)، وقرارات أخرى بصرف مساعدات للأهالي في نجد تخفيفاً عن شدائد ما يجدونه من الطقس وأهل السياسة! أما أبرز حوادث الاقتتال الداخلي في آخر تلك السنة المشؤومة بين رؤساء عشائر البلدات - التي من المفروض أن تكون تحت هيمنتي - فكانت عودة (عبد الله بن علي بن رشيد) رئيس (جبل شمر) السابق، والمساند لـ(فيصل بن تركي) إلى سُدة حكم (حائل) بعد مُباركة واتفاق مع (خورشيد باشا)، الذي ثَبَّتَ (عبد الله) وأخاه القائد الميداني الفعلي (عبيد) على رأس الهرم القيادي في الجبل، بعد معارك دامية هناك.

ولعلك تذكر يا أخي (حمد) أن (خورشيد باشا) تباطأ كثيراً في تحركه من عنيزة إلى الرياض.. إلى حيث البائسون من أعوانه.. وأصدقائه، مما أجج مشاعر عدم الاطمئنان في نفسي مرة أخرى، وزاد من حال عدم اليقين - هذه - عندي، أمرُ القائد الجديد الأعلى مرتبةً، لـ(إسماعيل بك) وعساكره بالعودة إلى مصر عن طريق القصيم، حيث سيجتمع القائدان السلف والخلف للتشاور، وكلمة التشاور عند هؤلاء تعني - عند من يعرفهم - الكثير!

وبهذا لم يبقَ معي في الرياض إلا قائد كُردي صغير الرتبة اسمه (مُلا سليمان)، ومعه فرقة قليلة العدد من الجُند، مما سيُغري - والحالة كهذه - أي طامعٍ بالرياض وبإمامها الجديد، أن يقوم بما نوى فعله، دون الخوف من العواقب الآنية.

... جاء الأسبوع الأخير من شهر رجب سنة 1254هـ، وجاء معه الفرج: قَدِمَ (خورشيد باشا) إلى الرياض قادماً من (عنيزة) التي قضى

Twitter: @ketab_n

فيها ستة أشهر أو يزيد، ولعل من حُسن طالعي أن القائد المصري، ورغم قدوم زعماء العشائر والقبائل النجدية إلى معسكره لإعلان الولاء له ولدولته، فإنه - وفي الوقت نفسه - تعرض للمتاعب العسكرية الصغيرة مع بعض الأهالي في القصيم. تلك المتاعب - التي لم يرغب القائد الكبير أن تُشتت جهده وهو يسعى لتحقيق هدفه الأساسي، الذي أرسله (محمد علي) الـمُتعب من أحداث عالمية أخرى.. من أجله - حفـزته على الإسراع في مغادرة الأرض ذات الحساسية من تواجد جنده الأجلاف الغُرباء، على أن تكون (الرياض) محطته التالية، والتي من خلال موقعها المتميز والـمُرمز، سيكون قادراً على إتمام مهامه المحفوفة بالمخاطر.

... لم تكن هناك كفاية وقت يا (حمد) في الرياض لإبداء مظاهر ترحيب مبالغ فيها، لقائد الحملة الجديدة؛ فسرعان ما عرفتُ من (خورشيد باشا) أنه ينوي بعد مقام أيام قليلة في (عاصمتي)، أن يصطحبني، ومعي بقية جيشٍ مُتعب كنت أدير به - فقط - الأمن الاجتماعي، إلى المكان الذي يدير منه (فيصل) مخططات الإطاحة بي. ووعدني (خورشيد باشا) وأنا أشرح له مخاطر مُهاجمة خصمي وخصمه دون دراسة الوضع العسكري للجيش، بألا يكون أمام عينيه إلا النصر التام والمؤزر على مَن تمرد وأزعج. وأشار وهو يطلق هذا الوعد والوعيد - إلى حجم القوة العسكرية - التي أتت معه من مصر، وإلى الأعداد الإضافية من العُربان، الذين انضموا له وضاقت بسببهم أزقة وسكك (الرياض) الضجرة من أشياء ظاهرة وباطنة.

... في أوائل خريف تلك السنة[1] اقتربت عساكر لا عدد لها من بلدة (الدلم) الواقعة في جنوب الرياض، وغير بعيد من البلدة المذكورة

(1) الموافق لأكتوبر 1838م.

Twitter: @ketab_n

وعند مكانٍ يُقال له (الخراب)، دارت معركة رهيبة استمرت من الصباح حتى المساء، لِتُسفر عن نصر كبير لـ(جيشي) وجيش (خورشيد باشا). قتلى كثيرون يا (أبا راشد) سقطوا في الجانب الـمُعادي المقابل، وقتلى قليلون سقطوا من (معسكري) المختلط، لكن (خورشيد باشا) اقترف هفوة عسكرية كلفته بعض الثمن، عندما لم يتابع فلول الجيش الهارب، تاركاً فُسحة من الوقت لـ(فيصل) حتى يبني المتاريس ويرفع أسوار (الدلم)، ونتيجةً لهذا طال الحسم العسكري، ليُستبدل بدلاً منه مناوشات حدثت عند نخل (سمحة)، وكذلك عند موقع آخر يُطلق عليه (قصر هينة)، وفي تلك المناوشات قُتل منا ومنهم أعدادٌ غير يسيرة، خفف من وقعها في الجانب المقابل قدوم مناصر خصمي (عمر بن عفيصان) أمير الإحساء لنجدة (فيصل) وجنده المتعبين.

. . . ولسبب غير معروف حتى الآن، أدت خلافات خطيرة في صفوف جيش (ابن عفيصان) المعسكر في بلدة (زميقة) إلى فشل تحالف الـمُغيثين من أهل (الحوطة) وأهل (الحريق) وأهل (السلمية)، هذا الفشل يا (حمد) الذي وصلت أخباره لكم في (الرياض)، أدى إلى نتائج مُذهلة لم تكن في الـحُسبان: لقد كاتبني - وكاتب خورشيد باشا - في منتصف رمضان، أُناسٌ من أهل (الدلم) - حيث يدير (فيصل) معركته - طالبين الأمان، مقابل تسليم ما قبلهم من أراضي (الدلم) وعندما طلبتُ و(صديقي) القائد، أن يحضُرَ الـمُكاتبون إلى معسكرنا بأنفسهم، حتى نختبرَ نواياهم، نُفذ (الطلب) فوراً في العشر الأواخر من شهر رمضان: أتى كبار القوم من (آل شريم) و(آل رشود) ليجلسوا مع القيادة التي كانوا قبل أيام يحاربونها، وليكرروا نفس عروضهم المكتوبة السابقة، والقاضية قبولهم بطاعة الإمام الذي شقوا عليه عصا الطاعة من قبل، وأن يرضوا بواقع جديد فرضه جند (الباشا) وقائدهم عليهم.

هذا الاستسلام تبعه استسلام أقوامٍ كثيرين في (الدلم)، إلى درجة

Twitter: @ketab_n

أن (فيصل) ذاته فكرَ وهو يرى الجميع يتفرقون من حوله، أن يُسابق الزمن ويطلب الأمان لنفسه وعياله وخدمه، وتحول التفكير بعد أيام قليلة إلى حقيقة ملموسة، عندما شُوهدت رسائل كان يحملها مُقرب عند (فيصل) اسمه (إبراهيم أبو ظهير). وطوال ساعات دارت مناقشات بين هذا الشخص من جهة، وبين القيادة الثُنائية من جهة أخرى، حول طبيعة الصلح غير العادي الذي (فُرض) على خصمي، وبعد مخاضٍ عسير تبلورت النتيجة الباهرة: لـ(فيصل) الأمان، على أن (يُرحل) إلى مصر حيث ينتظره بفارغ من الصبر.. (محمد علي باشا)!

... في اليوم الثاني لشهر شوال سنة 1254هـ[1] وتحت حراسة مُشددة قادها (حسن اليازجي) ارتحل (فيصل) مُرغماً إلى مصر ومعه أخوه (جلوي) الهارب من أسر (خورشيد باشا)؛ وفي المعية أيضاً أبناء عمومة آخرون منهم: (عبد الله بن إبراهيم بن محمد) و(عبد المحسن بن إبراهيم بن عبد المحسن بن مشاري). أما نساء (فيصل) وابناه (عبد الله ومحمد) فقد عاملتهم كما يُعامل الإنسان أهله وبنيه، ولم أُرسلهم إلى ضيافة (الباشا) إلا بعد أن طلب (فيصل) ذلك في شعبان من السنة اللاحقة.

وقبل أن يُساق (فيصل) إلى سجنه (القاهري) للمرة الثانية حانت التفاتةٌ منه تجاهي، لتلتقي عيوننا مرةً أخرى، لكن هذه المرة كانت العيون سخية في الدمع والكلام، ساعتها سألتُ نفسي:

... مَن مِنا السجين يا تُرى؟

أخي (حمد):

(طريقة وحيدة ينجو بها الإنسان من العذاب: أن يُذكر دائماً أنه للعذاب خُلق)، قولٌ مأثور لفيلسوف عصر العقل (جان جاك روسو)،

---

(1) الموافق للعشرين من ديسمبر عام 1838م.

Twitter: @ketab_n

احتفظ به الشق الفرنسي لذاكرتي، عندما ظن الكثيرون في نجد أواخر عام 1254هـ بعد أسر (فيصل بن تركي) وإستسلام المناوئين لحكمي، أن الأيام السوداء قد أدبرت عن إمامهم الجديد الذي لا يقيناً ثابتاً لديهم، حول حبهم أو كراهيتهم له!

حدسي أيامها كان يُخبرني أن إعصار (فيصل بن تركي) والمتبوع بهدوء حذر، لم يكن إلا تمهيداً لأعاصير أخرى أكثر شراسةً وتدميراً. نعم..! إنها هدنة بين حربين، واستراحة محارب لن تطول!

خضعت - ظاهرياً - كل ممتلكات الـمُستسلم (فيصل بن تركي) من الأراضي ومن عليها من البشر، لسلطاني المدعوم بقوة عسكرية هائلة يقودها (خورشيد باشا)، ولم يبلبل المشهد السياسي العام إلا (ابن عفيصان) أمير الإحساء في عهد (فيصل) الذي رفض أن يستسلم لمقتضيات الأمر الواقع، وعلى الرغم من هذا التشويش الجانبي، خضعت الإحساء - لاحقاً - وبقية مناطق شرق الجزيرة لـ(حمكي)، ومع هذا الانصياع الذي يبدو عليه الشكل والمضمون المصري، أخذت مخاوف الإنجليز من مطامع (محمد علي) التوسعية - خاصةً في البحرين - تزداد كلما اقتربت تماسات الهيمنة والنفوذ، بين الدول التي تتحكم في مصائر الدول الأصغر والأضعف، لكن الـخُبث والدهاء الإنجليزيين بلورا خُطةٍ غرائبية تفضي بأن يدفع حاكم البحرين الـمُنصاع للقوة الاستعمارية الكبيرة، جزيةً لـ(خورشيد باشا) تُقدر بألفين من الريالات الذهبية، على أن يكُفَّ هذا القائد من تحرشاته بالجزيرة الصغيرة وبحاكمها (ابن خليفة)، وأن يُسقط مطالبة - التي قد تتحول إلى حجج غزو - بتسليم (عمر بن عفيصان) له. والأهم من كل ذلك: اقتناع (خورشيد باشا) بأن تواجداً - حتى لوكان اسمياً - لممثلين له أو (لي) في البحرين، سيعني - فوراً - الاستنجاد بالإنجليز وبمدافعهم المتطورة! هذا الحل على الطريقة الإنجليزية والذي يخيف الذئب ولا يقتل الغنم،

Twitter: @ketab_n

طُبق كـذلك على نواحي (عُمان) الأخرى، والمشمولة بالهيمنة (السعودية) القديمة.

الـمُماحكات بين الدول التي تُهيمن على بلادنا هنا وهناك، ومتابعتي - وغيري - لهذه الـمُناكفات والتهديدات بالحسم العسكري بين أقطاب القوة، دون أن نُقرر مصائرنا بأنفسنا، سوى أن يختِمَ المحتلون الأوراق ونوقعها بأسمائنا - العربية - الكارهة بعضها بعضاً، هذه المصارعة الدولية زادت من وطأة الشعور بعبثية ما كنت أقوم به منذ أواخر سنة 1254هـ، وحتى أواسط عام 1256هـ.

... هل قُدر لي بعد كل معارفي ودراساتي في الإصلاح الإداري وجماليات الفنون ومباحث الإنسانيات، أن أوقع فقط تعيين هذا (المنصوب)[1] أو عزله؟

هل مرت سنوات الاعتبار عبثاً، وأنا أرى فساد من حولي وسرقاتهم لأموال الزكاة والجباية والإتاوات، دون أن أحتج على الإدعاء بأن عملية حسابية بسيطة مثل: اثنين زائد اثنين لن تكون نتيجتها.. خمسة؟!

أين مشاريع الإصلاح والنهضة والرُقي التي شغلتني كثيراً واستولت على عقلي، ولا حديث في الشارع النجدي إلا عن تفاخر هذه القبيلة بما تُوقعه من أضرارٍ في القبيلة الأخرى؟

علاقة الدين بالدولة، والإيمان الداخلي بالسلوك الإنساني المحكوم بضروريات التعدد والضدية والاختلاف، إشكاليات كانت حلولها حاضرة في ذهن (خالد القاهري) و(خالد الاسطنبولي)، لكن سرعان ما تبخرت الحلول والرؤى يا (حمد) وأنا أعيش في داخل الهم النجدي. الشعور بعبثية ما أقوم به من عمل، لم تتسبب به - فقط - مظاهر الكبرياء

(1) المنصوب: الأمير أو الوالي.

Twitter: @ketab_n

والاستعلاء والجبروت التي يُبديها قادة جيش (محمد علي) وجنده، زيادةً على استخفافهم بمطالبي المتكررة بأن يقتصر دورهم على المساندة والدعم البعيدين عن الأنظار، ويتركوا لي وحدي عملية اختيار الساسة، وصناعة جيشٍ نوعي يرتبط بي مباشرة؛ لم تتسبب هذه العلاقات الـمُلتبسة (مع الغُزاة الأصدقاء) بكل هبات الإحباط وألا تكيف مع الأمكنة والأزمنة وما بينهما من بشر، بل عززتها خيمة الإشكاليات التي ذكرتها سابقاً، والقائم عمادُها على الدين، كما يفهمهُ بنو قومي، ويؤسسون تبعاً لذلك نظرتهم وسلوكهم للحياة وتفاعلاتها.

لقد وصلتُ إلى قناعة يا (حمد): أن المفهوم الديني المحلي - وعليك التنبه هنا لكلمة المفهوم المحلي ولا شيء غير ذلك - هو عائقٌ أكيد للتقدم والتحضر، وألا أمل - على الإطلاق - بأن تُحسب بلادنا، في مصاف الأمم الهاربة من أغلال العوز والمرض والأُمية والعُزلة، ما لم يُسيطر المعقول على المنقول، وما لم يفتح باب الاجتهاد والتأويل والاعتراف بأننا جماعة من المسلمين وليست جماعة المسلمين، وما لم نعترف بأن في مذهبنا السلفي الحنبلي نواقص يمكن سدها بالأخذ مما لدى المذاهب الفقهية الأخرى - التي تشكو نقصاً مثلنا - والاستزادة بما يتراكم من تراث الـمُراجعات والقراءات الدينية النقدية المختلفة على مر العصور؛ لكنني وصلتُ يا (حمد) إلى قناعة أخرى مقابلة.. وهي: أن المفهوم الديني المحلي الـمُتشدد وغير القابل للاختراق العقلي، ضمانٌ أكيد لحفظ الهوية، وإبقاء شُعلة الحياة للعصبية التي وحدت بلاداً كانت عصية على التوحد قبل ذلك!

ولم تكن القناعة الأخيرة مبنية على رغبة في جعل الدين بمفهومه المحلي ناقةً لاستمرار حكم أسرتي.. لا، الأمر ليس كذلك على الإطلاق! مصر وبلاد الأناضول، لم تتخاطفهما الدول الأوروبية - وحتى المرتزقة المحليين - لولا أنهما ابتعدتا عن جوهر الدين ونقائه وثوريته،

Twitter: @ketab_n

فهل خلفاء (بني عثمان) المتأخرون يماثلون - مثلاً - (محمد الفاتح) و(سليمان القانوني)؟ وهل هناك وجوه شبه بين (صلاح الدين الأيوبي) الموحد المرهوب الجانب، وبين مماليك الخمارات؟

للهرب مما أتمناه وأخشاه، ولاستحالة التوفيق بين الحاجة للغُزاة والخوف - في الوقت نفسه - من صلفهم الممزوج بالغباء، ولعجزي من الـمُزاوجة بين سقف التطلعات المبالغ فيها، وأرضية الواقع الحياتي البائس لبني جلدتي، التجأتُ للسلبية بكل ما تحمله كلمة السلبية من معنى، ضاقت دائرة أصدقائي إلى حد أنني اتخذتُ من جلود وأوراق الكتب التي حملتها من مصر - ولم أستفد مما فيها - جُلسائي الأوحدين، بل رحتُ أحدثُ أعمدة قصر الحكم، وأتمنى ألا تنقطع كوابيسي الليلية حتى لا أرى مظالم النهار وشقاءه؛ طالت غيبتي عن ديواني ورسائل العزل والتأمير.. حتى والدتي وأختي غير الشقيقة، كانت تنقضي أسابيع عديدة دون أن أراهما واستمع إلى كلمات التشجيع والإشادة بمواهبي، التي لا يراها إلا الشقيتان بمحبتي. لم يُشتت الوحشة المحيطة بكل ما حولي، سوى تذكُري لوجود صديقٍ صدوق مثلك في (عاصمتي) الموحشة.. وتلك العينان الساحرتان لبنت (العفالق)، والذي يعوضني طيفها المفارق، عن شواغر حميمية الزوج واللهفة على الولد.

... شعر (رعيتي) باضطراب (إمامهم) وسوء حالته النفسية، ولم يغفروا له أبداً أنه نقيض أسطورية والده الإمام (سعود بن عبد العزيز)، ولا يماثل حتى واقعية ومثابرة الأسير (فيصل)، ولم يستطيعوا - كذلك - تبرير تخاذله المتزايد أمام أصغر مسؤول في جيش (خورشيد باشا)؛ أما وعوده الكاذبة برغد الحياة، وأمن الأوطان، وتبديل وجه الزمن القبيح الموحش في بلاد آبائه وأجداده، فتلك مدعاة إضافية للابتعاد عنه، وتركه مع يومه الموعود، الذي تضرِبهُ نجدُ عادةً مع أمثاله من الحكام

Twitter: @ketab_n

الحائرين، الـمُستنكفين الدلوف داخل فسطاط الدم، والخيارات الحدية الصعبة.

ولم يطل - للأسف - انتظار العديدين من (رعيتي) تحقق صحة نبوءتهم السوداء لحاكم الرياض:

أرغمت انتصارات (محمد علي باشا) المذهلة على جيوش العثمانيين، والتي أوصلته إلى مشارف الآستانة في عام 1255هـ[1]، الدول الأوروبية الكبرى على التدخل لصالح (حليفهم) التركي، ومن ثم إجبار المنتصر على توقيع معاهدة (لندرة) التي نصت على وجوب وسرعة سحب قوات (الباشا) من بلاد الشام والجزيرة العربية!

هذه المعاهدة وتوابع زلزالها كانت القشة التي قصمت ظهر البعير؛ لم يعُد افتراضاً - بعد تلك المعاهدة الشهيرة - ما سبق وحذرتُ (محمد علي باشا) منه، أثناء آخر لقاء لي معه قبل تجريدة (النصر والتمكين)، بل أصبح الأمر غير المعقول عند (الوالي) حقيقة واقعة الآن!

. . . في أوائل جمادى الآخرة سنة 1256هـ[2]، وقفتُ مُودعاً (خورشيد باشا) بعد استدعائي العاجل من (غزوة) قمتُ بها أوائل السنة ضد (آل شامر) المتواجدين في (بياض اليمامة). ولم يكن الوداع في (الشنانة) عادياً، لأن الـمُرتحل كان يعرف أنه لن يعود أبداً لهذه البلاد، ودولته في مصر تكفاح أن لا تُغزا من الأوروبيين الحانقين على رفض (والي) مصر، الانصياع التام لمقتضيات معاهدة (لندرة)، الـمُجحفة في حق بلاد (أبي الروحي). . ساكن أرض الكِنانة!

المقيم المودع، كان يعرف بدوره - ومظاهر الوداع غير العادي مستمرة على قدمٍ وساق - أنه سيواجه مصيره لوحده منذ لحظات الوداع

---

(1) الموافق لعام 1839م.

(2) الموافق لأواخر سبتمبر عام 1840م.

Twitter: @ketab_n

الأولى، وأن أمامه خيارين لا ثالث لهما: إما الانتصار على الأعداء الظاهرين والخفيين ومنهم نفسه الحائرة.. وإما الموت في صحارى نجد، وإن أفلت من الموت (فجائزته) أسرٌ جديد.. الله أعلم كيف سيكون؟!

... طافت الخيارات الصعبة في خاطري وأنا أعود إلى (الرياض) دون عساكر (الـحُلفاء)، رحتُ أحدث نفسي بأن هذه فرصتي لأثبت للجميع أن من يقودهم ليس إمعةً ولا عميلاً، بل هو إمامهم الديني والدنيوي، والمنحدر من أصلابٍ يعرفونها حق المعرفة. ولاح لي يا (أخي) في لحظة نشوةٍ يتيمة، عندما كنتُ أُمني نفسي بأيامٍ قادمة من العزة الواضحة والسؤدد المتفرد، أن أغير جلدي الذي أعرفه قبل غيري: لابد إن أنا أردتُ السلطان والحكم، أن أُمعنَ في القتل، وأتذوق الخبز المغموس بالدم، عليَّ أن أحرق كُتبي، وأنسى المعارف التي حفظتها عن ظهر قلب ووعيتها، الـمُشددة على حق الناس في الاختيار والحرية والعيش الكريم؛ لابد لي أن أُثبت لمن اختارني في (مصر) وسمِعَ بياني في الجامع الكبير بالرياض، بأن (رجلهم) لن يختلف عن طُغاة العصور التاريخية، والذين يتعلق - للغرابة - بهم الناس، ويصنعون من أعمالهم وأقوالهم أساطير تُروى وتُردد.

... وكأن الأرض الـمُعشوشبة طوال الطريق من (الشنانة) إلى (الرياض) راحت تؤمن على أحاديث نفسي الطارئة، لكن شمس ذاك اليوم الخريفي الخالي من سحب الأيام الماضية، أعادتني بحرارتها إلى حقيقة الحقائق: لن تكون يا رفيق الحزن.. إلا أنت ولا شيء غير ذلك!

... عدتُ إلى الرياض، وأذنتُ لكبار القوم حاضرةً وباديةً بالقدوم لحضور اجتماع مهم (معهم) يُعقد في رمضان، وعند الموعد المضروب خطبتُ في الناس - كما تذكُر أخي -..وقلت لهم فيما قلت: (إن من أولى مهام الراعي، إفشاء العدل بين الرعية، وإنني لم أُحضركم إلا

Twitter: @ketab_n

لأنني أريد أن أزيل المظالم عنكم. وعلى الرغم أنني أحب (أحمد السديري) فإنني وبعد أن بلغني مظالمة في رعيتي والغريبة عن خُلقه، الآن أعزِلهُ - وهو مُكرم - عن إمارة سدير، وعلى مَن ظلمه هذا الرجل وغيره من الأمراء أن يُكاتب (مملوكي)... (بلال السعود)، ولكم أن تعرفوا - يا إخوان - أن العداوة مع أنصار (فيصل بن تركي) ومع غيرهم، قد ذهبت إلى غير رجعة، ودليلي على هذا تعييني لـ(عمر بن عفيصان) للقيام بمهام قمع العصاة والخارجين عن الطاعة.. والله يتولانا برحمته.)

أخي (حمد):

كتبَ القدر صفحة جديدة من آخر فصول كتاب عمري، الصفحة الجديدة وأسطرها التي كأنها الثعابين، لم تكذب ولم تتزلف.. لقد قالت الحقيقة لا غير: أيام الزعامة والتسلطن يا (أفندي خالد) اقتربت من نهايتها وعليك الاستعداد!

... عام 1257هـ كان عام الحسم: القدر أراد ذلك، وطبائعي أرادت ذلك، ومسار الأحداث وتركيبة الوقائع أرادا ذلك:

في شهر جمادى الأولى[1] من ذاك العام الـمُرعب، ترجمت (رعيتي) ازدراءها واستخفافها بمبادرات حُسن النية للإمام الشاب، الذي أصبح بلا جُندٍ نظاميين يهرع لهم حال وقوع حادثٍ يهدد أمنه، وغدا قائداً مُفلساً لم يعُد يستطيع جباية الزكاة ولا حتى اقتطاع الإتاوات، وأمسى لا أمل له - و(أصدقاؤه) القدامى في مصر يكادون يغرقون في أزماتهم العالمية - بإمدادٍ مالي يستطيع من خلاله إسكات البطون الجائعة والنفوس الطامعة. إمامٌ حطمت مكانته الشائعات القديمة المتجددة، المتحدثة بعضها عن زندقته وحبه للمفاسد والبدعيات، وبعضها الآخر

---

(1) الموافق لأواخر يوليو عام 1841م.

Twitter: @ketab_n

عن جنونه وذهاب عقله، أما أرحم الأقاويل فكانت تسرد كيف يروح يتلوى (الإمام) الجديد في نوبات صرعٍ لا تفارقه!

. . . ولأن الأمر كذلك، راح زعماء المناطق وشيوخها يستعدون لاقتسام إرث المتوفى الحي، وكانت أول مظاهر التمرد على من كان رمزاً لحكومة مركزية، تلك المعركة المشهورة التي أسفرت عن تمدد سُلطان (عبد الله بن علي بن رشيد) شيخ وزعيم عربان (شمر) و(حرب)، والمتحكم بحكم الواقع على دياره، على حساب نفوذ أمير (بريدة) المعين من قِبلي (عبد العزيز بن محمد آل عليان). لقد قرر الاثنان أمراً، حالما خرجا من اجتماع رمضان الذي خطبتُ فيه (خطبة الوداع)، هذا الأمر كان واضحاً جداً: حاكم الرياض أصبح عارياً من كل شيء، وعلى كلِ حاكمٍ وزعيم منطقة، اغتنام فرصة الفوضى الظاهرة، لِيمُدد سلطانه على حساب أرض وزعامة الآخرين. . وبسرعة!

في الشهر الخامس من عام 1257هـ اصطدم جيش شيخ عربان (حائل)، مع جيش أمير (القصيم) بالقرب من قرية (بقعاء) والواقعة ضمن النطاق الجغرافي لجبل شمر، في معركة شرسة أشعل إوارها حادثة بسيطة في مظهرها، عظيمة في معانيها. الحادثة المذكورة عبارة عن إغارة عربان (الدهامشة) على عربان (ابن طوالة) التابعين لسلطة (ابن رشيد).

كان حل مثل هذا الإشكال - عادةً - يتم عن طريق رفع الأمر للحاكم (ابن سعود) أيام الدرعية، أو حتى - للمفارقة - أيام (تركي بن عبد الله)، أما وهذا الـمُشكل الذي أدى إلى سلب إبل كثيرة، وغارات لاحقة، وتحقيق مطامع مُبيته، قد حدث في أيام (الأفندي خالد)، فلن يُبطله - وضعف حاكم الرياض واضح للعيان - إلا السيف والبندق الذاتيين.

أرسلت وقعة[1] (بقعاء) التي أسفرت عن انتصار ساحق لعربان

---

(1) الوقعة: المعركة.

Twitter: @ketab_n

الجبل على أمير منطقة (القصيم) وجماعته، إشارتين للجميع في نجد وما حولها:

أولى تلك الإشارات أن هناك فراغاً في الحكم في نجد، وأن ما يُسمى (الإمام خالد) في الرياض ليس إلا رمزاً لفترة انتقالية، تُفتح بعدها أبواب المجهول، لمن أراد الدخول إلى وسط معمعة القيادات وصراعات الحكم.

وثاني الإشارات مترتبة - منطقياً - على إسقاطات الإشارة الأولى: نجد لا تحتمل فراغاً سياسياً آخر، لأن الفراغ السياسي يعني في منطقتنا - كما أخبرت بذلك تجارب الماضي - القتل والنهب والفوضى الاجتماعية والدينية.. وفوق ذلك فالبشر الساكنون في هذه البلاد تعودوا على حاكم قوي مركزي، يعتمد حُكمهُ على عصبية دينية أو قبلية، ومن خلال هذا الحاكم تُقام الشرائع، وتُطبق الحدود، ويُفرز - اجتهاداً - الظالم من المظلوم، وحتى بدون هذه المهام والوظائف التي لابد أن تتوفر في حاكم نجد المطلوب - افتراضاً - تواجده، فلا غنى لبني قومي - وفي ذلك طرافة سوداء - من رجلٍ يشعرون أمامه بتيههم.. ولِمَ لا وهو الـمُنقذ من الكُفر، والقاضي فيما يُشجر بينهم، والـمُعطي في وقتٍ تبخل فيه السماء، والأرض.. وأيدي الآخرين!

... وفجأة وجد الباحثون عن الشخص الخارق الذي يملأ الفراغ السياسي مُبتغاهم: (عبد الله بن ثنيان بن إبراهيم بن محمد بن ثنيان بن سعود بن محمد بن مقرن) والذي أعود أنا وهو إلى جدنا البعيد (سعود بن محمد) والد مؤسس الدولة السعودية الموحدة الأولى، والقطب الثاني لحلف الدعوة الإصلاحية.

ابن العم هذا كان أحد قادة جيشي الذي قُدته - كما تذكر أخي - ضد (آل شامر) في السنة الفائتة، وكذلك كان هذا الثائر - صاحب الغُلو الديني - من ضمن الذين كُتبت أسماؤهم لمرافقتي إلى حيث ينتظرنا في

Twitter: @ketab_n

إحدى قرى القصيم[1] الراحل نهائياً إلى مصر.. (خورشيد باشا)، ولكنه تعلل بمرضه، ولهذا السبب فإنه لا يستطيع الرحيل من الرياض حتى يبرأ من علته. وشدد - وهو يُظهر المرض - على رجائه لي بمنحه فرصة إبلال طويلة.. وبعدها فلكل حادثٍ حديث. وفي لفتة تقدير لإمامه - كما أدعى - سيرافقني مُودعاً، إلى حيث مشارف الرياض الشمالية، على أمل لقاء (حميمي) قريب!

وافقتُ على مضض، لأنني كنتُ أشعر بأن وراء الأكمة ما وراءها، ولأنني أعرف مكر وأمراض أُسرتي من وجوهها!

... وأنا في طريقي لمقابلة (خورشيد باشا) علمتُ أن (عبد الله بن ثنيان) فرَ من الرياض إلى بلاد (بني المنتفق) في ريف العراق الجنوبي، حيث اجتمع مع (عيسى بن محمد) كبير (المنتفق) لتدبير أمرٍ ما!

هذا الإخلال بالوعد والكذب عليَّ، قابلته بإحسانٍ من جانبي حال عودتي إلى (الرياض) بعد وداع القائد المصري؛ أرسلتُ لـ(عبد الله) أماناً بعد أمان، لكنه رفض العودة، بل وأشهر ما في نفسه تجاهي: (لن أعود في مكانٍ تمثل فيه أنت يا (خالد) زعامة أسرتنا وإمام دعوتنا.. تنحى وغادر إلى حيث هواك، ومرتع صباك، فرعايا آبائك وأجدادك وبني عمومتك في غنى عنك، في غنى عنك.. يا غريب اللسان والعقل والتصرفات.)

هكذا إذاً..!

عاد (عبد الله) سراً إلى (البنية)[2] ثم ارتحل إلى (الحائر)[3] ومن

---

(1) (الشنانة) كما ذُكر سابقاً.

(2) قرية قريبة من مدينة الرياض.

(3) قرية قريبة من مدينة الرياض.

Twitter: @ketab_n

هناك وفي بيت صهره (راشد بن جفران السبيعي) كاتب أهالي (الحريق) و(الحوطة) و(بلدة الحلوة)، حيث أماكن هزيمتي الأولى المشهورة، وحيث تجمع من جديد المناوئون بقيادة الشيخين (عبد الرحمن بن حسن) و(علي بن حسين) وأقرباؤهم من (آل الشيخ)، وآخرون من (آل شامر) و(الهزازنة)، والذين أعلنوا فسخ عقد ولائهم وطاعتهم لـ(تابع) أعداء الدين! ولأن حالة العصيان قد وصلت إلى حدٍ خطير، وتم رفع شعارات لا يمكن التهاون تجاهها، طلبتُ من مُناصري في (المحمل) و(سدير) و(الوشم) و(العارض) مساندتي في حملتي الجديدة التي نويتُ إنفاذها وقيادتها، لتأديب العُصاة في الجنوب؛ مُناشدتي تلك لم تَلقَ إلا تجاوباً ضعيفاً، ومع هذا نويتُ الخروج بمن معي مهما كانت النتائج، ساحباً معي جيشاً يفتقد للحمة صوب أرض الخصومات والعصيان، بعد أن قررتُ أن أنصبَ على الرياض (حمد بن عياف) وأميراً آخر هو (سعد ابن دغيثر) يراقب الأمير المؤقت! وأبقيتُ كذلك في الرياض كل العساكر من الترك والمغاربة، الذين تركهم لي (خورشيد باشا) والمقدر عددهم بمئتي جندي.. فقط.

... وقبل أن أغادر الرياض مع جيشي غير الواثق من النصر، ولا من قيادته، وصل إلى علمي وعِلم جُندي أخبارٌ مؤكدة.. تقول: (عبد الله بن ثنيان) احتل (ضرما) بعد قتال شديد وتنكيل بالمدافعين، أعقبه سلبٌ للأموال، ثم زحف جيشه على (العمارية وأبا الكباش)[1]. ومن هناك اتجه (العُصاة) إلى (الملقا) في أعلى الدرعية، التي لم يجد مشقةً - وهي خربةٌ تقريباً - في احتلالها؛ لكنه وجد بعدها صعوبة شديدة في اقتحام بلدة (عرقة) الـمُحصنة من الطبيعة والبشر؛ وعلى الرغم من الإمداد الذي تواصل من الرياض لنجدة أهالي (عرقة)، إلا أن النتيجة

---

(1) المناطق المذكورة تقع على مسافة قريبة من شمال غرب الرياض.

Twitter: @ketab_n

الأخيرة كانت سقوط البلدة، بعد قتال مُشرف راح ضحيته كثيرون من الأهالي.

... الأحداث المتتابعة الـمُذهلة غيرتْ كل خططي، لأن مسار المعارك قد أخذ مُنحنىً مختلفاً، اضطرب جندي بعده وهم يسمعون باقتراب (الأعداء) من أسوار عاصمتهم. حينها قررتُ - كما تـذكُر أخي - حل الجيش الذي كان مُزمع إرساله إلى (الحائر)، وبدلاً من ذلك جددتُ القرارات الإدارية السابقة القاضية بتأمير (ابن عياف) و(ابن دغيثر) وتحصين العاصمة.

وفي لحظة جنون أو في لحظة تعقل. . لا أعرف! نويتُ التوجه للإحساء، حيث قال بعض المساعدين والمستشارين: إن من تلك المنطقة الحصينة الغنية تستطيع يا (إمام)، تجنيد الـجُند وحمل المؤنة، كما فعل خَصماكَ (فيصل بن تركي) و(عبد الله بن ثنيان).

... في يوم الخميس الثاني عشر من شعبان سنة 1257هـ[1]، والرياض تضطرب بالشائعات، والأسواق تستعد لإقفالٍ طويل، والناس يجرون هنا وهناك لشراء ما يلزمهم تحسُباً لحصارٍ طويل، أو قتالٍ لا يُبقي ولا يذر، تجمعتْ ركائب وخيل بالقرب من قصر الحكم، استعداداً لانتشال (الإمام) من قبضة يد الحظ العاثر.

قبل أن أرحل للمرة الأخيرة من (الرياض) متوجهاً للإحساء، استقبلتك يا (حمد) أو - ودعتك - دون كثير كلام؛ لم أكن راغباً في الحديث.. وكذلك أنت، طلبتُ منك - كما تذكُر - أن تُرافق (عمر بن عفيصان) وهو يأخذ والدتي وأختي غير الشقيقة إلى حيث منازل بعض (معاتيق)[2] والدي الإمام (سعود بن عبد العزيز) المتواجدين في

(1) الموافق لبداية أكتوبر عام 1841م.

(2) معاتيق: من سبق عتقهم ومنحوا الحرية بعد فترة عبودية قد تقصر أو تطول.

Twitter: @ketab_n

(الخرج)، في محاولة لإنقاذهما من عُنف (عبد الله بن ثنيان)، الذي قد يتجرأ على القيام بما لم يقم به من قبل، قادة المعارك النجدية الكُرماء في تعاملهم مع نساء أعدائهم!

وعقب لقائي الخاطف بك، وبعد جُملٍ وداعية لم أعُد أتذكرها الآن، ذهبتُ من فوري إلى حيث قسم النساء في قصر الحكم لأودع والدتي وأختي.

وأمام المرأة العجور، وعلى مشهدٍ من أختٍ طالما دعت الله ألا يأتي مثل ذاك اليوم الكئيب، جثوتُ على ركبتيَّ وأمسكتُ بكفي والدتي طويلاً قبل أن أُغرقَ وجهي الـمُبلل بين راحتيها، وأروح في فاصلٍ - لا أعرف مداه - من النشيج والتأوهات.. ثم رفعت عيني اللتين أسدل الدمع سواتره على مُقلتيهما، نحو عينيها المليئتين بصفوة الحب والشفقة والألم.

... لم أستطع يا (حمد) أن أقول لها شيئاً سوى تمتماتٍ غير مفهومة. لكنها - بالتأكيد - قرأت كتاب الأحزان في عيني؛ قرأت اعتذاري لها عن سوء حظي، ومخاصمة المقادير لي، وجريان رياح السياسة وطبائع زمن هذه البلاد، بما لا تشتهي سُفني الـمُحملة بالوعود والأماني والتطلعات.

لم تقل والدتي شيئاً سوى تلفُظها بدُعاء العجائز الـمُعتاد، الـمُرسل للأبناء الذين وجدوا أسماءهم - رُغماً عنهم - في جداول اللائحة السوداء.. وهي إحدى اللائحتين الـمُصنِفة (أبناء الطين) أأشقياء هم؟ أم للسعادة أقرب؟!

هل بإمكاني أن أُحدد لك مقادير الحنان التي شعرتُ بها لاحقاً، وكفَّا المرأة السبعينية يضغطان بوهن على كتفيَّ، وكأنهما ترسلان آلاف الرسائل والإشارات والمعاني؟. .لا أستطيع لأن المشاعر لا تُحدد ولا تُقاس!

Twitter: @ketab_n

. . . بعد ساعة من اللقاء الوداعي الحزائني ذاك، شُوهدتْ قافلة الركائب والخيل، الحاملة إحداها (حاكماً) راح يلتفت وهو مُيممٌ صوب الشرق، للمدينة التي لم يُحبها ولم تحبه، ولم يُحسن التعامل مع تركيباتها العقلية والاجتماعية والدينية.. فبادلته غُربةً وسوء فهم.

كانت (الرياض) ساعتها - كما تذكُر - يا (حمد) مدينة تمتلئ سماؤها بالأدخنة - جراء أوامري بحرق كُل أرشيف مُراسلاتي والجزء الأكبر من كُتبي - وأُفقها بغبار حركة ما بين البيوت والأسواق الطينية، للناس - وحتى للدواب - الفزعة من حدوث شيءٍ كريه آتٍ.

لم تُشغلني وأنا أترك (عاصمتي) وراء ظهري، أسئلة من مثل: لماذا؟ لأنني حصلتُ - إلى حد ما - على إجابتها سلفاً. إجابات نثرتُها - حسب المستطاع - بين أسطر رسائلي السابقة، ما شغلتني حقاً أسئلة من نوعٍ آخر: كيف سيكون مستقبل هذه الأصقاع.. أَمِثلُ حظي.. أم أن للغيب كلِمةٌ أخرى؟!

. . . وأنا في الإحساء علمتُ أن (عبد الله بن ثنيان) اقترب جداً من (الرياض) باحتلاله أقرب البلدان الصغيرة منها.. (منفوحة)، وأتبع هذا النصر في وقت لاحق، بإيقاع هزيمة مُنكرة بكتيبة من أهل الرياض قادها مملوكي (زويد) أرستُلها من (الهفوف) لنجدة الخائفين في العاصمة، من بطش جيش (قاسي القلب).. عبد الله؛ تلك الأخبار الباعثة عليّ الغمَّ والكآبة، لم تكُن إلا غيظاً من فيض أنباءٍ أخرى أكثر بشاعة ورهبة:

أعطى (عبد الله بن ثنيان) الأمان للجند المغاربة والأتراك المرتعبين والمفتقدين للقيادة، بعد أن قتلَ رئيسهم المسمى (الأبعج). وما إن أرسلَ (ابن العم) رسالة الرعب تلك، واختفت علامات المقاومة المنظمة ضده، حتى استدار للقصاص من أهالي الرياض وأتباعي، والذين بقوا حتى تلك الساعة على عهدهم لي.

Twitter: @ketab_n

. . . مُحب الدماء (عبد الله) فصلَ رقاب (زويد) و(سعد بن دغيثر) و(الحصين) و(المدلجي) و(ابن عمر)، ولأن هذه المقتلة حدثت أمام الناس وبدمٍ بارد، خرج (عمر بن عفيصان) و(عبد العزيز أبا بطين) من مخبئهما، لِيُسلما على (الأمير) الجديد، ويعاهدانه على السمع والطاعة في المنشط.. والمكره!!

بعد أخبار تلك الفظائع، قررتُ أن أفعل شيئاً أردُ به جميل من أذهب روحـهُ ومـاله، من أجل مواثيق عُقدت مع رجلٍ يـمُد ساقيه بين أشجارِ بساتين الإحساء، بينما تُستباح (عاصمته) ويُقتل من مناصريه جمعٌ غفير.

تلمستُ وأنا أنوي فعل شيءٍ (ما) ردود أفعال من بقي معي في الإحساء من كبار أهل الرياض، لا أعرف مدى جديتهم في الذهاب مع (إمامهم) إلى حيث (قاسي القلب)، محاولين - أنا وهم - طرده واسترجاع كرامتنا التي أهدرها هو وجنده، بعد إيقاع الثأر - إن حدث - بِمَنْ سفكَ الدماء وأزهق الأرواح الكثيرة.

مَنْ أخذتُ رأيهم يا (حمد) بددوا كل أمل لي في استرجاع (حكمي).. قالوا: (هذا مُلكٌ انفسخ منك، تولاه غيرك، والأمر بيد الله ثم بيد من استولى عليه، ونحن الآن مع من كان أولادنا وأموالنا عنده.)

كلامهم ذاك.. لم يكن كلاماً مُرسلاً من أناسٍ حانقين على تقاعس وتبلد مشاعر (قائدهم)..لا! الأمر أكثر خطورة من الاعتقاد السابق: كان كلامهم يُهيئ لرحيلهم الجماعي من الإحساء، متوجهين إلى الرياض، في إشارةٍ نهائية لنفض أيديهم تماماً، من نُصرة المتردد في مساعدة نفسه!

. . . محاولة أخيرة قمتُ بها لأرضي ما تبقى من نزعة المقاومة عندي: أرسلتُ إلى رؤساء الإحساء ونُخبها السياسية والعسكرية أعلمهم برغبتي في مساعدتهم لإرجاع (مُلكِ) هو للضياع أقرب. فما كان منهم إلا أن أطلقوا وعوداً غير مُحددة الشكل والزمن، على أمل أن تصل آخر

Twitter: @ketab_n

الأخبار إلى مسامعي، مُعلمةً بأن عهد الإمام (خالد بن سعود) لم يعد إلا تاريخاً يُكتب ويُحكى، من باب الاعتبار.. والتسلية!

وفي فترة انتظار آخر الأخبار الموعودة، تقدمتُ لعائلة مَن أحببتُها منذ اللحظة الأولى.. لبنت (العفالق)، الذين رحبوا بي زوجاً لابنتهم، لعلَ حفيدهم يُصبح يوما (ما) إماماً، يُصلح ما أفسده صهرهم!

... تم الزواج وقضيتُ مع زوجتي سبعة أشهر في الإحساء وأنا أوزع يومي، بين مُنتظرٍ لأخبار تَرِد من (الرياض) تُفيد بتغيُرٍ غير محسوب حدث هناك، وأن الناس نادوا طويلاً بعودة (خالد) إلى قصر الحكم! أما نصف يومي الثاني، وبعد أن يُداخلني اليأس والقنوط - المستمرين - من مُناداةٍ للبشير في الناس بما كنت أرغب سماعه، فكنتُ أقضيه لاجئاً في صومعة الحب.. إلى حيث زوجتي الطيبة الـمُشفقة..(أم مشاري)، التي طالما هونت عليَّ ما لا يهون!

... بعد أشهر الإقامة في (الإحساء) وبعدما نمى إلى عِلم أهل زوجتي بأن (عبد الله بن ثنيان) يبحث عني حياً أو ميتاً، قدموا لمن أمسى خالياً من الأعوان والتابعين والمال - عدا ما يضعونه في جيب ابنتهم - نصيحةً تقول: غادر (المنطقة).. وبسرعة، واتجه إلى الكويت - مُتخفياً - عبر ميناء الدمـام.

اشترط الأخيار عليَّ يا (حمد) أن لا أُزيدَ في (غربة) ابنتهم - إن كان في نيتي فعل شيءٍ غير محسوب - سوى الإقامة الدائمة في (الكويت)..وحتى يفعل الله ما يشاء!

... وعدتهم بهذا، لكنني نقضتُ عهدي بعد مرور سنة ونصف من الإقامة في (الكويت). لقد كنتُ - خائفاً - بالفعل منذ قدِمتُ من الإحساء، لأن جميع الأخبار التي تُنقل إليَّ عبر أهل (أم مشاري) كانت تؤكد أن (عمر بن عفيصان) الذي أحسنتُ إليه وجعلته مقدماً عندي.. وكذلك (أحمد السديري)، راحا يبحثان بتوجيه من أميرهم الجديد..

Twitter: @ketab_n

(ابن ثنيان) عن (الأفندي خالد) في كل مكان.. وحتى في الكويت، المشمولة برعاية عدة دول مرهوبة الجانب. وأضافت الأخبار (المزعجة) تلك بأن (سفاح الرياض) لن يهدأ ويستقر حكمه حتى يراني مسجوناً عنده أو مصلوباً. ولهذا قررتُ بعد أن وضعتْ زوجتي طفلنا الوحيد أن نهرب معاً إلى (مكة المكرمة)، وهناك يمكن أن ينقطع رجاء طالبي دمي وحريتي، لأن الأراضي الحجازية كانت واقعة أيامها تحت الحكم العثماني، بعد انسحاب قوات (الباشا) من جزيرة العرب كُلها. وبالتأكيد فلا استطاعة لـ(ابن ثنيان) وحتى ممن يأتي بعده، النفاذ والتخريب داخل الأراضي المشمولة بهيمنة (الدولة العلية)، لأن الجميع لديهم فكرة عن الخطوط الحمراء معها، مهما كانت تلك الدولة تُعاني من أمراض الشيخوخة والترهل.

... حالَ سماع والد وإخوة زوجتي، عن خُطط صهرهم لأخذ ابنتهم للحجاز، أرسلوا إليَّ كتاباً ذكروني فيه بتعهدي السابق، وفي حال أصررتُ على نقضه، فهم في المقابل، في حلٍ من تركهم لـ(أم مشاري) تُعاشر طريداً خائفاً على نفسه، وهم لا يمانعون حفاظاً على ما تبقى من مودة - إن أنا أصررتُ على الذهاب غرباً - في ترك الصغير (مشاري) معي، يؤنس وحدتي، ويذكرني من حينٍ لآخر بالآمال الضعيفة، في يقظةٍ لذاك الشيء الغامض والمسمى.. حظاً.

في وقت لاحق عرفتُ أن (الأنسباء) لم يكونوا راغبين في أخذ رابط الدم بيني وبينهم - بعد أن ألحوا عليَّ أن أُطلقَ من (كانت) حبيبتي - فقط لأن الإنسانية والعاطفة ألحت عليهم بهذا، بل لأن الصغير (مشاري) على محبتهم له، سيكون عبئاً أمنياً عليهم في المستقبل، ولن يكون مستغرباً - ضمن منطقهم - إن هم حُورِبوا في أرزاقهم وتجارتهم، من قِبل الراغبين في اختفاء اسم (الأفندي خالد وذريته) من الوجود.. وما أكثرهم!

Twitter: @ketab_n

إلى أين وصلت سفينة الخيبات؟!

غادرتُ (الكويت) في أول أيام شهر ذي القعدة سنة 1259هـ متجهاً إلى مكة المكرمة عبر القصيم، المتمتعة بمظاهر الاستقلال من تبعية (ابن ثنيان) الذي أحكمَ - في الشهور التالية - قبضة القسوة والعنف غير المُبررتين على رقاب الأهالي في عموم نجد، قبل أن تعصف به أيام (فيصل بن تركي) اللاحقة.

... كان معي في رحلتي التي يبدو أنها آخر رحلات المواجع والقهر الكثيرة: (خديجة) الحاضنة السمراء التي (أعارني)[1] إياها (عفالقة) الإحساء، ومرافقٌ آخر نجدي، استأجرتُ (فزعته)[2] في الكويت.. اسمه (جيفان). أما الأهم من المرافقين.. وحتى من (كبير) الركب الحزين، فلن يكون إلا الطفل الرضيع.. (مشاري)، الذي شاء ربُ الأقدار بأن يُولد في غُربة ويعيش في غربة، ويُعاني مرضاً وكمداً في غربة.

... قبل الرحيل، وقبل أن يفترق طريق ركائبنا الثلاث الهزيلة، وهودجها الآيل للسقوط، مع طريق القافلة الكبيرة الأخرى اللافتة للنظر، والحاملة - مَن كانت - حبيبتي وزوجتي، أرسلتْ لي (أم مشاري) رسالة رجتني فيها أن أسقط نهائياً نية الرحيل إلى حيث المجهول، وأن أُجنب (الصغير) مشاق السفر والاغتراب، وأن أرضى بما قسم الله عليَّ وعليها، وإن كان (الفزع) من تعقُبِ مجهول هو سبب الاغتراب واللوعات، فلا ضير عليَّ أن أحتمي بحاكم الكويت، فهو لايزال يتذكر جوانب حسنة - على قِلتها - أضاءت العلاقات التاريخية بين قضاء الكويت، وبين من أنتسب لهم بصلات الدم.

---

(1) الإعارة هنا بمعنى الإمداد المؤقت في غير المال.

(2) الفزعة هنا يقصد بها نخوته ومساعدته.

Twitter: @ketab_n

أجبتُ على - من كانت - حبيبتي: إنني عازِمٌ على الرحيل مهما كانت مُسببات البقاء وجيهة، فللمجهول أذهب، ومنه أفِرُ، أما (الصغير) فلن تكون وعثاء السفر أكثر مشقة عليه من انتظار يومٍ يُقتل فيه.. إن نجا أبوه، ومَن يؤكد بأن مناشدة الحماية من (حاكم الكويت) لن تكون إلا توطئة لـمُخاتلة قادمة، أكون أنا ومَن أُحب ضحيتها، عندما يريد أصحاب الحكم في نجد والكويت، إصلاح ذات بينهم على حسابي وحساب عائلتي الصغيرة؟!

انتهى الكلام المكتوب بيننا، وانتهى الكلام بيني وبين كل البشر في أمكنة آخر اللوعات. خلفتُ ورائي - وأنا أشُد الرحال - أيام الانتظار والاعتبار، الآمال وضدها، كل رموز الشخصيات المركبة التي اخترتها أو اختارتني، المحبون والأعداء؛ لم آخذ معي يا (أخي) إلا الكتب الخرساء والخوف و(الطنين)..وطِفلاً مملُوءًا بالبراءة، وبالجهل بما جناه الأب عليه، وما جنته الأيام على الـمُذنب المفترض!

ملاحظة لابد من ذكرها في ختام رسالتي المطولة هذه:

قيل لي أن امرأة (وهرانية)[1] قَدِمتْ للعُمرة والحج هذه السنة[2]، تستطيع قراءة الكف ببراعة وبمقادير لا بأس بها من المصداقية، وعلى الرغم من أنني لا أؤمن، بأن أحداً من البشر يستطيع معرفة الغيب وما وراء الـحُجب، إلا أنني - وبدافعٍ غريب - أقدمتُ على ما كنت أحجم عن الإقدام عليه من قبل.

في يوم جمعة ذهب العليلان: ..أنا و(مشاري)، إلى تلك المرأة التي كانت تجلس - متوارية - غير بعيد من (باب السلام)[3]...سلمتُ

(1) وهران: مدينة في الجزائر.

(2) يقصد سنة 1277هـ.

(3) أحد أبواب الحرم.

Twitter: @ketab_n

عليها وقدمت لها كفي الأيمن لتقرأ ما خبأ القدر لي فيما بقي لأخيك من العمر، بعد أن رفض (ابنكم) واستنكر - بأدب - تصرفي.

لم يستمر تحديق (الوهرانية) في خطوط كفي كثيراً، ففجأة تركت يدي كلها وهي تقول: (لا حول ولا قوة إلا بالله!!)

هل لديك يا (حمد) تعليلاً لهذا التصرف الغريب؟!

... أنا لديَّ تعليلٌ بسيط:

... لم تعُد صحتي وصحة (مشاري) في حاجة لمن يُخمن مستقبل صاحبيهما؛ ولم تعُد تلك الهموم المرسومة على قسمات وجهينا في حاجة لمن يدعي معرفة القادم وهتك أسرار الغيب.. حتى يقول: تسربلَ الموت الأبَ وابنهُ.. فدعوهما!

لله دَرُّ (الوهرانية) ما أذكاها؟!

كتبها لمن يُحب ويُثق فيه.. (خالد السعود)

في 15رمضان لسنة 1277هـ

Twitter: @ketab_n

الرسالة السابعة

نهاية حُزنٍ طويل

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

أليس يكفي أيها الإله
أن الفناء غاية الحياة
فتصبغ الحياة بالقتام؟
تُحيلني، بلا ردىً، حُطام:
سفينة كسيرة تطفو على المياه؟
هات الردى، أريد أن أنام
بين قبور أهلي المبعثرة
وراء ليل المقبرة
رصاصة الرحمة يا إله!

(بدر شاكر السياب)

لكل شيء نهاية: الأعمار.. وقراءة الرسائل كذلك! ربعُ ساعة هي كل ما تبقى لدى (موسى عبده) و(أبو الفرج أديب) من الوقت، قبل أذان عصر اليوم الذي سيُصلى فيه على الميت (الأفندي خالد) ومواراة جثمانه الثرى؛ وبذلك - نظرياً - سيرتاح رئيس الدرك ونائبه من كل - تقارير - البصاصين، ومتابعات المخبرين لتحرك - أو لا تحرك - النجدي المعني بالمراقبة. لكن هذا الارتياح الوظيفي، يُبدده شعوران من الألفة والتعاطف ربطا الرجلين - مع من كان يُعتقد أنه عِبءٌ على جهازيهما الأمني - خلال ساعات قراءة رسائله الست السابقة الموجهة لصديقه في (الرياض)، والتي بالكاد انتهى الاثنان من قراءة آخر صفحاتها قبل دقائق قليلة من الآن.

ومع اقتراب وقت الانتهاء من قراءة آخر الرسائل بدا الرجلان وكأنهما يُحدثان نفسيهما عبر طرائق من التفكير واحدة:

هل من المعقول أن مِثلَ هذا الرجل، الذي بدا خاملاً طوال سبعة عشر عاماً من (الضيافة الجبرية)، يحملُ كل هذه الكنوز من

Twitter: @ketab_n

المعلومات.. والمشاعر؟! هل أضاعت واجباتهما الوظيفية فرصة الاقتراب الإنساني مع (الأفندي النجدي)؟ وبالتالي فما كان يمكن استخلاصه من (حكايات) تاريخية لها ارتباطٌ - وثيق - مع الحاضر وما يمكن أن يحدث مستقبلاً، ولّى - هكذا ببساطة - في خضم علاقات التوجس والريبة والخوف بين إدارتهما - التي يُمثلانها - وبين (أفنديهم) الغامض.. التعس!!

كيف يمكن تعويض ما فات، وتدارك الأخطاء؟

الإجابة الوحيدة عن السؤال الأخير الذي ردده (الضابطان) في داخلهما، لن تتأتى لهما - إلا - من خلال قراءة الرسالة الأخيرة، المحكومة بزمنٍ قصير، وبضروريات التحكم في العواطف، حفاظاً على طقوس الهيبة والجدية.. ودفن غُرباء الموتى:

بسم الله الرحمن الرحيم

أخي الحبيب (حمد بن محيمل):

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته:

أنعي لك نفسي.. أنعي لك الماضي والحاضر والمستقبل.. أنعي لك رغبتي في المقاومة والحياة.. أنعي لك كل ما حولي: الفضاء والإنسان والمكان.. أنعي لك إحساسي، بالماء، والزرع، والجماد، والحركة.. أنعي لك: التأملات، والأفكار، والرغبة.. أنعي لك أزمتي السابقة في فهم الموت.. فما عاد هناك أزمة، لقد تغلبَ الباطِشُ بالحياة، على توهمات الخلود والاختيار والحرية.

... يا حُزني أنا!!

... يا كربي أنا!!!

نعم..! لفظ الفتى الرحوم أنفاسه الأخيرة والناس يحتفلون بعيدهم، تركوه يحتضر ويجابه الحتمية وحده، بعد أن تركوه يعيش - من قبل - وحده.

Twitter: @ketab_n

... بعد أسبوعين من رسالتي الأخيرة لكم. حدث هذا الذي يجعل التراب وسادةً ولحافاً للراحلين، وسفوفاً في أنوف العائدين له بعد فراقٍ قصير!

... صُبح يوم العيد وفرحة الناس تُسمع، تأخر (الفتى) في إسماع والده تحية الصباح - الـمُعتادة - المشفوعة بآمال مهزوزة. لم أسمع يومها جُمل (صبحك الله بالخير يا طويل العمر) التي كان يقولها لي فجر كل يوم، من أيام المسغبة والانتظار الطويلة، الباعثة على اليأس والكآبة. كان يعرف - وهو الفطن الكيس - أن القادم عدوٌ لا شك فيه، وأن طول العمر مجلبةٌ لمزيد من الآلام والكمد؛ ما هون هذا اليقين وتلك المعرفة، هي تلك الإشارات الاستحسانية لـ(شايبهِ)[1] وهو يسمع تحية الصباح والمساء الـمُفخمة منه!

يفعل هذا كل صباح، وهو يعرف أنه ابن هذا الزمن الـمُتأزم، وأنه أحد صنائع عهود القلاقل، وإعادة تشكيل الدول والهويات والأفكار.. أليس هو كذلك نتاج أزمنة أممٍ تسقط وأخرى تنهض، وما يتبع ذلك من حروبٍ، وغزوٍ، وتكالب على السُلطان والثروات؟!

ورغم أن صراعات السياسة وانعكاساتها؛ وبزوغ شموس الدول وغروبها في عصره، تمثلت فيه شخصياً - ولا مبالغة في هذا - إلا أنه لم يفقد رغبته في إخراجي من جُب عذاب استحضار الماضي ووجع زفرات الحسرة، كلما تمثلت لي وقائع وشخوص سالف الدهر.

... منذ الأيام الأولى لوصوله رضيعاً إلى مكة في أواخر عام 1259هـ، وامتدادي الراحل، يُعايش مرحلياً أطوار المعرفة التي تقول حيناً: بأنه يتيم الأم.. حتى وهذه الـمُنجبة حيةٌ تُرزق؛ وتقول حيناً

(1) الشايب: كلمة نجدية تعني كبير السن الهرم.

Twitter: @ketab_n

آخر: بأن والده قد نفى نفسه، بعد أن نفته كراسي الحكم ذات المواصفات الخاصة!

في وسط أطوار تلمس حجم الكارثة التي عايشها (غير المحظوظ)، نشأ (مشاري) وهو يجِدُ في البحث عن إجابة لسؤالٍ يقول: لماذا وقع لوالده ما وقع؟

للإجابة على هذا السؤال الـمُعقد والصعب والمرهق، كان لي معه أحاديثُ مُسهبة، ونقاشات طويلة، ونقاط التقاء وافتراق فكري كثيرة. ولم يكتفِ مُرهف الحس بهذا، بل راح يلتقي - وهو الـمُراقب الـمُتتبع - بالمكاويين ممن لديهم عِلمٌ عن أحداث الماضي البعيد والقريب. وبالقادمين من نجدٍ.. الشجعان غير الـمُبالين بتحذيرات أميرهم، من الحديث مع ابن إمامٍ سابق، مغضوب عليه مُطارد، لعل عندهم ما يشفي غليل معرفة علم النكبات والزرايا؛ وفوق جهوده المبعثرة تلك، كان (مشاري) يأخذ نفسه في رحلة قراءة واطلاع، من خلال الكُتب المعروضة عند الوراقين وأصحاب المكتبات المكية، على أمل أن يجد في صفحاتها ما يساعده، للوصول إلى (أم) الإجابات الصعبة المفقودة!

كان يُحب القراءات التي تتحدث عن آخر أيام (مروان بن محمد)، آخر خلفاء بني أمية، وكلما انتهى من قراءة مختارة عن شخصية (الـحُمار) ازداد عجباً: أتكون نهاية الدولة العربية على يدي أقوى وأصلح خُلفائها - المتأخرين - على الإطلاق؟ لماذا لم تكفِ معرفة (مروان) بحقيقة ضُعف دولته، وفسادها، ومحاولته اللاحقة - الجادة - لإنقاذها ولم شملها الـمُبعثر، في إيقاف نهاياتها المأساوية؟ عندما ينتهي (مشاري) من القراءة وطرح الأسئلة أراه مُتعباً، وقد أضاف على أسئلته (السعودية) أسئلة أخرى (أموية) فيتداخل هذا بذاك!

... بعد الأيام الأموية أراقب يا (حمد) فتايَ، فأراه ينكبُ بشغفٍ على قراءة كل ما يقع بين يديه عن تاريخ آخر أيام مملكة (غرناطة)..

Twitter: @ketab_n

وحينها يروح يسألني بعد كل تصفحٍ لكتابٍ يسرد أحداث آخر أيام الأندلس: هل كان قدر (أبي عبد الله الصغير) أن تسقط مملكة (غرناطة) في عهده، وأن يتمثل الناس من بعده ببيت الشعر الشهير، التي قالته أمه له وهو يطلق تنهداته، قبل اختفاء آخر بيوت (مملكته) عن عينيه:

(أبك مثل النساء مُلكاً مُضاعاً   لم تحافظ عليه مثل الرجال)..؟

... أسئلة أخرى عن أيام (غرناطة) الحزينة: ألم تُشارك في كتابة آخر صفحات تاريخ (غرناطة) المجيد وتفتيت وحدتها القيادية - إضافة للحظوظ الرديئة - خلافات (أبي عبد الله الصغير) مع أخيه (يوسف) من جهة، ومن جهة أخرى مع أبيه (أبي الحسن) وعمه (الأزغل)؟ هل كان من المعقول أن يتغير قدر (غرناطة) الأسود لو أن المدد العربي الإسلامي المشرقي والمغربي، توالى على (غرناطة) دفاعاً عن آخر معاقل الإسلام هناك.. بدلاً من روح التجاهل التي وجدتها (غرناطة)، رداً على رسائلها العديدة لبني العم وأهل المِلة؟!

... لو أن أحداث (غرناطة) لم يصنعها الملكان الزوجان القويان القشتاليان (إيزابيلا) و(فرناندو الخامس) وأخذا مكانهما ملكين ضعيفين. ألم يكن من الممكن أن تعيش (مملكة بني الأحمر) مئة سنة أخرى، دون أن تشهد أياماً دامية وعصيبة؟ وثُمَ ما دور الأثرياء اليهود، والألمان والإيطاليين، ورعايا (المملكة) من اليهود والنصارى أمثال: جبرائيل إسرائيل، وغونثالو القرطبي، في رفع علم الانتصار القشتالي على المسجد الكبير في غرناطة، والذي تحول ساعتها إلى (كنيسة القديس سباستيان)؟

بعد أن يرزح (مشاري) من تعب البحث عن الإجابات (الغرناطية)، وربطها، مع محاولة الإجابة عن أسئلة عصره، يعود باكياً - في يوم لاحق - بعد أن يقرأ هذا السطور للـ(المقري) في كتابه (نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب)..: (استقر أبو عبد الله الصغير في فاس بأهله

Twitter: @ketab_n

وأولاده معتذراً عما أسلفه، متلهفاً على ما خلفه.. وعهدي بذريته بفاس عام 1027هـ يأخذون من أوقاف الفقراء والمساكين، ويعدون من جملة الشحاذين.. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم)!!

وبعد أن تعييه الإجابات وتضجره الأسئلة، يعود (مشاري) مرةً أخرى إلى (حمى) التاريخ الذي تحمله ذاكرتي، إلى مظلة محاولتي السابقة للفهم والاستقراء. وقد لا تصدق يا (حمد) أن (ابنكم) كان لا يتردد حتى من سؤال (خديجة) مربيته الطيبة الراحلة، عن أحداثٍ تاريخية قد تُهملها أحياناً ذاكرتي - عمداً - في محاولة منه لإكمال حلقة الفهم.. الزئبقية.

وعندما يحدثُ هذا لا أغضب، بل أنتظر عودته - المؤكدة - إلى حيث لقاءاتنا الفكرية المطولة، المرهقة بحسراتها لأبيه - وله - عندما يُكثر من أسئلته النوعية: لماذا؟ وهل؟ وألم؟

... حقيقةً كُنا كثيراً يا (أبا راشد) ما نختلف في محـاولات الإجابة عن الأسئلة المشتركة المطروحة، لكننا بعد ذلك نصل إلى فهمٍ مشترك - تقريباً - لما يمكن أن يحـدث لدولة (آل سعود) الثانية، وما هي احتمالات البقاء أو الانهيـار؟ كُنا - للطرافة وللغرابة - نحاول إعادة تركيب الواقع هناك.. في الرياض، ونحاول - تخيُلاً - إصلاح ثقوب العطب التي قد يأتي منها للقيادة - التي نُحبها كامتداد ونكرهها كمنافسين - رياح التغيير القسري التي قد تشعل النار في الأخضر واليابس. ولا تحسبن (أبا راشد) أن ثُنائية جلسات الرؤى بيني وبين (مشاري) والممتدة لساعات طويلة، كانت تهدف لخلق عالمٍ سياسي مثالي مركزه (الرياض) ويتحكم في أمره الـخُصماء.. لا! الأمر غير ذلك، فلا أنا ولا هو في حلٍ من نسيان حقيقة أن (فيصل بن تركي) وأبناءه قد تجاهلوا طويلاً أبناء عمومتهم (الـمُشردين) في مكة، ولم يُبادروا إطلاقاً في العفو والصفح والرحمة لأعزاء قومٍ ذلّوا، حتى وهم

Twitter: @ketab_n

يعلمون أنهم كانوا البادئين في حروب الأقرباء. ولا أنا ولا هو لدينا قُدرة كذلك على طي صفحة الدولة السعودية الموحدة الأولى، التي نعتبر أنفسنا الوارثين الأوحدين والشرعيين لها، وأن ما عداها من كيانات تقتات من اسمها وتُراثها العقدي السابقين، هي كيانات كان بالإمكان سابقاً تمرير إدعاءاتها في الحكم، إلى أن أشهر (إمامها) القادم من مصر اسمه ومُبتغاه!

هدفنا يا (حمد) حتى ونحن نعترف بعدم قدرتنا على إخفاء مُساندتنا المعنوية لكل حاكم في الرياض، يُنسب للدوحة التي وحدت أجزاء كبيرة من الجزيرة العربية، وأعادت إحياء ما اندثر من أصول الإسلام النقية، هدفنا - أو على الأصح هدفي أنا - هو وضع السائل دائماً عن أسباب سقوط والده في امتحان الحكم والإمامة، وبقاء غيره مُتسلطناً على البلاد والعباد والتاريخ، وضعه في (المكان) الذي يمكن من خلاله - وبسهولة - الرد على الأسئلة الباحثة عن أسباب نهوض وانهيار الدول.

من هذا المرتفع، يمكن للقائد رؤية معطيات الاستقرار على أرض بلاده السياسية، أو الأعاصير القادمة الآخذة في طريقها كل شيء.. حتى مركز قيادته.

أنا استطعتُ في الماضي أن أقف على قمة هذا المكان، وأمكنني بالتالي أن أجيب عن سؤال لماذا؟ لكنني في المقابل لم أستطع أن أستفيد من الإجابة الكنز، لأن أموراً اختلطت في تركيبتها: القضاء الإلّهي، بمكونات الشخصية.. منعت ذلك. وعندما يُضاف مُركب آخر - على خليط الموانع - هو خلائق وطرائق التفكير عند الناس في نجد، تصبح الإجابة المتفجرة على السؤال.. مؤلمة وقاتلة.. كما حدث لي!

لم أرغب (يا (حمد) أن أفرض خلاصة تجاربي ولا استنتاجاتي على (مشاري)؛ تركته يكون دولته الخيالية، وينشئ حكومته وإدارته

Twitter: @ketab_n

المفترضة، ويواجه أيامه الصعبة بعد أن يقطف أزمنة الرخاء والرفاهية.. الحُلم.

دوري اقتصر أثناء جلستنا الفكرية السياسية على إمداد (العقل الشاب) بومضات الخبرات، والاستقراءات، والاستنباطات، التي كونتُها خلال عقود نجاحي وفشلي.

ما هي نتيجة لقاءات الروحين المنكسرة والحائرة؟

الدين والتعصب المذهبي هما اللذان أقاما (دولتنا) الأولى في الدرعية، وهما اللذان - على خلاف مسار التاريخ - أعادا الحياة في الجسم الذي ظنه الكثيرون ميتاً، ليقيم دولة ثانية، فيها الكثير من ملامح الدولة السلفية الموحدة الأولى، مع اختلافات جوهرية لمن أراد التعمق في البحث والدراسة.

عاملا الحياة والبعث، لم يستقدمها (آل سعود) من خارج الأقاليم ولا من خلال فرمان الدول والكيانات الأخرى. هما كما فطن لذلك الآباء والأجداد، جزءٌ أصيل - وأهم - في تكوينات الفكر، والسلوك، والثقافة بشقيها.. في نجد. كان (ابن معمر) غير ذكي وغير موفق، عندما رفض أن يمد يده معاهداً الشيخ (محمد بن عبد الوهاب)، وإلا لكان (الآن) وأسرته هما من تُسمى عهود الحكم في مناطق واسعة من الجزيرة بلقبهم. هذا (العناد) (المعمري) تفاداه الأمير (محمد بن سعود) وهو يكتب عهد النُصرة وميثاقها مع (الشيخ)، ولعل من حُسن الطالع لبلادي - التي لم أرها منذ سنين - أن حاكم (الدرعية) لا (العيينة) هو من كان محظوظاً بقطف ثمار تحالف السيف والمصحف، لأن الطموح والتفرد والعبقرية والتوفيق نادراً أن تجتمع في شخص واحد - يورثه بالتالي لأبنائه وذريته المتأخرين - كما إنطباقية هذه الحالة على الأمير (محمد بن سعود) ومن أتى بعده من الأئمة الأعلام.

لكن التدين على الطريقة النجدية، والتعصب الشديد لأحد مذاهبه

Twitter: @ketab_n

الفقهية، كان سبباً أيضاً في سقوط الدولة الأولى، كما كان سبباً للفتن والاضطرابات التي مهدت للدولة الثانية الأقل اتساعاً وإبهاراً من الأولى.

هذا العامل الديني ذو الصبغة النجدية - والذي لا يماثله عاملٌ آخر - حولَ بلدة الدرعية إلى دولة مُهابة، بعد أن حول الدعوة الباحثة عن ناصر، إلى حركة إصلاحية بزت غيرها في عمق تأثيرها على العمل الإسلامي الحركي ومنظريه؛ لكن فهم الدين الضيق والعمل بنصوصه المبتورة عن سياقها العام، أدى في وقت لاحق إلى هدم (العاصمة) على رأس سُكانها، وإلى تحشد المحتلين الغُزاة على أرض الجزيرة لعقودٍ طويلة.

وبعد ذلك وإضافة له، استُغِلَّ هذا الإسلام النجدي في بعث دولة جديدة ثانية حاربت رموزها القيادية بعضها بعضاً، من خلال التلويح ببعض مفاهيمه، والتي يصطف السواد - عادةً - وراء رافع لوائها، ويقف موقف العداء تجاه من يتأولها بشكل آخر.

من خلال فهم هذه الخاصية واستيعاب دروس التاريخ، لابد أن يأخذ القيادي في الجزيرة العربية حذره إن حاول ترك الدافع الديني هذا، أو حاول التقليل من شأنه.. ففي ذلك مقتله، وعليه - من جهة ثانية - أن يدفع الثمن الغالي إن هو جعل إطار الدافع نفسه، هو مجال تحركه الأوحد داخلياً، أو عندما يتماس مع الخارج حسب مقياس تلك الإطارات الثابتة.

التعصب الديني في نجد، كما يفهمه النجديون ويترجمونه إلى فهمٍ للحياة وللناس، هو عندهم كلمة (كُن فيكون) إنشاء الدول، وهو السبب الذي يتجاهلونه - في الوقت نفسه - لتكالب الأمم عليهم، وإعلان الحرب على ما يظنه (الآخر) إنه خطرٌ سلفي جهادي ما بعده خطر: يزعزع دولهم، ويخل بأمنهم، وينشر الرعب والترهيب بينهم؛ وهنا تبرز

Twitter: @ketab_n

المعضلة الكبرى أمام حاكم البلاد النجدية.. وما دار في فلكها السيادي والفكري!

لا شرعية لأي حكمٍ - هناك - لا يرفع لواء الإسلام بمفهومه الضيق المتسربل بالعادات والقيم والأعراف المحلية. لكن هذه الشرعية يُصيبها الاعتلال عندما تشعر القيادة أن وقت تثبيت سارية لواء الدولة الـمُكتملة قد حان، وأن أزمان الالتفاف للمشاكل الحياتية اليومية لمن سبق وسار وراء الأعلام المتحركة المنتصرة قد أزِفَ، بدلاً من الهيجان الديني واندفاعاته الماضية؛ عندئذ - وكما هو متوقع - الويلُ للسلطان من ردات الأفعال العنيفة، التي قد تصيب القيادة في مقتل، أو حتى تُبقيها - بدلاً من إعلان العصيان الكامل عليها - خاليةً من كُلِ سندٍ شرعي، يدعمها في أوقات المحن والقلاقل الداخلية والخارجية..

كيف ستجد القيادة الفذة حلاً لهذا الإشكال؟

اتفقتُ يا (حمد) أنا و(مشاري) على أن حاكم نجد (السعودي) يتوجب عليه في مرحلة متأخرة من مراحل تكون دولته، أن يختار بين البقاء أسير شعارات ومفاهيم عصبية تأسيس الكيانات، وبين ضروريات اتخاذ المواقف التي تجعل من بلاده متسقة مع حركة تقدمية التاريخ، ومع متطلبات السلم، والتعاون، والتبادلية مع عالم ما وراء الصحراء؛ والأهم من كل هذا ألا ينظر للغير - كما تدعو لذلك ثقافة التحشد حوله - على أنه إما معه أو ضده، أو أن على (المختلف) أن يختار بين الكفر والإيمان حسب التنميط المحلي.

وهنا يا (أبا راشد) لا يداخلك الظن بأن صديق عمرك وابنه، يدعوان إلى أن يقف الحاكم في بلادي وبلادك ضد ثقافة أمته، ولا ضد ثوابت الدين وقواسمه، لأنه إن فعل ذلك فقد أعلن وفاته بنفسه، وضرب بالفأس أساس مُلكه، ما ندعو له أنا و(ابنكم) هو عملٌ خلاق تقوم به قيادة أصعب البلاد حُكماً، يتم من خلاله سحب القوى الدينية ومراكز

Twitter: @ketab_n

التأثير العقدي تجاه البناء الداخلي، بدلاً من إرسال حمم براكين الغلو نحو الجوار السياسي والاجتماعي، الذي قد يكون دولةً أو مذهباً، أو حتى تجمُعاً بشرياً إقليمياً، تُناقض أنساقه ما لدى حاكمنا (المُتخيل) وبيئته الاجتماعية.

... على جهات الإفتاء والدرس الديني - في هذا العالم الافتراضي - جعل البلاد النجدية محجةً ومنارةً للاجتهاد والعقلنة الدينيين، بدلاً من الاكتفاء بِمعين ما قاله، وكتبه، وعمل به السلف الصالح، في أزمنة مُختلفة - في ظروفها وحاجياتها وإشكالياتها - عن العصور المتأخرة التي اختصها التاريخ بأنها أكثر العصور اكتشافاً واختراعاً، وأكثرها دموية والتباساً أخلاقياً، إلى جانب امتلاء صدور المحظوظين - وغير المحظوظين - ممن يُعايشون أيامها بالأسئلة، والشكوك، والحيرة.

على الصفوة الدينية في نجد، إقامة سوق عكاظ ديني، وإعادة أزمنة الاستنارة الرشيدية والمأمونية؛ على تلك النُخب ذات السطوة والكلمات المسموعة شعبياً، محاولة إعادة الفرق الإسلامية المعروفة والباطنية، والتي يُشكل مُعتقدو أفكارها، جُزءاً - لا يُسقط - من الفسيفساء الاجتماعية - المتحولة بحكم المتغيرات والضرورة - إلى دولة لها رعايا، مختلفين في المذاهب والعادات والإرث الحضاري.. وحتى في السمات ومواقع التوطن الجغرافي، إعادتها إلى حمى المُعتقد السلفي، بالكلمة الطيبة والعمل الصالح، والقدوة الجامعة غير المُنفرة، وإن لم يكن هذا فتعايشٌ مُسالِم.

... ومع فرضية تحقق ما يظنه البعض مُحالاً، فسيظهر إشكالٌ جديد لاحق أمام القيادة التي أضع أنا (ومشاري) نفسينا محلها: ماذا لو أن مراكز التأثير الديني شاركت تلك القيادة في حكم البلاد، من خلال ما تُظهره من عدالةٍ، وتسامحٍ، وصدقٍ، وبحثٍ عن مصالح العباد

Twitter: @ketab_n

الدنيوية قبل الدينية؟ ما هو رد الفعل عندما تشعر القيادة بالخطر على سُلطتها ونفوذها في حال ظهور هكذا مُشاركة فعالة ومحسوسة؟

بالتأكيد ستكون هناك مُشكلة، وحلها سيكون أبسط، مما لو أن هذه القيادة جعلت من القوى الدينية المؤثرة، مجرد شكل من أشكال الطقوس الدينية، وقوى تُفتي وتهتم - فقط - بما يعتري النساء كل شهر، وبأحكام بلع النُخاعة في رمضان، ومقادير اختلاسات سارق الجيوب الذي يُقطع يده بعدها. بدلاً من جعل النساء يعرفن حقوقهن وواجباتهن التي فرضها الإسلام الـمُستنير، بل والتوابع التلقائية لتقاسم الجنسين - مهما كانت ديانتهما - لهذه الأرض بما عليها وفيها، وبدلاً من توعية الحاكم بحدود سُلطاته، وبدلاً من أحكام سرقة بيت المال، والاعتداء على الأملاك العامة والخاصة!

عندما يحل الحاكم كل هذه الإشكاليات مُتنازلاً عن (بعض) سلطاته من أجل المصلحة العامة، ومقتدياً - وهو يعمل ما في وسعه من أجل رخاء وأمن البلاد والعباد - بإرثه الديني؛ وبما عرفهُ ووصل إلى علِمه، من تراكمات إنسانيات دساتير العالم الجديد، وكتابات الطبقات الجديدة من مُفكري ومصلحي هذه العوالم المتقدمة، عن حقوق بني الإنسان، وعن العقد الاجتماعي داخل الدول، ومصالحها المشتركة، فإنه سيصل بسفينة حكمه وبلاده إلى شواطئ الأمان، بعد رحلة استخدمت فيها الـمُماكرة الخيرة، والقسوة الهادفة، وسياسات التوازن والممكن.

الجمود أو الصراع في (دولتنا) الدينية لن يسترعى انتباه الكيانات الإقليمية والعالمية.. في رأينا المشترك، ما لم ينشأ عاملان يساعدان على لفت الانتباه إلى ما في داخل (بيتنا) السياسي والديني: إما صدامات مسلحة مع هذه الكيانات، تدفع الـمُصدم بهم إلى رفع عصا العقاب الغليظة، وإما تفجُر ثروة طبيعية غير محسوبة ولا متوقعة داخل أراضي بلادنا القاحلة الفقيرة، يُغير من وجه البؤس الذي عُرفت به

Twitter: @ketab_n

طويلاً أصقاع الغُربان المنسية. هذا العطاء الإلّهي الذي لا يعرف (مشاري) ولا والده شكله المستقبلي ولا وظائفه ومقادير نفعه، سيجعل من (بلادنا) منطقة جذب وصراعٍ للقوى العالمية الباحثة - بجنون المستكبرين - عن الثروات الطبيعية والأسواق والأيدي العاملة الكادحة الرخيصة. وحينها لن تُترك (بلادنا) وقيادتها في حالها، سيتدخل الأقوى والطامع في شؤوننا الداخلية، مُثيراً القلاقل حيناً، ودافعاً الأقليات وأصحاب المذاهب والتجمعات السرية للثورة، وإشغال القيادة وتشتيت جهدها حيناً آخر. وتوافُقاً مع هذه الجهود الشيطانية، سيُغرق (الطامع) البلاد في الفساد الإداري وحمى الاستهلاك وتطلعات جمع المال والاقتناء، على حساب سواد الأمة وفقرائها؛ وسيُغري بشكل مباشر - وغير مباشر - أبناء السلطة والمحيطين بهم والمنتفعين من نفوذهم، لأن يفرضوا خواتهم واحتكاراتهم التجارية، وسيترتب على ذلك بكل تأكيد تقليل فُرص ارتزاق صغار التجار وأصحاب المهن البسيطة، في مقابل بزوغ نجم طبقات السماسرة والوسطاء والانتهازيين، ولا يُستبعد - وقتها - تلاقي أهداف الـمُستكبرين التغييرية، مع أهداف أهل العنف الديني السياسي المختلفة في شكلها والـمُتفقة في مضمونها، وبالتالي ستدفع الأمة - كلها - أثماناً غالية عاجلاً أم آجلاً.

النتيجة؟!

سينشأ - في رأي مُكاتبكم وابنه - وضعٌ سياسي جديد:

بعد تململ الداخل، وزوال الاحترام والهيبة بين الراعي والرعية؛ وبعد سقوط ميزان القسط من يد الحاكم الفاقد للأهلية الأخلاقية، ستندفع إلى سطح الأحداث تغيُرات عنيفة وفتن عظيمة، يتدخل بعدها (المتكبرون) بحجة إعادة النظام والاستقرار، وحماية الأقليات والحريات المذهبية، ونشر معاييرهم السياسية والأخلاقية.

هذه التوقعات يا (أبا راشد) لن تكون ضرباً من الخيال، فمثالي

Twitter: @ketab_n

تاريخ (بني عثمان) العظيم، ومشروع (محمد علي) الفذ، خير دليل على صدقية توقعات لاجئ بكة!

ألم تدفع - مثلاً - القوى الكبرى المنضوين إلى الجمعيات السرية، والانفصاليين في أقاليم الدولة العثمانية، إلى إعلان العصيان والمطالبة بالاستقلال من مركز الخلافة المهابة، التي لم يكن أحدٌ (في الماضي) يتجرأ على إزعاج بِغالِها وهي ترعى آمنة؟!

ألم تُفقد القوى ذاتها ثقة السلاطين العثمانيين بأنفسهم، وبقدرة بلادهم على المناجزة والمقاومة، حتى أصبحوا يتمثلون في لباسهم وهيئاتهم وطرق عيشهم المختلفة بملوك الإفرنج الـمُتغلبين؟

ألم يفرض (المستكبرون) على الخلافة العثمانية المتأخرة شراء أسلحة عتيقة لا تُستعمل؟ وأجبروا دولة (محمد علي) على تخفيض أعداد جيشها القوي المتحفز؟ أكان صعباً ملاحظة إيحاء مراكز التأثير العالمي (للآستانة) بأن تدخل في حربٍ عبثية من جهة، وتساعد - من جهة أخرى - أعداءها السابقين في غزواتهم وأطماعهم، التي كانت تقتاتُ أصلاً من جسم الخلافة الضخم.. القديم؟

من هيأ الظروف لاندلاع الحروب بين (القاهرة) و(إسطنبول).. خُلفاء الأمس، الذين (كانوا) يرفعون راية الإسلام في البنادر والبحار؟

الإجابة على كل الأسئلة السابقة لا تحتاج لكثير عناء. وتكرار التجارب التاريخية وإن اختلفت الظروف، والملابسات، وأسماء الدول، وشخوص أصحاب الكراسي، لا يشك أهل النُهى بحدوثها، عندما تبرز حوافز عوامل التكرارية التاريخية مرةً أخرى، وبشكل سريع لا يخطر على بال أحدٍ.. سوى العقلاء!

الـمُضحك في الأمر، أنني رأيتُ في عيني (مشاري) وهو يتفق معي على واقعية عودة مياه نهر التاريخ إلى المنبع، ذاك السؤال المنطقي القائل: لِمَ لا يستفيد الناس من التاريخ وأحداثه؟

Twitter: @ketab_n

... السؤال في صيغة جديدة ومحددة:

أكان صعباً على (خالد بن سعود) أن يتعلم مما قرأه وشاهده، حتى لا يضيع سلطانه، الذي تقزم حتى أصبح منزلاً تتقاسم الزواحف - مع ساكنيه - مساحته الضيقة؟!

كانت نظرات (مشاري) يا (حمد) تلسعُني، قبل أن تعود إلى حدبها وسلامها؛ ولم أكن أجزع - بعد أن تهدأ وخزات العيون العابرة - من تلك النظرات المشروعة، المتناسبة مع عقلٍ تتنازعه الشفقة، والحيرة المؤسسة على عمليات ذهنية لا يكل ولا يمل نشاطها. فأنا - شخصياً - أُبحـــر داخل نفسي من حينٍ لآخر، مُتعجباً كيف أنني لم أُحسنْ إدارة الأحداث حتى تصب نتائجها في مصلحتي، خاصة وأن دروساً مُكثفة وثقة في النفس عظيمة، سبقت ولوجي داخل عين عاصفة الوقائع (الأمامية)؟

وعندما لا أجد إجابات قاطعة شافية، أحيل الأمر إلى القضاء والقدر وسوء حظ ممن افتقد علمي وخسر تطلعاتي!!

آه يا (حمد)..! بينما أجلس و(مشاري) العليل، لنرسم سوياً خطوط لوحة (المدينة الفاضلة) وما فيها من رُعاة ورعية، يُنجز (فيصل بن تركي) عمله الذي بدأه منذ زمن طويل دون أن يُعير انتباهاً للحدود الفاصلة بين ما هو معقول وغير معقول.. بين فنون الحكم والقيادة كما كُتبتْ في المؤلفات الصماء، وبين الحقائق على أرض الواقع السياسي والاجتماعي (لدولته) السعودية الثانية.. بين حُلم تأسيس عالمية دولة النقاء والتبتل الدينيين أبان الطور الأول، وبين شرعية الكيان السلطوي الوريث الذي يمزج الـمُلك بالدين.

وبالرغم من الفشل الظاهر لثرثاري مكة، ونجاح محارب الرياض الدائم، إلا أن ما يتسرب إلى أذن المهتمين بشأن (الدولة) الثانية، حول خلافات داخل جيل القيادة اللاحق وفقدان السيطرة، يُعطي إثباتاً بأن كل

Twitter: @ketab_n

ما نقوله أنا و(مشاري) ليس ضرباً من الخيال، وبأن كل ما يصنعه (ابن تركي) من نجاحات، ليس بذاك التمكن والاستمرار، كما يظهرُ للعيان غير الـمُلِم بصيرورة التاريخ.

. . . وبعيداً عما حدث في الأمس، وما سيحدث غداً، مروراً بحاضر الوقائع، اتفقتُ أنا و(مشاري) على أن حاكم الأجزاء الواسعة من جزيرة العرب - والذي لابد أن يكون من (الأسرة) التي وكأنها خُلقتْ لتصنع فقط تاريخ الجزيرة المعاصر والحديث بكل ما له وعليه - أن يُمزج إن هو أراد النجاح: بين الإسلام المستنير غير الـمُفرط في الهويات وخصوصيات الجذور، وبين الشعور بالعجز والتخلف الذي عايشته أوروبا في عصور ماضية، والمتحول بعد الاعتراف بضخامة العوائق وتأصُلِها في داخل المجتمعات البيضاء، إلى (ثورة) على أضداد العلم والمعرفة بـمُطلقها.

على الحاكم - الذي لا يهم اسمه - ألا يستدعى إسلامه الـمُفصل محلياً والمتخاصم - جهلاً - مع المقاصد الخيرة للشريعة، كلما خاف من التقدم والتحضر ومتطلباتهما العميقة الأثر؛ وعليه كذلك ألا يستدعى ثقافة (الآخرين) وواقعهم الـمُغاير، كلما فزِعَ من تطلع الإسلام الـمُعقلن، والمسلمين الأحرار، نحو سيادة الحكم الصالح.

. . . أكُنا يا (حمد) أنا (والابن) مُغالين في تصوراتنا ورؤانا، ونحن نتحدث عن مجتمع تعرفه ونعرفه؟

كِلانا - كما يبدو - يبتسم من الألم. . وفي ذلك إجابة. . وأي إجابة!

ما أقسى قلبي يا (حمد) وأنا أكتب عن الابتسام، والبلاء والحزن يعرضان أنفسهما لـ(أخيك) صباح مساء!

كيف جاز لي أن أُفرغ اليراع حتى يُسهب في تقديم نماذج الحكام والمحكومين، مروراً بمذاهب (الـحُسن السياسي)، وأخواتها المسماة:

Twitter: @ketab_n

أحلام المدن الخيرة وسكانها الأفاضل؟ كيف جاز لي ذلك وتلك الزوايا التي (كان) يعيش فيها (مشاري) لا تزال تحتفظ بحرارة الجسد المريض والروح الـمُعذبة؟

ألا يكفي هذا الألم في النفس حتى استدعى شقاء الأولين والمتأخرين؟ ألا ما أقسى أطماعنا الأرضية الراغبة في الاستحواذ، حتى على كرب الآخرين وبؤسهم.. فقط للتندر بها بحجة العبرة والمثال!!

أخي (حمد)

قبل موته بيومين أغدق (مشاري) على أبيه أنواعاً كثيرة من الحنو والرعاية، وكأنما لم تكفه ليالٍ طويلة سابقة، يظلُ فيها ساهراً يتحسس أنفاس (حبيبه) الملتهبة، وجبهته الناضحة بالعرق. كنت أسمعه يا (أخي) وأنا بين اهتزازات الحمى وتمرجُحات يقظتها ومنامتها، وهو يتمتم بأدعية مختارة، وعندما تُعييه شدة المناجاة لرب الأكوان الذي كل يوم هو في شأن، يروح يهمس في أذني المليئة بالطنين: (لمن تتركني يا "غريب"..فما بعدك من مُقام؟!)

بنفس تلك الكلمات المليئة بالغيظ من الدنيا وأحكامها، وبنفس طبقات الهمس في الأذن، كُنت أُعاود محاولات استجداء ما تبقى من شفقة عند الزمن الموحش، كلما أخذ (مشاري) مكاني في فراش المرض، وكأنما نحن الاثنين في تبادلية معاشرة لا تنتهي، مع أسقام الأجساد وانكسارات الأرواح.

... لكن الساعات القليلة لما تبقى من ليل الرحيل الأخير، مرت دون أن أُمارس دور الراقي الفاشل؛ لم أستطع - أنا المكلوم - أن أُعيد تلك المحاولات الساذجة، فلن يُلبي - وهو العليل جداً - نداءاتي المبحوحة، ولا أنا قادرٌ على أن أنظر في وجه الفتى الجميل وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة.

Twitter: @ketab_n

انحشرتُ في زاوية من زوايا الغرفة المظلمة الـمُعبقة برائحة الموت، مُبتعداً عن الجسد الواهن الممدود، لئلا تؤدي صحوة موت مفاجئة، لسماع صوت فواصل بكائي ونشيجي.. لكن صحوة (الغريب الصغير) حدثت!

..ثم سمعتُ إرتعاشات صوته القائل: (أبي:.. اقترب.. هناك ما يُقال).

اقتربتُ نحوه مكفكفاً آخر الدموع بِكُم ثوبي.. انحنيتُ عليه واضعاً أذني قدر ما أستطيع، عند منتصف شفاهه الزرقاء.. وبعد ذلك أنصتُ لكلمتين: (إني اعتذر..!!)

عن ماذا يريد الفتى أن يعتذر؟ من يعتذر لمن؟!

أنا الذي أعتذر له.. أنا أحد أسباب مجيئه لهذا العناء.. أنا السبب في رحلته القصيرة الدنيوية.. أنا خيباته الكبرى.. أنا مشروع أبٍ أبت الأيام اكتماله؛ أنا أعتذر منك يا (مشاري) عن أحكام التاريخ القاسية في حق من تُحب. وعن كتاب الهزائم والاغتراب والبؤس، وعن تلك اللوائح لوفيات الأهل والأحلام.. والدول!

... صدقت فتايَ الجميل: (ما بعدُكَ من مُقام).

كتبها الآمل برحمة ربه

(خالد السعود)

في اليوم الأخير من شهر ذي القعدة لسنة 1277هـ

حُمِلَ جثمان (الأفندي خالد) إلى الحرم - حيث سيُصلى عليه - أربعة من رجال درك نظامية الشاهانية؛ ومن خلفهم سار قائداهما (موسى عبده) و(أبو الفرج أديب) وجمعٌ من المسلمين.

... وبعد الصلاة مال نائب نظامية الدرك على رئيسه قائلاً: (من حق من أثار في قلوبنا اللوعة، أن نُعلن بصوتٍ عالٍ بين صفوف

Twitter: @ketab_n

المصلين وقبل أن يذهب كل واحد إلى حال سبيله، عن شخصية المتوفى، لعل أحداً في الموسم يتعرف على (المرحوم الأفندي)، ويكسب أجر الدعاء الأخير له؛ ويُريحنا في الوقت ذاته، عندما يأخذ بواقي حاجيات منزل "أبو طنة".. التعس).

وافق (موسى عبده) على اقتراح نائبه، وما هي إلا لحظات حتى وقف (أبو الفرج) صائحاً بين الحِجر والمقام:

(لقد صُلِّي قبل قليل على النجدي.. المدعو خالد بن سعود بن عبد العزيز بن محمد بن سعود.. كبير الوهابيين.. من يعرف الميت منكم فليتقدم وله الأجر).

... ولم يتقدم أحد

* * *

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

تنويه

لمزيد من التدقيق وصدقية المعلومة التاريخية الواردة في هذه الرواية، التي للجانب المتخيل مكانة كبيرة في بنائها تمت الاستعانة بقائمة الكتب التالية، مع الإشارة إلى أن المؤلف لم يتقيد في فهرسة المراجع بالترتيب الأبجدي لأسماء المؤلفين وعناوين الكتب:

1. محمد بن عبد الوهاب والوهابية: د. قدري قلعجي.
2. خصائص وصفات المجتمع الوهابي ـ السعودي "بحث سوسيولوجي انتربولوجيا" : د.انور عبد الله
3. مجتمع الدرعية في عهد الدولة السعودية الأولى: د. عبد الله بن محمد المطوع.
4. تاريخ المملكة العربية السعودية (الجزء الأول): د. عبد الله صالح العثيمين.
5. عنوان المجد في تاريخ نجد (جزءين): الشيخ/ عثمان بن عبد الله بن بشير.
6. الدعوة الوهابية وأثرها في الفكر الاسلامي الحديث: د. محمد كامل ظاهر.

Twitter: @ketab_n

7. الدرعية: عبد الله بن محمد بن خميس.
8. نبذة تاريخية عن نجد: الأمير/ ضاري بن فهيد الرشيد.
9. الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الدولة السعودية الثانية: حصة بنت جمعان الزهراني.
10. تاريخ العربية السعودية: اليكس فاسيليف.
11. البدو والوهابيين: جون لويس بوركهارد.
12. تاريخ نجد ودعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب السلفية: سنت جون فيلبي.
13. تاريخ الدولة السعودية الثانية: د. عبد الفتاح حسن أبو علية.
14. أضواء على تاريخ الجزيرة العربية الحديثة: محمد بن احمد العقيلي
15. مثير الوجد في انساب نجد: راشد بنعلي بن جريس الحنبلي.
16. العلاقات بين الدولة السعودية الأولي والكويت: د. عبد الله صالح العثيمين.
17. قراءة في دراسات عن إمارة آل رشيد: د. عبد الله صالح العثيمين.
18. ال سعود: احمد علبي.
19. التاريخ السعودي الحديث والمعاصر حتى نهاية القرن العشرين: د. سعد بدير الحلواني / محمد جمعان الغامدي.
20. تاريخ نجد: الشيخ/ حسين بن غنام.
21. تاريخ نجد الحديث: امين الريحاني.
22. قراءة في كتابات عن تاريخ الوطن: د.عبد الله بن صالح العثيمين.
23. ملوك الجزيرة: عمر المدني.
24. تاريخ المملكة العربية السعودية الحديث والمعاصر: د. مفيد الزيدي.

Twitter: @ketab_n

25. الإمام تركي بن عبد الله بطل نجد ومحررها ومؤسس الدولة السعودية الثانية: د. منير العجلاني.

26. عهد عبد الله بن سعود ونهاية الدولة السعودية الأولى: د. منير العجلاني.

27. تحفة المشتاق في أخبار نجد والحجاز والعراق: عبد الله بن محمد البسام.

28. العثمانيون وآل سعود في الارشيف العثماني: د. زكريا قورشون.

29. نجد والحجاز في الوثائق العثمانية: سنان معروف أغلو.

30. قصر الحكم في الرياض: عبد الرحمن سليمان الرويشد.

31. حكام مكة: جيرالد دو غوري.

32. التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم (4 أجزاء): محمد طاهر الكردي الملكي.

33. تاريخ مكة (جزءين): احمد السباعي.

34. كتاب التوحيد: الشيخ/ محمد بن عبد الوهاب.

35. كشف الشبهات: الشيخ/ عبد الرحمن بن حسن الجبرتي.

36. تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار: الشيخ/ عبد الرحمن بن حسن الجبرتي.

37. المقدمة: ابن خلدون.

38. منطق بن خلدون في ضوء حضارته وشخصيته: د. علي الوردي.

39. الاطلس التاريخي للمملكة العربية السعودية: دارة الملك عبد العزيز

40. وثائق عثمانية برقم 363/ 366/ 379/ 381/ 416/ 507/ 519/ 595: مستخرجة من قاعدة معلومات الوثائقية التاريخية لدارة الملك عبد العزيز بالمملكة العربية السعودية.

Twitter: @ketab_n

41. دور الحامية العثمانية في تاريخ مصر: د. عفاف مسعد السيد العبد.
42. تاريخ مصر من عهد المماليك الى نهاية حكم اسماعيل: جورج يانج، ترجمة: علي أحمد شكري.
43. تاريخ مصر من محمد علي إلى العصر الحديث: محمد صبري.
44. الملحمة المصرية ـ عصر المماليك الجراكسة وردّ الاعتبار في عهد برسباي: د. محمد عبد الغني الاشقر.
45. موسوعة وصف مصر: علماء الحملة الفرنسية، ترجمة: منى الشايب.
46. القاهرة وضواحيها: دي فوجاني، ترجمة: مدحت عايد فهمي.
47. احياء القاهرة المحروسة: عباس الطرابيلي.
48. شوارع لها تاريخ: عباس الطرابيلي.
49. خانقاوات الصوفية في مصر في العصرين الايوبي والمملوكي: عاصم محمد رزق.
50. الادب الصوفي في مصر: د. علي صافي حسين.
51. الاصول الفكرية للحملة الفرنسية على مصر: هنري لويس، ترجمة: بشير السباعي.
52. اصول التاريخ العثماني: احمد عبد الرحيم مصطفى.
53. الدولة العثمانية في التاريخ الاسلامي الحديث: اسماعيل احمد ياغي.
54. الدولة العثمانية . عوامل النهضة وأسباب السقوط: علي محمد الصلابي.
55. المنح الرحمانية في الدولة العثمانية: محمد بن أبي السرور البكر الصديقي.

Twitter: @ketab_n

56. عصر سلاطين المماليك: د. قاسم عبده قاسم.
57. محمد علي الكبير: محمد رضوان.
58. عصر محمد علي: عبد الرحمن الرافعي.
59. مصر في عهد محمد علي: عفاف لطفي السيد مارسو.
60. مدارات صوفية: هادي العلوي.
61. اخبار سقوط غرناطة: واشنطن ايرفنغ، ترجمة: هاني يحيى نصري.

Twitter: @ketab_n

بطل هذه الـرواية ليس شـاهداً عادياً على عصـره، إنه جزءٌ أصيل من تلك العصور التي انهارت فيها دول وتوارت فـيـهـا دعـوات وحركات إصلاحـية، ومن الغرابة أن (البطل الشـاهد) كـان لاعـبـاً رئيـسياً في لـعبة عـودة (بعض) تلك الدول والحركات للحـياة مرة أخـرى، ومن أجل هذه الرجـعـات التي دُفع إلى ملعـبهـا دفعـاً، فقـد (البطل الشـاهد) الآمال والأحـبة.. والسمعة.

هذه الرواية فـيـهـا الكثـيـر من أخـبار فـواجع وغرائب الأمم، أمـا بكائيـات شـخـوصـهـا وكـربهم فستجـدها في بداياتها ونهاياتها.. وما بينهما!

ISBN 9953-71-122-4
9 789953 711225